د. رمسيس عوض

الهرطقة في الغرب





د. رمسيس عوض

الهرطقة في الغرب



١٨ ش ، ضريح سعد –
القصر العيني ، القاهرة
جمهورية مصر العربية



الطبعة الاولى ١٩٩٧

المحتويات

المقدمة 7

الجزء الأول

الفصل الأول

الهرطقة حتى مجمع نيقية ٣٢٥ م 17

الفصل الثاني

من مجمع نيقية حتى مجمع خلقيدونية ٤٥١ 77

الفصل الثالث

هرطقات فردية وجماعية بعد مجمع
خلقيدونيا حتى بداية القرن الثاني عشر 97

الجزء الثاني

تمهيد 102

الفصل الأول

ابرز الهرطقات في أوروبا في القرن الحادي عشر 107

الفصل الثاني

ابرز الهرطقات في أرورباً في القرن الثاني عشر
و أوائل القرن الثالث عشر 119

الفصل الثالث

اضطهاد اليهود في الغرب المسيحي 167

الجزء الثالث

محاكمة فرسان هيكل سليمان 175

المقدمة

الهرطقة heresy كلمة أغريقية الأصل غامضة معناها الخروج على مجموعة الأفكار الدينية التى يؤمن بها السواد الأعظم من الناس فى مجتمع ما وزمن ما . وهرطقة اليوم إذا ذاعت واتسع نطاقها وآمن بها أغلبية الناس أصبحت عقيدة الغد كما هو الحال مع الدين المسيحى . ومن ثم فإن الهدف من الكتاب الراهن هو الدعوة إلى السماحة والاستنارة وحرية الرأى والعقيدة وعدم اضطهاد أى إنسان أو التنكيل به بسبب معتقداته سواء كانت دينية أم غير دينية .

ورغم أننا الآن نستخدم كلمة هرطقة على نحو بغيض ومقيت فإن هذه الكلمة فى حد ذاتها ومن الناحية الموضوعية ليست بالضرورة كذلك . هذا ما يؤكده الأنبا غريغوريوس فى كتابه «علم اللاهوت المقارن» وهذا ما حدا بعض الباحثين إلى تعريف الهرطقة بأنهارأى الأقلية التى تدمغه أغلبية قادرة على عقاب هذه الأقلية الخارجة عنها (وهو تعريف ينطوى على قدر واضح من السخرية) . وليس أدل على ذلك من أن أى مرجع يتناول تاريخ الهرطقة فى الغرب لابد وأن يعرض لنشأة البروتستانتية وحركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر . فالبروتستانتية كانت ولا تزال تعتبر هرطقة من وجهة النظر الكاثوليكية . ومما ينم عن غموض حركة الهرطقة أن المجتمعات الوثنية التى تؤمن بتعدد الآلهة تعتبر التوحيد هرطقة تستوجب العقاب ، فى حين أن العالم بعد أن عرف الأديان السماوية يعتبر أن الهرطقة هى الايمان بتعدد الآلهة .

والموضوع ليس معقدا وشائكا فحسب بل إن العواطف المشحونة تحيط به . ولهذا فسوف نعرض بقدر ما نستطيع لقصة الهرطقة فى الغرب على نحو موضوعى بتسجيل الظاهرة دون الحكم لها أو عليها ، وسوف نترك للقارئ تحديد موقفه منها . والجدير بالذكر أن كثيرا من الهرطقات نشأ فى الشرق ثم انتقل إلى الغرب . ولاغرو فقد ظلت الكنيستان الغربية والشرقية متحدتين لقرون متصلة . ورغم أنه لا يوجد تاريخ محدد لانفصال الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية عن الكنيسة الغربية فى روما فإن الباحثين يميلون إلى الاعتقاد بأن انفصال الكنيسة الأرثوذكسية عن الكنيسة الكاثوليكية كان بشكل نهائى عام ١٠٥٤ ميلادية ، وهو الوقت نفسه الذى شاهد تزايد تمتع بابوات روما بالسلطة

الزمنية . وسوف أعنى فى الجزء الأول من الكتاب الراهن بتتبع الهرطقات تتبعاً زمنياً كما سوف أعنى فى الجزء التالى منه باستقصاء معاملة الكنيسة الكاثوليكية للخارجين عليها . ومعنى ذلك أن الجزء الأول سوف ينصرف إلى تتبع الجريمة فى حين ينصرف الجزء الثانى إلى استقصاء العقاب .

ولا مناص من أن أذكر فى هذه المقدمة ضرورة اعترافى بأن هدفى الأصلى من وراء الكتاب الراهن لم يكن الخوض فى موضوع الهرطقات . بل كان مجرد محاولة من جانبى لاستقصاء تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فى التنكيل بمعارضيها والمخالفين لها فى الرأى . ولكن ألفيت نفسى دون أن أقصد أتوفر على دراسة الهرطقة كتمهيد طبيعى لموضوعى الأصلى وهو الاضطهاد الدينى فى الغرب . وكاد التعقيد المحيط بهذه الدراسة أن يصيبنى بالقنوط ويثنينى عن استكمالها . ولكن لشد ما وجدتها دراسة مشوقة . فضلا عن أن طبيعتى الأكاديمية المثابرة دفعتنى إلى المضى قدما فيها .

وإذا كان لهذه الدراسة أية فائدة فهى اثبات بديهية تغيب فى العادة عن أذهاننا بسبب الجهل والتعصب والمرض الذى بنفوسنا . وهى أن الأديان فى حد ذاتها (وأنا على يقين بالنسبة للدين المسيحى) لاتدعو إلى الترويع والارهاب طالما أن القائمين بأمرها لا يتمتعون بأية سلطة زمنية . وإنى لأشعر بالفخر لأن الكنيسة القبطية (باستثناء حالات فردية وقليلة للغاية سوف أتناولها فى تذييل أختم به هذا الكتاب) لم تمارس قط ما مارسته الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب من فظائع وبشاعات ، لسبب بسيط أنها لم تكن فى يوم من الأيام نظاماثيوقراطيا يجمع بين الدين والدولة . حتى الكنيسة الكاثوليكية فى عصورها الباكرة أظهرت السماحة ورحابة الصدر فى معاملة المناهضين لها والخارجين عنها ولم تكشر عن أنيابها إلا بعد أن أمسكت بزمام السلطة الزمنية .

***

ليس من شك أن فصل الدين عن الدولة الرومانية فى القرون الأولى من نشأة المسيحية وقاها من التورط فى ممارسات القمع والتنكيل بمعارضيها والمنشقين عليها . لقد كانت القرون الأولى تمور بمختلف البدع و الهرطقات دون أن يدور بخلد أحد أن يتدخل لقمعها بالقوة . وحتى إذا عنَّ له ذلك فلم يكن رجال الكنيسة آنذاك لديهم أية سلطة زمنية تسمح لهم باستخدام العنف . وليس فى ذلك أية غرابة فقد كانت المسيحية نفسها فى موقف المدافع عن نفسها وتتعرض لشتى صنوف الخسف والاضطهاد . ولعل من نعم الله أن الكنيسة القبطية ظلت منذ نشأتها حتى الآن لا تتمتع بأى سلطان زمنى . حتى الكنيسة الغربية فى بادئ الأمر لم تعرف النظام البابوى وماصاحبه من استبداد . إن روما كما سوف نرى كانت تستقبل المهرطقين من كل حدب وصوب أمثال مارسيون وفالنتينوس وجاستن والمونتانيين وتوفر لهم الأمان وتستمع إليهم وتسمح لهم بالترويج لأفكارهم . ومما يؤسف له أن الكنيسة الغربية حادت عن طريق السماحة القويم عندما بدأت أسباب السلطة الزمنية تتوفر لها . فالسلطة الزمنية هى التى تغرى صاحبها بالاستبداد والحكم المطلق والديكتاتورية واستخدام أساليب البطش مع معارضيها .

ومن نافلة القول إن العلاقة بين الكنيستين الشرقية والغربية لم تكن دائما على ما يرام فقد اعتراها التوتر منذ البداية . ويدل الخلاف الذى احتدم بين الكنائس الشرقية وكنيسة روما الغربية حول تحديد تاريخ عيد الفصح على مدى السماحة والليبرالية التى تميزت بها الكنيسة المسيحية فى سنوات التكوين . فقد درجت الكنائس الآسيوية على تحديد موعد عيد القيامة بالرابع من الشهر اليهودى نيسان (إبريل) دون الالتفات إلى موقع هذا اليوم من الأسبوع ، بمعنى أنها لم تجد غضاضة فى الاحتفال بعيد القيامة فى غير أيام الاحاد . فى حين أن الكنيسة الغربية اعتادت أن تحتفل بعيد القيامة فى يوم الأحد التالى مباشرة للرابع عشر من نيسان .

وهناك دلائل على أن هذا الخلاف بين الكنيستين قديم ويرجع إلى عام ١٥٥ م . فقد أراد فيكتور (أسقف روما فى الفترة بين عامى ١٨٨ و ١٩٩ م) إرغام الكنائس الآسيوية على الخضوع لكنيسة روما كى توحد موعد عيد القيامة وعلى قبول التاريخ الذى حددته الكنيسة الغربية له . ولكن الكنائس الآسيوية رفضت ذلك وأصرت على الاستقلال . فلجأ الأسقف فيكتور إلى تكفير كل الكنائس الآسيوية واتهامها بالهرطقة وأمر بطردها جميعاً من حظيرة المسيحية . وكان هذا أول قرار كنسى غاشم ترتكبه كنيسة روما على هذا النطاق الجماعى الواسع ضد المخالفين لها فى الرأى من المسيحيين . لقد كان الحرمان الكنسى فيما قبل قاصرا على بعض الحالات الفردية . أما هذا الحرمان الكنسى الجماعى فكان ظاهرة غير مسبوقة فى كل تاريخ الكنيسة الأمر الذى صدم مشاعر المسيحيين فى الشرق والغرب معا صدمة مروعة . ويقول جون لوريمر فى كتابه « تاريخ الكنيسة » إن إيريناوس Irenaeus توسط فى النزاع القائم بين فكتور أسقف كنيسة روما وبين أساقفة الكنائس الشرقية المعارضة وإنه من المحتمل أنه سحب قراره . وعلى أية حال سواء كان فكتور قد سحب قراره أم لا فإن الكنائس الآسيوية لم تتزحزح عن موقفها قيد أنملة وظلت على هذا الموقف حتى انعقاد مجمع نيقية فى ٣٢٥م حيث وافقت الكنيسة الشرقية على قبول التاريخ الذى حددته كنيسة روما موعدا لعيد القيامة . وهكذا أصبحت جميع الكنائس شرقاً وغرباً تحتفل بعيد القيامة يوم الأحد . وهذا دليل واضح على أن الكنيسة الغربية لم تعرف السلطة البابوية فى عصورها الباكرة . ورغم اتفاق الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية على الأحد كيوم العيد فقد ظلت هناك فروق بين هاتين الكنيستين فى تحديد التاريخ بسبب إختلاف التقويم الشرقى عن التقويم الغربى .

***

ونذكر فى ختام هذا التصدير أن المروق على معتقدات الجماعة سواء كانت دينية أم غير دينية قديم قدم المجتمعات الانسانية نفسها . ويذهب الدارسون وفقهاء القانون إلى أن هذا المروق مر بأربع مراحل متتالية : المروق على القبيلة ثم المؤسسات الدينية ثم الدولة وأخيرا المروق على المجتمع . فالهرطقة أو المروق إذن لا يقتصر على الدين وحده رغم أنه ارتبط فى أذهان الناس بالدين . فضلاً عن أن أشكال المروق المختلفة تتداخل فى كثير من الأحوال مثل المروق السياسى المتمثل فى خيانة الجماعة .

وتعريض أمنها للخطر . والبذاءة فى التعبير هى أيضاً نوع من الخروج على الجماعة وأعرافها . وعلى الصعيد الشخصى يتخذ المروق شكل التحقير المكتوب للأفراد . ويعرف هذا فى لغة القانون بالقذف أو السب . وتعتبر سائر المجتمعات الانسانية جميع هذه التصرفات مروقا يستحق العقاب بشكل أو آخر . وتلجأ الجماعات إلى عقاب المارقين عليها بصورة غير رسمية عن طريق ممارسة الضغوط المتصلة بالأعراف والعادات والتقليد أو بصورة رسمية عن طريق تنفيذ مواد القانون

على أن الأمر يزداد تعقيداً عندما يذهب بعض المحدثين إلى أن العهد القديم يحتوى على بذاءات لو وردت فى كتاب آخر لاعتبرت ضرباً من ضروب الهرطقة التى لاتليق . ففى الاصحاح الثانى من سفر ملاخى نسمع صوت الله يهدد الكهنة عديمى الايمان بأن يدعك وجوههم بوسخ الانسان : « والآن إليكم هذه الوصية أيها الكهنة . . . ها أنا أمد الفرث على وجوهكم .»(آية ٣) . ونحن نرى الرب فى الاصحاح الرابع من سفر حزقيال يأمر هذا النبى بصنع الخبز من وسخ الإنسان قائلا :« على الجزء الذى يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم .» فلما احتج النبى حزقيال بقوله : « آه ياسيد الرب . ها نفسى لم تتنجس . ومن صباى حتى الآن لم آكل ميتة أو فريسة ولادخل فمى لحم نجس ، يأذن له الرب بصنع خبزه من خثى الحيوان بدلا من وسخ الإنسان قائلا له : « قد جعلت لك خثى البقر بدل خرء الإنسان فتصنع خبزك عليه .»

وهناك إشارات جنسية صارخة فى « نشيد الأنشاد» منسوبة إلى الملك سليمان منها قول هذا الحكيم : « حبيبى مد يده من الكوة فأنت عليه احشائى » (النشيد الخامس آية ٤) . ويميل أحبار اليهود إلى تفسير مثل هذه الآيات على نحو رمزى يدل على مدى الحب العميق الذى يحمله الرب لاسرائيل . ثم حذا رجال الكنيسة المسيحية حذوهم فى تفسيرها بأنها رموز دالة على هيام السيد المسيح بكنيسته . ولكن علماء الأنثروبولوجيا يميلون إلى الاعتقاد بأن لمثل هذه الاشارات والصور الجنسية علاقة بطقوس الخصب والتكاثر التى كانت المجتمعات البدائية تمارسها والتى تركت بصماتها على الدينين اليهودى والمسيحى . وعلى أية حال يخلق بنا أن نذكر أن هذين الدينين يسمحان للمتصوفين حتى يومنا الراهن باستخدام هذه اللغة الجنسية الصارخة .

* * *

الاشارات إلى الهرطقة والتجديف فى العهدين القديم والجديد كثيرة . ففى رسالة بولس إلى أهل غلاطية (الاصحاح الخامس الآيتان ١٩ و ٢٠) نرى أن البدع أى الهرطقات ترتبط بدنس الجسد وكافة الافعال الشريرة : «وأعمال الجسد ظاهرة التى هى زنا ، نجاسة ، دعارة ، عبادة الأوثان ، سحر ، عداوة ، خصام ، غيرة سخط ، تحزبات ، شقاق ، بدع . . .إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله . » ويروى لنا الأنبا غريغوريوس فى كتابه «علم اللاهوت المقارن» قصة تدل على مدى استبشاع القديس أنبا أغاثون لتهمة الهرطقة . فقد كان هذا القديس على استعداد لأن يتحمل سائر أنواع الإهانات والسباب ولكنه لا يستطيع أن يتحمل توجيه تهمة الهرطقة إليه .

قلنا إن الإنسانية درجت على ربط الهرطقة - ناهيك بالتجديف - بالعقيدة الدينية بالذات . ورغم أن الألفاظ والمترادفات العربية الدالة على الانشقاق والمروق الدينى كثيرة فإنها تفتقد الوضوح والجلاء . فلا أحد يعرف على وجه التحديد الفرق بين الهرطقة والبدعة والتجديف والزندقة والكفر إلخ .فى حين أن اللغة الانجليزية تستخدم المقابل لبعض هذه الألفاظ بدرجات أكبر من التحديد والوضوح . فالهرطقة (أى البدعة) وهى ترجمة لكلمة heresy أسوا أنواع المروق على الدين . ويليها التجديف وهو ترجمة لكلمة blasphemy في حين يظل تدنيس المقدسات أو انتهاك حرمتها - وهو ما يعرف فى الانجليزية بكلمة profanity أهونها شأنا . وجميع هذه المعانى تقع تحت طائلة قوانين الكنيسة والدولة ولكن بدرجات متفاوتة . فالمؤسسات الدينية أو الدولة قد تتسامح مع الوقاحة العارضة أو العابرة ضد المعتقدات الدينية السائدة أى أنها قد تسامح مع ال profanity أو تدنيس المقدسات وانتهاك حرمتها . ولكنها تظهر قدرا أقل من التسامح مع التجديف ولا تظهر أى تسامح مع الهرطقة أو البدعة . ورغم هذا فنحن نرى فى بعض الأحيان الحاكم - وليس الكنيسة أو المؤسسة الدينية - تظهر قدرا ملحوظا من التسامح مع المجدفين . فقد ذكر عن الامبراطور الرومانى تيبريوس Tiberius قوله فى القرن الأول الميلادى إن الجرائم التى يقترفها المواطن فى حق الآلهة مسألة تخص الآلهة وحدها . ومعنى هذا أنها (أى الآلهة) هى الكفيلة بمعاقبته . فى حين أن هذا الامبراطور الطاغية هدد بالتعذيب حتى الموت أى مواطن رومانى تسول له نفسه المروق على سلطته كحاكم أو التشكيك فى ألوهيته * * *

وحتى قبل ظهور المسيحية اتهم الاغريق عددا من فلاسفتهم وأدبائهم ومفكريهم بالهرطقة نذكر منهم الفيلسوف سقراط الذى حكم عليه بالموت بشرب السم عام ٣٩٩ ق . م . وكانت إحدى التهم الموجهة ضده الزراية بآلهة الأثينين وعقائدهم الدينية . فضلا عن أن الأثينيين الصقوا تهمة الهرطقة بعدد من الأدباء والفنانين مثل النحات فيدياس (المولود نحو ٥٠٠ ق . م) والكاتب التراجيدى المعروف يوربيديس (المولود نحو عام ٤٠٧ ق . م) . بالاضافة إلى أسباسيا خليلة بركليس حاكم أثينا الذى عاش فى الفترة بين ٤٩٠ و ٤٢٩ ق . م . ولكن أسباسيا برئت من هذه التهمة . ويمثل افلاطون ذروة التشدد فى المطالبة بمعاقبة المروق الدينى فنحن نراه فى جمهوريته يدعو إلى ضرورة إعدام كل من يتجرأ أو يتطاول على الآلهة . ولكن هذه السياسة القمعية المتشددة التى اتبعها الاغريق إزاء الهرطقة لم تخل من التناقض أو المفارقة . ففى حين اتهم الاغريق المؤلف المسرحى يوربيديس بالهرطقة وعاقبوه عليها نرى أنهم تغاضوا عن هرطقة كاتبهم المسرحى الكوميدى المعروف أرسطفان (٤٤٨ - ٣٨٠ ق . م) وقام أهل أثينا بمكافأته وتكريمه .

التجديف والبدع في العهد القديم :

تحرم الديانة اليهودية تحريماً قاطعاً (شأنها فى ذلك شأن الديانات السماوية الأخرى) التطاول على

الرب والتجديف على الإله الذى يسميه اليهود (يهوا) . بل إن تشددها فى هذا الأمر يبلغ بها مبلغاً يجعلها تحرم على أتباعها مجرد النطق باسمه . ناهيك بكتابته . فقد ورد فى التوراة فى سفر اللاويين (الاصحاح الرابع والعشرين آية ١٦) : « ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل . ترجمه كل الجماعة رجما . الغريب كالوطنى عندما يجدف على الاسم يقتل » .

وهكذا يتضح لنا أن جو السماحة التى اتسمت به الحياة الفكرية الإغريقية قد تلاشى ليحل محله تهديد موسوى بالويل والثبور وعظائم الأمور .

ولا يستطيع أحد أن يحصى عدد حالات التجديف التى تم تطبيق الشريعة الموسوية عليها . ولكن من الثابت - حسب نص العهد القديم - أنه تم زورا وتدليسا وبهتانا تنفيذ الحكم بالموت رجماً على إنسان بسيط اسمه نابوت اليرز عيلى الذى يروى الاصحاح الحادى والعشرون من سفر الملوك الأول قصته على النحو التالى :-

« كان يحكم السامرة حاكم يدعى آخاب راقت فى عينيه كرمة يملكها واحد من رعاياه يدعى نابوت اليرز عيلى . فعرض آخاب على نابوت أن يبيع له كرمه ويعطيه ثمنه فضة بل أن يعطيه عوضا عنه كرما أحسن منه . ولكن نابوت رفض لأن هذا الكرم ميراث آبائه وأجداده .

فرجع الملك إلى بيته مغتما . ولما عرفت زوجته سبب اكتئابه راحت تواسيه وتخفف عنه . ثم كادت لنابوت حتى تزيحه من الطريق وتستولى على كرمه . فسطرت باسم زوجها آخاب رسائل ختمتها بخاتمه وبعثت بها مع نابوت نفسه إلى الشيوخ والأشراف دون أن يعرف عن محتواها شيئا . وزعمت هذه المرأة فى رسائلها أن نابوت جدف على الله والملك ، وأن هناك رجلين من بليعال يشهدان على ذلك » . وكما يقول الموضع المشار إليه فى العهد القديم (آية ١٣) : « وشهد رجلا بليعال على نابوت أمام الشعب قائلين » .« لقد جدف نابوت على الله وعلى الملك فأخرجوه خارج المدينة ورجموه بحجارة فمات » .

وهناك أيضاً بطبيعة الحال إشارات أخرى فى العهد القديم تهاجم التجديف والهرطقة . فالمزمور الرابع عشر آية (١) يصف المهرطق بالجهل والغفلة : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله . فسدوا ورجسوا بأفعالهم . ليس من يعمل صلاحا » . وعن خيانة بيت اسرائيل وبيت يهوذا للرب يقول الاصحاح الخامس من سفر أرميا آية ١١ : « جحدوا الرب وقالوا ليس هو» . ويهاجم الاصحاح الثلاثون من سفر الأمثال آية (٩) ذلك الكبرياء الذى يدفع الإنسان إلى الكفر « لئلا أشبع وأكفر وأقول من هو الرب . أو لئلا أفتقر وأسرق وأتخذ اسم إلهى باطلا » .

هكذا يتضح أن الشريعة الموسوية لا تكتفى بإدانة التجديف والهرطقة بل تحكم على المجدفين والمهرطقين بالموت رجما مثلما فعلت مع القديس اسطفانوس أول شهيد فى تاريخ المسيحية .

التجديف والبدع في العهد الجديد :

الإشارات إلى التجديف والهرطقة فى العهد الجديد كثيرة . والديانة المسيحية تدينهما كما تدينهما الديانة اليهودية . ، والمسيحية تذهب على نحو غامض إلى أنها على استعداد لمغفرة جميع الخطايا باستثناء خطيئة واحدة هى التجديف على الروح القدس . يقول السيد المسيح فى هذا الشأن فى إنجيل لوقا اصحاح ١٢ آية ١ : « وكل من قال كلمة على إبن الإنسان يغفر له . وأما من جدف على الروح القدس فلا يغفر له . » وأيضاً يقول السيد المسيح فى إنجيل مرقص اصحاح ٣ آية ٢٨ و٢٩ : « الحق أقول لكم إن جميع الخطايا تغفر لبنى البشر والتجاديف التى يجدفونها . ولكن من جدف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية . »

ورغم أن هذه الآية الأخيرة تنطوى على تهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور فإنها تستبعد حكم الشريعة الموسوية القاضى بالموت رجماً .

لقد رأينا كيف ألصق اليهود تهمة التجديف برجل برىء هو نابوت وكيف أنهم طبقوا عليه حد الرجم بالحجارة . ولم يسلم يسوع المسيح من الرجم بسبب الصاقهم التهمة نفسها به . فقد جاء فى الاصحاح العاشر من إنجيل يوحنا آية ٣١ - ٣٣ : « فتناول اليهود حجارة ليرجموه . أجابهم يسوع أعمالا كثيرة حسنة أريتكم من عند أبى . بسبب أى عمل منها ترجموننى . أجاب اليهود قائلين لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل التجديف . » وكان المسيح على وعى كامل بما يدور بخلدهم وبرغبتهم فى الإيقاع به بتهمة التجديف . ففى الاصحاح التاسع من إنجيل متى آية ٢ - ٤ يقول الكتاب المقدس : « وإذا مفلوج يقدمونه مطروحا على فراش . فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج ثق يابنى ، مغفورة لك خطاياك . وإذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم هذا مجدف ، فعلم يسوع أفكارهم فقال لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم . »

وقد أورد إنجيل مرقص القصة نفسها فى الاصحاح الثانى (آية ٣ - ٩) ، كما أوردها إنجيل لوقا فى الاصحاح الخامس (آية ١٩ - ٢٢) .

وعندما حكم اليهود على يسوع المسيح بالموت استندوا فى ذلك إلى تكفيره وتوجيه تهمة التجديف إليه كى يبرروا فعلتهم ، يقول الكتاب المقدس فى الاصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى آية ٥٧ - ٦٨ : « والذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى قيافا رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ . . . وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه فلم يجدوا . ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا . ولكن أخيرا تقدم شاهدا زور وقالا ، هذا قال إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه . فقام رئيس الكهنة وقال له أما تجيب بشىء . ماذا يشهد به هذان عليك ، وأما يسوع فكان ساكتا . فأجاب رئيس الكهنة وقال استحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله . فقال له يسوع أنت قلت . وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا على يمين القوة وآتيا على سحاب السماء . فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلا قد

جدف . ماحاجتنا بعد إلى شهود . ها قد سمعتم تجديفه . ماذا ترون : فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت . حينئذ بصقوا فى وجهه ولكموه وآخرون لطموه قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك » . وقد أورد إنجيل مرقص القصة فى الاصحاح الرابع عشر آية ٦٣ - ٦٥ .

واستنادا إلى تهمة التجديف قام اليهود بسفك دم اسطفانوس أول شهيد فى تاريخ المسيحية كما سبق أن ذكرنا . وفى هذا الشأن يقول الاصحاح السادس من سفر أعمال الرسل إن جمعا من اليهود يمثل طوائفهم كافة ذهب ليحاور أسطفانوس الذى كان يأتى بالعجائب والمعجزات من أجل دحض إيمانه بالمسيحية . ولكنه تغلب عليهم واستطاع أن يفحمهم ويخرس ألسنتهم . فأوغر هذا صدورهم عليه . يقول الكتاب المقدس فى هذا الصدد فى الموضع المشار إليه : « حينئذ دسوا لرجال يقولون إننا سمعناه يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله . وهيجوا الشعب والشيوخ والكتبة فقاموا وخطفوه وأتوا به إلى المجمع وأقاموا شهودا كذبة يقولون هذا الرجل لا يفتر أن يتكلم كلاما تجديفاً ضد هذا الموضع المقدس والناموس . لأننا سمعناه يقول إنه يسوع الناصرى . هذا سينقض هذا الموضع ويغير العوائد التى سلمنا إياها موسى .»

***

وقبل أن نختم هذه المقدمة الضافية بلمحة تاريخية عن ظروف وأسباب انتشار العقيدة المسيحية يجدر بنا أن ننوه بما يظهره الأنبا غريغوريوس فى كتابه عن علم اللاهوت المقارن من سماحة واتساع أفق إزاء فهمه لظاهرة الهرطقة . فرغم ادراكه الواعى والعميق لخطرها الداهم على تفكك الكنيسة وإنفراط عقدها فإنه يرى أنه ربما ضارة نافعة وأن الهرطقات لعبت دورا إيجابيا فى تلاحم الكنيسة واحتفاظها بتماسكها ضد المهرطقين والخارجين عليها . يقول الأنبا غريغوريوس فى هذا الشأن إنه لولا الهرطقات لما انعقد المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥ للنظر فى هرطقة أريوس . ولما انعقد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية سنة ٣٨١ م للنظر فى هرطقة مقدونيوس ولما أنعقد المجمع المسكونى الثالث فى أفسس عام ٤٣١ م للنظر فى هرطقة نسطور .

***

من المعروف تاريخياً أن المسيحية ذاعت وانتشرت فى أوروبا بفضل إعتناق الامبراطور قسطنطين الأعظم (٢٧٤ - ٣٣٧ م) أمبراطور روما لها ، وذلك عقب رؤية طافت به أثناء حملته العسكرية على بلاد الغال (فرنسا حاليا) شاهد فيها المسيح على الصليب معلقا فوق قرص الشمس تصاحبه الكلمات التالية : « هذه بشارة إنتصارك » . وبالفعل أحرز قسطنطين نصرا حاسما على أعدائه ، الأمر الذى حداه عام ٣١٣ م إلى أصدار مرسوم ميلانو الذى اعترف فيه بشرعية العقيدة المسيحية . يقول جيبون مؤرخ الدولة الرومانية المعروف إن الدافع وراء اعتناق قسطنطين للدين المسيحى كان سياسياً . فقد أراد توحيد الأمبراطورية الرومانية حتى تدين له بالولاء ويسهل عليه حكمها والسيطرة عليها . ورغم أن المسيحيين آنذاك كانوا أقلية فإنهم كانوا أقلية قوية فتية متماسكة ومنظمة ومفرطة فى

التحمس وقادرة على ممارسة الضغط . علما بأن قسطنطين دعا فى عام ٣١٤ م أساقفة العالم الغربى إلى اجتماع عقد فى آرلس بفرنسا وتحالف معهم لتوطيد أركان حكمه ليشمل الإمبراطورية الرومانية بأسرها . والجدير بالذكر أن قسطنطين بوجه عام اتخذ موقفا محايدا من الصراعات اللاهوتية المحتدمة بين أتباع الكنيسة المسيحية التى وجدت نفسها مضطرة حتى القرن الرابع الميلادى إلى إظهار السماحة مع المهرطقين والمنشقين عليها لأنها لم تكن بعد تتمتع بالبأس والسلطة الزمنية .

لقد ظلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تسيطر على أوروبا لأكثر من ألف عام ابتداء من القرن الرابع الميلادى حتى عهد الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر الذى بدأ على يدى مارتن لوثر فى المانيا عام ١٥١٧ والذى انتشرت بفضله البروتستانتية بين عدد كبير من الأوروبيين كنوع من الاحتجاج على مظالم الكنيسة الكاثوليكية . ولكننا نخطىء إذا ظننا أن الاضطهاد الدينى قد توقف بانتصار البروتستانتية على الكاثوليكية فى كثير من أرجاء أوروبا . فكما أن للمذهب الكاثوليكى ضحاياه فإن للبروتستانتية أيضاً ضحاياها .

الفصل الأول

الهرطقة حتى مجمع نيقية ٣٢٥ م

(١) الهرطقة في القرن الأول الميلادي

تمهيد :

آثرت أن أتتبع الهرطقات فى الكتاب الذى بين أيدينا تتبعاً زمنياً رغم إدراكى لما ينطوى عليه هذا التقسيم الزمنى من تعسف . فإحدى الهرطقات قد تظهر فى قرن وتنتشر فى قرن آخر وتستمر حتى هذا القرن أو ذاك . فضلا أنها قد تعرف باسم معين فى زمن ومكان ما ليتغير اسمها فى زمن آخر ومكان آخر . حتى أسماء المهرطقين ومذاهبهم لم تستقر بعد فى اللغة العربية فالبعض يترجم أسم المهرطق Marcion بمركيون والبعض الآخر يسميه مارسيون . ناهيك بالخلافات حول تسمية أنواع الهرطقة ذاتها ؛ فجرا سيموس اللاذقى مثلا يحدثنا عن الباترو باشيين [١] فى حين يترجمها البعض الآخر بالمتألمين . ولهذا سوف أعنى بشرح لب التسميات الأجنبية كجزء من التعريف بها كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . ويكفى للدلالة على مدى التشعب المخيف فى هذا الموضوع أن أسوق فقرة كتبها الأرشيمندريتى جراسيموس مسرة اللاذقى فى كتابه الحجة «تاريخ الانشقاق» (ثلاثة أجزاء) الذى نشرته المطبعة الابراهيمية فى الاسكندرية عام ١٨٩١م . يقول هذا العالم الجليل :

« وبعد عصر الرسل القديسين نرى بدعا وشقاقات يطول الشرح فى إحصائها . فمنها فى القرن الثانى بدعة اليهود الناصريين [٢] والابيونيين [٣] الاكيسايين [٤] والشمشونيين [٥] وبدعة الغنوسيين [٦] على إختلاف مذاهبهم وانقسامهم إلى قسمين : آسيويين ومصريين ، ثم تشعب القسم الأسيوى إلى مذاهب عديدة منها مذاهب ساطرنينوس ومركين وبرد سانس وتاتيانوس والانكراتيين . وأيضاً تشعب القسم المصرى إلى مذاهب باسيليدس وكيرنثسى وكربوكراتيس ووالنذينوس والحيويين

والباتروبا سشيين والموندانيين وأضداد الثالوث على إختلاف مذاهبهم . وفى القرن الثالث ومايليه نجد بدع أياركس ونويتوس وسابليوس وبولس السميساطى وبيرلس فى بصرة العرب . وبدعة نوباتس ثم إنشقاق الدوناتيين والتائهين ونختتمهم بآريوس الشهير إمام المبتدعين . وبعد أريوس قامت بدع أبوليناريوس ومركاس وفونتينوس ومكدونيوس وبرسكيليانوس وإفذيوس . ثم بدعة نسطوريوس وبرسوم ثم بدعة أفتيشيس (المعروف بأوطيخا) وأتباعه وبطرس القصار ثم بدعة بيلاجيوس وسيبيروس ويعقوب البرادعى والأغنوئيين وذوى الثلاثة الآلهة . ثم بدعة موحدى المشيئة وماتفرع عنها وما قام بعدها فى الشرق والغرب » .

هذه مجرد أمثلة ساقها إلينا جراسيموس اللاذقى للدلالة على تشعب الهرطقات التى كادت أن تودى بالمسيحية وتعصف بها وتقتلعها من جذورها . وليس من شك أن صمود المسيحية أمام هذا الطوفان الكاسح من الهرطقات معجزة بالمقاييس كافة . والرأى عند هذا العالم أن يهوذا الاسخريوطى الذى أسلم المسيح الى جلاديه هو أول منشق عرفته المسيحية ، وأن الانشقاق بدأ فى عهد الرسل مثل الانقسام الناشىء عن تحزب بعض المسيحيين فى كورنثوس لبولس وتحزب بعضهم الآخر لبطرس .

التهودية judaizism

المتهودون جماعة من اليهود عاشت فى القرن الأول الميلادى تؤمن بالمسيحية دون أن يمنعها هذا الايمان من إستمرار ولائها للدين اليهودى والشريعة الموسوية بل إن هذه الجماعة اليهودية كانت فى واقع الأمر تسعى لدوافع قومية إلى تهويد المسيحيين من الأمم (أى تهويد المسيحيين من غير اليهود .) وأصر المتهودون - الذين اتسموا بالمحافظة - على ضرورة اعتبار يوم السبت يوما مقدسا وضرورة الختان والامتناع عن تناول الطعام النجس مثل لحم الخنزير . ولم يشعر هؤلاء اليهود الذين آمنوا بالدين المسيحى الجديد بأى تعارض بين يهوديتهم وبين تحولهم إلى الدين المسيحى . وساعد على تحولهم للدين المسيحى أعتقادهم بقرب مجىء المسيح المنتظر وقول المسيح نفسه إنه لم يأت لينقض شريعة موسى بل ليكملها . ولم يشعر هؤلاء اليهود بأنهم ينضوون تحت لواء دين جديد بل ظنوا أنهم يشاركون فى حركة أخلاقية إصلاحية تدعو إلى الطهارة والنقاء .

لقد دأبت كنيسة أورشليم - وهى أول كنيسة فى العالم - على إثارة هذا الموضوع الحساس الخاص بتهويد المسيحيين غير اليهود ، وهو الأمر الذى تصدى لمقاومته بولس الرسول بكل قوة وحزم حتى استطاع فى نهاية الأمر التغلب على هذا الاتجاه القومى اليهودى نحو التهويد فقد أصابه الفزع عندما رأى اليهود المحافظين الذين تحولوا إلى المسيحية يرفضون فى مجمع أورشليم الاعتراف بشرعية تحول غير اليهود إلى المسيحية لأنهم لم يختتنوا أو يراعوا أحكام الشريعة الموسوية . حتى بولس الرسول نفسه اضطر فى بادىء الأمر إلى مجاراة هؤلاء المتهودين مثلما فعل بطرس . ولكن

بولس الرسول مالبث أن تنبه للخطر الداهم الذي سوف يعصف بالمسيحية من جراء إتباع اليهود المسيحيين لسياسة التهويد . ومن ثم فقد نذر حياته لدفع هذا الخطر . وتغير موقف بطرس المؤيد للتهويد فأصبح مواليا لبولس المناهض له . وليس من شك أن الهزيمة الماحقة التى أصابت اليهود نحو عام ٦٠ م و الشتات الذى تعرضوا له عام ٧٠م واستمر حتى القرن الثانى عشر ساعد على إزدهار المسيحية وانتشارها بين الأمم كدين مستقل عن اليهودية تماماً . وبذلك أصبحت الدعوة التهويدية الساعية إلى احتواء المسيحية ومنعها من الظهور كدين مستقل أول بدعة عرفتها المسيحية خلال تاريخها الطويل .

وعندما أدرك بولس الرسول أن خطر التهويد والانقسامات يتهدد الدعوة إلى المسيحية طلب إلى مجمع أورشليم النظر فى هذا الموضوع واتخاذ قرار بشأنه . فاجتمع المجلس برئاسة يعقوب الرسول ليؤيد بوجه عام موقف بولس المعارض للتهويد . غير أن المجمع اشترط على المسيحيين من الأمم (أى من غير اليهود) أن يتجنبوا « ماذبح للأصنام والزنا والمخنوق والدم .» (أعمال الرسل اصحاح ١٥ : آية ٢٩) .

وفى حربه المستميتة ضد المتهودين هاجم بولس الرسول استمساك الفريسيين بالحرف وشكليات الشريعة الموسوية وتجاهلهم الكامل للروح التي جاءت المسيحية لإطلاقهامن إسارها ومن أية قيود تكبلها أو تقف عائقاً فى سبيلها . والجدير بالذكر أن المسيحية تأثرت بأفكار الفريسيين رغم شدة هجومها عليها ، فالمسيحيون يشاركون الفريسيين الايمان بالقيامة التى ينكرها الصدوقيون . فضلا عن أنهم يشاركونهم إيمانهم بالخطيئة والتوبة وبلطف الله وغفرانه .

***

ومع بداية الدعوة إلى المسيحية ظهرت جماعتان مهرطقتان هما الإبيونية والناصرية نورد فيما يلى نبذة عنهما .

الابيونية Ebionism

الابيونية - وهى كلمة عبرانية معناها الفقير أو المسكين - حركة قريبة الشبه بالتهويدية من حيث استمساكها بدرجات متفاوتة بالتعاليم الموسوية انتشرت فى فلسطين والمناطق المجاورة مثل قبرص وآسيا الصغرى حتى وصلت إلى روما . وبالرغم من أن معظم أتباعها من اليهود فقد أتبعها عدد من الأمم (أى من غير اليهود) . ظهرت هرطقة الأبيونية فى أيام المسيحية الأولى لكنها لم تصبح مذهبا له أتباعه ومريدوه إلا فى أيام حكم الأمبراطور تراجان Trajan(٥٢ - ١١٧ م) .واستمرت فى البقاء حتى القرن الرابع الميلادى فيما يقول المؤرخون أو نحو منتصف القرن الخامس الميلادى فيما يقول الأنبا غريغوريوس . ولا أحد يعرف على وجه اليقين السبب فى إطلاق اسم الأبيونيين على هذه الطائفة المهرطقة ويحتمل أن يكون الأبيونيون أنفسهم هم الذين أطلقوا هذا الاسم على أنفسهم

معتبرين أنفسهم فقراء ومساكين كما أوصى بذلك السيد المسيح . ولكن اللاهوتى المسيحى المعروف أوريجانوس يستخدم هذا اللفظ للتحقير من شأن الأبيونيين للدلالة على فقر أفكارهم وضحالة معتقداتهم .

ويقسم الباحثون الابيونية إلى ثلاثة أنواع :

١ - الابيونية الفريسية المتطرفة .

٢ - الابيونية المعتدلة .

٣ - الأبيونية الإسينية Essene .

نبدأ بالنوع الفريسى المتطرف فنقول إنه كان أكثر الأنواع الثلاثة شيوعاً واستمساكا على نحو حرفى بالشريعة الموسوية . أنكر المسيحيون الأبيونيون عذرية مريم واعتقدوا أن المسيح بشر لا يختلف عن موسى وداود وأنه ثمرة علاقة جسدية ربطت مريم بيوسف وحافظوا على السبت وسائر نظم اليهود ورفضوا الاعتراف بالأناجيل الأربعة باستثناء نسخة عبرية شائهة وممسوخة من إنجيل متى لم يعد لها وجود الآن . كما أنهم أنكروا ألوهية المسيح وذهبوا إلى أنه مجرد إنسان هبط عليه الروح القدس عند تعميده فى طفولته على هيئة حمامة وأن هذا الروح القدس تركه وقت الصلب . وكذلك رفض الأبيونيون الفريسيون فكرة تألم المسيح عند الصلب وذهبوا إلى أن الختان ضرورى للخلاص . يقول الأنبا غريغوريوس فى كتابه « علم اللاهوت المقارن » إن الابيونيين الفريسيين اتسموا بالتزمت وأنكروا لاهوت المسيح «ولم يعترفوا بوجوده الالهى قبل التجسد ورفضوا أن يعتبروه اللوغوس أو كلمة الله وحكمته ، كما أنكروا ميلاده المعجزى من العذراء . . . .» ويقول يوسابيوس القيصرى فى « تاريخ الكنيسة » إن الأبيونيين تبعوا ثيوديون الأفسسى Theodotion وأكويلا النبطى Aquila of Pontus وهما يهوديا الأصل آمنا بالمسيح وقد ترجما كلمة العذراء . . . إلى كلمة الفتاة . ،وقد حملت جماعة الأبيونيين الفريسيين حملة شعواء على القديس بولس وأنكروا رسوليته بسبب استماتته للحيلولة دون تهويد المسيحية أو احتوائها فى إطار الشريعة الموسوية .

وعلى الرغم من هرطقة الأبيونيين الفريسيين فقد أدى واحد منهم واسمه سيماكوس Symmachus خدمة جليلة للعالم المسيحى نحو نهاية القرن الثانى أو بداية القرن الثالث بترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية . وهى ثالث ترجمة قيض لها الظهور فى تاريخ المسيحية بعد ترجمة كل من أكويلا وثيوديون له . ويمتدح العلامة جيروم الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى ترجمة سيماكوس اليونانية بمقارنتها بالترجمتين الأخريين قائلا إن ترجمة أكويلا تتسم بحرفية النقل إلى درجة العبودية وترجمة ثيوديون تفتقر إلى التجديد والاصالة وتقتفى أثر غيرها من الترجمات ، فى حين أن ترجمة سيماكوس نجحت فى نقل المعنى الحقيقى للعهد القديم . والجدير بالذكر أن ترجمة سيماكوس تركت أعمق الأثر فى جيروم أثناء اضطلاعه بترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية .

أما النوع الثانى من الأبيونيين فيسميه الأنبا غريغوريوس الأبيونيين المعتدلين الذين استمروا حتى أيام القديس أيرونيموس (٣٤٢ - ٤٢٠ م) ويتفق هذا النوع مع النوع الأول من الأبيونيين على أن يسوع هو المسيا المنتظر وعلى إنكار لاهوته كما يتفق على ضرورة إتباع ناموس موسى اتباعا حرفيا ورفض رسائل القديس بولس رفضاً باتا . ويتساهل الأبيونيون المعتدلون فيذهبون إلى معجزة ميلاد المسيح من مريم العذراء . ورغم أن النوع المعتدل من الأبيونيين فرض على نفسه الختان وتقديس السبت فإنه امتنع عن فرضهما على غيره من التابعين . فضلا عن تقديسه ليوم الأحد مثل الأرثوذكسيين .

وقد انبثق من الأبيونية بنوعيها الأول والثانى نوع ثالث من الهرطقة يعرف بالأبيونية الغنوسية أحيانا والابيونية الأسينية أحيانا أخرى (نسبة إلى Essene وهى جماعة سرية ظهرت قبل المسيحية بنحو مائة وخمسين عاما) وتميل هذه الجماعة الأبيونية الثالثة إلى التأملات الصوفية وإلى الزهد والتقشف ويتمثل تزمتها الأخلاقى فى الامتناع عن الزواج والخمر ودهن الجسد بالزيت . والأسينية كلمة عبرية معناها الغرباء . ورغم استمساك هذه الجماعة بالدين اليهودى فهى تشعر بالغربة عنه بسبب ما انتهى به أمر هذا الدين من أفك وضلال وممارسات خاطئة ، الأمر الذى جعلها تمتنع عن أكل الفصح كبقية اليهود وأيضاً عن أكل اللحوم . فهذه الجماعة تعيش على الزرع وتتجنب الضرع . كما أن أفرادها يرتدون الثياب الناصعة البيضاء كرمز للتطلع إلى الطهر والشوق إلى النقاء ومن ثم آثر أتباع الأبيونية الأسينية اعتزال المجتمع والاختلاط بالناس كما آثروا الانخراط فى حياة جماعية تختفى منها الملكية الخاصة . وبلغ بهم التماسك حدا جعلهم يرفضون تناول أى طعام ليس من إعداد واحد منهم . وإذا أخطأ واحد منهم فى حق الجماعة وقعت عليه أقصى عقوبة وهى الطرد من حظيرتها . وقد رفضت الأبيونية الغنوسية الجانب الأكبر من تاريخ اليهودية واعتبرته انحرافا عن صحيح العقيدة الموسوية . ولهذا نبذت الايمان بالعهد القديم باستثناء الأجزاء الخمسة منه الموحى بها إلى موسى . وذهبت إلى أن تقديم الحيوان كضحية ليس من صحيح الدين مؤكدة ضرورة تفسير أية إشارة من هذا القبيل على نحو اليجورى أو رمزى . وأيضاً ذهبت الابيونية الغنوسية إلى تقسيم الأنبياء إلى نوعين : أنبياء الحقيقة مثل آدم ونوح وإبراهيم وأسحق ويعقوب وقارون وموسى وأنبياء الفهم (وليس الحقيقة) مثل داود وسليمان وأشعيا وأرميا . وإلى جانب إنكارهم فيما يبدو لبعث الأجساد ونشورها . يرفض الأبيونيون الغنوسيون مذهب الثليث أى الايمان بالآب والابن والروح القدس . ولكنهم آمنوا بنوع من الثنائية الغامضة فذهبوا إلى وجود قوتين الهيتين تتمثل إحداهما فى مبدأ ذكر هو إبن الله الذى أعتقدوا أنه تجسد فى آدم أول الأمر ثم فى يسوع فى آخر الأمر . وتتمثل الأخرى فى الروح القدس . ويبدو أن هذه الجماعة مارست الايوخارست (سر المناولة) من الخبز الخالى من الخميرة والماء بدلا من الخمر الذى درجت المناولة فى المسيحية على استخدامه .

وتتميز الابيونية الأسينية عن الأبيونية الفريسية فى حيوية الأولى وجمود الثانية فالابيونية الأسينية

تتسم بالدناميكية والرغبة القوية فى تغيير مجريات الأمور . ولهذا نراهم يستوفرون على تأليف الكتب التى تبشر بالمفاهيم الدينية . ويقول الأنبا غريغوريوس فى تبيان الفرق بينهما : « إذا كانت الابيونية الفريسية قد ورثت تعاليمها من الكنيسة اليهودية فإن الابيونية الأسينية هى ثمرة الخلط بين المسيحية والمذهب اليهودى الأسينى وبعض المبادئ التصوفية الغنوسية والشرقية .»

فى حوالى عام ٢٢٢ م جاء رجل سورى اسمه ألسيباديس Alcibiades إلى روما حاملا معه كتابا بعنوان « الخساى » Elchesai أو Elxai لم يبق منه سوى شذرات متناثرة . وادعى الرجل أن هذا الكتاب موحى به من السماء لإرشاد المسيحيين الذين يسقطون فى وهدة الخطيئة إلى سبيل الخلاص . وقد ظهر هذا الكتاب - وهو نتاج قريحة الأبيونيين الأسينيين - نحو عام ١٠٠ أو ١٠١ م ويمثل ظهوره خطورة على العقيدة المسيحية لأنه يرسم طريق الخلاص لأناس يعتقدون أن يسوع المسيح فشل فى توفير الخلاص لهم . والجدير بالذكر أنه فى تلك الآونة احتدم فى روما نقاش حاد حول كيفية خلاص المسيحيين الذين اضطروا إلى نبذ دينهم بسبب ما تعرضوا له من اضطهاد . وأيضاً كيفية خلاص الذين سقطوا رغم تعميدهم فى حمأة الخطيئة وراودت الشكوك مثل هؤلاء الخطاة فى إمكانية حصولهم على الخلاص . ولهذا تقدمت الأبيونية الأسينية إليهم بحل يتمثل فى كلمة الخساى الواردة فى عنوان الكتاب . ويبدو أنها كلمة سوريالية مركبة معناها العماد الجديد والوعد بحياة أكثر أكتمالا . يقول الأنبا غريغوريس بصدد عنوان الكتاب إن هيبوليتوس Hippolytus يذهب فى مؤلفه « دحض جميع الهرطقات » إلى أن الخساى هو اسم شخص ظهرت له رؤيا مؤداها «أن ملاكا هائلا هبط من السماء وظهر فى حجم كبير لالخساى (يبلغ طوله ٩٦ ميلا وعرضه ١٦ ميلا . ومن الكتف إلى الكتف ٢٤ ميلا ويبلغ طول قدمه ١٤ ميلا وعرضها ٦ أميال وارتفاعها ميلين . وكانت تصحبه ملاك أنثى ذات حجم كبير أيضاً هى الروح القدس . وقد سلم الملاك لألخساى هذا الكتاب فى أرض سيرى . » ويضيف هيبوليتوس أن السبيادیس قال « إن من تاب وسمع هذا الكتاب وآمن نال بالمعمودية مغفرة خطاياه .» ويقارن الأنبا غريغوريوس بين الأبيونيين الأسينيين والأبيونيين الفريسيين فيذكر أن هاتين الطائفتين تشتركان فى المناداة بوجوب الختان واعتبار الناموس اليهودى أو الموسوى جزءا رئيسيا من المبادئ المسيحية ولكن الناموس عند الابيونيين الأسينيين يختلف عن الناموس عند الأبيونيين الفريسيين « فقد اقتطع الأبيونيون الأسينيون من الناموس كل العناصر التى لا توافقهم . فرفضوا أسفار الأنبياء بتمامها ، كما أنكروا على الخصوص مبدأ الذبائح الدموية وأدخلوا من عندياتهم بعض عادات وطقوس وأظهروا اهتماما كبيرا بها ، منها الغسلات التطهيرية ومنها الامتناع عن الخمر وعن الأطعمة الحيوانية . ونظر الأبيونيون الأسينيون إلى المسيحية على أنها ارتداد إلى الديانة الأولى أى إلى الموسوية الصميمة قبل أن تفسدها الاضافات الغريبة . وعلى ذلك أنكروا أن يسمى الإنجيل بالعهد الجديد . » فضلا عن إنكارهم لبولس الرسول وزرايتهم برسائلة كما يتضح من مؤلفات كليمنص الرومانى Clement of

Rome تمييزا له عن كليمنص السكندرى Clement of Alexendria وقد خلف المبشرون بالابيونية فى نهاية القرن الثانى الميلادى أو أوائل القرن الثالث الميلادى كتابا يعرف بالاكليمنصيات نسبة إلى كليمنص الرومانى كما أسلفنا . والكتاب يحمل أحيانا عنوان « تعرف القديس أكليمنص على عائلته » وأحيانا أخرى «رحلة القديس كليمنص» وتارة ثالثة « عنوان مواعظ القديس كليمنص» . وهذه الكتاب عبارة عن رواية دينية تدور أحداثها حول شخصية محورية هى كليمنص قديس روما . وتحكى لنا الرواية قصة عائلة تفرق شملها ولكن هذا الشمل اجتمع أخيراً على اعتناق الدين المسيحى . وتجرى أحداث هذه الرواية الدينية الواضحة السذاجة على النحو التالى :

يقوم أحد وجهاء روما واسمه فاوست بارسال زوجته وولديه إلى أثينا حيث تنقطع أخبارهم . وبعد انقضاء عشرة أعوام على انقطاع أخبارهم يقرر رب العائلة البحث عنهم فيضع ابنه الأكبر كليمنص فى رعاية بعض الأصدقاء . يسافر الأب ولكن أخباره تنقطع أيضاً . ويكبر كليمنص ويصبح رجلا وهو لا يزال مؤمناً بالوثنية . ولكن القديس بارناباس يهديه إلى الدين المسيحى ويغريه بالسفر إلى فلسطين ليتلقى الدعوة إلى هذا الدين على يدى بطرس الرسول . وهناك يسمع مواعظ القديس بطرس ويحضر مساجلاته مع سيمون الساحر . ثم يقابل كليمنص شحاذة عجوزاً يتضح له أنها أمه التى تتحول إلى الدين المسيحى وتتلقى العماد . وكان ليسمون الساحر تلميذان استطاع القديس بطرس تحويلهما إلى الدين المسيحى . ويكتشف كليمنص أن هذين الرجلين ليسا سوى أخويه اللذين انقطعت أخبارهما . وأخيرا يتعرف كليمنص على أبيه الذى يتحول هو أيضاً إلى الدين المسيحى . وبذلك يجتمع شمل العائلة المشتتة ويتعرف عليها كليمنص بعد أن يهتدى جميع أفرادها إلى الدين المسيحى .

وتركز القصة على القديس بطرس وليس بولس الرسول باعتباره المسئول عن هداية الأمم (أو غير اليهود) إلى المسيحية . كما أنها تعتبر الساحر سيمون صورة مكذوبة وزائفة للقديس كليمنص وأول من أدخل الفساد إلى المسيحية . فهو عدو اليهود الذى نشر ضلالاته وهرطقاته باتباع غنوسية مارسيون . ويزعم هذا الساحر المخادع أن المسيح جاءه فى رؤية واختاره كواحد من رسله . وعلى الرغم من أن القصة تعلى من شأن بطرس وتقلل من شأن بولس فإنها تضع القديس يعقوب قريب المسيح وأسقف أورشليم فى مركز الصدارة . ومع أن القصة غير مشوقة وتبعث على الملل وتتسم بطابع التعليم فإنها تتضمن عناصر تاريخية وفلسفية وشاعرية . ويرى الباحثون أنها تسعى إلى صرف الانظار عن أهمية الدور الذى لعبه بولس الرسول فى نشر المسيحية من أجل التركيز على الرسل المتعاطفين مع اليهود ، وبالذات على القديس يعقوب الذى تعتبره القصة زعيم الرسل . والشىء اللافت للنظر أنه رغم وجود روايات مختلفة للقصة فإن جميع الروايات تجمع على تصوير هذا القديس على أنه أمير جميع الرسل بمن فيهم بطرس نفسه . وقارئ القصة العادى قد لا يتنبه إلى ما فيها من مبالغة فى تقدير أهمية القديس يعقوب ومن تقليل مغلف ومبطن من شأن بولس الرسول

الذى لاتذكره القصة بالاسم والذى تنحى عليه باللائمة لأنه فتح باب المسيحية على مصراعيه كى تدخله جميع الأمم . وليس من شك أن هذه الهرطقة الابيونية التهويدية سببت انزعاجا للكنيسة المسيحية .

وبالاضافة إلى ذلك ترك الأبيونيون وراءهم كتابا آخر تحت عنوان « المواعظ » تختلط موضوعاته بقصة القديس كليمنص التى سبق الاشارة إليها بحيث يتعذر التمييز بين الكتابين . ويتضمن كتاب «المواعظ» مزيجا من الابيونية والغنوسية ويذهب إلى أنه ليس هناك فى الدين المسيحى أى جديد فهو مجرد احياء لدين أزلى قديم قدم الخليقة كان آدم أول من دعا إليه ثم تبعه موسى ومن بعده المسيح . فدين المسيح هو الدين نفسه الذى سبق لآدم وموسى أن آمنا به . ومن ثم فكتاب المواعظ لا يرى أدنى خلاف بين الشريعة الموسوية والدين المسيحى ؛ غير أن الكتاب يضع المسيح فى مرتبة أعلى من كل من آدم وموسى . والفرق الوحيد بين دين موسى ودين المسيح أن الأول يقتصر على اليهود فى حين أن الثانى يخاطب كل الأمم . ولا يكتفى كتاب « المواعظ » بالأمر بتطبيق الشرائع الموسوية المألوفة مثل الصوم والوضوء والامتناع عن أكل الطعام النجس ولكنه يدعو أيضاً إلى ضرورة العماد لمغفرة الخطايا . وأغلب الظن أن كتاب « المواعظ » كتب فى شرق سوريا فى حين أن قصة « تعرف القديس كليمنص على عائلته » كتبت فى روما .

والجدير بالذكر أن اللاهوتى المسيحى الكبير أوريجانوس أشار إلى هذه القصة فى كتاباته وأنه لا يوجد لها أى أصل بل ترجمة لاتينية قام بها رافينوس Rufinus .

قبل أن نعرض لبقية الجماعات المهرطقة يخلق بنا بأن ننوه بأن الجو كان ممهدا ومعبدا تماما لظهور المسيحية وانتشارها كدين فى كل الأمم فاسرائيل والامبراطورية الرومانية كانتا فى حالة مزرية من الفوضى والاضطراب والغليان الشديد ، فقد ضاق اليهود ذرعا بالخواء الذى آلت إليه تقاليدهم وممارساتهم الدينية وساءهم أن تتحول هذه التقاليد والممارسات إلى مجموعة من اللوائح والتشريعات الميتة والخالية من الروح . كما أن الرومان وسائر الأمم كانوا يتطلعون إلى حياة اخلاقية طاهرة ونظيفة تغاير الحياة القبيحة والبشعة التى يعيشونها .

الناصريون أو النزاريون Nazarenes

وعلى النقيض من الابيونيين يؤمن الناصريون أو النزاريون بأن يسوع المسيح إبن الله وأن تعاليمه أسمى من تعاليم موسى وسائر الأنبياء . وأيضاً يؤمنون بأن المسيح سوف يأتى ليحكم العالم لمدة ألف عام . وأصر الناصريون الذين ينحدرون من أصل يهودى - شأنهم فى ذلك شأن التهويديين والأبيونيين - على ضرورة الختان والمحافظة على السبت ومراعاة أوامر ونواهى الشريعة الموسوية الخاصة بالمأكل . ولكنهم أعفوا المسيحيين من غير اليهود من هذه التكاليف . وقد قال جيروم عن هؤلاء النزاريين إنهم ليسوا باليهود كما إنهم ليسوا بالمسيحيين .

الغنوسية Ynosticism

شكلت الغنوسية (أو الغنوسطية) خطرا كبيرا على الدين المسيحى فى بادئ نشأته يفوق بكثير خطر التهويديين عليه . فاليهود مهما بلغ عددهم كانوا أقلية بالمقارنة ببقية الأمم التى انتشرت فيها الوثنية التى تسللت إلى أفكار الغنوسيين ونظرتهم إلى الحياة .

والغنوسية فى حد ذاتها كلمة لاغبار عليها مشتقة من لفظ إغريقى هو gnosis ومعناه العلم أو المعرفة وخاصة فى أمور الفلسفة والدين . نادى دعاة الغنوسية بهذا المعنى إلى استخدام العقل للتمييز بينهم وبين أصحاب المعرفة الضحلة والمؤمنين بالدين إيمانا أعمى يخلو من التدبر والتبصر . حتى العهد الجديد يميز بين الغنوسية الحقة والغنوسية المزيفة ويعلى من شأن النوع الأول القادر على إدراك جوهر المسيحية ويحط من قدر النوع الثانى الذى يتسم بالتفاهة والسطحية والبعد عن جوهر الدين المسيحى . وينتمى علماء اللاهوت المسيحى البارزون أمثال كليمنص السكندرى وأوريجانوس إلى النوع الأول من الغنوسية ويسعون إلى التوفيق بين الإيمان والعقل . ومن ثم يمكن القول إن هناك غنوسية مسيحية وغنوسية مناهضة للمسيحية . ويحذر بولس الرسول تيموثاوس من مغبة الوقوع فى شراك الغنوسية الزائفة أو المعادية للمسيحية . وهى غنوسية تقوم على التباهى بالمعرفة وإدعاء الحكمة الجوفاء . كما أنه ينحى باللائمة على أهل كورنثيوس وكولوسى لاتباعهم هذا النوع الزائف من الغنوسية الذى اعتبره آباء الكنيسة ضربا من الهرطقة وعودة إلى الأفكار الوثنية . وقد انتهى هذا النوع من الغنوسية بأتباعه إلى الايمان فقط بما يمليه العقل وإزدراء الايمان القائم على التسليم . وصور الخيلاء لهؤلاء الغنوسيين أنهم أكثر حكمة ورجاحة عقل من غيرهم واعتبروا أنفسهم سدنة الحكمة والمعرفة . ويمكن القول عن الفرق بين الغنوسية الحقة والغنوسية الزائفة أن الأولى شبيهة بالايمان المسيحى القائم على إعمال العقل فى حين أن الثانية تستخدم العقل بهدف هدم المسيحية . وقد تنبه آباء الكنيسة منذ البداية إلى امتزاج الغنوسية بالأفكار والمعتقدات الوثنية . ومن ثم ذهب هيبولتيوس إلى أن الغنوسيين استمدوا هرطقاتهم من الفلسفة الاغريقية . والرأى عنده أن الغنوسى سيمون الساحر استمد أفكاره من فلسفة هيراقليطس وأن الغنوسى فالانتينوس تأثر بكل من فيثاغورث وافلاطون وأن باسيلدس استمد أفكاره من أرسطو وأيضاً استمد مارسيون فلسفته من امبيدوكليس . ورغم بعد غنوسية الاسكندرية عن الفلسفة الإغريقية فى شكلها الهيلينى الأصيل فلا مناص من الاعتراف بشدة تأثرها بالفلسفة الافلاطونية بوجه خاص . ونشأت فى الاسكندرية مدرسة تعرف بالأفلاطونية الجديدة لها طابع شرقى صوفى متميز سوف نعرض لها فيما بعد . نادت الافلاطونية الجديدة بمذهب الأيونات aeons الذى اعتنقته الغنوسية . والأيونات عبارة عن طاقة نابعة من الله وموجودة فى الكون منذ الأزل . وردت الافلاطونية الجديدة وجود الشر إلى المادة ونادت بتحرير الروح منها ومن سجن الجسد . وهى أفكار شاعت بين الغنوسيين . ويرى أتباع الغنوسية أن الخلاص لا يأتى عن طريق الايمان والحب وحدهما ولكن عن طريق المعرفة التأملية المستوحاة والحدس الخاص بالأصفياء وممارسة طقوس السحر .

والغنوسية بمعناها الأصلى مذهب فلسفى ودينى فى آن واحد . هى مذهب فلسفى من حيث أنها تسعى إلى حل مشكلة فلسفية عويصة هى التوفيق بين وجود الله ووجود الشر . كما أنها مذهب دينى من حيث أنها تبشر بخلاص البشر . وقد ظهر المذهب الغنوسى حتى قبل مجيء المسيحية التى تركت بصماتها الواضحة فيه فقد استمد المذهب الغنوسى منها بعض معتقداتها ومفرداتها . والغنوسية مذهب تركيبى من ديانات ومذاهب فلسفية مختلفة Syncretic يستمد جذوره من مصادر شتى منها الفارسى والمصرى والهيلينى . ومن المؤسف أن معرفة الباحثين بالغنوسية ظلت فى مجملها قليلة ومتناثرة وتعتمد على كتابات أعدائها من المسيحيين المناهضين لها . والجدير بالذكر أن الغنوسية كانت وقت ظهور المسيحية منتشرة فى فلسطين ، فضلا عن انتشارها فى كل من مصر والشام حيث ظهر أبرز الفلاسفة الغنوسيين على الاطلاق . ولم يقتصر انتشارها على آسيا الصغرى فحسب بل امتدت لتشمل روما وبلاد الغال (أى فرنسا) حيث تصدى لها اللاهوتى الكبير أيريانوس Irenaeus وأفريقيا حيث تصدى لها لاهوتى بارز آخر هو ترتيليان ثم القديس أو غسطين من بعده . وقد نجحت الغنوسية فى اجتذاب عدد كبير من صفوة المفكرين والمثقفين بين المسيحيين . ولكنها فشلت فى التغلغل فى جموع الشعب المسيحى .

ويمكن القول إن القرن الثانى الميلادى شاهد ازدهار الغنوسية وإن القرن السادس الميلادى شاهد أفولها . ولكن الغنوسية المانية ظلت تظهر بصورة أو أخرى حتى القرون الوسطى كما أن الفكر اللاهوتى الحديث لا يخلو أحيانا من أثرها .

الغنوسية جماع معارف وفلسفات كثيرة ومتشعبة فقد تركت ثنائية زرادشت المنادية بوجود صراع دائم بين قوى النور والظلام وقوى الخير والشر بصماتها الواضحة على غنوسية الشام ، كما أن فلسفة الزهد عند البوذيين أثرت فيها عندما وصلت هذه الفلسفة إلى غرب آسيا فى فترة ظهور المسيح . فضلا عن تأثر الغنوسية بفيلسوف الاسكندرية المعروف فيلو Philo الذى سعى إلى مزج اليهودية بالفلسفة الافلاطونية . غير أن تأثرها بالافلاطونية الجديدة التى تأثرت بدورها بوثنية الشرق والغرب معا يفوق تأثرها بفيلو أو بأى فلسفة أخرى . وقد مهد المزج الذى أجراه فيلو بين اليهودية والافلاطونية وأجرته فلسفة الاسكندرية بين الافلاطونية والوثنية الطريق لظهور ما يعرف باللاهوت التأملى على يد جماعة من آباء الكنيسة المسيحية فى الاسكندرية . ولكنه مهد فى الوقت نفسه إلى ظهور الهرطقات الغنوسية . علماً بأن الأفلاطونية الجديدة تجاهلت الدين اليهودى وناصبت الدين المسيحى العداء . والجديد فى توليفة الغنوسية الانتقائية من شتى الفلسفات والأفكار والمعتقدات الوثنية أنها استقت جانبا من عقائدها وبوجه خاص فكرة الخلاص من الدين المسيحى . وليس أدل على تنوع التوليفة الفلسفية الغنوسية من أنها اشتملت على التصوف الشرقى والفلسفة الاغريقية وفلسفة فيلو والأفلاطونية الجديدة وفلسفات الاسكندرية المختلفة والدين اليهودى . وقد نجحت الغنوسية فى صهرها جميعا فى بوتقة فكرية إنتقائية تميل إلى الانسجام ؛ الأمر الذى أدى إلى غواية

الكثيرين من فلاسفة المسيحية . غير أن المناهضين للغنوسية من المسيحيين يتهمونها بالاخفاق فى وضع ركيزة متينة وثابتة يمكن للأخلاق العملية الاستناد إليها . فقد دعا الكبرياء الروحي بعض الغنوسيين إلى رفض فكرة الخطيئة الأولى وعدم التقيد بالقواعد والقوانين الأخلاقية ، الأمر الذى أفضى بهم فى النهاية إلى استباحة الانحلال والانغماس فى الفسق واللذات .

وعلى النقيض من ذلك أدى افراط بعض الغنوسيين الآخرين فى الاحساس بالخطيئة إلى القول بأن الشر يكمن فى الجسد وبأن الشيطان يسكن فى الطبيعة ، الأمر انتهى بهم إلى النزوع إلى التصوف والزهد والتقشف وتحقير الجسد باعتباره مصدر كل الشرور .

مرت الغنوسية بثلاث مراحل : مرحلة ما قبل المسيحية التى تأثرت بالأفكار الاغريقية واليهودية والمصادر الشرقية ثم المرحلة الثانية التى تأثرت بالافكار المسيحية رغم كونها مرحلة وثنية فى الأساس . ويتجلى هذا التأثر فى الايمان بأن المسيح سوف يخلص البشر . أما المرحلة الثالثة والأخيرة فكانت أخطر المراحل جميعاً لأنها قامت بتعديل المسيحية على نحو يروق للوثنيين ، الأمر الذى شكل خطرا يتهدد الدين المسيحى فى وجوده .

تأثرت الغنوسية بمجىء المسيحية وبدأت تستخدم مفرداتها فذهبت إلى أن المسيح جاء ليحضر المعرفة إلى العالم . وعلى الصعيد الفلسفى كان شغل الغنوسيين الشاغل التوفيق بين وجود الله ووجود الشر . وانقسموا إلى ملل ونحل لا تحصى ولا تعد . غير أن معظمها آمن أنه مادام العالم المادى شريرا إلى هذا الحد فليس من المعقول أن يكون من خلق الله وهو الخير كله . بل هو من خلق إله أدنى يعرف بالديمارج Demiurge مختلف عن الله ومنفصل عنه . ويذهب الغنوسيون إلى أن للكواكب أثرها السيئ فى حياة البشر وأن الله الموجود فى الأفلاك العليا يسكن وراء القدر والموت والالهة الشريرة ، كما يذهبون إلى أن الأنسان عند انتقاله من فلك إلى آخر فى العالم الآخر لابد له أن يعرف البوابات التى يتعين المرور منها وأن يعرف الشيطان الذى سوف يقابله فى طريقه لأن مثل هذه المعرفة كفيلة بتجريد هذا الشيطان من سلطانه . والرأى عند الغنوسيين أن هذه المعرفة الكونية الموحى بها هى جوهر جميع الأديان وأن خلاص الانسان يكمن فى هذه المعرفة التأملية الموحى بها من فوق . وأيضاً فى الحدس الخاص الذى يتميز به صفوة البشر دون عامتهم . كما أنه يكمن فى طقوس السحر . وسعى الغنوسيون إلى تحرير الروح من سجن المادة من أجل الوصول إلى ذروة النقاوة . وقد آمن غالبية الغنوسيين أن يسوع مجرد إنسان وأن الله أرسل إبنه المسيح كى يحل فيه بصفة موقتة عند اعتماده من يوحنا . ولكن هذا المسيح غادر جسد يسوع عند صلبه . واستند الغنوسيون فى ذلك إلى صرخة يسوع على الصليب : « إلهى . . . إلهى لماذا تركتنى ؟ » .

وقد أدى تحقير الغنوسيين من شأن المادة إلى رفض بعضهم فكرة تجسد الكلمة فذهبوا إلى أن تجسد المسيح مجرد وهم من نسج الحواس . فالمسيح لم يكن له جسد حقيقى ولكنه بدا كما لو كان له جسد يتعذب ويجوع ويعطش ويحزن . ويعرف هذا المذهب الذى ينكر ناسوت المسيح

بالدوسيتية Docetism وهى كلمة مشتقة من do Keo الاغريقية ومعناها يبدو أو يشبه لهم . ويقول بعض الدوسيتيين إن المسيح لم يصلب وإن سمعان القيرواني هو الذى صلب بدلا منه ، وهكذا نرى هناك بين الغنوسيين من ينكر ناسوت المسيح من أساسه ، ومن يذهب إلى أن لاهوت المسيح ترك ناسوته ساعة الصلب على نحو ما أوضحنا .

وهناك فرق غنوسية تقول إن إله اليهود هو الديمارج الذى يحس بالتنافس والغيرة من المسيح الإله الأعلى فتدفعه غيرته إلى الاعتراض على النور والتقدم . وتعلى مثل هذه الفرق من شأن الحية التى ترمز إلى النور وتناصب الديمارج العداء وتقف فى سبيله وتعترض مسيرته . ومن ثم جاءت تسمية بعض هذه الفرق بالأوفيين Ophites وهى كلمة يونانية قديمة معناها الحية أو الناسيين وهى كلمة عبرية قديمة معناها الحية . وهو ما سوف نعود إليه فيما بعد .

وقد لاحظ دارسو اللاهوت المسيحى وجود بعض القسمات التى تربط بين غالبية الغنوسيين وتميزهم عن غيرهم من الشيع . وتتلخص هذه السمات المشتركة فى ثلاث نقاط :-

(أولاً) الايمان بالثنائية مثل الروح والجسد والخير والشر وافتراض وجود صراع أبدى وعداوة أبدية بين الله والمادة .

(ثانياً) الإيمان بوجود إله أدنى اسمه الديمارج هو خالق العالم وبأن وجوده مستقل عن وجود الله .

(ثالثاً) الاعتقاد بأن تجسد الكلمة ليس سوى وهم خادع .

والجدير بالذكر أن الغنوسيين كثيرا ما كانوا يقومون بإضافة بعض الأجزاء من عندياتهم إلى الكتاب المقدس وحذف بعضها الآخر منه ، ويحصى أبيفانيوس Epiphanius آلاف الإضافات التى انتحلها الغنوسيون . كما أن إيريانوس اكتشف عددا لا يحصى من هذه الكتابات التى انتحلها فالانتيوس أحد زعماء الغنوسية . وفى العادة كان الغنوسيون يرفضون العهد القديم مثلما رفضه المانيون وأتباع مارسيون . حتى موقفهم من العهد الجديد وقبولهم له كان انتقائيا بمعنى أنهم فضلوا بعض الأناجيل على بعضها الآخر ، كما استبعدوا منه الأناجيل التى لا تروق لهم ، ونذكر فى هذا الصدد تفضيلهم لإنجيل يوحنا على ما عداه من الأناجيل . وأيضاً قام الغنوسى مارسيون بتشويه إنجيل لوقا واستبعاد بعض الأجزاء منه . وفى تفسيرهم للكتاب المقدس أطلقوا العنان لخيالهم ، وجنحوا كما سوف نرى إلى المبالغة فى تفسيره بطريقة يمتزج فيها الشعر بالرمز .

لا أحد يعرف ما هى الغنوسية على وجه التحديد ؛ فالذى وصلنا منها لا يعدو أن يكون شذرات وليس نظرية متكاملة . والغنوسية لا تختلف من مفكر غنوسى إلى مفكر غنوسى آخر فحسب بل إنها تختلف أيضاً من قطر إلى قطر ومن جيل إلى جيل داخل القطر الواحد . وليس أدل على ذلك من أن الغنوسية فى الشرق تجنح إلى الثنائية فى حين أن غنوسية الغرب تجنح إلى الوحدانية . حتى التسميات ليست واحدة فى سائر المذاهب الغنوسية . فمعظم الغنوسيين درجوا على تسمية الاله

الأدنى بالديمارج ولكن الغنوسى الكبير باسيلدس آثر أن يطلق عليه اسم أركون Archon أو حاكم العالم ، كما أن الطائفة الغنوسية المعروفة بالأوفية آثرت أن تسميه يالدابوث Jaldabaoth أى إبن الفوضى الذى جاء إلى الوجود نتيجة سقوط الأيون المنبعث من الله والذى أدى إلى تكوين العالم المادى ومن ثم فإنه يحتل مركزا وسيطا بين الله والمادة . ويالدابوث يعتلى عرشه بين الأجرام السماوية ويسيطر عليها . وهو يهوا الذى يظن اليهود أنه الاله الأعلى والوحيد .

ولاتقتصر الخلافات بين الغنوسيين عند هذا الحد ، فهم لا يجمعون على تصوير الديمارج أو خالق العالم المادى بطريقة واحدة . فمارسيون وطائفة الأوفيين الذين يضمرون العداوة لليهود يصورونه بصورة سيئة باعتباره كائنا يقف فى سبيل الله ويقاوم أهدافه . فى حين أن الغنوسيين المتعاطفين مع الدين اليهودى أمثال باسيلدس وفالانتينوس يرون أنه مجرد أداة محدودة وغير واعية يستخدمها الله لتمهيد الطريق نحو الخلاص .

والكوزمولوجيا عند الغنوسيين أى تصورهم لنشأة الكون ليست واحدة . ولكنه يمكن القول إن الله عند الغنوسيين وجود مطلق وليس له قرار أو بداية ولا سبيل إلى فهمه أو سبر غوره . وهو الأيون الذى انبعثت منه سائر الأيونات أى أنه النور الروحانى الذى فحت منه جميع الضياء وجميع القوى الروحية والأفكار النورانية . والأيونات المنبعثة من الله تشتمل على صفاته القدسية وطبيعته الربوبية مثل الفكر والعقل والحكمة والقوة والنشاط والحق والحياة . هذه الأيونات المنبعثة من الذات الالهية تتبع نظاما معينا . وكلما ابتعدت عن مصدر إنبعاثها اعتراها الضعف والوهن . وتشكل سلسلة الأيونات المنبعثة من الله عالم المثل أو عالم النور أو ما يسميه الغنوسيون البليروما Pleroma أو الاكتمال الروحى والتى يترجمها الكتاب المقدس بالملء . وفى الناحية المقابلة لهذا العالم الروحى يوجد عالم الفراغ المادى الذى يطلقون عليه اسم Kenoma وهو عالم من الظلال والظلام يتناقض مع عالم الأيونات القدسية الوضاءة . والمسيح فى نظر الغنوسيين لا ينتمى إلى عالم الأيونات فحسب بل إنه الايون الرئيسى أو مصدر كل الأيونات . وإلى الكينوما ينتمى الإله الأدنى أو الديمارج الذى خلق العالم المادى الذى يسكنه الشر . ويتجلى الاعتقاد بأن الشر يسكن العالم المادى فى المذهب الغنوسى الذى انتشر وذاع فى بلاد الشام وكذلك فى المذهبين المانى والبارسى Parsism . وقد انتشر هذا المذهب الأخير بين طائفة تنحدر من أصل فارسى وتدين بالزرادشتية اضطرها إلى الفرار إلى الهند اضطهاد المسلمين لها فى القرنين السابع والثامن الميلاديين تقريباً . والرأى عند أصحاب كلا المذهبين المانى والبارسى أن عالم المادة الذى يسكنه الشيطان يتعارض تعارضاً كاملا مع عالم النور .

قلنا إن سلسلة من الأيونات النورانية انبعثت من الله . ولكن الأيونات الأخيرة فى هذه السلسلة أصابها الضعف والوهن بسبب بعدها عن مصدر النور الالهى . وبذلك أصبحت صلتها بعالم المثل ضعيفة واهية ، الأمر الذى أدى إلى تساقطها مثل ومضة الضوء على ظلمة المادة وفوضاها فنفخت

فى هذه المادة قبسا من الحياة القدسية .ولكن هذه الومضة الحبيسة فى عالم المادة تطلعت بشوق عظيم إلى خلاصها من سجنها فتعاطفت معها سائر الأيونات . وهذه لغة أقرب إلى الشعر منها إلى الفلسفة .

ويسمى الفيلسوف الغنوسى الكبير فالانتينوس الأيون الواهن الضعيف بالحكمة الأدنى أو الأشاموث Achamoth وهذه الحكمة الأدنى هى التى تحدد النقطة التى يستسلم عندها عالم الروح لعالم المادة فيقوم اللانهائى وغير المحدود بالولوج فى عالم النهائية المحدود ليصبح بذلك أساس تكوين العالم الملموس .

ويبالغ الغنوسيون فى الإعلاء من شأن الروح والحط من شأن الجسد . وقد انتهى الأمر ببعضهم إلى الزهد والتشاؤم من الحياة وببعضهم الآخر إلى الاستغراق فى ملذاتها . وترى الكنيسة أن زراية الغنوسيين بالجسد أفضى بهم إلى نقيضتين متعارضتين كل التعارض أو لاهما الاستغراق فى التقشف والزهد والأخر استغراقهم فى التهتك والانحلال ، فقد نادى الغنوسيون بأن إرضاء الانسان لشهواته هوالسبيل الوحيد لكبح جماح هذه الشهوات وإخضاع الجسد وإذلاله . وهذه دعوة واضحة وصريحة إلى الانفلات الاخلاقى . وينتمى مارسيون وساتر نينوس وتاتيان والمانيون (أتباع مانى) إلى الغنوسية المتشائمة والزاهدة فى الحياة . وقد بلغ زهدهم حدا جعلهم يعرضون عن الزواج وتناول أنواع معينة من الطعام ويسعون قدر المستطاع إلى الابتعاد عن دنس المادة واوشابها حتى يتجنبوا السقوط فى وهدة الشر الذى اعتبروا المادة سببا فى وجوده . وتعيب الكنيسة المسيحية على الغنوسيين ازدراء الجسد والعالم المادى اللذين خلقهما الله . وفى المقابل نرى النيقولاويين Nicolaitans والأوفيين والكاربوكراتيين Carpocratians والأنيتاكتيين Anti tactes يذهبون إلى أن إخضاع الجسد لمشيئة الروح لن يتم إلا عن طريق استغراق هذا الجسد فى المذات حتى يملها ويزهد فيها . ويذكر إبيفانيوس أنه انتشرت فى مصر طوائف غنوسية تدافع عن ممارسة العهر والدعارة . وفضلا عن ذلك فهناك طوائف غنوسية أخرى لها اتجاهات متباينة منها على سبيل المثال لا الحصر طائفة الخاسيين Elkasai التى تعتقد فى السحر والتنجيم ، والشعثيين (نسبة إلى شعث أحد أبناء آدم) من عبدة الحية والباريلغنوسيين Barbelognostics الذين ظهروا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين وأظهروا تأثرا واضحا ببعض الكتابات الوثنية .

وعلى الرغم من كثرة مذاهب الغنوسيين ونحلهم فإنه يمكن تقسيمهم من الناحيتين الجغرافية والفلسفية إلى ثلاث مدارس أو أقسام رئيسية . المدرسة الأولى نشأت فى مصر والاسكندرية بالذات . وقد تأثرت هذه المدرسة بالافلاطونية وبفكرة الأيونات المنبثقة من الكائن الأعلى . وإلى هذه المدرسة ينتمي غنوسيون أمثال باسيلدس وفالانتينوس والأوفيون . والمدرسة الثانية نشأت فى سوريا وسادها المذهب الثنائى (أى الاعتقاد بوجود قوتين متصارعتين من أجل السيطرة على العالم هما قوتا الخير والشر أو النور والظلام) كما سادها مذهب الباريسيين الذى سبق الاشارة إليه .

وهناك مدرسة ثالثة هى مدرسة مارسيون التى نشأت وترعرعت فى آسيا الصغرى حيث كان بولس الرسول يكرز ويستميت فى مقاومة اليهود المسيحيين الذين يرغبون فى تهويد الدين المسيحى .

وأيضاً من الناحية الفلسفية يمكن القول بوجود ثلاثة أشكال رئيسية للغنوسية يتميز الشكل الأول بغلبة الطابع الوثنى عليه وإليه ينتمى أتباع سيمون الساحر والنيقولاويون والأوفيون والكاربوكراتيون والأنتياكتيون والمانيون والبروديسيون Prodicians . أما الشكل الثانى فيتميز بالطابع التهويدى وإليه ينتمى كيرنثوس وباسيلدس وفالانتينوس وجستينوس . أما الشكل الثالث فيتميز بغلبة الطابع المسيحى عليه وإليه ينتمى ساتر نينوس ومارسيون وتاتيان والانكراتيون Encratites . ولكن هذا لايمنع بصورة عامة من اصطباغ سائر هذه الأشكال والفلسفات الغنوسية بصبغة مناوئة لكل من اليهودية والمسيحية على حد سواء .

وأيضاً من وجهة النظر الأخلاقية والفكرية يمكن تقسيم الغنوسية إلى ثلاث فئات رئيسية هى الفئة التأملية وتضم باسيلدس وفالانتينوس . والفئة الثانية هى الفئة الزاهدة فى الحياة وتضم مارسيون وساتر نينوس وتاتيان . والفئة الثالثة هى فئة الإباحية والانفلات الأخلاقى وتشمل السيمونيين والنقولاويين والأوفيين والكاربوكراتيين والأنتياكتيين .

وعلى الرغم من ازدهارها فشلت الدعوة الغنوسية فى إقامة صرح غنوسى أو تنظيم غنوسي ، الأمر الذى ساعد فى نهاية الأمر على اندثارها . ويعلق بعض علماء اللاهوت المسيحى على ذلك بقولهم إن شغل الغنوسيين الشاغل يتلخص فى دعوتهم إلى الاستغراق فى التأمل الفلسفى الرائع دون أدنى اهتمام بانضمامهم إلى جماعات أو عمل تنظيمات قادرة على لم الشمل وتوحيد الصفوف وتسليم راية الدعوة من جيل إلى جيل ، الأمر الذي جعل الفيلسوف المسيحى المعروف ترتيليان يتهم الغنوسيين بالافتقار الكامل إلى النظام والضبط والربط .

***

بالرغم من أن الأتجاه العام فى الكتاب الراهن ينحو إلى تناول الهرطقات فى المسيحية وفق ترتيبها الزمنى فإنى أجد نفسى فى حالة الغنوسية مرغما على التغاضى عن اتباع هذه القاعدة التى الزمت نفسى بها . ويرجع السبب فى هذا إلى أمرين أولهما أن الغنوسية انتقلت من قرن إلى آخر مما يجعل من المتعذر فصل هذا التداخل . وثانيهما أن مراعاة الترتيب الزمنى فى مثل هذا الموضوع قمينة بتشتيت انتباه القارىء وصرف ذهنه عن التركيز . ومع ذلك فسوف أعالج أعلام الغنوسية فى كل قرن على حدة مثبتاً ذلك فى العناوين الفرعية . وبذلك أكون قد راعيت الترتيب الزمنى الذى آليت نفسى على اتباعه دون تشتيت للقارىء .

أ) أعلام الهرطقة الغنوسية في القرن الأول

(١) سيمون الساحر Simon Magus

يعتبر آباء الكنيسة أن سيمون الساحر (الذى يسمى أحيانا سيمون المجوسى) أول مهرطق فى تاريخ الكنيسة المسيحية . وقد ذكر ايريانوس فى كتابه « ضد الهرطقات » أنه أول من مزج المسيحية بالغنوسية فى التاريخ . وورد ذكر سيمون الساحر فى الاصحاح الثامن من أعمال الرسل . وأغلب الظن أنه جاء من السامرة وأشاع عن نفسه أنه قبس من لدن الله وأطلق على نفسه اسم « قوة الله العظيمة » . وكان متواضعا فى بادىء الأمر وقام فيليبى بتعميده نحو عام ٤٠ م . غير أنه تكبر وتجبر وادعى الألوهية فيما بعد . وأنحى عليه القديس بطرس باللائمة لأنه أراد أن يشترى قوة الروح القدس منه ومن يوحنا بالمال . ويذكر القديس جاستين مارتير (الشهيد) أن كل السامريين تقريبا يمجدون سيمون الساحر ويعتقدون أنه الله .

تعلم سيمون الساحر الغنوسية على يد دو سيثوس Dositheus كما أنه كان لسيمون تلميذ ومريد اسمه Menander . وذاع صيت سيمون الساحر فى القرنين الثانى والثالث الميلادى . وكان يصطحب فى غدواته وروحاته امرأة اسمها هيلانة . وهى مومس سابقا من مدينة صيدا وصفها سيمون بأنها قبس منه ورفعها إلى مراتب القديسات وأطلق عليها اسم « الفكرة العظيمة » . وكما أسلفنا نسب سيمون الساحر إلى نفسه صفة الربوبية وادعى أنه تجسيد لروح العالم الخلاق وأن رفيقته هيلانة تجسيد لما أسماه روح العالم المستقبلة receptive . ويؤكد ايريانوس ماذهب إليه جاستين مارتير من أن الكثيرين كانوا يمجدونه ويعتبرونه إلها وأنه قال عن نفسه إنه ظهر على هيئة الابن لليهود وعلى هيئة الأب بين السامريين والروح القدس بين الأمم الأخرى .

ويقال إن سيمون الساحر قام بزيارة روما إما فى عهد كلوديوس (١٠ . ق . م / ٥٤م) أو فى عهد نيرون (٥٤م - ٦٨ م) . ويروى هيبوليتوس أن هذا الساحر طلب أن يدفن حيا حتى يقتنع الناس بقيامته كالمسيح من الأموات بعد ثلاثة أيام . ويقال أيضاً إنه حاول الطيران ولكنه سقط من علٍ وأصيب بكسور فى مؤخرة قدمه . ويروى أرنيبوس أن سيمون الساحر حاول الصعود إلى السماءً فى عربة تنطلق منها السنة اللهب مثلما فعل إليشع فى التوراة . ولكنه سقط من حالق وانكسرت رجله ، وقرر بسبب فشله وعاره التخلص من حياته بأن ألقى بنفسه من قمة جبل مرتفع . والجدير بالذكر أن سيمون الساحر كتب كتابا يدعو فيه إلى الغنوسية بعنوان « الوحى العظيم» باد وأندثر . ولكن الزمن احتفظ ببعض شذراته .

(٢) كيرنثوس Cerinthus :

يعتقد البعض أن كيرنثوس وهو يهودى من أصل مصرى أول من صاغ الغنوسية المسيحية .تلقى

كيرنثوس العلم فى مدرسة فيلو فى مدينة الإسكندرية وأشاع ضلاله وهرطقته عام ٧٣ م ، وقد ظهر هذا الغنوسى فى آسيا الصغرى فى نهاية القرن الأول واحتدم النزاع بينه وبين يوحنا البشير كما أظهر زرايته بالمسيحيين التهويديين الذين يتمسكون بالسبت والختان . إدعى كيرنثوس أن الله كشف له عما هو مستور . وتعددت أسفاره فى أرجاء فلسطين وغلاطية وأفسس . وأغلب الظن أن آراءه تأرجحت بين اليهودية والغنوسية . غير أن الباحثين يعتبرونه أقرب إلى اليهودية منه إلى الغنوسية . ولكنه يشارك الغنوسيين ايمانهم بالديمارج وتمييزهم بين الله وصانع العالم الذى اعتبره كيرنثوس كائنا أدنى فى مرتبته من الله . ولكنه لم يتهم هذا الكائن بالشر والعدوانية مثلما يذهب بعض الشيع الغنوسية . كما ذهب مذهب هؤلاء الغنوسيين فى التفرقة بين المسيح و يسوع الإنسان الدنيوى الذى ولد نتيجة معاشرة يوسف لمريم ، إلى جانب الاعتقاد بأن المسيح نزل على الكائن الأرضى يسوع وهبط على شكل حمامة أثناء تعميده فى نهر الأردن ووهبه معرفة غنوسية حقيقية بالذات الالهية ومنحه قدرة على الإتيان بالمعجزات . وبحلول المسيح فى يسوع تصدى يسوع بشجاعة لمقاومة الديمارج إله اليهود وخالق العالم الأرضى فحرض هذا الإله اليهود ضده والقوا القبض عليه . فلما رأى المسيح ذلك فارقه وطار إلى السماء ليتركه وقت الصلب ليشقى ويتعذب .

بشر كيرونثوس بأن المسيح سوف يعود إلى الأرض ويقيم عليها مملكة من السعادة والنعيم لمدة ألف عام . وتعتبره طائفة الألوجى Alogi (التى تنكر الثالوث وعودة المسيح ليحكم العالم لمدة ألف عام) مؤلف سفر الرؤية وليس يوحنا البشير . بل إنها نسبت إليه تأليف إنجيل يوحنا . يقول يوساب القيصرى فى كتابه «تاريخ الكنيسة» عن المهرطق كيرنثوس : «لأنه هو نفسه كان منغمسا فى الملذات الجسدية وشهوانيا جداً بطبيعته فقد توهم أن الملكوت سوف ينحصر فى تلك الأمور التى أحبها أى فى شهوة البطن والشهوة الجنسية أو بتعبير آخر فى الأكل والشرب والتزوج والولائم وذبح الضحايا .» وقد استقى يوساب القيصرى هذا الوصف من كلمات ديونيسوس أسقف الاسكندرية عنه . ويروى إيريانوس فى كتابه « ضد الهرطقات » - مستندا إلى شهادة بوليكاربوس - « إن الرسول يوحنا دخل مرة حماما ليستحم ولكنه إذ علم أن كيرنثوس كان داخل الحمام قفز فازعاً وخرج مسرعا لأنه لم يطق البقاء معه تحت سقف واحد . ونصح مرافقيه بالاقتداء به قائلاً : (لنهرب لئلا يسقط الحمام لأن كيرنثوس عدو الحق موجود بيننا .»

(٣) كاربوقراطيس Carpocrates

كان كاربوقراطيس تلميذا لكورنثوس ومعلما فى جامعة الإسكندرية . وهناك بعض الخلافات الطفيفة التى تميز بها عن أستاذه ومنها إيمانه أن العالم من صنع الملائكة وليس من صنع الديمارج واعتقاده أن المؤمنين على قدم المساواة مع المسيح من حيث أنهم جميعاً يشتركون معه فى قوته . ومن ثم فإنه يحق لهم ازدراء الكائنات الخالقة للعالم والمعروفة بالأركونات وخاصة لأنه فى مقدورهم

الاتيان بالمعجزات نفسها التى أتى بها يسوع . وأيضاً لم يشارك كاربوقراطيس أحلام كيرنثوس فى مجيء المسيح فى نهاية العالم وحكمه له لمدة ألف عام من النعيم والفردوس . ذهب هذا الغنوسى إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يتحرر من سيطرة الأركونات عليه إلا إذا انغمس بكليته فى الرذائل . فإن لم يفعل ذلك عوقب بتجسد روحه فى جسد أو جسم آخر حتى يفى بما عليه من دين ، أى يأتى بأفعال أكثر بشاعة وشناعة من الأفعال التى امتنع عن الاتيان بها . يقول الشماس منسى القمص فى كتابه « تاريخ الكنيسة القبطية » إن أتباع هذا المهرطق كانوا يميزون أنفسهم بوشم طرف أذنهم الأدنى عن طريق كيه بالنار أو الحديد المحمى . كما أنهم لم يجدوا أدنى غضاضة فى السجود لصور تلاميذ فيثاغورث أو أفلاطون أو غيرهما من الفلاسفة تماما مثلما يسجدون أمام صور المسيح .

٤) نيقولاوس Nicolas

أسس المهرطق نيقولاوس شيعة تحمل اسمه وتعرف باسم النيقولاويين . ونيقولاوس (الذى تحول إلى المسيحية فى أنطاكية) واحد من سبعة شماسين فى مجمع أورشليم وهو أول مجمع (أو كنيسة) عرفه تاريخ المسيحية برمته ، كما يتضح من أعمال الرسل الاصحاح السادس آية ٥ : « فاختاروا (أى كل الجمهور) أستفانوس رجلاً مملوءا من الإيمان والروح القدس وفيلبس وبروخورس ونيكانور وتيمون وبرميناس ونيقولاوس دخيلا انطاكيا .» وقد ورد بغض الرب للنيقولاويين فى الاصحاح الثانى من سفر الرؤية : « ولكن عندك هذا أنك تبغض أعمال النيقولاويين التى أبغضها أنا أيضاً » (آية ٦) . و «وهكذا عندك أنت أيضاً قوم متمسكون بتعاليم النيقولاويين الذى أبغضه» (آية ١٥) .

أشتهرت هذه الشيعة التى لم تدم طويلا بالتهتك والانحلال والانغماس فى اللذات واقتراف الزنا وأكل لحوم الذبائح . ويخبرنا اكليمنص السكندرى فى الكتاب الثالث من مؤلفه « ستروماتا » أن نيقولاوس كانت لديه زوجة آية فى الحسن والجمال وأن الرسل اتهموه بشدة الغيرة عليها أكثر من غيرته على المسيح . فسمح لواحد منهم أن يتزوجها . وينفى أكليمنص السكندرى عنه هذا التفريط مؤكدا أنه كان شديد الاخلاص لزوجته وأنه أنشأ وربى أبناءه على الطهر والعفاف . يقول يوساب القيصرى فى كتابه « تاريخ الكنيسة» فى هذا الشأن : «إن بناته استمرين فى حالة العذرية حتى سن الشيخوخة وأما ابنه فلم يتدنس .» ويعتقد اكليمنص السكندرى أنه إذا صح أنه أحضر بالفعل زوجته الجميلة والتى كان غيوراً عليها فى وسط الرسل فإن هدفه من وراء ذلك لم يكن المجون والتهتك بل كبح جماح شهواته وإذلال جسده لأنه لم يشأ أن يعبد سيدين الشهوة والرب .» والرأى عند يوساب القيصرى أنه ليس هناك دليل على أن نيقولاوس كان متزوجاً .

وهكذا يبرئ بعض الباحثين نيقولاوس من تهمة التهتك والانحلال ويرون أن أتباعه هم الذين أساءوا فهم دعوته . ويضيف يوساب القيصرى إن الرسول متياس نادى بتعاليم نيقولاوس نفسها» ويقال إن متياس أيضاً نادى بالتعليم نفسه أننا يجب أن نحارب الجسد ونذله وألا نرخى له العنان للتمتع بملذاته بل يجب أن نقوى الروح بالايمان والمعرفة .»

ب) أعلام الهرطقة الغنوسية في القرن الثاني:

قبل أن نعرض لغنوسية فالانتينوس وأتباعه يجدر بنا أن نذكر بعض الطوائف الغنوسية التى أشار إليها فى كتاباتهم آباء الكنيسة الأوائل وبخاصة هيبوليتس وأبيفانيوس نجملها فيما يلى :-

الدوستيون :

- نادى الدوستيون بأن جسد المسيح لم يكن من لحم ودم حقيقى بل مجرد طيف خادع وعابر . وبناء عليه فقد ذهبوا إلى أنه لم يكابد أى عذاب أو ألم حقيقى ولم يمت أو يقم من الأموات . ولم يقتصر هذا الفكر الدوسيتى على الدوسيتيين وحدهم فقد شاركهم فيه معظم الغنوسيين وعلى الأخص باسيلدس وساتورنينوس وفالانتينوس ومارسيون كما أن المذهب المانى - كما سوف نرى - يشاركهم هذا الاعتقاد نفس .

- سبق أن أشرنا إلى مجموعة من الغنوسيين تعرف بالأنتاكتيين لم يجمع بينهم مذهب واحد بقدر ماجمع بينهم نزوعهم نحو الانحلال والتهتك والانغماس الكامل فى الشهوات واللذات .

- كانت هناك طائفة غنوسية تعرف بالبروديسين (نسبة إلى مؤسسها) Prodicus . هذه الطائفة ركبها الغرور فظنت أنها عائلة مالكة تتميز على كل الناس وأنها فوق كل أشكال العبادة والصلاة التى اعتبروها أمرا يليق بالجماهير الجاهلة فقط . وهذه الطائفة ومثيلاتها قريبة الشبه من النيقولاويين والأنتيكاتيين .إن الغنوسية بمعناها الأصلى والحقيقى تعنى المعرفة الفوقية أو النورانية وتعنى أيضاً فى كثير من الأحوال الدعوة إلى الزهد والتقشف . ولكنها كثيرا ما تحولت على أيدى الدهماء من أتباعها إلى دعوة إلى الفجور والتهتك . الأمر الذى أثار غضب آباء الكنيسة الأوائل عليها ومقاومتهم لها بكل قوة وحزم .

١) فالانتينوس Valentinus

كان فالانتينوس واحدا من أبرز الغنوسيين ومن أشهر فلاسفتهم . وقد خصه ايربانوس بالهجوم فى كتابه « ضد الهرطقات » . وأغلب الظن أنه ينحدر من أصل يهودى مصرى وأنه تلقى تعليمه فى الاسكندرية . وذاعت بدعته حتى امتدت إلى الغرب . ويزعم فالانتينوس أنه استمد أفكاره الغنوسية من ثيوداس Theodas أحد تلاميذ القديس بولس ، كما زعم أنه رأى الكلمة فى المنام وأنها هى التى أوحت إليه بهذه الأفكار . ويرى هيبوليتوس أن أفكار فالانتينوس أقرب إلى فلسفة فيثاغورث وأفلاطون منها إلى الفلسفة المسيحية . ومن المعتقد أن كتاب « إنجيل الحق » الذى عثر عليه العلماء فى نجع حمادى بصعيد مصر نحو عام ١٩٤٦ أحد مؤلفاته العديدة . ذهب فالانتينوس إلى أن المعرفة التأملية أو المعرفة الغنوسية الموحى بها وليس المعمودية هى الأساس فى خلاص

الإنسان . والرأى عند اللاهوتى المسيحى ترتيليان أن إنشقاق فالانتينوس عن الكنيسة يرجع إلى فشله فى الحصول على وظيفة أسقف . وقد ذاعت بدعه فى روما قبل عام ١٤٠ م . ودفعت هرطقته الكنيسة إلى طرده منها فرحل إلى قبرص حيث وافته المنية نحو عام ١٦٠ م .

كان فالانتينوس يتمتع بخيال شاعرى خصيب ساعده فى تطوير أفكاره الغنوسية التى استقاها من بلاد الشرق واليونان القديمة إلى جانب المسيحية وخاصة إنجيل يوحنا ورسائل بولس الرسول إلى أهل كولوسى وأفسس . واستخدم فى التعبير عن نظريته الغنوسية الألفاظ نفسها الواردة فى صميم الدين المسيحى مثل « الكلمة » و « الابن الوحيد » و « الحق » و « الحياة والملء » وهى كما قلنا ترجمة لكلمة Pleroma الاغريقية .

والجدير بالذكر أن الأيونات Aeons التى تعتبر حجر الزاوية فى فلسفة فالانتينوس وفى كثير من الفلسفات الغنوسية وردت فى أكثر من موضع فى النسخة الأصلية المكتوبة باللغة اليونانية القديمة من العهد الجديد . غير أن معناها يختلف باختلاف السياق الذى وردت فيه . وقبل أنه نتحدث عن ذلك أرى من المفيد أن أقدم شرحاً لكلمة إيون كما وردت فى قاموس اكسفورد . يقول هذا القاموس : Aeon أو eon معناها الدهر السحيق الذى لا يمكن قياسه فى عمر الكون أو الأبدية والخلود ، وفى الفلسفات الغنوسية و الافلاطونية تلك القوة التى تفيض من الأبدية أو تنبعث من الكائن الالهى الأعلى . ويستخدم القديس بولس هذه الكلمة اليونانية القديمة بمعنى قبل العالم فى رسالته إلى أهل كورنثوس الاصحاح الثانى الآية ٧ : « بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتومة التى سبق الله فعينها قبل الدهر لمجدنا » وبمعنى (قبل بداية العالم) كما جاء فى الاصحاح الثالث من رسالة بولس إلى أهل أفسس : « وأنير الجميع فى ماهو شركة السر المكتوم منذ الدهور فى الله » وبهذا المعنى أيضاً فى رسالته إلى أهل كولوسى (اصحاح آية ٢٦) : « حكمة الله . . . السر المكتوم منذ الدهور ومنذ الأجيال » أو بمعنى (الخالد) مثلما جاء في الآية ١٧ من الاصحاح الأول من رسالة بولس إلى تيموثاوس : « وملك الدهور الذى لا يفنى ولا يرى الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور آمين .» وبمعنى العالمين فى رسالته إلى العبرانيين فى الاصحاح الأول الآية ٢ : (و الله) «كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثا لكل شيء الذى به أيضاً عمل العالمين .»

* * *

يذهب فالانتينوس إلى أن الله أو الكائن الأول السرمدى الذى يسميه الهاوية لاقرار ولاحدود له . والهاوية لم تولد فهى مطلقة ولا نهائية وغير مرئية ولا إسم لها كما أنها تستعصى على الفهم والإدراك . ولكن الله وهو الآب لكل الكائنات قادر على التطور . وقد ظل هذا الأب عبر الزمن السحيق يتأمل فى صمت جلاله ومجده وجماله غير المحدود . ولهذا فالصمت أو الوحدة هى زوجته التى تتمثل فى تأمله الساكت لذاته . ولهذا يرى بعض أتباع فالانتينوس أن الهاوية تشمل منذ إبتداء الدهر مبدأى الذكورة والأنوثة معا . والأمر الذى حدا هؤلاء الغنوسيين إلى الجمع بين هذين المبدأين

معـا هو إيمانهـم أن الله هو الحب الخـالص الـذى يقـتـضى وجـودا ينصـرف إليـه هذا الحـب . وفكر فالانتينوس فى ذلك السر الكائن قبل الخليقة الذى حـاول رجال اللاهوت تفسيره فهداه تفكيره إلى وجـود كينونة ثالثة مستقـرة داخل الجـوهر الإلهى . يقـول فـالانتينوس إنه مـادام الله هو الحب فـهـو يشتمل على ثالوث مكون من المحب والمحبوب والرباط الذى يربط بينهما .

وفيما يلى صورة تقريبية لقصة الخلق كما يتصورها الغنوسى فالانتينوس .

بعـد الصمت السـرمدى يفيض من الهاوية أى من الكائن الإلـهى ثلاثون ايونا تتعـاقب على شكل كائنات نورانية . هذه الأيونات الثلاثون تتكون من خمسة عشر زوجا تكونت على مدار ثلاثة أجيال متعاقبة هى ogdoad ومعناها ثمانية و decad ومعناها عشرة و dodecade ومعناها اثنا عشر . وفى البـدء ينبـعـث من الله أو الكـائن الأعـلى الزوج الأول من الأيـونات الذى يتكون من الفكـر (أو العقل المنتج) الذى يمثل الذكـورة والحـقيقـة المسـتقـبلة receptive التى تمثل الأنـوثة . هذا الزوج ينجب بدوره زوجا ثانياً مكونا من الكلمة والحياة اللتين ينجبان بدورهما زوجا ثالثاً همـا الإنسان الأمثل والكنيسة الأمثل . والزوج الأول المتكون من العقل والحقيقة هو الأصل فى وجـود كل شىء وينبعث منه عشرة أيونات (أو خمسة أزواج) . ثـم ينجب الزوج المكون من الكلمة والحياة إثنى عشرة أيونا (أو ستة أزواج) . وبهذا يصل عـدد الأيونات المنبثقة إلى ثمانية وعشرين أيونا ، يصيبها الضعف والوهن بمقـدار بعـدهـا عن المركـز أو عـن الايون الأول . وأخـيـراً ينجب الزوج الأول مـن الأيونات (العقل والحقيقـة) آخر زوج وهو المسيح الآتى من السمـاء والروح القـدس (المؤنثة) . وبذلك يصل مجموع الأيونات إلى ثلاثين أيونا تشكل الملءأو البليروما .

وتلعب صـوفـيـا أو الحكمـة الأدنى والتى تسـمى أحـيـانا أشـامـوث Achamoth أو تشاكموث Chakmuth دورا هاما فى هذا النظام الغنوسى . وصوفيا روح العالم وهى أيون أنثوى يعتبر أضعف الحلقات فى سلسلة الأيونات المنبعثة من الذات الإلهيـة بسبب بعدها عن هذه الذات . ومركزها فى هذه الأيونات هو الثامن والعشرون . وصـوفيا هى الجسر الذى يربط فى الهاوية بين الله وعـالم الواقع . يقول فـالانتينوس كـلاما أقـرب إلى الشعر منه إلى الفلسفة مفاده أن صـوفيـا شعرت بغربتها عن الأب أو الله فاستبـد بها الشوق الجارف إلى الاتحاد معه مباشـرة فتخطت أو تجاوزت الحلقـات الوسيطة التى تفـصل بينها وبين الله . وبذلك التخطى ارتكبت صوفيا إثمـا بتجـرؤها على ذات الجلال . . . وتجـاوزت صـوفيـا حـدودها عندمـا تخطت كل الحلقـات التى تفـصلهـا عن الله وقامت من تلقاء نفسها بالقفز قفزة واحدة فى الهاوية تقرباً من الذات الالهية . وبسبب مسلكها الآثم وتجرؤها على نظام الكون أنجبت بنتا اسـمهـا حكيـموث (أى العلوم) التى أنجبت بدورها بمسـاعـدة يسوع مخلوقا اسمه الديمارج أو الصانع (أى صانع السموات والأرض) . وقد تسببت صـوفيا بنزقها وطيش عواطفها إلى الاساءة إلى البليروما (أو الملء) والاخلال به . ولهذا حكم عليها الملء بإقصائها بعيدا عنه والتجـوال خارجه كما كتب عليهـا أن تعيش فى حالة من الخوف والقلق واليأس . وترنو

صوفيا إلى الخلاص من العذاب الذى يصيبها فيصعب حالها على الأيونات التى تظهر العطف عليها ، فيأمر الله نفسه بتكوين زوج الأيونات الأخير الذى يكتمل به عدد الأيونات ثلاثين أيونا . هذا الزوج الأخير وهو المسيح والروح القدس خلقهما الله من أجل وضع حد للفوضى والقضاء على المولود المجهض الشائه والتسرية عن صوفيا المحزونة وتخليصها من عذابها . ويقوم المسيح والروح القدس بتعزية صوفيا ويفصلان مولودها الشائه عن الملء أو البليروما . وأخيراً تقوم الأيونات الثلاثون بتكريم الله أو الأب فتخلق أيونا هو يسوع الذى يطلق عليه فالانتينوس « الكاهن الأسمى العظيم » و « فاكهة الملء المشتركة» . وترسل هذه الأيونات الثلاثون يسوع فيما وراء الملء كعريس لصوفيا التى كانت خارج الملء ليضع حدا للعذاب الذى تتلظى به أثناء بحثها عن المسيح . وبعد معاناة مضنية وعذابات شديدة من جراء جموح عواطفها تتطهر صوفيا وتبرأ مما ألم بها . ثم تزف كعروس إلى يسوع ثم تدلف وبرفقتها كل المخلوقات النورانية إلى عالم المثل .

وهناك فى الكون ثلاثة مدارج للحقيقة المدرج الأول هو العالم المادى الواقع تحت القمر ويسيطر عليه الشيطان والثانى العالم النفسى السماوى الخاضع لحكم الديمارج العدوانى الذى هو يهوا عند اليهود . أما المدرج الثالث والأخير فهو العالم الواقع فيما وراء الكواكب حيث تعيش صوفيا مع بقية الكائنات الروحية . وينقسم البشر إلى ثلاثة أقسام تتمشى مع هذه المدارج الثلاثة هى جسد الإنسان المادى ثم نفسه Soul التى يستقر فيها إدراكه الأخلاقى وقوة عقله . ثم روحه Spirit التى تمر بها الأحلام غير الواعية ويتمثل فيها القبس الالهى . وتتكون هذه الروح من المادة نفسها التى تتكون منها صوفيا ومن المادة نفسها التى يتكون منها الله . والأفلاك والأجرام السماوية فى الغنوسية لها تأثير سيىء فى حياة البشر .

٢) أتباع فالانتينوس (هيراكليون - بطليموس - ماركوس)

راقت غنوسية فالانتينوس فى عيون عدد كبير من التابعين بسبب مرونة بدعته وقدرتها على اتخاذ أشكال مختلفة ، الأمر الذى دعا ترتيليان إلى القول إن هرطقة فالانتينوس «اتخذت لنفسها عدة أشكال مثل المومس التى تغير وتعدل فستانها كل يوم » .

وبوجه عام يمكن القول إن مدرسة فالانتينوس تنقسم إلى قسمين أحدهما شرقى والآخر غربى (إيطالى) . ويذهب القسم الشرقى إلى أن جسم المسيح نورانى - روحانى - سماوى بسبب حلول الروح القدس (أى صوفيا والقوة الإلهية العليا) فيه . أما المدرسة الإيطالية التى تضم كلا من هيراكليون Heracleon وبطليموس فتقول إن جسم يسوع كان جسدا ماديا من لحم ودم ، الأمر الذى استدعى هبوط الروح القدس عليه عند المعمودية .

٣) هيراكليون Heracleon

تلقى هيراكليون العلم مباشرة على يد فالانتينوس . ومن المرجح أن دعوته ازدهرت فى ايطاليا فى الفترة بين عامى ١٧٠ و ١٨٠ م . وترجع أهميته إلى أنه واحد من المعلقين والشارحين الأوائل للإنجيل . وقد قام اللاهوتى المسيحى المعروف أوريجانوس بدحض آرائه وتفنيدها . ولاوريجانوس الفضل فى الحفاظ على عدد كبير من الشذرات التى سطرها هيراكليون والتى كانت معرضة للاندثار . ويعترف هيراكليون بصحة إنجيل يوحنا ولكنه يفسره وفق هواه وبطريقة رمزية تشبه طريقة أوريجانوس فى شرح وتفسير الكتاب المقدس . واستعان هيراكليون بمفردات إنجيل يوحنا مثل الكلمة والحياة والنور والحب والصراع ضد الظلام للتدليل على سلامة أفكاره المهرطقة . ويتمثل جانب من هرطقته فى إنكاره لسلامة الكتاب المقدس من الناحية التاريخية . فقصة المرأة السامرية التى أوردها يوحنا فى الاصحاح الرابع - فى رأيه - قصة رمزية وليست قصة حقيقية . وفيما يلى قصة المرأة السامرية :-

دب الاعياء فى أوصال المسيح وشعر بالظمأ فاقترب من أمرأة سامرية تجلس بجوار بئر يعقوب وطلب منها أن تسقيه . فتعجبت أن يخاطبها وهى السامرية انسان يهودى ، فاليهود يكنون الاحتقار للسامريين . وأعطته المرأة ليشرب فتحدث إليها المسيح قائلاً : « كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً . ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه فلن يعطش إلى الأبد ، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية . قالت له المرأة « ياسيد أعطنى هذا الماء لكى لاأعطش ولاآتى إلى هنا لأستقى .» قال لها يسوع « أذهبى وادعى زوجك وتعالى إلى هنا .» أجابت المرأة وقالت ليس لى زوج . قال لها يسوع « حسنا قلت ليس لى زوج . لأنه كان لك خمسة أزواج والذى لك الآن ليس هو زوجك . هذا قلت بالصدق .» قالت له المرأة « ياسيد أرى أنك نبى . » يتضح من هذه القصة أن المرأة السامرية كانت تعيش مع رجل دون زواج وأنها لم تحاول الكذب على المسيح كما أنها أدركت أن الذى يخاطبها هو المسيح : فقد قالت : « أنى أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح يأتى فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شىء قال لها يسوع « أنا الذى أكلمك هو .»

يقول المهرطق هيراكليون فى تفسير هذه القصة إنها ترمز لخلاص صوفيا ذلك الأيون الذى أضناه البعد عن الله . وإن بئر يعقوب يرمز لليهودية . ويفسر هيراكليون الرجل الذى يعاشر المرأة السامرية أنه عريسها الروحى الذى جاء إليها من الملء (أو البليروما) . أما أزواجها السابقون الذين ماتوا فإنهم فى نظره يمثلون المادة أو مملكة الشيطان . ومعنى هذا أن قصة المرأة السامرية فى نظر هذا المهرطق ليس لها أساس من الواقع أو التاريخ .

ويطالعنا أيضاً الاصحاح الرابع من إنجيل يوحنا بقصة خادم الملك الذى كان له إبن مريض على شفا الموت فى كفر ناحوم فلما علم بوجود المسيح فى الجليل انطلق هذا الأب مسرعا لمقابلته وطلب منه أن ينزل معه ويذهب إلى كفر ناحوم ليشفى غلامه فنبهه يسوع إلى أنه وغيره لا يؤمنون إذا لم يروا

الآيات والمعجزات . وطلب منه أن ينصرف ويذهب إلى إبنه الذى شفى . وفيما هو منصرف جاء عبيده ليطمئنوه أن إبنه قد شفى بالفعل وأنه الآن بخير وعافية . يقول هيراكليون فى تفسير هذه القصة إن الأب يرمز إلى الاستعداد للإيمان رغم جهله وقصر نظره وإن الابن المريض يرمز إلى الذين يشقون ثم يخلصون عندما تنزاح عنهم وطأة الجهل .

٤) بطليموس :

تتلمذ بطليموس على يد فالانتينوس . و بطليموس هو مؤلف « رسالة إلى فلورا » . وهى سيدة مسيحية على جانب كبير من الثراء حاول اجتذابها إلى تعاليم أستاذه . وينكر بطليموس أن العالم الشرير الذى نعيش فيه يمكن أن يكون من خلق إله كله خير وبركة .

٥) ماركوس :

ماركوس تلميذ آخر لفالانتينوس مارس التدريس فى آسيا الصغرى وربما فى بلد الغال (فرنسا) فى النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى . تأثر ماركوس بالرموز الصوفية التى أضفاها فيثاغورث على الأرقام (أو الأعداد) كما أنه مزج فلسفة فالانتينوس بالفيثاغورثية وكذلك بمذهب الصوفية الغامض والسرى المعروف بالكابالية Cabbalism . والجدير بالذكر أنه أدخل كثيرا من الاحتفالات والمراسم فى العبادة . فضلا عن أنه سعى إلى اجتذاب النساء الجميلات والموسرات إلى أفكاره .

٦) بارديسانيس Bardesanes

ينتمى بارديسانيس (أو بارديسان Bardisan) إلى مدرسة فالانتينوس الغنوسية . وقد كان عالما وشاعرا سوريا متميزا عاش فى بلاط أمير إسمه Edessa فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . واعتقد الباحثون أن ميوله الغنوسية ليست واضحة . ويبدو أنه كان شديد القرب من الكنيسة الأصيلة . ويقال إن بارديسان ألف كتيبا باللغة السريانية هاجم فيه بدع المهرطق مارسيون . غير أن معظم ماكتب باد واندثر باستثناء كتاب واحد بعنوان « حوار حول القدر » . وهو كتاب يخلو تماما من أى أثر للغنوسية . ولا يعرف إذا كان هذا الرجل أو إبنه هارمونيوس Harmonius هو الذى وضع مائة وخمسين ترنيمة ظل المسيحيون يترنمون بها فى المناسبات والأعياد الدينية لفترة غير قصيرة . وقد ذاعت شهرة بارديسان فى منطقة جنوب نهر الفرات ويقال إنها وصلت إلى حدود الصين .

٧) أمونيوس السقاص Ammonius Saccas

عاش أمونيوس السقاص في الاسكندرية في القرن الثاني الميلادي . ورغم اعتناقه للمسيحية فقد

سعى الى انشاء دين موحد يضم اليه جميع الأديان بهدف استرضاء اتباع الديانات المختلفة . وبطبيعة الحال أدى هذا الى الاهتمام بفلسفات ومعتقدات وثنية غريبة عن الدين المسيحي . ويعتبر كثير من الدارسين أمونيوس السقاص مؤسس مذهب الافلاطونية الجديدة . وهو مذهب استوعبته العقيدة المسيحية في الغرب .

٨) باسيليدس Basilides

تتلمذ باسيليدس على يدي المهرطق ميناندر Menander الذي تتلمذ بدوره على يدي سيمون الساحر وهو واحد من أشهر الغنوسيين الذين ظهروا في الاسكندرية اعتبر باسيلدس نفسه وسيطاً بين المسيحيين واليهود . غير أن فلسفته بلغت حداً من التعقيد الميتافيزيقي جعل عامة الناس تنفر منها . وكان يباشر التدريس في الاسكندرية في عهد الحاكم الروماني هادريان (١١٧ - ١٣٨م) . ويقدر البعض عدد الكتب التي ألفها عن العهد الجديد بأربعة وعشرين كتاباً . ولكن اكليمنص السكندري يعتقد أنه ألف ثلاثة وثلاثين كتاباً في تفسير الكتاب المقدس . تأثر باسيليدس بالفلك المصري القديم كما تأثر بالرموز وما تنطوي عليه الأعداد في نظرية فيتا غورث من مغزى صوفي الى جانب تأثره بأفكار أرسطو . ولكن فلسفة باسيليدس تنم عن خلوها تماماً من أثر الأفلاطونية الجديدة فيها بل ومن أثر نظرية فيض الأيونات التي نادى بها عدد كبير من الغنوسيين . ويميل باسيليدس الى التوحيد ولكن هذا لم يمنع من اتهامه بالجنوح الى الثنائية الغنوسية المعتادة . وتتمثل ثنائيته في إيمانه بوجود توتر بين عالمي المادة والروح . وهي الثنائية التي دعت بعض الهرطقة الى اعتناق الدوستية التي تذهب الى أن المسيح لم يصلب ولكنه شبه لليهود والرومان أنه صلب . كما تذهب الى أن المسيح لم يكن له جسد حقيقي بل كان في واقع الأمر طيفاً يبدو وكأن له جسداً . ولم يخلف باسيليدس وراءه من الكتب التي نجح اكليمنص السكندري في الاحتفاظ بجانب منها الأمر الذي حال دون اندثارها . وبمجيء القرن الرابع الميلادي اندثرت أفكار باسيليدس التي انتشرت فقط في مصر . ويقال إن ماركوس وهو من أهالي ممفيس سافر الى اسبانيا حيث نجح في نشر بعض معتقدات باسيليدس على نطاق ضيق .

وقبل أن نشرح أفكار باسيلدس بشيء من التفصيل يجدر بنا أن ننوه بأنه بخلاف معظم الغنوسيين رأى هذا الرجل أن العالم ليس من صنع الديمارج بل من صنع الملائكة . ولكنه درج كعادة كثير من الغنوسيين على الاستشهاد بالآيات الواردة فى إنجيل يوحنا ليثبت أن فكرته عن بذرة العالم (أى أصله) كنور العالم تتطابق مع وصف يوحنا للكلمة بأنها نور العالم . ومن الواضح أن كثيرا من الغنوسيين من عبدة الحية فى منتصف القرن الثانى الميلادى مثل الأوفيين والبيراطيين Perates وأتباع فالانتينوس وجدوا فى إنجيل يوحنا وما ينطوى عليه من معارف صوفية جاذبية خاصة . فضلا عن أن باسيلدس استند إلى آراء جلوكياس الذى ذاعت شهرته كمفسر لإنجيل بطرس .

يذهب باسيلدس فى نظريته الفلسفية إلى رأي قد يبدو غريباً . فرغم إيمانه بالله أو بالمطلق كما يسميه فإنه يرى أننا نخطىء عندما نقول إنه موجود . وحجته فى ذلك أننا لا نستطيع أن نقول عن كائن لا سبيل إلى وصفه أو تسميته بأنه موجود . وهو يعتقد أن الأب وإسمه باليونانيةAbraxas أو Abrasat خلق العقل nous الذى خلق اللوجوس (الكلمة) الذى خلق فرونايس (الفطنة) التى خلقت كلا من صوفيا (الحكمة) وديناميس (القدرة) اللتين خلقتا بدورهما السماء الأولى . والرأى عند هذا الغنوسى أن عدد السماوات أو دوائر الخلق تصل إلى نفس عدد أيام السنة وهى ٣٦٥ .

وفى حين يميل الغنوسيون الآخرون إلى الأخذ بنظرية الفيض المنبعث من الله الذى أدى إلى وجود العالم يرى باسيلدس أن كلمة الله الخالقة هى التى كونت بذرة هذا العالم الذى يتكون ويتطور وفقا لنظام رياضى وقانون ثابت على نحو شبيه بفرع الشجرة وأوراقها التى تنبت وتترعرع من البذرة . وجميع الأشياء فى الخليقة فى نظره تتطلع إلى الله فى الأعالى . فالله يجذبها نحوه بجماله الذى ليس له نظير . ويذهب باسيلدس إلى أن لله ثلاثة أبناء أو ثلاث بنوات تشاركه جوهره نفسها . هذه البنوات الثلاث هى الروحى Pneumatic والنفسانى Psychic والمادى hylic . والبنوة الأولى (الروحية) تصعد فى إتجاه الله وتندفع نحوه بسرعة الفكر لتحقيق حريتها . وهى تحقق حريتها عندما تبقى مع الملء (أو البليروما) أو روح العالم المباركة . وتحتوى هذه البنوة الأولى على سبعة من عظام الجان التى تتحد مع الأب العظيم وتكون مايسمى بالأجدود الأولFirst Ogdoad الذى تتمثل فيه كافة الدوائر الأدنى من الخلق . أما البنوة الثانية وهى النفسانية فتسعى (عن طريق الاستعانة بالروح القدس كى يحملها إلى فوق تماما مثلما تحمل الأجنحة الطير إلى أعلى) إلى اتباع السبيل نفسه الذى تسكله البنوة الأولى . ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى تخوم الملء (البليروما) كما أنها لا تستطيع البقاء فى الطبقات والمناطق العليا مثل السمكة التى لا يمكنها أن تتحمل هواء الجبال والمناطق المرتفعة . والبنوة والثالثة التى تبقى فى النهاية فى بذرة العالم تحتاج إلى التطهير والخلاص عن طريق المسيحية .

ويضيف باسيلدس أن اثنين من الأركونات أى حكام العالم (أو الديمارج فى اللغة الغنوسية المألوفة) خرجا من بذرة العالم . والأركون الأول يفوق الأركون الثانى فالأركون الأول لاحد لعظمته وجلاله وجماله وقوته . فلاغرو إذا رأيناه يخلق العالم الأثيرى والسماوات العليا فى حين يقوم الأركون الثانى بخلق السماوات والأجرام الأدنى التى تقع أسفل القمر . وينجب كل من الأركونين ولدا يفوق كل واحد منهما أباه وينقل كل ابن إلى أبيه تلك المعرفة الغنوسية التى يتلقاها كل من الابنين من الروح القدس حول الروح الأسمى وطريق الخلاص . وبذلك يقود الابن أباه إلى التوبة .

يقول باسيلدس إنه ليس هناك مسيح واحد بل ثلاثة مسح : المسيح ابن الأركون الأول المسيح ابن الأركون الثالث والمسيح ابن مريم . ولكن هؤلاء الأمسحة الثلاثة هم فى حقيقة الأمر مسيح واحد

يعيد الطبائع الروحية المنبعثة من بذرة العالم إلى وحدتها الأصلية . يقول الشماس منسى القمص فى كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية » إن باسيلدس ذهب إلى أن يهوه إله اليهود كان رئيس ملائكة من المرتبة الثانية ثار عليه جميع الرؤساء بسبب رغبته العارمة فى التحكم والسيطرة . فأرسل الله ابنه البكر نوس (العقل) لتخليص البشر من سيطرة الملائكة التى خلقت العالم . ويصف باسليدس نوس الذى هو يسوع المسيح بأنه طيف قادر على تغيير هيئته وإتخاذ مايشاء من أشكال . ويعتقد هذا المهرطق أن الذى صلب بالفعل ليس المسيح بل سمعان القيروانى الذى اتخذ المسيح هيئته أثناء سيرهما معا على الطريق إلى الصليب . ولما أتخذ يسوع شكل سمعان القيروانى وقف على جانب الطريق وهو يسخر من اليهود والرومان الذين توهموا خطأ أنهم صلبوه . ثم انطلقت روحه غير المرئية إلى السماء .

وتتضارب الآراء فى تقييم تعاليم باسيلدس الأخلاقية فالبعض يذهب إلى أنه كان يدعو إلى نوع من الزهد المعتدل والبعض الآخر يرى أنه يعلى من شأن الغريزة الجنسية . يقول الشماس منسى القمص نقلا عن المؤرخ ابن العمرى إن باسيلدس قام بتكريم الحية وتمجيدها باعتبارها رمزا للجماع والتناسل فهى التى أغوت حواء بممارسة الجنس . وسواء كان باسيلدس يدعو إلى الزهد أم لا فلا مناص من القول إن أتباعه انصرفوا عن حياة الزهد إلى حياة الانحلال .

٩) ساتر نينوس Saturninus

مارس ساتر نينوس (الذى يعرف أحيانا باسم Satornilos) - وهو تلميذ المهرطق ميتاندر - نشاطه الغنوسى فى أنطاكية فى الفترة بين عامى ١٠٠ و ١٥٠ م وهو يمثل تأثير الغنوسية على المجتمعات اليهودية - المسيحية فى آسيا . ويطلق عليه جاستين مارتير (الشهيد) لقب « الغنوسى الأول الكبير » ، كما أن ايريانوس يلقى الضوء عليه فى الجزء الأول من كتابه « ضد الهرطقات » . فيقول إن هذا المهرطق قسم الجنس البشرى إلى قسمين : أولئك الذين لهم شركة فى النور السماوى وأولئك الذين حرموا منه .

اتسمت فلسفة ساتر نينوس بالثنائية الواضحة المتمثلة بين الله وابليس كما اتسمت بالدعوة إلى الزهد والتقشف . والرأى عنده أن الله هاوية لا يمكن سبر غورها ويجهلها الإنسان جهلا مطلقا وأن روح العالم أو نوره انبعث منه بالتدرج كما انبعث منه أيضاً الملائكة ورؤساء الملائكة ومصادر القوة ، وفى الدرك الأسفل نجد سبعة أجرام سماوية ملائكية يحكمها الديمارج أو إله اليهود . وإبليس الذى يحكم عالم المادة يقاوم باستمرار مملكة النور . وتقوم أرواح هذه الأجرام الفلكية السبعة بغزو مملكة إبليس وتقتطع جزءا من المادة الخاضعة له ليكون به العالم المادى بمافيه الإنسان الذى يودع الإله الأسمى فيه قبسا من لدنه . ولايسكت إبليس على هذا الغزو . ولهذا يخلق جنسا بشريا ماديا يتعقب الجنس البشرى الروحى ، ولا يكف عن مطاردتهم مستعينا بشياطينه وأنبيائه الكذبة . ويعجز

إله اليهود وأنبياؤهم عن التغلب على هذا الجنس البشرى المادى فيرسل الله الرحيم أيونا غير منظور هو نوس - الذى سبق الإشارة إليه - إلى الأرض كى يعلم الناس الروحانيين المعرفة الغنوسية وضرورة الزهد والتقشف والامتناع عن الزواج وأكل اللحوم حتى يستطيعوا الوقوف فى وجه إبليس والتحرر من سلطانه وكذلك التحرر من سطوة إله اليهود وأرواح الأفلاك الخاضعة له .

١٠) مارسيون Marcion

كان مارسيون - وهو إبن أسقف - من أشد المهرطقين خطرا على الكنيسة المسيحية فقد سبب انشقاقا عليها يتبعه فى ذلك عدد هائل من الأتباع والمريدين فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية . وزاد من خطره أن شخصيته تفيض الحيوية والحماس والرغبة فى تغيير العالم .

ولد مارسيون - الذى يعرفه البعض باسم مركيون - عام ٨٥ م فى مدينة سينو ب الواقعة على الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود بآسيا الصغرى وأصاب ثراء عريضا من الاشتغال بالتجارة . ورغم أنه وهب ماله للكنيسة فإنها قامت باستبعاده منها بسبب بدعه وهرطقاته التى أكثر من أسفاره لنشرها بين الناس فى منتصف القرن الثانى الميلادى . ويقال إنه سافر لهذا الغرض إلى روما فى الفترة بين ١٤٠ و١٥٥ ميلادية تقريبا . وكانت روما محط أنظار الغنوسيين تجتذ بهم من كل حدب وصوب . غير أنه لم يكن غنوسيا بالمعنى المفهوم أو الكامل . يقول جون لوريمر عن هذا فى كتابه « تاريخ الكنيسة » إنه لم يستخدم الأساطير أو اللغة المجازية التى تتميز بها الغنوسية . لم يستخدم الأفكار الخاصة بالأيونات والملء ونظام الديمارج أى الآلهة المتتابعة . لم يعلم أسرارا كالديانات السرية ولم يشجع الفرائض السرية . والخلاص بالنسبة له هو بالايمان وليس بالمعرفة . وكان خلاصا للجميع وليس لمجموعة صغيرة غنوسية .

نادى مارسيون بأن المسيحية هى الدين الحق وأعلن شديد استمساكه بها ورفضه للدين اليهودى الذى ناصبه عداء سافرا ، الأمر الذى جعل الباحثين يلصقون به تهمة معاداة السامية ودفعته كراهيته لليهود إلى تغيير الآية التى قال فيها المسيح : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الانبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل» . (إنجيل متى الأصحاح الخامس الآية ١٧) إلى « ما جئت لأكمل بل لأنقض» . والمسيح فى نظره يمثل الخير فى حين أن يهوه إله اليهود إله قاس شرس لا يستطيع أن يصل فى وصاياه إلى أكثر من العدل أو الحق : « العين بالعين والسن بالسن » . وينكر مارسيون وجود أية علاقة على الاطلاق بين المسيحية وما سبقها من أديان سواء كانت يهودية أو وثنية . فالمسيحية فى نظره ليست امتدادا أو تطورا لليهودية بل شيء مختلف تماما عنها هبط على الأرض فجأة من السماء .

والمسيح لم تلده امرأة ولكنه نزل فجأة من السماء فى مدينة كفر ناحوم فى السنة الخامسة عشر من عهد الأمبراطور تيبريوس ليكشف للبشر عن إله الخير الذى أوفد إليهم . وليس لهذا المسيح أية علاقة بالمسيا الذى بشر العهد القديم بمجيئه . والإله الحقيقى فى رأى مارسيون إله محتجب ، هو

الإله المجهول الذى نادى به بولس الرسول فى أريوس باغوص (أعمال ١٨ : ٢٣) والذى ظهر فى شخص يسوع المسيح ليخلص الناس من الإله اليهودى يهوه . هذا المسيح لم يمت على الصليب ولم يدفن ولم يقم من الأموات . ولكن جسده كان طيفا أوشبحا اختفى فجاة ليبشر الموتى فى الهاوية ثم رجع بعد ذلك ليقوم بعمله كالأب المحتجب فى السماء .

ويقول جون لوريمر إن مارسيون رفض العهد القديم برمته كما رفض أجزاء كثيرة من العهد الجديد الذى لم يقبل من أناجيله الأربعة سوى إنجيل واحد هو إنجيل لوقا بعد أن استبعد منه الاصحاحات الأربعة الأولى حتى يتفادى نسب يسوع إلى اليهود ونسل داود . حتى أعمال الرسل رفضها باعتبارها طائفة من الكتابات التى سطرها المتهودون . وكان الكاتب المفضل لديه هو بولس الرسول بسبب شدة هجومه على المتهودين ولأن بولس أنحى على بطرس باللائمة لتعاطفه مع هؤلاء المتهودين : « ولكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودى تعيش أمميا لا يهوديا فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا » (غلاطية أصحاح ٢ آية ١٤) . ورغم أن مارسيون كان معجبا برسائل بولس باستثناء رسالتيه الأولى والثانية لتيموثاوس ورسالته لتيطس فإن هذا لم يمنعه من اجراء بعض التعديلات فى الرسائل المقبولة لديه فقد كان همه الأول والأخير تطهير العهد الجديد من أية اشارة من شأنها أن تثبت أن المسيحية مرتبطة باليهودية أوأنها امتداد لها . من ثم حرصه على القول إن إنجيل لوقا هو الإنجيل الصحيح وإن الأناجيل الثلاثة الأخرى أضافتها الكنيسة خطأً تحت تأثير المتهودين . ولهذا قال ترتيليان عنه :-

« إن مارسيون يعلم الكتاب المقدس لا بقلمه بل بمشرطه مستأصلاً كل ما لا يوافق تفكيره .» علما بأن كتابات مارسيون اندثرت وأن الدارسين يستقون معلوماتهم من المجلد الذى ألفه ترتيليان عنه تحت عنوان « ضد مارسيون » .

والجدير بالذكر أن مارسيون ألف مجلدا يتكون من أحد عشر كتابا يضم نسخة مبتسرة وشائهة من إنجيل لوقا وعشرة من رسائل بولس الرسول ، كما أنه غير من ترتيب هذه الرسائل بادئا إياها برسالة بولس إلى أهل غلاطية ، وأيضاً إستبعد تلك الرسائل التى تتضمن هجوما على الغنوسية والغنوسيين مثل رسالته إلى العبرانيين وأناجيل متى ومرقص ويوحنا ورؤيا يوحنا وأعمال الرسل . ويرى الدارسون أن إبرازه غير العادى للخلافات بين هجوم بولس الرسول على المتهودين وعطف الرسل الآخرين عليهم مهد الطريق لظهور تلك المدرسة التى تصدت للكتاب المقدس بالنقد والتحليل والمعروفة بمدرسة تيوبنجن Tubingen .

وتخلو تعاليم مارسيون من التأمل والتصوف وتجنح إلى العقلانية كما أنها تركز على تأكيد الثنائية واظهار التناقض الموجود بين العهدين القديم والجديد أى بين اليهودية والمسيحية . وقد عالج مارسيون فى كتاب له بعنوان « التناقضات» الفوارق بين الدينين . ومنها أن اليهودية تقول : « أحب جارك واكره عدوك . . . . والعين بالعين والسن بالسن » فى حين إن إله العهد الجديد يوصينا بأن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا .

لقد كان مارسيون منشغلا انشغالا كاملا بانتشار الشر فى العالم ، الأمر الذى جعله يعتقد أن المادة شر مستطير وأن هذا الشر لا يقتصر على الجسد بل يمتد إلى الروح نفسها رغم أنه يبين التناقض والثنائية الموجودة بين الروح والجسد . وانتهى به هذا إلى الاعتقاد بأن الاله الحقيقى لابد وأن يكون منفصلا انفصالا تاما عن أى شيء مادي . والذى لا شك فيه أن إيمانه بأن جسد المسيح ليس سوى طيف نتيجة طبيعية لمقته الشديد للمادة .

وبالرغم من أن مارسيون رفض التزام المسيحيين بقوانين الأخلاق فإنه نادى بأقصى درجات التقشف والزهد وعدم الاشتراك فى أية احتفالات دينية . فضلا عن الامتناع عن الزواج وأكل اللحوم وشرب الخمور . ولم يسمح بأكل السمك . كما أنه سمح بتعميد الأزواج بشرط أن يتعهدوا بالامتناع عن ممارسة الجنس . وفى عبادته استبعد الخمر من المناولة . ولكنه احتفظ بالخبز المقدس . وكان يعطى للمتعمدين حديثا لبنا ممزوجا بالعسل . والغريب أنه - حسب رواية ابيفانيوس - سمح للسيدات بممارسة شعائر التعميد ، وهو الأمر الذى رفضته الكنيسة تماماً .

ولم تكن المارسونية مجرد فلسفة بل كانت كنيسة أو تنظيما دينيا له أتباعه المنتشرون فى إيطاليا ومصر شمال أفريقيا وقبرص وسوريا . واستمرت فى شكلها المنظم حتى القرن الخامس الميلادى . وراقت الأفكار الماسونية بوجه خاص لدى الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية ، الأمر الذى يؤكد مقدار خطر مارسيون . فلا غرو إذا اعتبره جاستن الشهيد أخطر مهرطق فى عصره لدرجة أن الكنيسة قبل موته عام ١٦٠ م ردت إليه كل عطاياه المالية . ويقال إنه عندما تقابل مع القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا فى روما سأله « هل تعرفنى؟ » فأجابه بوليكارنوس :« نعم . أنت الأبن الأكبر للشيطان » .

١١) أتباع مارسيون وشيعهم الثلاث :

يعتبر بريبو Prepo والأشورى لو كانوس Lucanus وأبيليس Apelles من أهم أتباع المارسونية الذين استطاعوا أن يضيفوا إلى هذا المذهب التأمل الغنوسى الذى كان يفتقر إليه . فضلا عن أنهم لطفوا من حدة عداوة المارسونية للوثنية واليهودية . وقد شكلت المارسونية خطراً داهما على الكنيسة بسبب حرصها على النقاء الأخلاقى المتمثل فى الامتناع عن الاستجابة لشهوات الجسد من ناحية واستعدادهم للموت والشهادة عن طيب خاطر من ناحية أخرى ، بعكس بعض الغنوسيين الذين تفادوا قدر المستطاع تعريضهم للاضطهاد . وقد أمر الامبراطور قسطنطين أتباع المارسونية بمنعهم من مزاولة عباداتهم بأشكالها العامة والخاصة وأمر بتسليم أماكن اجتماعهم إلى الكنيسة الكاثوليكية .وقد ترعرعت المارسونية فى القرن الخامس الميلادى . ورأى مجلس ترولان Trullan المنعقد فى ٦٩٢ أنه من المفيد محاولة إصلاح ذات البين بينها وبين الكنيسة . وظلت آثار هؤلاء المهرطقين باقية حتى القرن العاشر الميلادى . وفى الغرب قام الكاثاريون Cathari وأيضاً البولصيون Paulicians الذين لجأوا إلى بلغاريا باحياء مذهبهم .

وفيما يلى نبذة عن أهم ثلاث شيع مارسونية انبثقت عن الأوفية :-

الأوفيون Ophites

ذكرنا فيما سبق أن الأوفيين معناها أخوة الحية أو عبدتها . وهى عبادة وثنية يعتقد الدارسون أنها نشأت قبل ظهور المسيح ولكنهم يعجزون عن تتبع مصدرها . وقد أوضح ليبسيوس Lipsius أن لهذه العبادة علاقة بالأساطير السورية - الكلدانية (العراقية) وبقيت جماعة الأوفيين على قيد الحياة حتى القرن السادس الميلادى بدليل أن الامبراطور جستنيان إستن عام ٥٣٠ القوانين التى تهدف إلى تحريمها .

والكتاب المقدس يشير إلى الحية فى أكثر من موضع . فهى مرتبطة بسقوط الإنسان وطرده من الجنة وغواية حواء لآدم (أنظر الاصحاح الثالث من سفر التكوين) وأيضاً بعصا موسى السحرية (أنظر الاصحاح الرابع من الخروج) ، كما أنها ترتبط فى البرية بالقدرة على الشفاء (الاصحاح الواحد وعشرون من العدد والأصحاح الثالث من يوحنا) . والحية كما وردت فى الكتاب المقدس تمثل روح الشر الذى كان سببا فى دمار الإنسان وطرده من الجنة . ولكنها فى الأديان الوثنية ترمز للحكمة الإلهية والحقيقة العظيمة التى تمهد الطريق لتقدم الانسانية . والحية من هذا المنظور هى أول من علم البشر وأنار سبيل الحضارة أمامهم بأن علمتهم التمييز بين الخير والشر . ومن ثم ينظر الأوفيون إلى سقوط آدم على أنه انتقال من حالة العبودية غير الواعية إلى الحرية الواعية والاستقلال فى الحكم . ويعتبرون أن الحية هى الكلمة (لوجوس) وأنها الوسيط بين الله (الآب) والمادة ، وحلقة الاتصال بين العالم الأدنى والعالم الأسمى . والحية تمثل الطريق إلى الخلاص والتطور والتقدم . وهو طريق شائك ومتعرج وطويل . وهذا رأى شديد الشبه برأى المانيين الذين رأوا فى الحية صورة مباشرة للسيد المسيح .

عارض الأوفيون العهد القديم معارضة شديدة وهاجموا إله اليهود وخالق العالم الذى أطلقوا عليه أسم يالدابوث Jaldabaoth ورموه بالشر وكراهية البشر ، الأمر الذى يشير إلى وجود أوجه شبه بين الفلسفة الغنوسية التى استحدثها فالانتينوس وبين مذهب الأوفيين الذى يفوق غنوسية فالانتينوس فى الانحلال والبعد عن المبادئ المسيحية .

وقد تشعب الأفيون إلى عدة شيع أبرزها الشيع الثلاث الآتية : الشيثيون - البيراتيون- القانيون .

(أولا) الشيثيون Sithians

نسبة إلى شيثا الابن الثالث لآدم الذى اعتبرته هذه الطائفة أول إنسان روحى ظهر على الأرض والرجل الذى مهد لظهور المسيح . وقد آمن الشيثيون بأن الروح تتوسط النور الموجود فى العالم الأعلى والظلمة الموجودة فى العالم الأسفل .

(ثانيا) البيراتيون (Peratae) Peratics

البيراتيون كلمة معناها الذين تجاوزوا حدود العالم المادى . وقد وصفهم هيبوليتس بأنهم مجموعة من المنجمين والمتصوفين التثليثيين الذين آمنوا بأن الأب إله والإبن إله آخر والروح القدس إله ثالث ، بل إنهم ذهبوا إلى أن للمسيح ثلاث طبائع وثلاثة أجساد وأن الخلاص قد يصيب كل شيء قابل للقسمة إلى ثلاثة .

(ثالثاً) القايينيون Cainites

شعر القايينيون بالزهو والفخار لأن يكونوا من أتباع قايين الذى قتل أخاه هابيل واعتبروه زعيمهم . كما اعتبروا إله اليهود الذى خلق العالم كائنا واضح الشر وأن مقاومته فريضة الاتقياء . ولهذا قلبوا تاريخ الخلاص رأسا على عقب وقاموا بتكريم سائر الشخصيات السيئة والمشينة الواردة فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ابتداء من قايين الذى قتل أخاه هابيل حتى يهوذا الاسخريوطى الذى سلمم المسيح لأعدائه كى يصلبوه . بل ذهبوا إلى حد القول إن يهوذا الأسخريوطى هو الوحيد الذى يملك سر المعرفة الحقة وأنه خان المسيح بحسن نية بهدف القضاء على مملكة الشر التى خلقها إله اليهود . ويحدثنا أوريجانوس عن طائفة من الأوفيين بلغت عداوتها للسيد المسيح حدا جعلها لاتقبل أى أحد عضوا بها إذا لم يعلن أنه يلعن ويشتم المسيح . ولكن السواد الأعظم من الأوفيين آمنوا بفضائل المسيح والفوائد التى تعود على البشرية من صلبه . وهى فوائد تنبه إليها يهوذا الأسخريوطى بفكره الثاقب . ووضع هؤلاء الأوفيون إنجيلا بعنوان « إنجيل يهوذا » تكريما لشخص يهوذا نشروه فيما بينهم . فلا غرو إذا رأينا أن مذهب تمجيد الحية وعبادتها يشجع الأوفيين على الانغماس فى الملذات والشهوات دون ضابط أو رابط بحجة أنه لا سبيل للوصول إلى المعرفة الكاملة أو الحقة دون أن يجرب الانسان بنفسه أنواع الشرور كافة ، ويفسر البعض الآيات الواردة فى رسالة يهوذا والتى تتوعد المعلمين الكذبة ببئس المصير .و« أيضاً المحتلمون الذين ينجسون الجسد ويتهاونون بالسيادة ويفترون على ذوى الأمجاد » بأنها إشارة إلى الأوفيين .

١٢) تاتيان Tatian (١١٠ - ١٧٢ م)

ولد تاتيان من أصل أشورى واهتدى إلى المسيحية على يدى جاستين الشهيد . وتوفر قبل اعتناقه المسيحية على دراسة الأساطير والتاريخ والشعر واهتم بمشاهدة المسرح والمباريات الرياضية . ولكنه بعد تحوله إلى المسيحية مالبث أن ارتد إلى الغنوسية . ويجد الدارسون بعض وجوه الشبه بينه وبين الغنوسى مارسيون وغيره من الغنوسيين أمثال ساترنينوس وسيفروس . ويتلخص وجه الشبه فى أمرين أولهما عداوته المشبوبة للدين اليهودى وثانيهما افراطه فى الزهد والتقشف .

أنكر تاتيان خلاص آدم مستندا إلى قول بولس الرسول : « نحن جميعا نموت فى آدم » كما أنه

أساء تفسير الآية الخامسة من الاصحاح السابع من رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس التى تحض الأزواج على التفرغ للعبادة والصوم والصلاة واعتبر أن هذا القول دعوة إلى النسك . وبلغ به التشدد مبلغا جعله ينظر إلى ممارسة الأزواج للجنس على أنها نوع من الزنا . ولهذا امتنع هو وأتباعه عن الزواج وأكل اللحوم . فضلا عن امتناعهم ليس عن احتساء الخمر فحسب بل عن استخدامه فى التناول حيث استبدلوه بالماء . وقد أدان كليمنص السكندرى والقديس كيبريان هذه الممارسة . وجاء الامبراطور ثيود سيوس ليصدر مرسوما بتحريمها عام ٣٧٢ م . ويجدر بالذكر أنه نشأت حديثا فى أمريكا طائفة من المسيحيين المتشددين بلغ مقتهم الخمور حدا جعلهم يفعلون الشىء نفسه أى يشربون أثناء التناول الماء بدلا من الخمر .

يقول إيريانوس عن هذا المهرطق إنه كان مغرورا بنفسه يتوسم فيها التفوق والتميز وأنه أستحدث مثل فالانتنيوس الغنوسى أيونات جديدة أوكائنات نورانية جديدة تفيض من الله . غير أن غنوسية تاتيان غير واضحة بالمرة من خلال كتاباته التى لم تندثر والتى اكتشفت حديثا . وهى مبحثان أحدهما بعنوان « مبحث اعتذارى ضد الأمم » والآخر بعنوان « انسجام الأناجيل الأربعة » كتبهما فى الفترة بين عامى ١٥٣ و ١٧٠ م . ومبحثه الاعتذارى للإغريق المكتوب فى عهد ماركوس أو ربليوس يفضح ما تنطوى عليه الأساطير الاغريقية من تضارب وتناقض وسخافات . وفيه يسعى إلى البرهنة على أن موسى والأنبياء القدامى كانوا أكثر حكمة من فلاسفة الاغريق . فضلا عن أن المبحث يزودنا بمعلومات عن تاريخ اليهود القديم ، الأمر الذى جعل واحدا من الأقدمين يقول إن هذا « أفضل وأفيد جزء فى كتاباته . »

ويعتبر علماء اللاهوت كتابه المسمى « انسجام الأناجيل الأربعة » مبحثا هاما . ورغم ذيوعه آنذاك فقد تعرض للضياع حتى اكتشفه الباحثون فى العصر الحديث . فقد كان ثيودوريه يحتفظ بأكثر من مائتى نسخة فى أبرشيته . كما اكتشف العلماء تعليقات على هذا المبحث قام العالم موسنجر بنشرها والتقديم لها عام ١٨٧٦ ثم جاء العالم زاهن ليتوفر على دراسة هذه التعليقات ، ويستخلص منها ما كان النص الأصلى عليه . وليس فى هذا المبحث أى أثر للهرطقة باستثناء استبعاد تاتيان لأسماء أسلاف وآباء المسيح من إنجيل متى وإنجيل لوقا . ولعل دافعه فى هذا كان دافعا دوستيا ينكر أن للمسيح وجودا بشريا أو جسديا ويؤمن بأنه مجرد طيف .

١٣) جاستين الغنوسي Justin

يحدثنا هيبوليتس عن غنوسى مجهول الأصل والتاريخ اسمه جاستين نشر مذهبه سرا بين أتباعه ومريديه الذين أقسموا له بالاحتفاظ بسرية تعاليمهم فيما بينهم ، وترك جاستين وراء ه مجموعة من الكتابات يستدل منها على أن غنوسيته تتلخص أساسا فى تفسيره الصوفى لسفر التكوين وأنه يميل بعض الشىء إلى التهويدية . يقول هيبوليتس إن جاستين يدين بمبدأ عبادة الحية . ولكن الواقع يشير

إلى غير ذلك فهو يعتبر الحية سببا فى كل الشرور التى عرفها التاريخ . وقع جاستين تحت تأثير الأساطير الاغريقية وخاصة أسطورة هرقل وأعماله الخارقة الاثنا عشر . ويؤمن هذا الغنوسى بوجود ثلاثة مبادىء أصلية فى الكون اثنان منها يتصفان بالذكورة فى حين يتصف المبدأ الثالث بالأنوثة . والمبدأ الأول حسب اعتقاده هو الكائن الخير والمبدأ الثانى هو أب الخليقة واسمه إلوهيم Elohim والمبدأ الثالث هو عدن وإسرائيل . ويتخذ هذا المبدأ الأخير شكلا مزدوجا فهو على هيئة إمرأة من الرأس حتى الوسط أما الجزء الأسفل فيظهر على هيئة حية . ويقع أب الخليقة إلوهيم فى غرام عدن فيعاشرها فينجب منها روح العالم التى تتكون من عشرين ملاكا تمثل عشرة منها الأبوة فى حين تمثل العشرة الأخرى الأمومة . وهكذا تعمر الأرض بهم . ويرأس هاتين المجموعتين من الملائكة باروش Baruch مصدر كل الخير المتمثل فى شجرة الحياة الموجودة فى الفردوس . أما شجرة المعرفة فتمثلها الحية ناس Naas وهى الأصل فى كل الشرور . وتقول هذه الأسطورة الغنوسية إن الحية ناس ارتكبت الزنا مع حواء كما ارتكبت جريمة أبشع من الزنا مع آدم الذى يقوم بتدنيس الشريعة الموسوية ونبوءات الأنبياء بدق المسامير فى جسد يسوع وهو على خشبة الصليب . ولكن المسيح قام بتمريره من جسده المادى ليصعد إلى إله الخير ويلتحق به وليصبح مخلص العالم .

١٤) هيرموجينس Hermogenes

كان هيرموجينس رساما فى قرطاجنة فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث . وقد وصفه ترتيليان بأنه رجل صفيق كثير الكلام ودائب الحركة وأنه « تزوج من النساء أكثر مما أنتج من رسوم » . ورغم أنه يحشر فى زمرة الغنوسيين فإن علاقته بالغنوسية واهية للغاية . وتتمثل غنوسيته فى إيمانه بالثنائية الافلاطونية (عالم المادة وعالم المثل) وإنكاره فكرة خلق الخليقة من العدم .

ويضيف هيرموجينس أن العالم بمافيه روح الإنسان تم تشكيله وصياغته من مادة أولية ليس لها شكل . وفسر وجود القبح ومظاهر الشر فى العالم بأن المادة تقاوم سعى الله إلى تشكيلها وصياغتها والتأثير فيها . وظن أن هذا هو الأسلوب الوحيد والأمثل الذى يمكن تفسير وجود القبح والشر على أساسه ، لأنه لوكان الله قد خلق العالم من العدم لجاء خلقه خاليا من الشر ولأصبح خيرا لاتشوبه شائبة . ويقول هذا المهرطق إن المسيح عند صعوده ترك جسده فى الشمس ثم واصل صعوده إلى الآب . وباستثناء هذه الآراء ليس هناك أدنى خلاف بين هيرموجينس وبقية تعاليم الكنيسة .

(ج) أعلام الهرطقة الغنوسية فى القرن الثالث

١) أفلوطين Plotinus (٢٠٤ - ٢٧٠ م)

على الرغم من أن أفلوطين خصص أحد مباحثه المشهورة فى الهجوم على الغنوسية فقد تأثر بها . وهكذا تأثرت المسيحية الغربية ومدرسة أفلوطين الفلسفية بالأفكار الغنوسية .

ولد أفلوطين فى مصر وتعلم فى الاسكندرية على يدى أمونيوس السقاف وبقى فيها حتى التاسعة والثلاثين . ثم استقر فى روما فى وقت عصيب للغاية كاد يودى بالامبراطورية الرومانية ويهددها بالتمزق لولا أن تمكن بعض الأباطرة مثل قسطنطين من الإمساك بزمام الأمور . ولم يتحمل أفلوطين قبح الواقع السياسى فاتجه شطر الآخرة وعالم الخير والخلود والجمال السرمدى . وهو عالم لا يختلف عما تطلع إليه المسيحيون والوثنيون على حد سواء . قام أفلوطين باحياء الافلاطونية ومزجها ببعض أفكار أرسطو وبارمنيدس فلا غرو إذا وجدت هذه الفلسفة قبولا عند بعض كبار رجال الدين المسيحى فى الغرب . ويعتبر بورفيروس Porphyry تلميذه المخلص الوفى .

آمن أفلوطين بالثالوث المقدس على نحو يختلف عن إيمان المسيحية به فهو يسميه الواحد والروح والنفس بدلا من التسمية المسيحية المعتادة الأب والابن والروح القدس . وبعكس المسيحية يرى أفلوطين أن الاقانيم الثلاثة ليست متساوية . فالواحد فى نظره أسمى من الروح والروح أسمى من النفس . وعلى أية حال فشلت هذه الفلسفة فى اجتذاب عامة الناس بسبب صعوبتها وتعقيدها .

ورغم أنه انتقد العقيدة المسيحية فإنه لم يشن حملة ضدها مثلما فعل بورفيروس الذى يقال إنه كتب خمسة عشر كتابا هاجم فيها المسيحية . سخر بورفيروس من العقيدة المسيحية واتهم المسيحيين بتبنى خرافات اليهود وآمنوا إيمانا أعمى بوجود إبن الله وبأنه تألم ومات وقام من بين الأموات . فضلا عن أنه اتهم المسيح نفسه بالجبن وسخر من القديس بطرس والقديس بولس . يقول جون لوريمر فى كتابه « تاريخ الكنيسة » الجزء الثانى إن البعض يظن أن الامبراطور دقلديانوس استند فى اضطهاده للمسيحيين على هجوم بورفيروس على المسيحية .

٢) ماني والمانية

المانية Manism ليست هرطقة بالمفهوم الصحيح بل هى دين جديد كاد انتشاره الكاسح أن يقتلع المسيحية ويعصف بها . ووجه الهرطقة فيها أن مانى واضعها ضمنها كثيرا من الأفكار الغنوسية التى تعتبر خروجا على المسيحية الأصلية . وقبل أن نتناول المانية يجدر بنا أن نشير إلى أن المتراثية Mithraism فلسفة فارسية ظهرت فى القرن الخامس قبل الميلاد وسبقت المانية ومهدت الطريق إلى ظهورها . وانتشرت المتراثية فى عهد الاسكندر الأكبر ووصلت إلى روما فى القرن الأول قبل الميلاد . وهى عبادة لها طقوس وشعائر سرية نادت بتعدد الآلهة ورفعت أباطرة روما إلى مستوى الآلهة . آمنت المتراثية بالثنائية وذهبت إلى وجود مادتين متضادتين ومتعارضتين إحداهما من نور والأخرى من ظلمة وأن لكل من هاتين المادتين ربا أو إلها . فهناك رب النور وهو الله ورب الظلمة وهو الشيطان . والمانية تدين بالثنائية نفسها وتؤمن بوجود صراع أبدى بين قوى النور والظلام .

ومانى فيلسوف فارسى ومنجم ورسام عاش فى القرن الثالث الميلادى (٢١٥ - ٢٧٧ م) فضلا عن أنه درس الطب ومارس السحر . آمن مانى بالمسيحية بعض الوقت ولكنه مالبث أن حاد عنها

فادعى النبوة وأنه مبعوث العناية الالهية . وزعم مانى أن المسيح ترك عمل الخلاص ناقصا فجاء هو ليتممه . وتشبه مانى بالمسيح فاتخذ لنفسه إثنى عشر تلميذا واثنين وسبعين أسقفا يتبعهم نفر كبير من القساوسة والشمامسة أرسلهم إلى جميع بلاد الشرق للتبشير بدعوته بإعتبارها دينا جديدا وليس مجرد مدرسة فلسفية . وبسبب قدرتها الفائقة على التنظيم استطاعت المانية أن تنافس المسيحية وتهددها فى وجودها . إدعى مانى أن دينه موحى به من السماء . والواقع أنه استقاه من مصادر وثنية ومجوسية وطعمه ببعض الأفكار التى أخذها عن المسيحية .

تتسم المانية أو المانوية بشدة عدائها لليهودية . وقام مانى بتطعيم ديانة زارادشت الفارسية ببعض العناصر المسيحية مثيرا ثورة فكرية وأخلاقية بين أبناء جلدته . والمصادر العربية عن مانى والمانية كثيرة أهمها كتاب الفهرست للنديم والملل والنحل للشهرستانى إلى جانب الشاهناما الفارسية للفردوسى . وتذكر المصادر العربية أن مانى واحد من علية القوم فى مدينة حمدان بفارس . ويرى الدارسون أنه ينتمى أصلا إلى طبقة الغنوسيين المتهودين . ويؤمن اتباعه أن الله أنزل على مانى دينه الجديد وهو فى التاسعة عشرة ثم فى الرابعة والعشرين من عمره .وأنه بدأ التبشير بالدعوة وهو فى الثلاثين حيث جاب البلاد المختلفة لاجتذاب التلاميذ والمريدين مدعيا أنه الباراقليط (المعزى أو الروح القدس) الذى وعد المسيح بإرساله بعد صعوده إلى السماء .

ألف مانى عددا كبيرا من الكتب باللغتين السوريانية والفارسية . ولكن هذه الكتب ضاعت ، كما أنه سطر رسالة بعنوان الرسالة الجوهرية بدأها بقوله إنها« من مانى رسول يسوع المسيح المبعوث من عناية الاب .» ورغم أن شابور الأول ملك الفرس رحب به فى بلاطه فإن أفكاره أثارت حقد كهنة الماجوس ضده ، الأمر الذى اضطره إلى الهرب إلى شرق الهند والصين حيث تعرف على الديانة البوذية . ومن ثم تأثره بالمذهب البوذى . وهكذا أصبحت البوذية إلى جانب المجوسية والوثنية والمسيحية أهم العناصر فى تكوين الديانة المانية . وقد كان لمانى محاورات مع أركيلوس طبقت شهرتها الآفاق وذاعت فى بلاد ماوراء النهرين على نحو أسطورى يذكرنا بالمحاورات الشهيرة التى دارت بين سيمون الساحر والقديس بطرس .

وفى عام ٢٧٠ م عاد مانى إلى بلاد فارس حيث استطاع أن يجتذب إليه عددا من الأتباع الذين خلب لبهم عن طريق شرح تعاليمه بالرسوم والصور التى ادعى أن الله أوحى له بها . وسعى مانى إلى استرضاء ملك فارس عن طريق ادعاء القدرة على معالجة ابنه المريض الذى عجز الأطباء عن شفائه . ولسوء حظه مات الصبى على يديه فسخط عليه الملك سخطا شديداً . فألقى به فى غياهب السجون وحكم عليه بالموت . ولكنه استطاع الهرب من سجنه بواسطة تقديم الرشاوى للحراس . غير أن أعوان الملك نجحوا فى إعادة القبض عليه بعد فراره . كما نجح الماجوس فى استصدار حكم بادانته بتهمة العبث بالمقدسات الدينية . وأمر الملك بحرام الأول بسلخ جلده حيا نحو عام ٢٧٧ وحشو جلده المسلوخ بالتبن وتعليقه على باب مدينة جند شابور ليكون عبرة لمن يعتبر وبث الرعب

والهلع فى قلوب أتباعه . ولا زالت البوابة تعرف ببوابة مانى إلى يومنا الراهن . ولم يسلم أتباعه من الاضطهاد القاسى العنيف ، ولكن هذا الاضطهاد لم يحل دون انتشار المانية فى منطقة تركستان وبلاد ماوراء النهرين وشمال أفريقيا وصقلية وايطاليا وأسبانيا . واكتسبت المانية المنتشرة فى أنحاء الغرب وخاصة شمال أفريقيا طابعا مسيحيا .

وبمجيئ القرن الرابع الميلادى انتشرت المانية انتشار النار فى الهشيم فتضافر المسيحيون والوثنيون معا فى وقف زحفها . وتلاشت السماحة التى أظهرتها الكنيسة المسيحية نحو المهرطقين وحلت محلها ضراوة فى الهجوم عليهم فى جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية فقام الامبراطور دقلديانوس عام ٢٨٧ م ومن بعده الأباطرة الرومان بالاجهاز عليهم وتصفيتهم . وكما أسلفنا يرجع انتشار المانية إلى عدة أسباب فى مقدمتها ما كانت عليه من تنظيم شديد وتقديم حلول سهلة ومقبولة لمشكلة وجود الشر . وحتى ندرك مقدار منافستها للدين المسيحى يكفى أن نذكر أن القديس أغسطين - وهو أحد أركان الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب - ظل يؤمن بها لمدة تسعة أعوام كاملة (ويقول البعض إنها امتدت إلى إثنى عشر عاما) قبل أن يتحول إلى المسيحية . والذى أغرى القديس أغسطين باعتناق المانية هو فاوستوس النوميدى أحد أتباع مانى اشتهر ببلاغته ومواهبه الخطابية . ولكن أغسطين مالبث أن اكتشف أن فاوستوس جاهل ودعى ودجال فاشتد الخلاف بينهما . والغريب كما يقول برتراند رسل فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » أن دحض أغسطين للمحاجات المانية التى ساقها له فاوستوس النوميدى كان مبنيا على عدم سلامتها من الناحية العلمية وخاصة فى مجال الفلك . غير أن الدارسين يرون أن القديس أغسطين استفاد فائدة كبيرة من معرفته الوثيقة بالديانة المانية فقد ساعدته هذه المعرفة فيما بعد فى الرد عليها وتفنيدها كما أنها ساعدته فى بلورة معتقداته الدينية الخاصة بالعلاقة بين المعرفة والايمان وبين العقل والوحى وبين حرية الإرادة وجذور الشر . والجدير بالذكر أن الفيلسوف مانى تأثر بغنوسية كل من مارسيون والسورى بارديسان .

وسعى بابا روما ليو الأول فى فترة بابويته التى استمرت من عام ٤٤٠ حتى عام ٤٦١ ميلادية إلى التنكيل باتباع الديانة المانية . ونظرا لانه كان لا يملك السلطة الزمنية فقد سعى لدى القضاء لمعاقبتهم وإصدار الأحكام ضدهم . وقام الامبراطور فالانتيان الثالث (٤١٩ - ٤٥٥) بنفيهم . ولم يكتف الامبراطور جستينيان (٤٨٣ - ٥٦٢) بذلك بل حكم باعدامهم . ونجح اضطهاد الرومان المنظم والمروع لهم بتشتتيهم فاستقر البعض منهم فى بلغاريا لينتقلوا بعد ذلك إلى أوروبا حيث كونوا عددا من الجماعات الغنوسية . وفى القرن الثانى عشر ظهر ناسك اسمه باسل أسس طائفة إسمها البوجو ميلى أو أصدقاء الله . وهى طائفة قريبة الشبه بالمانين والغنوسيين معا . ورغم الحكم على باسل بالموت على الخشبة عام ١١١٨ فقد انتشرت عقيدته فى كل أنحاء البلقان . وظل شيء من نفوذ المانية باقيا فى العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشر .بل إن نفوذ المانية ظل مستمرا فى البلقان حتى الغزو العثمانى لها فى القرن السادس عشر . وعلى أيه حال ظلت المانية تطل برأسها من وقت

إلى آخر وهى تلبس الأقنعة المسيحية أكثر من ذى قبل .ويبدو هذا الطابع المسيحى الظاهري بصورة خاصة فى أفكار عدد من الطوائف الدينية المعروفة فى تاريخ اللاهوت تحت مسميات البوجموليين Bogomiles والبولسيين Paulicians والبريسيليين . Priscillianists والكاثارى Cathari والألبيجينيين Albigenses . ويرى بعض الدارسين أن طائفة الألبيجينيين أوالكاثارى تنحدر من طائفة البوليسيين التى انتشرت أساسا فى منطقة لومباردى وجنوب فرنسا فى القرن الثانى الميلادى . وسوف نعطى نبذة عن هذه الطوائف فيما بعد .

❊ ❊ ❊

يقسم المانيون أنفسهم فى العادة قسمين قسم الأصفياء أو المختارين وقسم المستمعين . والقسم الأول يحق له أن يحيط بكل أسرار هذه الديانة فى حين انه لا يسمح للمستمعين إلا بمعرفة النذر اليسير عنها كما أن هذه الأسرار يتم كشفها لهم بالتدريج . ويرى المانيون أن النور رمز الألوهية وأن جميع الأشياء فى الوجود تتطلع إليه .

فالنباتات المطمورة فى ظلمة الأرض تتطلع بشوق واشتياق فى اتجاه الحرية والنور . ولهذا فإن المختارين يرفضون ذبح الحيوان ويحرمون قطف الزهور بل مجرد انتزاع نصل حشيش من الأرض .

والمانية محصلة مجموعة من العناصر المختلفة تضم الثنائية dualism والواحدية Pantheism والغنوسية وممارسة الزهد والتقشف . وهى تعطى الانطباع بأنهاتتسم بالطابع المادى على رغم من أنها تحمل للمادة بغضا شديدا . تذهب المانية إلى وجود ثنائية جوهرية بين الخير والشر وبين النور والظلام . وقد استمدت هذه الثنائية من فلسفة زراد شت الفارسية . أما طابعها الأخلاقى الأساسى المتمثل فى الزهد الشديد فقريب الشبه بالبوذية . والمانية تنكر الدين اليهودى انكارا تاما على أنه من انشاء إله الظلمة الذى يعبده اليهود وباعتبار أن الشيطان وأعوانه هم الذين أوحوا به . ويرفض مانى الاعتراف بأناجيل المسيحية الأربعة على أساس أن الرسل حرفوها لخدمة مصالح اليهود . ومن ناحية وضع مانى من عنده إنجيلا أسماه آرتن إدعى أن الله أوحى به إليه . وإليه وإلى كتابات معلمهم الأخرى يستند المانيون فى عبادتهم .

تؤمن المانية أن هناك صراعا لا يتوقف أبداً بين مملكة النور التى تمثل الخير ومملكة الظلام التى تمثل الشر وبأن إبليس المولود هو وأتباعه من الشياطين شنوا هجوما على مملكة النور . وجاء العالم الذى نعيش فيه ثمرة هذا الهجوم . وتقول المانية إن إله الظلمة خلق آدم فى صورة إبليس . ولكن آدم يختلف عن إبليس من حيث أنه يحتوى على قبس كبير من الضياء . ثم زود إبليس آدم برفيقة تؤنس وحشته هى حواء التى تمثل الاغراء الحسى . وهى أيضاً تحتوى على قبس من نور ولكن حجمه أقل من القبس الموجود فى آدم . وعاشر إبليس حواء فأنجب منها قايين وهابيل بينما عاشر آدم حواء فانجب منها مولودا بالضياء هو شعثا . وجاء البشر إلى الوجود وهم يحتوون درجات مختلفة من الضوء فالرجال يحتوون درجة أكبر من الضوء من النساء . وهكذا يولد كل انسان وفيه عنصر النور

وعنصر الظلام أى ولديه روح طيبة وجسد شرير فى حالة صراع مستمر . ودور المسيح يتلخص فى القيام بتخليص النور من سجن الظلام . وهو الدور نفسه الذى يلعبه الروح القدس الجالس فى طبقة الأثير الأعلى . ويجذب المسيح والروح القدس إليهما قوى النور الموجودة فى العالم المادى ، فى حين يسعى أمير الظلام والأرواح السجينة فى النجوم للحيلولة دون ذلك . والشمس والقمر فى نظر المانية هما سفينتان براقتان تنقلان القبس المسجون إلى مملكة النور الخالدة .

وتشبه المانية الفلسفات الغنوسية الدوستية فى إنكارها الكامل للوجود المادى للسيد المسيح فضلا عن إنكارها لفكرة تجسيد الكلمة (الله) وهى أهم أركان الدين المسيحى . يقول الشماس منسى القمص فى شرح هذه النقطة فى دين المانيين : « ظهر المسيح بين اليهود لابسا صورة وظل (أي هيئة) جسد انسانى لاجسدا حقيقيا . وأعلن لهم أنه الواسطة الوحيدة لخلاص النفوس من أجسادها . وبرهن على لاهوته بعجائبه . لكن إله الظلمة أغوى اليهود ليصلبوه . ولما لم يكن له جسد فإن الآلام لم تؤثر فيه ولكن اليهود ظنوا أنه صلب . فرجع المسيح إلى الشمس مسكنه الأول بعد أن ترك تلاميذه لتعليم الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى هو البارقليط (أى المعزى الروح القدس) الذى كان مانى يدّعى أنه هو .

وفى حين يفترض مذهب البلاجيانية Pelagianism النقاوة الأخلاقية فى الطبيعة البشرية نرى أن المانية تذهب إلى أن الجسد والمادة شر فى حد ذاتهما . وتلزم المانية طبقة الممتازين بنبذ كل ما هو أرضى وجسدى ودنيوى على الطريقة البوذية وتحرير الروح من أغلال المادة . وهذا لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق الزهد والتقشف . وحتى يحتفظ المختارون بنقاوتهم يتعين عليهم مراعاة التالى :

١ - طهارة اللسان ونقاوة المأكل المتمثلة فى الامتناع عن تناول اللحوم والسمك والحليب والمسكرات حتى ولو كانت الخمر التى تقدم فى المناولة . وتلزم المانية المختارين من أتباعها بالاكتفاء بالخضروات والنباتات (وخاصة الزيتون) التى يتولى السامعون تزويدهم بها .

٢ - تخلى المختارين عن أية ممتلكات دنيوية وعدم الانخراط فى أى نشاط مادى أو صناعى حتى ولو كان هذا النشاط زراعيا .

٣ - الامتناع عن الزواج ومعاشرة النساء .

وتذهب المانية إلى أن هذه القداسة العلوية وغير الطبيعية التى يتحلى بها المختارون تشفع لطبقة السامعين الذين لا مفر فى حياتهم اليومية من ارتكاب الذنوب والمعاصى . أى أن المختارين بقداستهم يكفرون عن ذنوب السامعين . وبالإضافة إلى هذا الغلو فى القداسة تميز المختارون بالغلواء فى التفاخر بالمعرفة الذى اشتهر به الغنوسيون .

ومن ناحية إقامة الشعائر يمكن القول بأن العبادة المانية بوجه عام شديدة البساطة فهى لا تقر النحر وتقديم الذبائح وتكتفى بالصلاة سجودا أربع مرات يوميا يسبقها الوضوء . وكان العابد يتجه أثناء عبادته إلى مصدر الضوء سواء كان شمسا أم قمرا . وخصص المانيون يوم الأحد لتكريم الشمس

وجعلوا منه يوم الصيام . هذا بالاضافة إلى صيامهم أسبوعيا وشهريا وسنويا . ورغم أنهم رفضوا الاشتراك فى أية احتفالات كنسية فإنهم أحيوا فى شهر مارس من كل عام الذكرى المقدسة لاستشهاد معلمهم مانى فى احتفال مهيب . وبطبيعة الحال كانت أسرار الديانة المانية قاصرة على المختارين . ولهذا فإن القديس أغسطين لم يكن على علم كامل بها لأنه كان فى فترة انتمائه للدين المانى مجرد واحد من السامعين .

ومن ثم لا أحد يعرف بالتأكيد طريقة المانيين فى التعميد . وكان أسلوبهم فى التعريف ببعضهم البعض هو مد اليد اليمنى باعتبارها رمزا للخلاص العام من مملكة الظلام وهو خلاص يتحقق على يدى روح الشمس .

٣) طائفة البولصيين Paulicians

يعجز الدارسون عن تتبع أصل هذه الطائفة التى يحتمل أنها سميت باسم القديس بولس الرسول الذى يكنون له كل احترام وتبجيل . والأرجح أنها تسمت باسم المهرطق بولس السمطائى وخاصة لوجود كثير من أوجه الشبه بينها وبينه . ويقال إن مؤسس هذه الطائفة هو قسطنطين الآتى من قرية مانانى وأنه قام بانشاء طائفته فى أرمينيا . . ويبدو أنه تعرض للرجم بالحجارة نحو عام ٦٨٤ م ، وأن دعوته تعرضت للاضطهاد فى الفترة بين عامى ٦٤١ و٦٦٨ م ثم تعرضت هذه الطائفة للمزيد من الاضطهاد فى القرن التاسع تحت حكم ليو أمبراطور أرمينيا . كما أن الامبراطورة ثيودورا حاولت القضاء عليهم قضاء مبرما ، الأمر الذى دفعهم إلى مساعدة المسلمين فى الهجوم على الامبراطورية البيزنطية . ويبدو أن البولصيين امتزجوا بطائفة البوجميليين فى القرن العاشر وأن الطائفتين ذابتا فى بوتقة واحدة فى القرن الثانى عشر .

نادى البولصيون بالثنائية وبوجود إله للخير وآخر للشر . وإله الخير هو خالق السماوات والأرواح أما إله الشر أو الديمارج فهو خالق العالم المادى .

وأنكر البولصيون أن للمسيح جسدا ماديا واعتبروا أن أهمية المسيح تتلخص فى تعاليمه فقط كما أنهم رفضوا الصلبان وجميع أنواع الصور والرسوم . فضلا عن أنهم حذوا حذو مارسيون فى إنكار العهد القديم . وأظهروا احتراما خاصا للقديس لوقا ورسائل القديس بولس . وانقسم البولصيون إلى فئة الجائلين وفئة الناسخين وذهبوا إلى أن الفئة الثانية أدنى مرتبة من الفئة الأولى . وإلى جانب ذلك آمن البولصيون أن جسد المسيح وصلبه وقيامته وصعوده ليست سوى وهم ظنه الناس حقيقة . وأيضاً آمنوا أن الزواج شر والانجاب شر ورأوا أن الاجهاض هو السبيل لازالة هذه الشرور . بل إنهم حبذوا الانتحار وأيضاً حضوا على مساعدة المنتحر على الاقدام عليه إذا خانته شجاعته أمام الموت .

قلنا إن طائفة الألبيجنيين أو الكاثارى تنحدر من البولصيين . فلا غرو إذا رأيناهم يجنحون إلى الزهد والتشدد الأخلاقى الذى اتصف به البولصيون . وامتنع أصفياء الكاثارى عن الزواج مثلما

امتنعوا عن أكل اللحوم والجبن والبيض وفرضوا التقشف الصارم على أنفسهم . غير أن السامعين من الكاثارى - وهى طبقة أدنى من الأصفياء - كان يسمح لهم بالزواج وأكل اللحوم دون السماح لهم بانجاب الأطفال . وباستثناء هذه القيود فإنه سمح لهم بأن يحيوا على النحو الذى يشاءون . ومع ذلك فقد فرضت عليهم عقيدتهم ضرورة التطهر على فراش الموت .

٤) البوجيميليون Bogomiles

يبدو أن البوجموليين ينحدرون من طائفة الكثارى وأنهم تسموا بإسم البلغارى بوجوميل الذى كان يعلم فى بلغاريا فى الفترة بين عامى ٩٢٧ و ٩٥٠ م . انتشرت البوجوميلية حتى وصلت إلى القسطنطينية حيث قام الامبراطور الكسيس كومنينوس بحرق زعيمهم فى عام ١١١٨ م . وإلى جانب ذلك أصدر السنودس عام ١١١٨ أمرا بتدمير كتبهم . ورغم هذا فقد ازدهرت طائفتهم فى منطقتى آسيا الصغرى والبلقان حتى امتزج أتباعها فى نهاية الأمر بالمسلمين الذين قاموا بغزو البلقان

آمن البوجوميليون بوجود إله أسمى هو الآب وأن إبنه ساتانيل Satanael تمرد عليه فطرده أبوه من السماء ، كما آمنوا بأن ساتانيل هو الذى خلق العالم وآدم . ونظرا لأن الآب هو الذى نفث الروح فى آدم فإن بنى آدم ينتمون إلى الله بقدر ما ينتمون إلى الشيطان الذى راود حواء عن نفسه وقام بغوايتها فعوقب بتجريده من طاقاته الخلاقة . ورغم هذا فقد أسند إليه الآب مهمة إدارة شئون العالم . ولما رأى الأب الإنسان يزداد ترديا فى وهدته أرسل ابنه الثانى يسوع إلى العالم على هيئة انسان . وبعد أن تصدى يسوع لمحاربة الشيطان عاد إلى السماء تاركا وراءه على الأرض مخلوقه الروح القدس ليستكمل المسيرة ويستمر فى عمله بين البوجوميليين الذين يعتبرون أنفسهم المسيحيين الوحيد ين ويؤمنون بتحول أجسادهم إلى أجسام أثيرية عند الموت . ويؤمن البوجوميليون أيضاً أن يسوع والروح القدس سوف يمتزجان فى الآب ويتحدان به فى نهاية الأمر بحيث يصير ثالوثهم كيانا قدسيا واحدا . ويرفض البوجوميليون الكتاب المقدس ولكنهم يؤمنون بالعهد الجديد والمزامير . والرأى عندهم أن الشيطان هو الذى ألف العهد القديم باستثناء النبوءات التى اعتقدوا فى صحتها . فضلا عن أنهم رفضوا تعميد الأطفال والتعميد بالماء كما رفضوا الزواج والصلبان والصور والرسوم والصلوات كافة باستثناء « آبانا الذى فى السماوات » .

٥) البريسيليون Priscillianists

مؤسس طائفة البريسيليين رجل من غير رجال الكهنوت اسمه بريسيليان عاش نحو عام ٢٢٠ م إعتنق نوعا من الغنوسية أدخلها مصرى اسمه ماركوس فى أسبانيا . واستطاع بريسليان بفضل علمه وزهده أن يجتذب نحوه أسقفين هما ايثاسيوس Ithacius وهيداسيوس Hydacius وعددا كبيرا من المريدات السيدات . وفى عام ٣٨٠ اجتمع سنودس فى مدينة سر من رأى ليدمغ بعض .

ممارسات بريسليان الدينية مثل الاجتماعات المختلطة من الرجال والنساء وعدم الذهاب إلى الكنيسة أثناء فترة الأربعين يوما من الصوم قبل عيد القيامة . ولكن ادانته لم تمنع من تعيينه أسقفا لأفيلا فى أسبانيا . وفى عام ٣٨١ نجح أعداؤه فى استصدار أمر بنفيه ونفى أتباعه . وتوجه المنفيون إلى جنوب فرنسا ومنها إلى روما حيث كانوا يأملون فى الحصول على تأييد البابا دماسوس لهم دون طائل . أيضاً فى ميلانو أشاح القديس أمبروز بوجهه عنهم . ولكنهم نجحوا فى نهاية المطاف فى إقناع السلطات المدنية بالغاء الأمر الصادر بنفيهم فعادوا إلى أسبانيا حيث تبعهم عدد أكبر من الأتباع والمريدين .

وبعد مضى شيء من الوقت قلب لهم الامبراطور ماكسيموس ظهر المجن بسبب رغبته فى الحصول على تأييد الأساقفة الكاثوليك له . ولهذا أمر بمحاكمة بريسيليان أمام مجمع السنودس المنعقد فى بوردو . غير أن بريسيليان رفض الإعتراف بشرعية هذا المجمع وسافر عام ٣٨٥ لمقابلة البابا أملا فى اكتسابه إلى صفه . غير أن البابا أمر بالحكم عليه هو وأتباعه بالموت بتهمة ممارسة السحر . ويعتبر هذا أول حكم بالاعدام فى تاريخ الكنيسة بتهمة الهرطقة . وقد أدى اعدامهم إلى اعتبارهم شهداء . وبعد سقوط الأمبراطور ماكسيموس عام ٣٨٨ أصابت هذه الطائفة ازدهارا لدرجة أن كل منطقة جاليثيا تقريبا تحولت إلى العقيدة البريسليانية . وفى عام ٤٠٠ م أصدر مجلس توليدو مرسوما كهنوتيا بعزل كل الأساقفة البريسيليانيين وتثبيت من يتخلى منهم عن الهرطقة البريسليانية . علما بأن هذه الهرطقة انتشرت خلال القرن الخامس حتى النصف الأول من القرن السادس . وهى لم تختف من الوجود إلا بعد ادانتها فى مجمع براجا عام ٥٦٣ م .

وتجنح البريسليانية إلى الثنائية المانية والدوستية كما أنها تنادى بالمذهب الموادالى Modalism الذى ينكر أن الأب والابن والروح القدس أقانيم ثلاثة مستقلة وترى في هذه مجرد وجوه مختلفة وحالات متغيرة . وينكر البريسيليانيون أن للمسيح وجودا سابقا على ولادته كما أنهم ينكرون أن له ناسوتا حقيقيا . ويرى البريسليانيون أن الملائكة والأرواح الانسانية هى فيض أو نبع من اللاهوت وأن اتحاد الروح بالجسد ليس سوى عقاب لها على خطاياها . والشيطان ليس ملاكا زلت قدمه وسقط بل مبدأ الشر الذى خلق الجسد . ومن ثم نرى أن البريسسيليانيين يحرمون على أنفسهم الزواج والانجاب وأكل اللحوم . والغريب أن بعضهم يدعو فى الوقت نفسه إلى ممارسة الحب الطليق .

٦) هيراكس :

بالرغم من أن هيراكس الذى اشتهر بالعلم والتقوى واشتغل بصناعة الكتب - شارك مانى بعض آرائه مثل الدعوة إلى الزهد والتقشف والإمتناع عن الجنس وغيره من ملذات الحياة ، فإنه خالفه فى عدة أمور مثل إيمانه بأن عمل المسيح العظيم يكمن فى سن شريعة جديدة أكمل وأدق من شريعة موسى ، الأمر الذى يعنى عدم تسليمه بألوهية مانى . وتظهر هرطقة هيراكس أيضاً فى إنكاره قيامة الأجساد . علما بأنه دأب على تفسير الكتاب المقدس بطريقة رمزية .

مشكلة لاهوتية: معمودية المهرطقين:

قبل أن ننتقل إلى بقية المهرطقين الذين عاشوا فى القرن الثالث يجدر بنا أن نعالج واحدة من أهم المشاكل اللاهوتية التى واجهت الكنيسة آنذاك . فقد احتدم نقاش حامى الوطيس حول بطلان أو سلامة تعميد الهراطقة . وأدلى آباء الكنيسة بدلوهم فى هذه الملاحاة المستعرة بين مؤيد ومعارض . ورأت كنائس آسيا الصغرى وكلينيكية وغلاطية وسوريا ومصر وأفريقيا أن المعمودية التى تتم على أيدى المهرطقين باطلة . فضلا عن أن هذه الكنائس أعادت معمودية أى مهرطق يعلن توبته ورجوعه إلى حظيرة المسيحية الأصلية . أما كنيسة روما والكنائس الغربية فقد ذهبت إلى أن كل معمودية تتم باسم الثالوث المقدس ، ومن ثم فهى معمودية صحيحة . ولهذا امتنعت الكنائس الغربية عن إعادة تعميد المهرطقين واكتفت بالصلاة لهم .

ولم يحسم هذا النزاع إلا بانعقاد مجمع سنادا سنة ٢٣٠ برئاسة فرميليان أسقف قيصرية حيث تقرر بطلان معمودية المهرطقين . وهو الرأى نفسه الذى انتهى إليه المجمع الذى عقده أسقف قرطاجنة فى هذه المدينة نحو عام ٢١٧ م .

ويبدو أن الذى زاد من حدة هذا النزاع ظهور بدعتين فى الوقت نفسه هما بدعة نوفا سيانوس أسقف روما القاضية برفض توبة المهرطقين ووجوب إعادة عماد المسيحيين الذى يتم على أيدى الهراطقة . ومن الواضح أن هذه البدعة موغلة فى التشدد بل والتزمت . وعلى النقيض من ذلك نرى أن البدعة الأخرى وهى بدعة فيلكسيموس موغلة فى التساهل فهى تقضى بوجوب الصفح عن المهرطقين بفرض أن يشفع لهم شهداء المسيحية والسجناء بسببها .

هراطقة ضد الثالثوث في القرن الثالث الميلادي

وهناك عدة طوائف أخرى غير غنوسية ناهضت الثالوث نوجزها فيما يلى :-

١) الألوجيون Alogi

الألوجيون طائفة مهرطقة مجهولة الأصل ظهرت فى آسيا الصغرى نحو عام ١٧٠ م . وقد أطلق إبيفانيوس عليهم هذا الاسم بسبب رفضهم مذهب اللوجوس أو الكلمة الذى تجسد وصار إلهاً . فضلا عن رفضهم لسفر الرؤية . ويبدو من القليل الذى نعرفه عنهم أنهم مجموعة من العقلانيين عارضت الفكرة القائلة بأن المسيح سوف يعود ليحكم العالم لمدة الف عام . وقد نسبت طائفة الألوجيين كتابات يوحنا إلى خصمه الغنوسى كورنثيوس .

٢) الثيودسيون Theodotians

نشأت هذه الطائفة فى بيزنطة على يد مؤسسها ثيودوتوس . وهى طائفة تبرأت من المسيح

وانكرته اتقاء للاضطهاد بحجة أن إنكاره هو مجرد إنكار لانسان وليس لإله . ورغم هذا فقد آمنوا بأن المسيا ولد ولادة خارقة للطبيعة . واستطاع هذا المهرطق أن يجتذب إليه عددا من الأتباع فى روما . ولكن أسقفها فكتور (١٩٢ - ٢٠٢ م) قام بحرمانه من الكنيسة . وبعد موت هذا المهرطق آلت زعامة الطائفة إلى ثيودوتوس الأصغر الذى ذهب فى هرطقته إلى القول إن الملكيزيديك Melchizedok الذى يحتل مركزا وسيطابين الله والملائكة أعلى شأنا من المسيح الذى يحتل مركزا وسطا بين الله والبشر . ومن ثم فإن هذه الطائفة تعرف باسم المللكيزيدوكيين .

٣) الملكانيون والملكانية Monarchianism

تعتبر الملكانية أحد المذاهب الهامة غير الغنوسية التى خرجت على أعراف الكنيسة الأصيلة وحادت عن طريقها .

تنقسم الهرطقة الملكانية إلى نوعين مستقلين أحدهما يعرف باسم الملكانية المودالية Modalist التى تعتبر الله كينونة واحدة ذات وجوه مختلفة وأحوال متعددة . والموناركية كلمة مستمدة من النظام الملكى Monarchy . وقد ذكر ترتيليان نحو عام ٢١٣ فى دحض ملكانية براكسياس المودالية عن مملكة الله أنها امبراطورية واحدة وفريدة . وطبقا لهذه الهرطقة ليس للابن أو الروح القدس وجود مستقل بل هما ببساطة وجوه للآب أو حالاته . أما النوع الآخر من الملكانية الذى كان أشد خطرا على الكنيسة فيعرف بالملكانية الديناميكية أو المتبناة Adoptionist : ويذهب هذا النوع الثانى من الهرطقة الملكانية إلى أن المسيح مجرد إنسان ولدته العذراء مريم بناء على مشورة الآب ونصيحته . وتضيف الملكانية الديناميكية أن يسوع عاش عيشة البشر وعندما اكتملت نزعاته الدينية هبط عليه المسيح عند التعميد على هيئة حمامة ، الأمر الذى وهبه قدرة واضحة على الاتيان بالمعجزات . وبعد وفاته قام اللاهوت بتبنيه فيه ، ومن ثم فإن هذا النوع من الملكانية يوصف أحيانا بملكانية التبنى التى تعتبر يسوع أعظم الأنبياء طرا ولكنها ترفض أن يقوم الناس بعبادته .

انتشرت الملكانية الموادالية نحو عام ٢٠٠ فى المناطق الغربية من آسيا الصغرى على أيدى طائفة من أبرز أعلامها أمثال براكيساس (Praxeas) وبوليمون (Polemon) ونيوتس Noetus . وفى مطلع القرن الثالث أظهر اثنان من أساقفة روما هما زيفيرينوس Zephyrinus وكاليكتوس Calixtus ميلا إلى الايمان بالملكانية المودالية التى تولى سيبليوس تنقيتها وتطويرها نحو عام ٢٢٠م . وقد عارض هذان الأسقفان الرومانيان بشدة الملكانية الديناميكية المنتشرة فى روما فى الوقت نفسه الذى انتشرت فيه الملكانية المودالية . ورغم أن الكنيسة اتهمت أتباع الملكانية الديناميكية بالالحاد وقامت بحرمانهم من الانتماء إليها فإن ذلك لم يكن كافيا للقضاء عليها ، بدليل أن واحدا من أتباعها وهو ناتاليوس Natalius عين أسقفا براتب شهرى قدره ١٥٠ ديناراً . ثم تبعه أرتيمون ومريدوه ليسيروا على الدرب نفسها . وفى مصر قام أوريجانوس بمهاجمة كلا النوعين من الملكانية

المودالية والديناميكية . ولكنه خص الملكانية الديناميكية أو ملكانية التبنى بالهجوم بسبب انكارها لألوهية المسيح . ودخل أوريجانوس فى ملاحاة مع بريلوس Baryllus أسقف بوسترا Bostra فى المنطقة العربية متهما إياه بالدعوة إلى الملكانية المودالية . وقد عبر أسقف الاسكندرية عن معارضته العنيفة للملكانية بالتبنى أو الملكانية الديناميكية التى دعا إليها بولس السمطائى أسقف انطاكيا . ويلاحظ أن كنيسة الاسكندرية التى آمنت بكلمة الله الذى تجسد فى شخص يسوع كانت تميل إلى الملكانية المودالية ، وقد عبر أساقفة الشرق عن ارتيابهم فى الملكانية وانها سوف تعود بالمسيحيين إلى اليهودية . ومن الواضح أن تخوفهم كان فى محله .

٤) الأرتيمونيون Artemonites

الأرتيمونيون هم أتباع أرتيمون Artemon (أو أرتيموس Artemes) الذى ظهر في روما ليدعو إلى هرطقة مفادها أن الوهية المسيح محض إختراع وافتراء وانتكاسة إلى الوثنية وتعدد الآلهة . وقد قام زيفرينوس فى الفترة من ٢٠٢ إلى ٢١٧ م بطرده من الكنيسة . والأرتيمونيون متهمون بوضع عالم الرياضيات اقليدس والفيلسوف أرسطو فى مرتبة أعلى من المسيح كما أنهم متهمون باعتبار الرياضيات والديالكتيك الفلسفى أرفع شأنا من الأناجيل . والجدير بالذكر أن الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى استندت فى اثبات وجود الله إلى فلسفة أرسطو . ولكن الأثيمونيين على أية حال استخدموا فلسفة أرسطو آنذاك للنيل من الوهية المسيح والهجوم عليها . ويقال إن زيفرينوس نفسه كان مهرطقا يدين بالمذهب الملكانى وأن ذلك كان السبب الحقيقى فى رغبته فى التمويه بإدانة الأرتيمونيين .

٥) بولس السمسطائي Paul of Samosata

كان بولس السمسطائى أسقف أنطاكية واحدا من أهم المهرطقين العقلانيين الذين أنكروا التثليث فقد أنكر وجود اللوجوس (أو الكلمة) كما أنكر الروح القدس . واعتبر كلا منهما قوة من لدن الله تشبه العقل والفكر عند الانسان . ولكن هذا الإنكار لم يمنعه من الاعتراف بأن المسيح يحتوى على قدر أكبر من الكلمة أكثر من أى من الرسل السابقين عليه . ونادى هذا المهرطق بأن المسيح تدرج فى الارتقاء حتى وصل الأمر به إلى مرتبة القداسة والجلالة بسبب ماطرأ عليه من تطور أخلاقى . وقال إن المسيح يخلو من الخطيئة فقد استطاع أن يمحق خطيئة الآباء والأجداد . وأنه أصبح مخلص الجنس البشرى . ومما يذكر أن هذا المهرطق غير ترانيم الكنيسة على نحو يتفق مع مبادئه بطريقة حذرة حتى لا يصدم مشاعر عامة الناس . وقد اتهمه أساقفة الشام بالغرور والخيلاء والحرص على عرض الدنيا وقرروا عزله فى السنودس الثالث المنعقد فى انطاكية فى الفترة بين عامى ٢٦٨ و ٢٦٩ م . ولكن عزله لم يأت بأية نتيجة بسبب اهتمام زنوبيا ملكة تدمر به وحرصها على حمايته . ولهذا أصبح قرار العزل مجرد حبر على ورق حتى استطاع الامبراطور أورليان أن يلحق الهزيمة بهذه الملكة فى عام

٢٧٢ م . ومكنه نصره على زنوبيا من تنفيذ قرار العزل بالاتفاق مع أساقفة روما . وكان عزل بولس السمسطائى إيذانا بنهاية المذاهب الملكانية بأنواعها كافة . ولكن أفول نجم الملكانية لم يحل دون استمرارها حيث تكرر اتهامها بالهرطقة تحت مسميات مختلفة فهم تارة يسمون بالسمطائيين وتارة أخرى بالبولسيين وتارة ثالثة باسم السيتبليين .

وعلى الرغم مما لقيته الملكانية من إدانة فقد رفع بولس االسمسطائى رايتها واستطاع أن يضم اليها كثيراً من الشرقيين . غير أن دعوته لم تجد أية استجابة لدى الهيلينيين .

نادى بولس السمسطائى بوحدانية الله وبشرية المسيح وقال إن يسوع ليس سوى إنسان لم يعرف الخطيئة منذ ولادته أى منذ أن تمت معجزة اشتباك الكلمة بالمسيح واستقرارها فيه . والمسيح فى نظره ينفرد بالحكمة التى هى صفة من صفات الله .

واجتمع السنودس عام ٢٦٤ فى أنطاكية للنظر فى معتقدات بولس السمسطائى .وقبل الاجتماع قام لوسيان أستاذ المهرطق الشهير أريوس وأستاذ صديقه ايوسبيوس Eusebius (أسقف نيقوميديا) بشن هجوم على ملكانية بولس السمسطائى الذى كال للوسيان الصاع صاعين وانتهز فرصة شططه فى الرأى فاتهمه بإشاعة الأريوسية . ونجح بولس االسمسطائى فى حمل الكرسى البابوى فى روما على استبعاد غريمه من المجمع . غير أن هذا الاستبعاد لم يؤثر كثيرا فى موقف المجلس من بولس االسمسطائى بسبب وجود عدد كبير من أتباع أوريجانوس فيه وهجومهم الضارى عليه . ثم توالت اجتماعات السنودسات فى عام ٢٦٤ و٢٦٨ لإدانة بولس االسمسطائى وتولى مالكيون أحد قساوسة انطاكية فضح هرطقته . ولم يكتف السنودس (وهو الهيئة الدينية) بإدانته بل ناشد امبراطور روما أن يؤيدها ، فأرسى بذلك سابقة خطيرة تتمثل فى استعداء السلطة الزمنية على المنشقين والمهرطقين . ورغم هذه الادانة استطاعت زنوبيا ملكة تدمر - كما سبق أن أشرنا - أن توفر الحماية لبولس السمسطائى ، الأمر الذى مكن هذا المهرطق من الاحتفاظ بأسقفيته حتى عام ٢٧٢م .

وانتهت مداولات السنودسات إلى رفض استخدام كلمة homoousion (ومعناها من ذات الجوهر) عند وصف الثالوث . ولكن هذا أدى بعد مرور نصف قرن إلى إثارة المشاكل والصعوبات اللاهوتية عندما حاول مجمع نيقية أن يستخدم هذا التعبير نفسه فيما توصل إليه من قرارات . فضلا عن أن مالكيون وأعضاء السنودس (بسبب حرصهم على تأكيد الوهية المسيح) قارنوا بين اتحاد المسيح بطبيعته البشرية وبين اتحاد الروح بالجسد وذهبوا إلى أن الكلمة الموجودة فى المسيح يؤدى الدور نفسه الذى يؤديه الروح فى الجسد . ولكن الكنيسة مالبثت أن تراجعت عن هذه الفكرة وقامت بنبذها لأنها جعلت المسيح كائنا يختلف عن سائر البشر العاديين . وكانت وجهة نظرها أن المسيح لا يمكن أن يكون ممثل الانسانية إلا إذا كان كامل البشرية .

ورغم انحسار المذهب الملكانى فقد استمر لبعض الوقت فى مصر على وجه الخصوص وأيضاً فى آسيا الصغرى وليبيا . ورغم إندحار الملكانية فإنها تمخضت عن مولد هرطقة أنكى وأشد خطرا

منها وهى الهرطقة الأريوسية التى شطرت الكنيسة فى أوائل القرن الثالث إلى شطرين . ويعتبر علماء اللاهوت الأريوسية - بدعوتها إلى الفصل بين الاقانيم الثلاثة - امتدادا طبيعيا ومنطقيا للملكانية .

يقول جراسيموس مسرة اللاذقى فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الانشقاق » إن بولس السمسطائى بدأ حياته فقيرا ولكنه جمع ثروة بطرق غير مشروعة « وكان مغرما بالرفاهة والفخفخة فما كان يخرج إلا بمائة جندى أمامه ومائة خلفه . وقد أبدل تراتيل الكنيسة بأناشيد تنشد لمجده كانت ترتلها نساء ضمن الكنيسة .» ويتهمه جراسيموس بالتظاهر والنفاق وإظهار غير مايبطن . « كان بولس السمساطى حين يحضر إلى المجمع يخفى مكنوناته ويتظاهر بالأرثوذكسية متلونا بالكلام . غير أن القس الانطاكى ملكين البيانى رئيس مدرسة أنطاكية كشف برقع ضلاله فى آخر جلسة (سنة ٣٦٦ أو ٣٧٠ أو على رأى ملاتيوس ٣٧٢) . وحكم المجمع عليه بنزع وظيفته وانتخب بدلا منه دومنوس أسقفا على انطاكية .»

ويؤكد جراسيموس استقلال الكنائس الشرقية عن الكنيسة فى روما ورفضها أية تبعية لها ، ويستدل على ذلك بما حدث فى حالة بولس السمسطائى .فالكنائس الشرقية أجمعت وقررت عزله دون استئذان بابا روما أو الرجوع إليه . إن المجمع لم يشكُ عصيان السمسطائى إلى بابا روما ولكن شكاه للقيصر . ويذهب جراسيموس إلى أنه لم يكن من الممكن على أتباع الكنائس الشرقية أن يدينوا بالولاء والتبعية لبابا روما نظرا لما عرف عن كثير من البابوات الغربيين من انشقاق وهرطقة وكبرياء يبلغ حد التأله .

(٦) براكسياس Praxeas

يعتبر براكسياس أبرز مدافع عن الملكانية الديناميكية أو ملكانية التبنى . نشأ براكسياس فى آسيا الصغرى ثم سافر إلى روما فى نهاية القرن الثانى فى عهد ماركوس أوربلوس . وهناك ناصبه المونتانيون وعلى رأسهم ترتيليان العداء . ومن المؤسف أن معرفتنا به وبتعاليمه تجئ إلينا عن طريق عدوه ترتيليان . ويقال إنه نجح عقب وصوله إلى روما فى تأليب زيفيرنوس بابا روما ضد المونتانيين .

ركز براكسياس على الآيات الواردة فى الكتاب المقدس الدالة على التثليث مثل «أنا فى الآب والآب فى » و « الذى رآنى فقد رأى الآب » . ويذهب براكسياس إلى وحدة اللاهوت وبأن الله كابد العذاب . ومن تم أطلق مصطلح متألمى الرب عليه وعلى أتباعه . وقبل وفاته نبذ براكسياس هرطقته التى تعرف فى كتب اللاهوت بهرطقة متألمى الرب الذين نادوا بأن الآب والروح القدس تألما لما رأيا المسيح يتألم . والرأى عند براكسياس أن الآب صار انسانا يجوع ويعطش ويتألم وأن الآب والروح القدس يشعران بالتعاطف معه فى آلامه . ولهذا قال ترتيليان عن براكسياس إنه « صلب الآب » لأنه اعتقد أن اللاهوت قد أفرغ فى شخص المسيح حتى يضطلع موقتاً بدور المخلص .

٧) نيوتوس Noetus

جاء الملكانى الديناميكى نيوتوس من سميرنا نحو عام ٢٠٠ م حسب مايقول هيبوليتس . ويرى بعض الدارسين أنه أول من نادى بمذهب متألمي الرب وأنه اعتمد مثل براكسياس على الآيات الدالة على التوحيد الواردة فى الكتاب المقدس . وعندما انعقد مجمع سميرنا لإدانته بسبب هرطقته دافع عن نفسه بقوله إن مايذهب إليه يعلى من شأن الله ويزيد من تمجيده . ويذكر بعض الدارسين أن نيوتوس تأثر بفلسفة هيراقليطس التى تقول بانسجام الطبيعة وانسجام جميع مافيها من أضداد . وهكذ افترض نيوتوس أن الذات الإلهية فى حد ذاتها لابد وأن تحتوى على صفات متضادة . ويشار إلى هذا المذهب بالنيوتوسية أحيانا .

وكان لنيوتوس تلميذان هما ابيجونوس Epigonus وكليومينيز Cleomenes اللذان قاما بنشر مذهب أستاذهما فى روما وذلك بتشجيع من البابا زيفيرونوس . والجدير بالذكر أن أبيجونوس كان أسوأ حظا من أستاذه . ففى حين استقبل هذا البابا زيفرينوس الأستاذ بالترحاب بسبب عداوته للمونتانية قام بطرد واستبعاد تلميذه أبيجونوس من الكنيسة . ويقترن اسم نيوتوس بالدعاية للمذهب الملكانى بين عامة الناس فى حين اقترن اسم تلميذه أبيجونوس بالدفاع عن هذا المذهب على المستوى الفكرى والفلسفى .

٨) كالستوس الأول Calistus

هو البابا كالستوس الأول فى الفترة بين ٢١٧ و ٢٢٢ م وخليفة زيفيرنيوس على كرسى البابوية . يقول عنه جراسيموس مسرة اللاذقى : « وقد ذكر ابيوليطوس فى فلسفياته أن كاليسطوس هذا كان رجلا خبيثا فى الشر ومتلونا فى الضلال وأنه كان قبلا عبدا سجن بسبب ارتكابات (جرائم) وأرسل إلى معادن (مناجم) سردينية . ومن هناك اعتق هو وغيره بتوسط مريم سرية القيصر كومودس .» ثم يضيف جراسيموس قائلا : « اتخذه البابا زفيرينوس مساعدا وكان هذا البابا رجلا بسيطا وجاهلا القوانين الكنائسية محبا للهدايا والمال . فجذبه كاليسطوس إلى هرطقة نوتيوس » . تساهل كاليستوس مع الساقطين والتائبين بحيث أصبحت له شعبية كبيرة بينهم . فتصدى له القديس ايبوليطوس وعارض هرطقته ودعا الشعب إلى مقاطعته للأسباب التالية : « أولاً لأنه كان . . . يقبل فى شركة الكنيسة بلا قصاص ولا قانون جميع الهراطقة .ثانيا لأنه كان يدعى بأن الأسقف ،إن ارتكب خطيئة مميتة لا يقطع (لا يعزل) .ثالثا لأنه كان يقيم رجالا متزوجين زيجة ثانية وثالثة ويشرطنهم (ويعينهم) أساقفة وقسوسا وشمامسة . ورابعا لأنه فى أيامه ادخل إستعمال المعمودية الثانية .» وبالنظر لخطورة المشكلة اللاهوتية العويصة الخاصة بموضوع معمودية الهراطقة فسوف نعرض لها قبل أن نستكمل الحديث عن سابيليوس كواحد من أبرز الهراطقة الملكانيين .

دافع كالستوس عن مذهب نيوتوس ،أعلن أن الابن ليس سوى شكل فى هيئة انسان شاء الآب أن يتخذ صورته . وقال إن الآب بعث الحياة فى الابن مثلما تنفث الروح الحياة فى الجسد . وذهب

كالستوس إلى أن الأب كابد الألم وهو يرى الابن يتعذب أثناء صلبه . يقول كالستوس فى هذا الشأن : «الأب الذى حل فى الابن اتخذ هيئة جسدية وجعل منها إلها ثم اتحد بها ليجعل من هذه الهيئة وهذا الإله شيئا واحدا . ولهذا فإن الأب والابن اسمان للإله الواحد أى اسمان لكائن واحد .» والجدير بالذكر أننا نستقى معلوماتنا عن هذا المهرطق عن طريق اعدائه ومناوئيه وخاصة هيبوليتس . ويرجع السبب فى هذا إلى أن كالستوس لم يترك وراءه أية كتابات . ويدمغ هيبوليتس خصمه كالستوس بأنه إنسان غير معقول وخائن مهمته جمع التجاديف من كل مكان ولا يستحى من السير على درب الهرطوقى الكبير سابليوس . ويتمثل جانب من هرطقة كالستوس فى ايمانه بأن اللوجوس (الكلمة) له وجود منفصل وأدنى من وجود الله . وهى هرطقة شبيهه بهرطقة أوريجانوس الذى ذهب إلى أن اللوجوس أقل مرتبة من الأب . وهو ما اعتبرته الكنيسة مروقا وخروجا عليها .

مشكلة لاهوتية عويصة : معمودية المهرطقين (تابع)

قلنا إن القرن الثالث الميلادى شهد جدلا محتدما ونقاشا حامى الوطيس حول بطلان أو سلامة تعميد الهراطقة . وأدلى آباء الكنيسة بدلوهم فى هذه الملاحاة المستعرة بين مؤيد ومعارض . ورأت كنائس آسيا الصغرى وكلينيكية وغلاطية وسوريا ومصر وأفريقيا أن المعمودية التى تتم على أيدى المهرطقين باطلة . فضلا عن أن هذه الكنائس الشرقية أعادت معمودية أى مهرطق يعلن توبته ورجوعه إلى حظيرة المسيحية الأصيلة . أما كنيسة روما والكنائس الغربية فقد ذهبت إلى أن كل معمودية تتم باسم الثالوث المقدس معمودية صحيحة لا يمكن تكرارها أو الرجوع عنها . ولهذا امتنعت الكنائس الغربية عن إعادة تعميد المهرطقين واكتفت بالصلاة من أجلهم . وكما يقول جراسيموس فى كتابه « تاريخ الانشقاق » إن هذا الخلاف العقائدى لم يفسد العلاقة بين الكنيستين الشرقية والغربية : « كانت كل كنيسة جارية على عادتها بلا نزاع ولا شقاق فى الشرق والغرب » . ومما زاد من حدة هذا النزاع أن رجل الدين المعروف ترتيليان كتب فى القرن الثالث الميلادى رسالة ضد معمودية الهراطقة . كما ظهرت فى روما بدعتان متناقضتان فى الوقت نفسه هما بدعة نوفا سيانوس Novatian أسقف روما القاضية باغلاق باب التوبة نهائيا أمام المهرطقين والقاضية أيضاً على عكس عادة كنيسة روما بوجوب اعادة أى تعميد قد يتم على أيدى هؤلاء المهرطقين . ومن الواضح أن هذه البدعة موغلة فى التشدد والتزمت وتقضى على كل بارقة أمل فى خلاص التائبين . وعلى النقيض من ذلك نرى أن البدعة الأخرى وهى بدعة فلكسيموس موغلة فى التراخى والتساهل فهى تقضى بوجوب الصفح عن المهرطقين إذا وجدوا من يشفع لهم من شهداء المسيحية وسجنائها .

ولم يحسم هذا النزاع إلا بانعقاد مجمع سنادا عام ٢٣٠ م برئاسة فيرميليان (فيرميليانوس)

أسقف قيصرية حيث تقرر بطلان معمودية الهراطقة . وهو الرأى نفسه الذى سبق للكنيسة الافريقية فى قرطاجنة أن اهتدت إليه عام ٢١٧ م . ويلقى جراسيموس الضوء على بدعة نوفاسيانوس (الذى يسميه نوبا تيانوس) فيقول إن هذا المهرطق أحضر ثلاثة من الأساقفة البسطاء وأسكرهم حتى لعبت الخمر برؤوسهم فساموه وهم سكارى أسقفا على روما . وهكذا أصبح هناك فى روما أسقفان فى آن واحد . ويضيف جراسيموس أن استفانوس بابا روما جريا على عادة كنيسته - شدد على منع إعادة تعميد المهرطقين وطلب من فرميليانوس أن يفعل ذلك . ولكن فرميليانوس رفض تدخل البابا فى شئونه فقام البابا بطرده من الكنيسة .

ومع ذلك فقد ظل الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية حول تعميد الهراطقة محتدما ومستعرا ولم يحسمه سوى المجمع المسكونى الأول المنعقد عام ٣٢٥ ثم المجمع المسكونى الثانى المنعقد عام ٣٨١ . ورغم اعتراف المجمع بمعمودية واحدة فإنه رأى ضرورة إعادة تعميد من تولى الهراطقة تعميدهم « لأن معموديتهم المعروفة اسما هى بالفعل غير صحيحة لعدم ارتباطها بالاعتراف بالثالوث الأقدس . »

٩) سابيليوس Sabellius :

تتلمذ الأسقف المهرطق سابيليوس على يد المهرطق نوئيتوس ، وانتقل إلى روما فى أوائل القرن الثالث ليشيع بدعته فى كل من روما ومصر . كان سابيليوس متبحرا فى علوم اللاهوت . وقد تأثر ببدعته كل من زفيرينوس أسقف روما وخليفته كاليسطوس . وكانت بدعته سببا فى سخط ديونيسيوس بطريرك الاسكندرية عليه . اندثرت كتابات سابيليوس ولم يبق منها سوى شذرات قليلة وغير متسقة أوردها أتناسيوس والآباء الأوائل فى كتاباتهم . ويبدو أن بطريرك الاسكندرية عندما عارض هرطقة سابيليوس استخدم محاجات لاهوتية قريبة الشبه بالأريوسية مثل قوله إن الأبن أقل شأنا من الآب . ولهذا عقد بابا روما مجمعا عام ٤٦٢ هاجم فيه آراء كل من سابيلوس ومعارضه ديونسيوس الأمر الذى ساعد على تهدئة النقاش المحتدم حول الثالوث حتى جاء أريوس ليشعله على نحو أشد فتكا وخطرا . يقول الشماس منسى القمص فى تاريخ الكنيسة القبطية إن سابيليوس اعتقد أن جزءا من الطبيعة الالهية انشطر عن الله الآب وكون الإبن بالاتحاد مع يسوع الانسان وأن جزءا آخر انفصل عنه ليكون الروح القدس . وتتلخص هرطقة سابيليوس فى إيمانه بأن الله اقنوم واحد منكرا بذلك فكرة التثليث الذى فسره بأنه مجرد حالات أو أعراض متغيرة . والرأى عنده أن الثالوث لا يعدو أن يكون تحول الموناد monad وهو الأوحد المطلق إلى الترياد triad أى جوانب اللاهوت الثلاثة التى كان ثاوفيلوس أسقف انطاكية أول من استخدمها بمعنى الله وكلمته وحكمته . ومن ثم فإن الآب والابن والروح القدس فى نظر سابيلوس لا يتسمون بالديمومة فهم يؤدون وظائفهم ثم يعودون بعد ذلك للاتحاد مع الموناد وهى كلمة اغريقية معناها الأوحد المطلق كما أسلفنا .

١٠) أوريجانوس (١٨٩ - ٢٥٤)

إذا قلت إنه قديس أسدى للكنيسة أجل الخدمات فأنت على حق وإذا قلت إنك أمام عقلية عبقرية فذة تبحرت فى اللاهوت المسيحى تبحرا ليس له نظير فأنت أيضاً على حق . ومع هذا فقد درجت الكنيسة المسيحية على اعتباره واحدا من أخطر مناوئيها ومن أبرز المهرطقين والمنشقين عليها . ويجمع الدارسون على أن الكنيسة منذ إنشائها حتى انعقاد مجمع نيقية عام ٣٢٥ لم تشهد لاهوتيين عظاما مثل ترتيليان وكبريان فى الغرب واكليمندس السكندرى وأوريجانوس فى الشرق . وبقدر ما كان الشرق مهدا للهرطقات المسيحية بقدر ما أنتجت قريحته فكرا لاهوتيا تأمليا وفلسفيا على أعلى مستوى ، فى حين انصرف ذهن اللاهوتيين فى الغرب إلى تنظيم الكنيسة وإدارة شئونها .

ولد أوريجانوس فى مدينة الاسكندرية من والدين مسيحيين . وكان أبوه - وهو من الأثرياء - شديد الغيرة على دينه فتولى تحفيظ ابنه جانبا كبيرا من الكتاب المقدس . وكان الطفل نابها ومتقد الذهن بشكل مذهل ، يطرح على أبيه اسئلة لاهوتية يعجز الأب عن الرد عليها . ورغم أن الوالد كان يزجر ابنه فى ظاهر الأمر فقد كان فى قرارة نفسه فخورا به يكشف عن صدر الطفل وهو نائم ويقبله كما يقبل العابد معبدا يسكنه الروح القدس . وفى احدى موجات الاضطهاد التى تعرض لها المسيحيون تحت حكم سيبتموس سفيروس القى بوالد أوريجانوس فى غياهب السجن ولم يتجاوز ابنه السابعة عشر من عمره . وأرسل الابن لأبيه السجين يشد من أزره ويشجعه على الصمود ويطلب منه ألا يتخلى عن مبادئه مهما كان الثمن . وأراد الابن الاقتداء بأبيه والسير فى السبيل نفسه . وعبثا حاولت الأم أن تثنيه عن عزمه ولكنه صمم على الخروج من البيت لمواجهة السلطات الوثنية الغاشمة فاضطرت الأم لهفة عليه إلى اخفاء ملابسه حتى تحول بينه وبين خروجه من البيت . ورغم أنه لم يخش الردى فقد استحى أن يسير عاريا فى الطريق العام . وانتهى الأمر بقطع رأس الأب ومصادرة ممتلكاته ، فترك وراءه عياله السبعة يعانون من الفقر وشظف العيش . ولولا أن سيدة مسيحية أوت أوريجانوس فى بيتها لتضور الغلام جوعا . ولكنه لم يطق الاستمرار معها تحت سقف واحد لأن غنوسيا اسمه بولس كان يعيش فى بيتها ويلقى المحاضرات فيه ، ففضل أن يترك منزلها ليتجول فى معطف واحد لايتبدل ولا يتغير ويسير حافى القدمين وينام على عوارض الأرضيات الخشبية آخذا نفسه بمنتهى الصرامة والشدة فيحرم على نفسه الشراب ولذائذ الطعام . وفهم أوريجانوس آيات الكتاب المقدس الخاصة بالخصى بمنتهى الحرفية فآثر إخصاء نفسه عملا بالآية ١٢ من الاصحاح ١٩ من إنجيل متى التى تقول : « لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس . ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات .» ولم تقبل منه الكنيسة هذا الشطط فأدانته عليه . ويرجع الفضل إلى يوساب القيصرى فى حفظ سيرة حياة هذا اللاهوتى العظيم من الضياع .

فى نحو عام ٢١٦ أضطر أوريجانوس إلى الهرب من الاسكندرية حيث كان يمارس التدريس فى

مدرسة اللاهوت فيها بسبب المجازر التى تعرض لها المسيحيون آنذاك . فاستضافه اسكندر أسقف أورشليم الذى كان زميله القديم فى الدراسة ودعاه لالقاء بعض المحاضرات على رجال الكهنوت هناك رغم أنه لم يكن يشغل أية وظيفة كهنوتية » الأمر الذى أوغرصدر ديمتريوس أسقف الاسكندرية ضده . كما دعاه أيضاً صديقه ثيوكيتستوس Theoctistus ليحاضر المسيحيين ويعظهم . ولاغرو فقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق . وكان إذا تكلم أخرس الآخرين ببلاغته . ولما علم ديمتريوس أسقف الاسكندرية بهذه المخالفة للقانون الكنسى الذى يحرم على غير الكهنوت وعظ المسيحيين وإمامتهم استدعاه إلى الاسكندرية وعينه رئيسا للمدرسة اللاهوتية فيها . ونحو عام ٢١٨ دعته الامبراطورة ماميا – وكانت تمر بمدينة انطاكية – لمقابلتها وشرح بعض المسائل الدينية لها . وفى ممارسته للتدريس أدخل بعض التعديلات فى النظام التعليمى . يقول يوساب القيصرى فى « تاريخ الكنيسة » إنه قسم تلاميذه إلى قسمين : القسم الأول ويشمل المبتدئين الذين أسند أمر تعليمهم إلى مساعده هيراقليس Heracles والقسم الثانى ويشمل التلاميذ المتقدمين الذين « كان أوريجانوس يقرأ معهم كتابات الفلاسفة ويعلق عليها وكذلك الكتب المقدسة للعهدين القديم والجديد . »

لم يكن أوريجانوس متبحراً فى اللاهوت المسيحى فحسب بل فى المعارف الهيلينية أيضاً . توفر تحت تأثير معلمه الغنوسى أمونيوس السقاص على دراسة الافلاطونية والافلاطونية الجديدة . فضلا عن قراءته لأرسطو وزينون والمذهب الرواقى والمذهب الابيقورى . يقول الأنبا غريغوريوس فى كتيبه « العلامة أوريجنيوس : مقدمة » إنه كان يفضل افلاطون على جميع الفلاسفة ، و« يصرح باحتقاره لأبيقور وأنه كان يرى فيه معلما للكفر والخلاعة ، كذلك نعلم عنه أن مذهب الشكاك عند الأكاديمية الجديدة لم يكن يناسب تفكيره الطامع إلى اليقين . » ويذكر يوساب القيصرى فى كتابه « تاريخ الكنيسة » أن أوريجانوس كتب يقول « كنت أعكف على الدرس وذاعت شهرة تعليمى . وجئت تارة إلى هراطقة وتارة إلى أناس درسوا العلوم الهيلينية ، وخصوصا الفلسفة . وقد الزمتنى الفلسفة بدراسة آراء الهراطقة وماينادى به الفلاسفة عن الحقيقة . ولقد اتبعت فى هذا مسلك بننينوس الذى أسدى من قبلى خدمة لكثيرين . ولم تكن ثقافته فى هذه الشئون بقليلة . »

ويخبرنا يوساب القيصرى أنه كان كثير الترحال والأسفار يدعوه الكثيرون للوعظ والإرشاد والقاء المحاضرات ، فقد زار روما فى أيام البابا زفيرنوس (زفيران) ، وقد أتيح له فى هذه الرحلة أن يسمع وعظ اللاهوتى المعروف هيبوليتس . فضلا عن زيارته لبلاد العرب مرتين المرة الأولى أثناء حكم جورديان ليرد بيرلوس أسقف البصرة نحو عام ٢٤٤ م إلى العقيدة الأرثوذكسية الأصيلة . وتمكن من اقناعه بخطئه فى انكار أن للمسيح وجودا قبل مجيئه إلى عالم البشر . والمرة الثانية فى عهد فيلبس العربى ليشهد مجمعا نوقشت فيه بعض المشاكل اللاهوتية الخاصة بمصير النفس بعد الموت . وحتى نتبين مقدار علو مكانته نذكر أنه عندما سافر إلى الجزيرة العربية نحو عام ٢١٣ قيل إن حاكم العاصمة (البصرة) أرسل كتيبة عسكرية لاستقباله . ومما زاد من غيرة ديمتريوس أسقف

الاسكندرية منه أن بلاد اليونان دعته لمجادلة الغنوسيين ومقارعتهم الحجة بالحجة . وزاد الطينة بلة أن صديقيه أسقف أورشليم وأسقف قيصرية رسماه شيخا من شيوخ الكنيسة بأن وضعا أيديهما على يديه ، فأوغر هذا صدر ديمتريوس عليه . وهال أسقف الاسكندرية رسمه شيخا فى بلاد أجنبية يحق له إمامة المؤمنين وتبشير المسيحيين فى حين أن قانون الكنيسة يحرم على الخصيان تولى أية وظائف كنسية . فلا غرو إذا رأينا ديمتريوس يعقد مجلسين متتالين بحضور الأساقفة المصريين لمعاقبته وعزله وحرمانه ، الأمر الذى اضطره مرة أخرى إلى السفر إلى فلسطين والإحتماء فيها . ورغم أن كنيسة روما أيدت موقف ديمتريوس العدائى منه فإنه وجد نصيرا له فى كنائس فلسطين وفينيقيا وبلاد العرب واليونان . وفى فترة اضطهاد الامبرطور دسيوس Decius للمسيحيين تمكن أعداؤه من القاء القبض عليه والزج به فى غياهب السجون حيث قيدّوه بسلاسل حديدية ثقيلة ربطوها حول رقبته وقدميه الممدوتين فى آلة التعذيب الخشبية الضاغطة بشدة على الرسغين . ورغم أنه تم الافراج عنه عقب وفاة الامبراطور ديسيوس فيبدو أن الوهن دب فى جسده بسبب شدة التعذيب فأسلم الروح وهو فى التاسعة والستين فى عام ٢٥٣ أو عام ٢٥٤ . ويحتمل أنه لفظ أنفاسه الأخيرة فى مدينة قيصرية بفلسطين ولكنه يقال إنه توفى فى مدينة صور .

و الجدير بالذكر أن أوريجانوس استطاع بعلمه الغزير ونهمه الشديد إلى المعرفة وقدرته المذهلة على البحث والاستقصاء أن يجتذب نحوه طائفة متنافرة من المؤمنين بالمسيحية الأصيلة والمهرطقين وعبدة الأوثان . ويشهد جريجورى توماتورجوس Gregory Thaumourgue بموهبته الفذة فى التدريس ، فيقول إنه كان يقود تلاميذه خطوة خطوة حتى يصل بهم إلى أعلى مستوى من التعليم الفلسفى . كان يبدأ بالتفكير الفلسفى البسيط ثم يستخدم طريقة سقراط فى السؤال والجواب ثم يدخل بالطالب إلى المنطق والحوار وبعد ذلك العلوم والرياضة والهندسة والفلك وأخيرا إلى الأخلاق واللاهوت . فلا غرو إذا اعجب به رجل غنوسى ثرى اسمه أمبروزيوسAmbrosius أصبح مريده وصديقه الحميم . وقد بلغ إعجاب هذا الثرى به حدا جعله يضع كل ثروته تحت تصرفه فاشترى له المخطوطات اللازمة لأبحاثه . وإلى جانب أبحاثه المتعمقة فى الفلسفة يذكر الأنبا غريغوريوس شدة اهتمامه بالأدب فيقول فى هذا الشأن « فنحن على يقين من أن أوريجينوس قرأ مثلا الإلياذة والأوديسا لهوميروس وأنه عرف أشعار هزيود وتراجيديات سوفوكليس ويوربيدس وبعض كوميديات أرستوفانيس وميناندر .»

ويقارن الأنبا غريغوريوس بين حماس أوريجانوس لحكمة فلاسفة الأغريق وحماس أستاذه أكليمنص لها فيقول إن ثقة الثانى تفوق ثقة الأول بها . ولكن هذا لا ينفى شدة تأثر أوريجانوس بروح هؤلاء الفلاسفة واتباع منهجهم فى حرية البحث العلمى . على أية حال لم يجد أوريجانوس أدنى غضاضة فى أن يعتمد فى محاجاته على كتابات الاغريق والرواقيين والوثنيين وبخاصة فلسفة أفلاطون طالما أنها تخدم غرضه الأصلى المتمثل فى الدفاع عن العقيدة المسيحية . والجدير بالذكر أنه يدافع عنها على نحو يروق للوثنيين والغنوسيين . ويعتبر المبحث الذى سطره بعنوان الرد على

سيلسوس Contra Celsum لتفنيد آراء سيلسوس المهاجمة للعقيدة المسيحية من أهم ماكتب . إن سيلسوس يركز فى هجومه على المسيحية على أنها تضم إليها جماعات غير مشروعة يحظرها القانون . ولا ينكر أوريجانوس هذا الاتهام بل يعتبره مدعاة للفخر . كما أنه استطاع أن يميط اللثام عن هدف سيلسوس الحقيقى فى الهجوم على المسيحية والنيل منها وهو احتقاره لليهود الذين اعتبرهم برابرة ومسئولين عن إنشاء هذا الدين الجديد ، ورغبته فى الإعلاء من شأن الاغريق . ويدلنا كتابه « الرد على سيلسوس » أنه لم يمانع فى الاستعانة بالأدوات التى يستخدمها الفلاسفة الاغريق دون أن يصل إلى غايتهم نفسها . فهو يريد من الذين نجح فى تحويلهم من الوثنية اليونانية إلى العقيدة المسيحية ألا يعودوا إلى معتقداتهم الفلسفية التى تخلوا عنها مثل « المشائين الذين ينكرون العناية الالهية وينكرون العلاقات بين الانسان وبين الله . . . والرواقيين الذين يعتقدون بل ويعلمون جهارا بأن الله قابل للفناء وأن جوهره مادى (جسمانى) قابل للتغير وقابل للتشكل بجميع الأشكال ، ثم يعتقدون أن جميع الأشياء ستفنى ما عدا الله والذين يعلمون بتناسخ الأرواح . . . » ومعنى هذا أن اطلاعه الواسع على الفلسفات الأغريقية لم يشككه للحظة واحدة فى يقينه من سلامة العقيدة المسيحية .

قلنا إن صديقه ومريده أمبروزيوس وضع ثروته تحت تصرفه الأمر الذى مكن أوريجانوس من الاستعانة بسبعة مختزلين وعدد من الناسخين لتدوين واستنساخ ما يمليه عليهم من مؤلفات يذكر معارضه ابيفانيوس أنها بلغت ستة آلاف مؤلف . وهكذا تمكن هذا الفليسوف الدينى من التوفر خلال ثمانية وعشرين عاما على دراسة أول ترجمة يونانية للكتاب المقدس تعرف فى تاريخ الدراسات اللاهوتية باسم Septuagint . واستغرقته الدراسة بحيث لم يكن لديه وقت للأكل أو الراحة . وقد لاحظ أوريجانوس عدم دقة هذه الترجمة اليونانية الأولى واختلافها عن أصلها العبرى فألف ما يعرف بالها كسابلا Hexapla (ومعناها الكتاب المقدس السداسى) . وفيه قام بمضاهاة الترجمة اليونانية بالأصل العبرى فضلا عن مضاهاته بأربع ترجمات يونانية أخرى هى ترجمات اكويلا Aquila وسيماكوس Symmachus والترجمة السبعينية وترجمة ثيوديوس Theodotien . وفضلا عن هذه الدراسة اللاهوتية المقارنة كان أوريجانوس أول من قام بالتعليق المنتظم على الكتاب المقدس وشرحه وتفسيره فأرسى بذلك أسس الدراسات الدينية التى تعرف فى عالم اللاهوت بنقد الكتاب المقدس .

وإنها لمفارقة كبرى أن نرى هذا الرجل الذى خصى نفسه بسبب فهمه الحرفى للآية ١٢ فى الاصحاح التاسع عشر من انجيل متى ينحو فى تفسير الكتاب المقدس منحى رمزيا ومجازيا . يقول جون لوريمر فى كتابه « تاريخ الكنيسة» إن أوريجانوس فسر الكتاب المقدس على ثلاثة مستويات أولها التفسير الظاهرى الحرفى الذى يناسب البسطاء وغير المتعلمين وثانيها تفسير أخلاقى يجب على القارئ استخلاصه .أما التفسير الثالث وهو الأصعب والأكثر تعقيدا فهو ذلك التفسير الروحى الذى يسعى إلى الكشف عن المعنى الخبئ وراء النص .

لقد سعى أوريجانوس فى كتاباته إلى التوفيق بين العقل والايمان وذهب إلى أن المسيحية تنهض على إعمال العقل بقدر ماتنهض على صدق النبوءات عن مجئ المسيح وعلى المعجزات التى أتى بها . وظل العالم المسيحى فى الغرب يردد محاجاته حتى عصر النهضة . ومن النقاط الهامة التى دعا إليها هذا اللاهوتى الكبير ضرورة ابتعاد المسيحيين عن التدخل فى الحكم والانخراط فى السياسة لأن مهمتهم الأساسية هى الانصراف الكامل لخدمة الكنيسة أو مملكة الله المقدسة . (وهو رأى ردده فيما بعد القديس أوغسطين فى كتابه « مدينة الله » . ولكن استقراء تاريخ الكنيسة الكاثوليكية وخاصة فى القرون الوسطى يدل بما لايدع مجالا للشك على مدى تجاهل هذه الكنيسة لهذا المبدأ . فقد تطرق الفساد إلى الكنيسة عندما حرصت على الاستحواذ على السلطة الزمنية .

وإلى جانب سداسيته ورباعيته المعروفتين اشتهر أوريجانوس بتأليف كتاب « المبادئ » De Principis الذى لم يبق منه سوى ترجمة رافينوس اللاتينية له . وفى كتابه « العلامة أوريجينوس » يورد الأنبا غريغوريوس جانبا من بحثه « المبادئ » يتناول البتولية والزواج .

وليس من شك أن حياة هذا العالم المسيحى الجليل تنطوى على مفارقة أشد ما تكون مدعاة لسخرية الأقدار . فرغم أن الكنيسة اعتبرته واحدا من آبائها الأوائل فإنها ما لبثت أن ألصقت به تهم الهرطقة للأسباب الأربعة الآتية .

(أولا) أنه يردد قول افلاطون بوجود روح الانسان قبل ولادته منذ بدء الخليقة .

(ثانيا) أنه يقول إن ناسوت المسيح أى طبيعته البشرية (وليس لاهوته أو طبيعته الالهية) هى التى كانت موجودة قبل التجسد . فضلا عن تمهيده للأفكار الأريوسية مثل ايمانه بـ heteroousion التى تعنى أن الابن يختلف فى جوهره عن الآب والأفكار شبه الأريوسية المنادية بـ homoiousion (*) التى تنادى بانتفاء التطابق بين جوهر الأب وجوهر الابن رغم وجود أوجه شبه كبيرة بينهما .(يستخدم الآريوسيون المتطرفون كلمة Anamoiousion ومعناها أن الابن لم يكن من جوهر الآب نفسه .)

(ثالثا) أنه يقول إن أجسامنا عند البعث لن يكون لها وجود مادى بل سوف تتحول إلى أجسام أثيرية تماما .

(رابعا) أنه يؤمن ان كل البشر وحتى الشياطين سوف تخلص فى النهاية . كما أن الخلاص سوف يكون من نصيب سكان الكواكب أيضاً .

١١) أريوس

يقول البعض إن اريوس ولد فى الاسكندرية حيث رسمه ميليتوس أسقف ليكوبوليس المنشق قسيسا فيها . ويقول البعض الآخر إنه ولد فى ليبية القيروان بافريقيا سنة ٢٧٠ م .

(*) يستخدم الآريوسيون المتطرفون كلمة Anamoiousion ومعناها ان الابن لم يكن من جوهر الاب نفسه .

وقد اشتهر بالنسك والوقار والعلم الغزير والفصاحة والقدرة على الحوار واجراء المجادلات . تأثر أريوس وأتباعه بتعاليم سابليوس من ناحية وتعاليم لوسيان الأنطاكى من ناحية أخرى . ويقول البعض إن لوسيان هو الأب الروحى للأريوسية . فضلا عن تأثرها بالأراء المتطرفة التى عبر عنها أحد تلاميذ أوريجانوس وهو ديونسيوس بطريرك الاسكندرية فى الفترة بين ٢٤٦ و ٢٦٤ م والتى قال فيها « لم يكن إبن الله واحدا مع الأب بل كائنا آخر مختلفا عن الآب وأن الآب قد خلق الابن .» ورغم أن ديونسيوس عدل عن تطرفه فيما بعد فإنه ترك فى آريوس أثرا واضحا فقد ذهب أريوس إلى أن المسيح كائن وسط أعظم من الانسان وأقل من الله .

بدأ أريوس دعوته عندما ألقى اسكندر أسقف الاسكندرية خطابا أكد فيه وجود الابن مع الأب منذ الأزل . يقول الأنبا غريغوريوس فى كتابه عن الأريوسية إن أريوس اعترض على هذا الرأى وأصر على القول بأن الله وحده هو الأزلى أما جميع الكائنات الأخرى بما فيها الابن فلا بد أن تكون مخلوقة بفعل من أفعال الإرادة الالهية . وقد اعترض القديس أثنا سيوس على هذه الأفكار ووصفها بالوثنية . فهى تصور يسوع بأنه كائن مخلوق ليس هو بإله ولاهو بانسان بل هو نصف إله يقف فى مركز متوسط بين الخالق وبين الكون . والجدير بالذكر أن الأريوسيين تفقهوا فى المعارف الهيلينية مثل فلسفة افلاطون والجدل الأرسططا ليسى لدرجة أنهم استبعدوا فكرة الفداء والخلاص من دائرة تفكيرهم وأخضعوا كل شيء للقياس والمنطق . يقول الشماس منسى القمص فى هذا الشأن :-

« كان مذهب أريوس وكأنه شرح لتعليم سابليوس فذهب إلى أن الابن يختلف عن الاب فى الجوهر وأنه (أى الابن) أول وأشرف كل ما خلقه الأب من العدم وأنه هو الواسطة التى كون بها الكون . ومع ذلك فهو حسب اعتقاد أريوس أدنى من الأب فى الطبيعة والمنزلة والآب أقدم من الابن لان الابن مخلوق به . وتمكن أريوس بدهائه وفصاحته أن يجذب إليه بعض الأنصار فكانوا يجادلون المؤمنين فى شوارع الاسكندرية ويصرخ الواحد منهم فى وجه الآخر قائلا « ياهرطوقى من الأكبر . الوالد أم المولود » وآخر يقول :« هل من المعقول أن يوجد ابن قبل ولادته » فبالطبع لم يفهم هؤلاء البسطاء السذج أن لفظة ابن نسبية مجازية بل اتخذوها حرفية . »

يقول الانبا غريغوريوس فى كتابه عن الأريوسيه ورد القديس أثناسيوس عليها إن أريوس استمسك أشد التمسك بفكرة وحدانية الله وتفرده مؤكدا أن وحدانيته مطلقة وكاملة . آمن أريوس بأزلية وجود الله وأبديته وأنه أراد أن يخلق العالم ، غير أن طبيعته المتفردة حالت دون تعامله مع الكون المادى مباشرة . ومن ثم فقد خلق اللوغوس (الكلمة) أى الابن يسوع المسيح ليكون وسيلته إلى خلق العالم .

ويستتبع مثل هذا الرأى أن الابن ليس إلا مخلوقا وأنه لاحق فى وجوده على الله حتى ، ولو كان سابقا على جميع المخلوقات . ويعلق الأنبا غريغوريوس على انتشار الهرطقات فى القرون الثلاثة الأولى من مجيء المسيحية فيعزوه إلى عدم اكتمال العلوم اللاهوتية المسيحية حينذاك وافتقارها إلى

التحديد فى استخدام المصطلحات كما أن جذور الوثنية كانت لاتزال قوية وراسخة . ويذهب الأنبا غريغوريوس إلى أن هناك شيئا من الصحة فى قول القديس أثنا سيوس إن هناك علاقة بين انتشار الأريوسية واستساغة العقلية اليهودية لها لأن اليهودية تؤمن فى قوة بوحدانية الله وتنكر الثالوث أو لاهوت المسيح .

والأريوسية تنكر فكرة التنزيل الالهى لأنه ليس هناك ثمة صلة بين الله والانسان فهو بعيد عنه بعدا مطلقا ونهائيا . كما أن الله مستقل فى وجوده استقلالا كاملا عن الخليقة . وليس بمقدور الانسان أن ينفذ إلى سره المستغلق . ويرى الأريوسيون ان الابن لا يمكن أن يكون له أية معرفة جوهرية عن الأب . يذكر أريوس فى هذا الشأن : « أن الأب خفى (مستور) حتى عن الابن . فالكلمة لا يستطيع أن يرى أباه كامل الرؤية أو يعرفه تمام المعرفة . لا . بل إن الابن لا يعرف أيضاً حتى جوهره الخاص . » فضلا عن أن الأريوسية تهدم نظرية الفداء والكفارة بانكارها وجود أى اتحاد حقيقى بين اللاهوت والناسوت . والجدير بالذكر أن مستقبل الكنيسة فى تلك المرحلة كان يدور حول ثلاث كلمات خاصة بطبيعة المسيح وعلاقته بالله احتدم حولها الخلاف وحمى وطيس الجدال بشأنها . هذه الكلمة الثلاث هى :

١ - heteroousion التى تعبر عن الموقف الأريوسى المؤمن بأن جوهر الأب يختلف عن جوهر الابن .

٢ - homoiousion الذى يعبر عن الموقف شبه الأريوسى الذى يؤمن بأن جوهر الابن يشبه أو يماثل جوهر الابن ولكنه لا يتطابق معه .

٣ - homoosion الذى يعبر عن الايمان بتطابق جوهر الابن مع جوهر الآب .

هذه الفروق التى كادت أن تعصف بالكنيسة رغم شدة دقتها تعتمد على خلاف قد يبدو بسيطا للغاية فى حروف هجاء هذه الكلمات الثلاث .

* * *

نعود إلى الموضوع الأصلى فنقول إن اسكندر أسقف الاسكندرية عقد مجمعا فى محاولة من جانبه لتسوية المشكلة الأريوسية بهدوء . ولكن أريوس وأتباعه ركبوا رؤوسهم وشاءوا أن يتحدوا سلطته ، الأمر الذى اضطر هذا الأسقف إلى عقد مجمع الكرازة المرقسية بحضور مائة من قادة الكنيسة حيث قرروا تجريد أريوس من رتبته الكهنوتية . غير أن أريوس ظل سادرا فى غيه وتحديه للسلطة الكنسية ، وساعده على ذلك أن يوسابيوس أسقف نقوميدية كان يؤازره بكل مالديه من نفوذ واسع على كنائس الشرق . واستطاع هذا الصديق الأريوسى أن يعقد مجمعا فى بثينية بآسيا الصغرى للموافقة على وجهة نظر أريوس ومطالبة اسكندر أسقف الاسكندرية أن يغير موقفه . وحتى ينجح أريوس فى نشر هرطقته على أوسع نطاق وضع بنفسه الألحان والاغانى والأناشيد الدينية التى تدعو لأفكاره وتروج لها بين جماهير الشعب . وساء الامبراطور قسطنطين الذى كان

لتوه قد حقق واحدا من أهم انتصاراته العسكرية أن تنقسم الكنيسة على ذاتها على هذا النحو المستطير فأرسل وسيطه المقرب إليه هسيوس أسقف قرطبة بأسبانيا كى يوفق بين الطرفين المتنازعين ظنا منه أن الأمر هين وبسيط ولا يعدو أن يكون خلافا فى وجهة النظر حول احدى النقاط اللاهوتية الفرعية . ولما أدرك هسيوس بنفسه خطورة هذا النزاع الدينى المتفاقم على وحدة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت تؤمن رسميا بالمسيحية اقترح هذا الوسيط على الامبراطور قسطنطين أن يأمر بعقد مجمع مسكونى عام سنة ٣٢٥ بنيقية بآسيا الصغرى .

مجمع نيقية (٣٢٥)

لا أحد يعرف الشهر الذى اجتمع فيه هذا المجمع على وجه التحديد . فالبعض منهم يوساب القيصرى مؤرخ المسيحية المعروف والذى شارك فى أعمال هذا المجمع وحضر جلسة الافتتاح يقول إن الجلسة الافتتاحية بدأت فى ٢٠ مايو فى حين يقول البعض الآخر أنها بدأت فى ١٩ يونية ٣٢٥ . وكان الأمبراطور قسطنطين هو الداعى إلى هذا الاجتماع الذى حضره من جميع أرجاء العالم المسيحى ٣١٨ أسقفا .

وحضر إلى المجمع كل من الطرفين المتنازعين : أريوس وأتباعه يوسابيوس أسقف نيقو ميدية وثاوغنس مطران نيقية ومارس أسقف خلقيدونية (ومعهم عشرة فلاسفة وعدد من علماء اللاهوت) واسكندر أسقف الاسكندرية وأثنا سيوس ومارسيليوس فى جانب آخر . ونظرا لأن أثنا سيوس كان آنذاك مجرد رئيس شمامسة كنيسة الاسكندرية فقد اعترض آريوس على حضوره فقد كان يخشى براعته فى المحاورة والجدال . ولكن الامبراطور قسطنطين لم يأبه با عتراض أريوس على أثنا سيوس . واحقاقا للحق كان مسلك هذا الامبراطور فى منتهى التواضع والحياد . ويؤكد جراسيموس اللاذقى فى كتابه « تاريخ الانشقاق » أن أحداث مجمع نيقية تثبت بما لايدع مجالا للشك أن الكنيسة الشرقية كانت على قدم المساواة تماما مع الكنيسة الغربية ولم يكن لبابا روما أية ولاية على المجمع . حتى الامبراطور نفسه لم يكن له ولاية عليه فقد ترك الأطراف المتنازعة تتحاور فى حضوره بمنتهى الحرية .

ودارت معركة كلامية حامية الوطيس بين أريوس وأثناسيوس استطاع أن ينتصر فيها أثنا سيوس على غريمه . ولكن الأمور كانت ابعد ما تكون عن الوضوح فقد اختلط الحابل بالنابل ونجم عن نيقية شقاق أكثر مما نجم عنه من رأب الصدع . وتعالت الأصوات فاختلطت أفكار المدافعين عن الأريوسية والأوريجانوسية و السابلية فى فوضى ليس لها نظير يلقى عليها الأنبا غريغوريوس الضوء فيقول إن كثيرين من الحاضرين ذهبوا إلى أن الأريوسيين قد استخدموا الفاظا غير مألوفة عما استخدمه السلف من أبناء الكنيسة . ولكن ليس هناك فى الدين ما يجبرهم على استخدام الالفاظ التقليدية . ويستطرد الأنبا غريغوريوس قائلا : « كان هذا هو الاتجاه السائد أولا عند أساقفة سوريا وآسيا

الصغرى وربما كانوا متأثرين على نوع ما بتعليم أوريجانوس وكانوا يخشون غاية ما يخشون مذهب الموناركيين (الملكانيين) الذين كانوا ينادون بأن المسيح انسان كسائر الناس حلت عليه حكمة الله بصورة لم يعرفها أى نبى أو رسول آخر . ولكن ليس إلهاً إذ لا يوجد إلى جانب الله إله آخر ، ومذهب السابليين أتباع سابيليوس المبتدع الذى أنكر التمايز بين الأقانيم فى الذات الإلهية . ورغم أن الله واحد فإنه ظهر فى صورة الأب مرة وصورة الابن مرة ثانية وصورة الروح القدس مرة ثالثة .»

يقول الشماس منسى القمص عن الدور الحاسم الذى لعبه أثناسيوس فى تغيير مجرى الأحداث فى مجمع نيقية : « اقترح أثناسيوس أن تضاف كلمة homoousion أى (مساو فى الجوهر) أو ذو (جوهر واحد) للتعبير عن رأيه بطريقة موجزة واضحة فعارض اليوسابيون فى استعمال هذه اللفظة بدعوى أنها ليست من الكتاب وغير ملائمة وقابلة للتأويل ثم اقترحوا استبدالها بلفظة Homoiousion (أى متشابه فى الجوهر) والفرق بين الكلمتين حرف واحد وهو (يوتا) باليونانية والقبطية . ولكن ما أعظم الفارق بين اللفظين فى المعنى ! ! . . . . فصودق على اقتراح أثنا سيوس بأغلبية هائلة ولم تزد الأقلية على سبعة عشر صوتا وقوبلت هذه النتيجة بالسرور التام . »

وهكذا تم اتفاق غالبية الحاضرين على صياغة ما اصطلح المسيحيون على تسميته بقانون الايمان الذى يبدأ : « نؤمن بإله واحد الله الآب الضابط الكل الخالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى . . . الخ .» وأيضاً أقر المجمع «النقطتين الأساسيتين فى التعليم عن كلمة الله وهما تمييز الأقانيم فى اللاهوت وصحة لاهوت المسيح » وبعد أن حكم المجمع بتجريم أريوس وبدعته أمر بنفيه وحرق كتبه وإعدام من يتستر عليه .

وإلى جانب هرطقة أريوس نظر مجمع نيقية فى أمر المنشق ميليتوس الذى كان أسقفا لمدينة ليكوبوليس أى أسيوط فى صعيد مصر . فقد كان هذا الأسقف العاصى يقوم برسامة الاساقفة متعديا بذلك على سلطة بطريرك الاسكندرية الأمر الذى استوجب من مجمع نيقية توبيخه على انشقاقه ومطالبته بالانصياع لسلطة رؤسائه فى الكنيسة .

غير أنه من الخطل أن نعتقد أن قصة أريوس انتهت عند هذا الحد أو أن مجمع نيقية وجد حلا شاملا للمشاكل والهرطقات والانشقاقات التى كانت تجابه الكنيسة المسيحية . ومن ثم فلقصته بقية نتناولها فى الفصل الثانى الذى يبدأ حيث ينتهى الفصل الأول ويلقى ضوءا على ما حدث بعد مجمع نيقية الذى لولاه لتغيرت مسيرة المسيحية تماماً . وعلى أية حال إذا كانت القسطنطينية وآسيا مالتا إلى الأخذ بأفكار المهرطق أريوس فإن مصر والغرب رفضاها والتزما بقرارات مجمع نيقية . وهكذا انتصرت الكنيسة الأرثوذكسية فى مصر والكنيسة الكاثوليكية فى روما على أريوس وهرطقته . ولكن إلى حين .

الفصل الثاني

من مجمع نيقية عام ٣٢٥ حتى مجمع خلقيدونية عام ٤٥١

لم ينجح مجمع نيقية الأول المنعقد عام ٣٢٥ فى حسم الخلافات بين الأصوليين الأرثوذكسيين وبين المهرطقين الأريوسيين . ولذلك كان من الطبيعى أن تظهر هذه الخلافات من جديد وخاصة لأن كثيرين من أتباع أريوس وعلى رأسهم يوسابيوس أسقف نيقوميدية أنكروا الأريوسية دون اقتناع حقيقى من جانبهم ، بل مجاراة للأوضاع القائمة واستجابة لرغبات الامبراطور قسطنطين . غير أن أسقف نيقوميدية استطاع أن يقنع هذا الامبراطور باعادة النظر فى الفكر الأريوسى . وساعد على ذلك أن كونستانتيا أخت الامبراطور كانت تناصر الأريوسية . فضلا عن أن يوسباثيوس أسقف أنطاكية الذى كان واحدا من أقوى أعداء الأريوسية تعرض لمؤامرة حاكها ضده بنجاح بعض أنصار أريوس الذين اتهموه بأنه على علاقة بأمرأة ساقطة وأنه - وهو الأهم - أهان هيلانة أم الامبراطور قسطنطين أثناء زيارتها للأراضى المقدسة عام ٣٢٦ م . وانتقم الامبراطور منه بنفيه إلى تراقيا وخلعه من وظيفته الدينية . ثم دعا عام ٣٢٧ إلى عقد مجمع ثان فى نيقية كان معظم المشتركين فيه من الأريوسيين وأشباههم . وللتمويه والخديعة أعد أريوس قانون إيمان مشابهاً لقانون الايمان الذى سبق أن أقره مجمع نيقية الأول بعد أن حذف منه الكثير من التعبيرات الخلافية والمتنازع عليها . واستطاع أريوس بوسائله الخاصة وعن طريق أتباعه أن يتقرب إلى قسطنطين الذى بعث إلى اسكندر أسقف الاسكندرية برسالة أوصت بإعادة أريوس وطائفة الميليتيين Meletians فى مصر إلى مناصبهم الكهنوتية .ولكن اسكندر توفى عام ٣٢٨ قبل أن يتسلم الرسالة . فخلفه القديس أثناسيوس الذى اشتهر بالبلاغة فى التصدى للأريوسية . ورفض أثناسيوس الاستجابة إلى طلب الامبراطور قسطنطين بإعادة أريوس وطائفة الميليتيين إلى المناصب الدينية التى استبعدوا منها . وفى بادئ الأمر

لم يغضب الامبراطور من أثنا سيوس بل استمع بتعاطف إلى وجهة نظره بسبب ما كان يحمل من ود له . وبالطبع أوغر هذا صدور أعدائه وشانئيه فسعوا إلى الوقيعة بينه وبين الامبراطور واستغلوا حرص الامبراطور لأسباب سياسية على التوفيق بين أتباع أثنا سيوس وأتباع أريوس لأنه كان يريد أن يشمل السلام ربوع مملكته . ودعا قسطنطين الفرقاء إلى المصالحة فى مدينة صور عام ٣٣٤ م . وعلى الرغم من أن أثنا سيوس حضر الاجتماع وبرفقته ثمانية وأربعون أسقفا مصريا من الموالين له فقد نجح الأريوسيون فى السيطرة على جلسات المجمع التى رأسها اثنان من أتباع أريوس هما يوسابوس أسقف قيصرية ويوسابوس أسقف نيقوميدية . وشن أنصار أريوس حملة مسعورة للتشهير بأثناسيوس وتلطيخ سمعته وإلصاق التهم الكاذبة به حتى نجحوا فى التخلص منه وعزله من أسقفيته ، كما أنهم نجحوا عام ٣٣٥ فى عقد مجمع فى أورشليم برأ أريوس من تهمة الهرطقة . ورغم تعاطف الامبراطور قسطنطين أصلا مع أثناسيوس فقد نجح أعداؤه فى دق الأسافين بينه وبين الامبراطور الأمر الذى انتهى إلى نفيه سنة ٣٣٥ إلى بلاد الغال (فرنسا) . فضلا عن نجاحهم فى تقليم أظافر أنصاره أمثال مارسيلوس Marcellus أسقف أنقرة فى آسيا الصغرى . وفى عام ٣٣٦ مات أريوس فجأة بمرض الكوليرا (ويقال بالسم) قبل أن يحضر الاحتفالات الخاصة بعودته إلى منصبه الكهنوتى . وعلى أية حال فإن مجرد العفو عنه واصدار قرار بعودته إلى سلك الكهنوت هو فى حد ذاته بمثابة نصر عظيم له ولأتباعه . ورغم نجاح أريوس وأتباعه فى التغلب على أثناسيوس وازاحته من طريقهم فإنهم فشلوا فى اجراء أية تعديلات على نص القرارات التى سبق لمجمع نيقية الأول أن أتخذها عام ٣٢٥ م . وهو ما يؤكده المؤرخ المعروف جيبون فى الفصل الواحد وعشرين من كتابه الشهير « إنهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» . وبعد وفاة قسطنطين عام ٣٣٧ تولى قسطنطين الثانى مقاليد الامبراطورية من بعده . وأصدر أمرا بعودة أثناسيوس من منفاه عام ٣٣٨ فاستقبله أنصاره استقبال الأبطال الظافرين ، وبعد عودته من منفاه إلى الاسكندرية نجح أثناسيوس فى عقد مجمع ٣٣٩ فى الأسكندرية كرسه للدفاع عن قرارات مجمع نيقية الأول .

ولكن الأيام أثبتت أن نجاح أثناسيوس فى تأكيد استمساك الكنيسة بقرارات مجمع نيقية الأول (٣٢٥) كان محدودا للغاية . فقد انتشرت الأريوسية فى الشرق باستثناء مصر انتشار النار فى الهشيم . والجدير بالذكر أن أبناء قسطنطين الثلاثة وهم قسطنطين الثانى وقوستانس Constans وقسطنطيوس Constantius تولوا مقاليد أمور الامبراطورية الرومانية بعد وفاة أبيهم الامبراطور قسطنطين الأول فتولى قسطنطيوس الثانى حكم الشرق بمافيه مصر فى حين تولى قسطنطين الثانى حكم الأقاليم الغربية . أما قسطانس فحكم المنطقة الوسطى لايطاليا وشمال أفريقيا .

وقد كان قسطنطيوس وبلاطه من غلاة المتحمسين للأريوسية . علما بأن ايوسبيوس Eusebius النيقوميدى الذى عين عام ٣٣٨ أسقفا على القسطنطينية تزعم حركة أريوسية معتدلة تعارض مذهب أثناسيوس وأتباعه . وأمام هذا المد الأريوسى كان من الطبيعى أن يتعرض أثناسيوس للنفى

مرة أخرى ، الأمر الذى اضطره نحو عام ٣٤٠ إلى الاحتماء بيوليوس أسقف روما الذى دعا إلى عقد مجلس مكون من خمسين أسقفا من أجل الدفاع عن أثناسيوس ضد أعدائه . وهكذا بات من الواضح أن الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية يختلف فى توجهه اللاهوتى عن الجزء الغربى ، الأمر الذي دعا الأخوين الحاكمين قسطنطينوس وكونستانس إلى عقد مجلس فى ساردیكا فى صوفيا ببلغاريا . ولكن هذا المجلس أدى إلى المزيد من الانقسام بين الشرق والغرب . فقد احتج زعماء الشرق الدينيون على حضور أثناسيوس ومرسيللوس هذا الاجتماع ، فى حين أصدر زعماء الغرب الدينيون قرارات تزعم أن لروما حق الولاية على سائر أسقفيات الامبراطورية . ويرى مؤرخو الكنيسة أن هذا الخلاف يمثل أول بادرة للشقاق الخطير الذى أدى إلى انفصال الكنيستين الشرقية والغربية النهائى فى عام ١٠٥٤ م .

الدوناتيون في شمال افريقيا

عندما تعرض المسيحيون للاضطهاد القاسى العنيف فى بعض الفترات (وخاصة ابان حكم الامبراطور الغاشم دقلديانوس) أصاب الضعف والوهن عددا منهم فاستسلموا للطغيان وتراجعوا عن الجهر بالمسيحية بشكل أو آخر درءا للمخاطر . ونتيجة لذلك انقسمت الكنيسة على نفسها فظهرت جماعة من المتطرفين اعتبرت الضعف والتخاذل أمام الاضطهاد خيانة تستأهل العقاب . وهاتان الطائفتان هما الدوناتيون Donatists (نسبة إلى دوناتس أسقف قرطاجنة ٣١٣ - ٣٥٥) والمليثيون meletians فى مصر . وبلغ الدوناتيون من القوة مبلغا جعلهم يشقون عصا الطاعة على الامبراطور الرومانى وينادون باستقلالهم عن الكنيسة القائمة ، الأمر الذى سبب للامبراطور الرومانى قسطنطين ازعاجا شديدا لأنه رآى فى مثل هذه الحركات الانفصالية خطرا يتهدد وحدة امبراطوريته . فلا غرو إذا رأيناه يتدخل دون جدوى لقمع حركة الدونانتيين التى قويت شوكتها وأصبحت الكنيسة الوحيدة فى شمال افريقيا حتى القرن الخامس الميلادى . ولم تختف هذه الكنيسة الدوناتية إلا بعد الفتح الاسلامى لقرطاجنة فى شمال افريقيا . وكان لهذه الحركة الدينية الانفصالية جانب اصلاحى اجتماعى إذا أنها كثيرا ما استخدمت العنف لتأخذ من الأغنياء وتعطى الفقراء .

المليتيون في مصر :

وأيضاً ظهرت فى مصر طائفة الميلتيين (أو أتباع ميليتوس) التى سبق الاشارة إليها وأظهرت التشدد الدينى نفسه الذى أظهره الدوناتيون فى شمال أفريقيا . فقد أبى هؤلاء الميليتيون أن يتسامحوا مع المرتدين عن المسيحية أو المترددين فيها نتيجة الاضطهاد ، وأصروا على منع الكهنة منهم من العودة إلى وظائفهم الكنسية . والجدير بالذكر أن المهرطق الكبير أريوس كان فى باكورة حياته واحدا من المعضدين لميليتوس ولكنه ما لبث أن انفصل عنه ليعلن هرطقته المقترنة باسمه . ورغم أن أتباع

ميليتوس استطاعوا أن يقيموا كنيسة مستقلة خاصة بهم وأن ينشئوا أسقفية لهم فى مصر الوسطى والصعيد فإن حركتهم لم تبلغ من العنفوان والقوة ما بلغته حركة الدوناتيين .

وفى منتصف القرن الرابع الميلادى ظهرت حركة أريوسية شديدة التطرف تزعمها يودوكسيوس Eudoxios أسقف أنطاكية يعاونه لاهوتيان بارزان هما أكتيوس Actios ويونوميوس Eu-nomios . وقد نادى هؤلاء الأريوسيون المتطرفون بالأنومويوس Anomoios ومعناها أن الابن غير مشابه للأب فى الجوهر . ولكن الأريوسيين المعتدلين بقيادة باسيلوس أسقف أنقرة أرادوا الاحتفاظ بكلمة هو موسيوس Homoiousios (ومعناها أن الابن من جوهر مشابه للأب) على أنها التفسير الصحيح لقانون نيقية .

والجدير بالذكر أن الامبراطور دعا إلى عقد مجمع من الأساقفة الغربيين فى سير ميوم Sir-mium بيوغسلافيا سنة ٣٥٧ م وأن هذا المجمع أقر المبادى الأريوسية التى تجعل الابن فى مرتبة أدنى من الأب . ولم يرق هذا فى عين باسيليوس أسقف أنقرة فتضافر مع ليريوس أسقف روما لاقناع قسطنطينوس باعادة النظر فى قرارات سيرميوم الأريوسية . واستجاب الامبرطور لرغبته فدعا فى عام ٣٥٩ إلى عقد مجمعين أحدهما فى آرينيوم (حاليا ريمينى بايطاليا) و الآخر فى سولفيا بآسيا الصغرى حضرهما نحو أربعمائة أسقف من الغرب وأكثر من مائة أسقف من الشرق .

يقول جون لوريمر فى الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الكنيسة » إن الامبراطور الرومانى أوصى رجال الكنيسة المتنازعين حول طبيعة المسيح وعلاقته بالله بتجنب استخدام تعبير Ousios ومعناه الجوهر واستبعاده من العبارات اللاهوتية المستخدمة كافة مثل Anomoios- -Homo-Homoousios-iousios . فاستقر رأيهم على استخدام كلمة هومويوس Homoios التى تعنى أن الابن مشابه للأب ولكن ليس مشابها له فى الجوهر وليس فى كل الأشياء . وانزعج المتدينون المحافظون لاستخدام كلمة هومويوس لأنها فتحت الباب على مصراعيه لأشكال التفسيرات الأريوسية كافة . ولكن هذا اللفظ حظى بقبول قسطنطين الذى سعى إلى التوصل إلى صيغة لاهوتية واسعة ومبسطة يجتمع عليها معظم المسيحيين . وعندما رفض باسيليوس استخدام هذه الصيغة المعدلة قام الامبراطور بنفيه . وهكذا سقط قانون نيقية الصادر عام ٣٢٥ الذى تقرر فيه استخدام كلمة Homoousios (ومعناها المساوى فى الجوهر) ليحل محله قانون أريمنيوم المضاد عام ٣٦٠ والذى ينص على استخدام لفظ Homoiousios (ومعناها التشابه فى الجوهر)

ومما زاد الطينة بلة ان يوليانوس المرتد عن المسيحية إلى الوثنية حكم الامبراطورية الرومانية فى الفترة بين ٣٦١ و ٣٦٣ م فحاول فى أثناء فترة حكمة القصيرة القضاء المبرم على المسيحية وإحياء الوثنية . وكانت إحدى الوسائل التى استخدمها فى هذا الصدد ابراز التناقضات بين العهدين القديم والجديد . يقول لوريمر فى الجزء الثالث من تاريخ الكنيسة : « كانت ألوهية المسيح بالنسبة ليوليانوس أمرا لا يصدق ، كما اعتبر أن تعاليم المسيح إنما هى صادرة من قروى جاهل أمى مجرد من

الحق والجمال . فقد كانت تعاليم ضعيفة وغير عملية وإذا أخذت جديا فإنها تدمر الأمة والمجتمع والأسرة . كما اعتقد أن المسيحيين أدخلوا بدعا ليست موجودة أصلا حتى فى كتبهم المقدسة ، مثل تبجيل القديسين وهى الرؤوس المتعفنة فى الأحماض والعظام النتنة التى صارت الآلهة الجديدة للشعب الرومانى .»

وإذا كان يوليانوس حاول العودة بالشعوب التابعة له إلى الوثنية فإن من سوء حظ فكر أثناسيوس الأرثوذكسى أن يتولى مقاليد الحكم فى الفترة بين ٣٦٤ و ٣٧٨ أمبراطور متعصب للأريوسية المتطرفة اسمه فالينز Valens ناصب الأريوسية المعتدلة العداء نفسه الذى ناصبه لمذهب أثناسيوس .

وعلى العكس من ذلك آمن خليفته جراتيان بمذهب أثناسيوس الأرثوذكسى الأمر الذى ساعد هذا المذهب على الانتصار على الأريوسية . وشاءت الظروف التاريخية أن يصبح هذا الانتصار على الأريوسية كاسحا بفضل إيمان الامبراطور ثيوديوس الأول الذى دام حكمه فترة طويلة إمتدت من عام ٣٧٠ م إلى ٣٩٥ بمذهب أثناسيوس الأرثوذكسى . وقد بلغ تحمسه لهذا المذهب مبلغا جعله يصدر عام ٣٨٠ مرسوما يقضى بضرورة استمساك شعبه بالمذهب الأرثوذكسى ويهدد الخارجين عليه بالويل والثبور وعظائم الأمور . ثم سعى الامبراطور ثيوديوس فى العام التالى إلى توطيد أقدام المذهب الأرثوذكسى عن طريق مجمع مسكونى فى القسطنطينية عام ٣٨١ دان هرطقات الأريوسيين وأشباه الأريوسيين والسيبليين والأبولونيين وغيرهم . واشترط هذا الامبراطور استبعاد غير الأرثوذكسيين من وظائف الاكليروس . وبمعنى آخر اشترط أن يكون رجال الاكليروس من المؤمنين بتساوى الأب والابن والروح القدس فى القداسة والجوهر . وبذلك تلقت الأريوسية ضربة قاضية . غير أن هذا لم يمنع من استمرار بعض فلولها لمدة قرنين من الزمان فى بعض الأماكن المحدودة قبل أن تبيد وتندثر مثل استمرارها بين قبائل القوط حتى عام ٥٨٧ وقبائل ال Suevi الأسبانية حتى عام ٥٦٠ وقبائل الفاندال التى فتحت شمال أفريقيا حتى عام ٤٢٩ .

وفى الوقت نفسه أخذت الجيوش والسلطة الرومانية تتعرض لهجوم قبائل البربر الأوروبية عليها . وهو هجوم أدى فى نهاية الأمر إلى انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية فى القرن الخامس الميلادى . ويعتبر المؤرخون سنة ٤٧٦ م فى العادة نهاية الامبراطورية الرومانية . ومع سقوط هذه الامبراطورية زاد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية التى وجدت فى القبائل الغازية أفضل حليف لها . ففى حين كان الأباطرة الرومان لا يكفون عن التدخل فى شئون الكنيسة الكاثوليكية اتبعت القبائل الغازية (مثل قبائل الهون التى سيطرت على بولندا والمانيا والنمسا والمجر و روسيا وقبائل القوط التى سيطرت على سويسرا وايطاليا ويوغسلافيا وقبائل الغال التى سيطرت على فرنسا) سياسة الامتناع عن التدخل فى شئون هذه الكنيسة ما زاد شيئا فشيئا من نفوذها السياسى . وساعدها على ذلك ماتمتعت به – بعكس الأريوسية – من حنكة إدارية وقدرة على التنظيم .

الأبولينارية Apollinarianism

كان أبوليناريوس السكندرى الأصل ومؤسس هذه البدعة أسقف لوديكيا Laodices فى سوريا فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى . والذى لاشك فيه أنه كان شديد الغيرة على الدين المسيحى فقد دافع عنه ضد الامبراطور الرومانى المرتد يوليانوس كما دافع عنه ضد هرطقة أريوس . ولم يكن أبوليناريوس مؤيدا لقرارات مجمع نيقية (٣٢٥) فحسب بل صديقا شخصيا لبطل هذا المجمع القديس أثناسيوس أسقف الاسكندرية . وكان القديس جيروم واحدا من تلاميذه . ومهما كان الأمر فأبوليناريوس ابن عصره تعكس اهتماماته اللاهوتية اهتمامات العالم المسيحى فى نهاية القرن الرابع الميلادى . فقد انشغل المسيحيون آنذاك بعلاقة الناسوت باللاهوت وهو جوهر البدعة الأبولينارية . وقد كان هذا الموضوع الحساس سببا فى انعقاد مجمعين مسكونين هما مجمع أفسس عام ٤٣١ ومجمع خلقيدونية عام ٤٥١ .

أراد أبو ليناريوس أن يتصدى لشطط الأريوسية التى ركزت على ناسوت المسيح وقللت من شأن لاهوته فوقعت فى الشطط المقابل وهو التركيز على لاهوت المسيح على حساب ناسوته . وفى سعيه إلى دحض فرية أريوس حاول أبوليناريوس جاهدا أن يؤكد ألوهية المسيح الكاملة مضحيا فى سبيل ذلك بناسوته . ومفاد بدعة أبوليناريوس أن القول بكمال لاهوت المسيح لا يستقيم مع القول بكمال ناسوته . فلاهوته كل متكامل وكذلك ناسوته كل متكامل . ومن ثم لا يمكن لهما الاتحاد فى كل متكامل هو شخص المسيح . وحتى ينفى أبوليناريوس عن المسيح احتمالات الدنس والخطيئة بسبب تجسده ذهب إلى أن للمسيح جسدا بشريا كما أن له نفسا Soul بشرية ولكن ليس لديه روح أو عقل Spirit بشرى فقد وضع أبوليناريوس اللوجوس أو الكلمة محل هذا العقل ثم ربط بين اللوجوس والجسد البشرى على نحو يجعل الطبيعة البشرية تبدو متسمة بكل الخصائص الالهية ، والطبيعة الالهية تبدو متسمة بكل الخصائص البشرية ومزج جميع هذه الخصائص فى طبيعة واحدة هى طبيعة المسيح . وهكذا جعل أبوليناريوس المسيح كائنا وسطا بين الله والانسان وركز على ألوهيته متجاهلا بشريته .

والجدير بالذكر أن هذه البدعة أدت فى نهاية المطاف إلى بدعة أخرى تنكر أن للمسيح طبيعتين وتذهب إلى أن له طبيعة واحدة فقط لا غير ، على عكس مايذهب إليه الفكر المسيحى الأرثوذكسى . وقد تصدى لهذه البدعة عدد من آباء الكنيسة أمثال أثناسيوس وجريجورى وباسيل وابيفانيوس . وكان كيرلس أسقف الاسكندرية (٤١٢ - ٤٤٤ م) الذى آمن باتحاد اللاهوت الكامل والناسوت الكامل فى شخص المسيح من أشد الناس مناهضة لبدعة أبوليناريوس . وبانكارها بشرية المسيح تجعل الأبولينارية من فكرة الخلاص أمرا لامعنى له . فحتى يكون لخلاص البشرية أى معنى لابد أن يكون المسيح كامل الناسوت شأنه فى ذلك شأن بقية البشر .

وجسد المسيح فى رأى الأبولينارية شىء يستحق العبادة أى شىء مختلف عن أجساد البشر .

صحيح أن أبوليناريوس نجح فى تأكيد ألوهية المسيح الكاملة وطهره الكامل وأيضاً فى التغلب على مشكلة ثنائية الروح والجسد . ولكنه اضطر فى سبيل ذلك إلى التضحية ببشرية المسيح التى تركز عليها فكرة الخلاص كما أسلفنا . وقد تنبه أكليروس الاسكندرية إلى خطر الأبولينارية منذ وقت باكر فعقدوا مجمعا عام ٣٦٢ لادانتها . (وعلى أية حال لم تبدأ هذه البدعة فى الانتشار المحدود إلا فى عام ٣٧١ ثم توالت المجامع فى حظرها مثل مجمع روما المنعقد عام ٣٧٧ ومجمع سكندرى آخر إنعقد عام ٣٧٨ ثم مجمع انطاكية عام ٣٧٩ ثم المجمع المسكونى الثانى المنعقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ . فضلا عن أن الامبراطور ثيود سيوس أصدر فى عامى ٣٨٣ و ٣٨٨ مرسومين يقضيان بضرورة التصدى لهذه البدعة التى تراجعت بحلول عام ٤٢٠ . ومما يذكر أن تلاميذ أبو ليناريوس التجأوا إلى الحيلة لنشر بدعته فقد نسبوها زورا وبهتانا إلى بعض آباء الكنيسة ، الأمر الذى خدع عددا من المسيحيين الأرثوذكس وضللهم .

النسطورية Nestorianism

النسطورية من أخطر البدع التى هددت المسيحية فى القرن الخامس الميلادى ، ذاعت وانتشرت فى منطقتى الشرق الأوسط والاقصى ولم تندثر تماما من العالم حتى يومنا الراهن . ولو أن هذه البدعة كتب لها البقاء والفوز لتغير وجه المسيحية تماما ولفقد المسيح ألوهتيه وتحول إلى مجرد إنسان يتميز بالسموق والسمو والجلال .

ولد نسطور فى سوريا واشتهر بالتقوى والنسك والبيان الفصيح . ولكنه كان ذا شخصية مندفعة ومزهوة بنفسها . قال فى خطاب رسامته أسقف القسطنطينية مخاطبا الامبراطور ثيود سيوس الثانى : « سلمنى أيها الامبراطور الأرض خالية من الهراطقة أسلمك السماء .» وقد أظهر نسطور غيرة شديدة ضد هرطقات الأريوسيين والأبوليناريوسيين والنوفاتيين والماسوديين وغيرهم وحرض الامبرطور على مطاردتهم والتنكيل بجميع المهرطقين باستثناء بيلاجيوس وأتباعه فقد راق له إنكارهم للخطيئة الأولى وإيمانهم المطلق بحرية الارادة الانسانية . وعندما تعرض البيلاجيون للضغط والاضطهاد لاذ به زعماؤهم أمثال جوليان وسيلستيوس فأكرم وفادتهم وقدم إليهم العون . ولم يكتف بذلك بل سعى لدى الامبراطور كى يعفو عنهم . غير أن الامبراطور لم يستجب لشفاعته . وعندما اجتمع مجمع أفسس (٤٣١) لإدانة البيلاجية انتهزها فرصة لإدانة النسطورية بسبب صداقة نسطور لبيلاجيوس وأتباعه .

تتلمذ نسطور على يدى مهرطق كبير لم تكتشف الكنيسة هرطقته إلا بعد وفاته اسمه ثيودور من Mopsuesia (٣٩٣ - ٤٢٨) . وذهب ثيودور إلى أن الله يسكن فى المسيح كما لو كان المسيح أبنه وأنهما يتحدان على نحو فريد أقرب ما يكون إلى اتحاد الرجل بزوجته . وبرغم أنه كان يتحدث عنهما كشخص واحد فإن لغته توحى بأنهما شخصان منفصلان . ولم يكن ثيودور وحده أول من

مهد السبيل لظهور البدعة النسطورية فقد مهدلها أيضاً لاهوتيون أنطاكيون آخرون أمثال ديودوروس أسقف طرسوس المتوفى عام ٣٩٤ الذى آمن أن للمسيح طبيعة إلهية تكاد تكون منفصلة ومستقلة عن طبيعته البشرية . ورفض ثيودور أن يستخدم التعبير اليونانى Theotokos ومعناه أم الله فى وصف العذراء قائلا « إن مريم ولدت المسيح ولم تلد اللوجوس (الكلمة) لأن اللوجوس كان ولا يزال موجودا فى كل مكان رغم أنه يسكن فى المسيح على نحو خاص منذ البداية . ولهذا فإن مريم بالتحديد هى أم المسيح Christokos وليست أم الله . وتحريا للدقة فإنها ولدت انسانا بدأ فيه الاتحاد باللوجوس ولكنه اتحاد لا يزال منقوصا لدرجة أنه لم يكن من المستطاع تسميته ابن الله إلا بعد تعميده» . ويضيف ثيودور إلى ذلك قوله « إنه من الجنون أن نقول إن العذراء ولدت الله فهى لم تلد الله بل ولدت الهيكل الذى يسكنه الله . »

وكان لنسطور تابع وصديق هو القسيس أناستاسيوس . ووجد الاثنان أن الجو فى القسطنطينية مهيأ لاعتناق أفكار مماثلة بشأن العلاقة بين لاهوت المسيح وناسوته . فقد كان البعض يطلق على العذراء اسم أم الله فى حين أطلق عليها البعض الآخر أم الإنسان . ومن ثم لم يكن غريبا أن يقول نسطور فى أول موعظة يلقيها : « تسألوننى إذا كان من الممكن تسمية مريم أم الله . فهل لله أم ؟ ولو كان الأمر كذلك فإننا نلتمس العذر للوثنية إذا نسبت الآلهة لأمهاتها . ولكن بولس الرسول فى هذه الحالة يصبح كاذبا لأنه يقول عن ألوهية المسيح « إنه كان بلا أب ولا أم ولا نسب . . .» كلا ياسيدى إن مريم لم تلد المسيح . . . فالمخلوق لم يلد الخالق غير المخلوق بل ولد الإنسان الذى هو أداة الله . إن الروح القدس لم يجعل باللوجوس ولكن أنشأ من أجل اللوجوس عن طريق العذراء هيكلا لسكناه . . . إن الذى تكون فى أحشاء مريم لم يكن الله ولكنه كان الله وقد كسا نفسه بثوب إنسانى . ومن أجل الله الذى كسا نفسه بثياب الانسانية أصبح المكتسى بها أيضاً يدعى إلها .» وهكذا تورط نسطور فى تأكيد الناسوت على حساب اللاهوت ، وذهب دون أن يقول هذا صراحة إلى الاعتقاد فى ثنائية المسيح أو ازدواجية شخصه ، أى أنه ذهب إلى أن للمسيح طبيعتين مختلفتين ومنفصلتين . . فضلا عن أنه أنكر فكرة ولادة الله ومكابدته العذاب والموت . واستبدل نسطور فكرة التجسد بفكرة اكتساء اللوجوس بطبيعة البشر . وبدلا من الايمان الأرثوذكسى بالله المتجسد فى إنسان آمن نسطور بأن يسوع الناصرى مجرد أداة أو هيكل يسكنه اللوجوس المقدس . وبطبيعة الحال استنكر كثير من الرهبان و المؤمنين فى القسطنطينية هذه البدعة وهاجوا وماجوا ضد نسطور الذى انتقم منهم بضربهم ولطمهم وتعذيبهم والقائهم فى السجون . ولكن نفوذ نسطور فى القسطنطينية لم يدم طويلا فقد تصدى له بكفاءة واقتدار عدد من رجال الكنيسة على رأسهم كيرلس بطريرك الاسكندرية . وقد سبقه فى ذلك أسقف Cyzicum الذى كان منافسا لنسطور على تولى كرسى البطريركية والذى وصل حبه لمريم العذراء حد التقديس والعبادة . .

بدأ النزاع بين كيرلس ونسطور فى شكل سيل من المراسلات . فقد تقدم أربعة مواطنين من الاسكندرية بشكوى ضد معاملة كيرلس السيئة لهم إلى الامبراطور ثيودوسيوس الثانى فى

القسطنطينية . وأحال ثيودوسيوس الشكوى إلى نسطور للنظر فيها . وعز على كيرلس أن يفصل في الشكوى ضده غريمه ومنافسه في القسطنطينية فكتب رسائل إلى ثيودوسيوس محاولا دون جدوى تأليبه على نسطور . وكان كيرلس على علاقة طيبة بسيلستين بابا روما فكتب إليه يشكو من تجرؤ نسطور على العذراء مريم والتقليل من شأنها . ولم يكن سيلستين مرتاحا من استضافة نسطور لبيلاجيوس وأتباعه من المهرطقين فأسرع إلى عقد مجمع في روما عام ٤٣٠ م تقرر فيه عزل نسطور من كرسي البطريركية إذا لم يتراجع عن أفكاره في ظرف عشرة أيام . ولكن نسطور ظل سادرا في غيه . وأسندت إلى يوحنا بطريرك أنطاكية مهمة اصلاح ذات البين بين كيرلس ونسطور . ولكنه عجز عن التوفيق بينهما . ودعا كيرلس في نفس العام إلى عقد مجمع في الأسكندرية هاجم فيه نسطور وأصدر ضده اثنى عشر بندا أناثيمياً لإدانته . ولم يسكت نسطور على الاثنى عشر اناثيما الموجهة ضده فرد عليها بأثنى عشر أناثيما مضادة اتهم فيه كيرلس وأتباعه بالهرطقة الأبوليناريوسية . وبات من الواضح أن هذه المجامع المحلية عاجزة عن وضع حد للصراع المستعر . ومن ثم شعرت الكنيسة بشدة حاجتها إلى عقد مجمع مسكوني عام ٤٣١ في أفسس .

كان نسطور أول من حضر إلى أفسس يرافقه ستة عشر أسقفا ورهط من التابعين له المدججين بالسلاح كما لو كانوا يتأهبون للنزال في حومة الوغى . ورغم أن الامبراطور كان في صف نسطور فإن معظم الأساقفة والشعب في أفسس والقسطنطينية كانوا ضده . ولم يتمكن الامبراطور من حضور مجمع أفسس فأناب رئيس حرسه للحضور . ثم حضر كيرلس بصحبة خمسين أسقفا مصريا إلى جانب عدد كبير من الرهبان والخدم والبحارة . وأيضاً حضر ممنون أسقف أفسس يصحبه إثنا عشر أسقفا من بافيليا وأربعون من أتباعه الآسيويين . والجدير بالذكر أن الشعب في آسيا الصغرى تعاطف مع كيرلس وناصب النسطورية العداء . وكان من المقرر أن يحضر الاجتماع صديق نسطور بطريرك أنطاكيا يوحنا يصحبه وفد من الأنصار والمؤيدين . ولكن الوفد تعطل عن الوصول بسبب طول الرحلة . فاقترح نسطور تأجيل الاجتماع لحين وصول أنصاره . ورفض كيرلس هذا الاقتراح وقام يوم ٢٢ يونيه عام ٤٣١ بافتتاح أولى جلسات المجمع بحضور مائة وستين أسقفا . وعبثا حاول مندوب الامبراطور أن يثنيه عن عزمه ويقنعه بتأجيل الاجتماع . وظلت جلسة الاجتماع الأول ممتدة حتى وقت متأخر من الليل أصدر كيرلس في ختامها بموافقة ما يقرب من مائتي أسقف ممن توافدوا قرارا بعزل نسطور من وظيفته الكهنوتية . وكان قرار الادانة على النحو التالي : « الرب يسوع المسيح الذي جدف عليه نسطور يحكم بواسطة هذا المجمع المقدس بأن يستبعد نسطور من وظيفته الاسقفية وكل شركة كهنوتية ،» ثم أرسل المجمع إلى نسطور الرسالة التالية : « إلى نسطور - يهوذا الجديد . إعلم أنه بسبب تعاليمك المتمردة وعصيانك لقوانين الكنيسة ،فإنه في اليوم الثاني والعشرين من شهر يونية الجاري عام ٤٣١ م وعملا بلوائح وبقوانين الكنيسة ، قرر المجمع المقدس عزلك كما قرر أنه لم يعد لك أي رتبة في الكنيسة .»

واستقبل شعب أفسس هذا القرار بالهتاف والفرح ورافقوا كيرلس إلى بيته في موكب رافعين

المشاعل . ولكن نسطور شجبه واحتج عليه وأرسل إلى الامبراطور رسالة يشكو فيها ما لحق به من ظلم . ومن جانبه حاول مندوب الامبراطور إبطال مفعول قرار العزل فذهب إلى عدم سلامة هذا القرار من الناحية الاجرائية لأنه صدر عن جانب من المجلس وليس كل المجلس .

وبعد انقضاء خمسة أيام وصل إلى أفسس يوحنا بطريرك أنطاكية يرافقه اثنان وأربعون أسقفا من أنصار نسطور كان ثيودوريت واحداً منهم . وقام هؤلاء الوافدون الجدد بعقد اجتماع مضاد على وجه السرعة أصدروا فيه قرارا بعزل كيرلس بطريرك الاسكندرية وممنون بطريرك أفسس من وظيفتيها الكنسية وفرض عقوبة الحرمان الكنسى على كل أسقف وقف بجانبهما . وفى العاشر من يولية ٤٣١ وصل إلى أفسس بعض المندوبين البابويين لفض النزاع بين كيرلس ونسطور . وقام كيرلس بعقد جلسة تلتها خمس جلسات أخرى فى بيت ممنون أحيانا وفى كنيسة القديسة مريم أحيانا أخرى . وفى ختام هذه الاجتماعات سطر كيرلس عددا من الرسائل الدورية بالاضافة إلى ستة قوانين كنسية ضد النسطورية والبيلاجية . وعندما عجز الطرفان المتنازعان عن التصالح التجأ كل منهما إلى الامبراطور لاستعدائه على الجانب الآخر . ولكن الامبراطور نفسه كان فى حيص بيص وعاجزا عن فهم لب المشكلة . ورغم أنه كان يؤيد نسطور ضد كيرلس فإنه اضطر إلى الهجوم على نسطور عندما تأكدت له شعبية كيرلس الكاسحة ومظاهر التأييد التى يحظى بها وأيضاً تأييد رهبان القسطنطينية الذين تزعمهم دالاماتيوس Dalamatius ذلك الكاهن العجوز والجليل . وخشى الامبراطور أن يقف فى وجه هذا الطوفان العارم من حب الناس للعذراء مريم وتقديسهم لها . فوجد نفسه مضطرا إلى عزل كل من نسطور وكيرلس وصديقه ممنون من وظائفهم الكهنوتية . كما أنه أمر بالقاء القبض عليهم . ويخبرنا جون لوريمر فى « تاريخ الكنيسة » أن مجمع أفسس انفض فى اكتوبر ٤٣١ و أطلق سراح كيرلس وممنون . وصدرت الأوامر باعادة جميع الاساقفة إلى أسقفياتهم . أما نسطور فكان أقل حظا فقد اضطر إلى التخلى عن أسقفية القسطنطينية .

وبهذا وصل النزاع بين كيرلس ونسطور إلى طريق مسدود فسعى بعض المتنازعين أنفسهم مثل يوحنا الانطاكى وكيرلس إلى رأب الصدع من أجل الاحتفاظ بوحدة الكنيسة . واقترحوا صيغة توفيقية وافق عليها أنصار كل من كيرلس ونسطور . وتعترف هذه الصياغة التصالحية بثنائية أو ازدواجية طبيعة المسيح لارضاء النسطوريين والمناداة بأن مريم أم الله لارضاء كيرلس وأنصاره . غير أن كيرلس أصر على ضرورة إدانه نسطور وعزله من الكنيسة . وحتى يصل كيرلس إلى هدفه أخذ يتقرب إلى الامبراطور يسترضيه باغداق الهدايا عليه . وقرر أهل انطاكية التضحية بنسطور معبودهم السابق من أجل الحفاظ على وحدة الكنيسة فهاجموا تجديداته الفكرية الشريرة . وهكذا توصل الجانبان المتنازعان عام ٤٣٣ إلى نوع من المصالحة لايخلو من التناقض والمفارقة . وكانت النتيجة أن نسطور فقد المكانة الرفيعة التى كان يتبوأها وانتهى الأمر بنفيه فى بلاد العرب ومصر .

ثم مات بعد عام ٤٣٩ بعد أن ذاق الهوان دون أن يعلم أحد على وجه التحديد مكان وزمان

موته . وفى أواخر أيامه اجتر نسطور حياته فى ألم فألف كتابا عن سيرته الذاتية بعنوان « مأساة » . وقلب الامبراطور ظهر المجن لصديقه السابق فأمر بحرق كل كتاباته واعتبار أنصاره سيمونيين أى أتباع الدجال المهرطق المعروف سيمون الساحر . ولكن هذا وحده لم يكن كافيا للقضاء على النسطورية التى استمرت حتى القرن الخامس . يقول جون لوريمر فى هذا الشأن :-

« بالرغم من الاجراءات القاسية التى اتخذت ضدهم وبالرغم من غياب قائدهم فقد ثبت النساطرة واستمروا ككنيسة فى سوريا وبلاد فارس وأنشأوا فيما بعد نشاطا إرساليا تبشيريا واسعا . وما يزال لهم وجود فى العراق وايران ، لكنهم يعرفون بالكنيسة الأشورية أو كنيسة الشرق ويعتبر الكلدانيون فرعا من الكنيسة النسطورية التى تعترف بسلطة بابا روما» .

والجدير بالذكر أن مجىء الاسلام لم يعن نهاية النسطورية فقد استعان المسلمون بالنسطوريين ومنحوهم بعض الامتيازات وسمحوا لهم أن يلعبوا دورا بارزا فى انشاء المدارس والمستشفيات وفى تقدم الفلسفة والعلوم .

الأوطاخية Eutychianism

ذكرنا أن النزاع بين أتباع كيرلس والنسطوريين انتهى إلى نوع من التصالح الهش الموقت توصل إليه عام ٤٣٣ كل من كيرلس وغريمه يوحنا الانطاكى مريد المهرطق نسطور . ولكن هذا النزاع بدأ يطل برأسه ويحتدم من جديد بعد وفاة كيرلس عام ٤٤٤ م . وأدى التطرف النسطورى الداعى إلى الايمان بازدواجية أو ثنائية طبيعة المسيح إلى رد فعل مضاد يتمثل فى إيمان أوطاخى بطبيعة المسيح الواحدة ، الأمر الذى كان سببا فى عقد المجمع المسكونى الرابع . يقول جراسيموس مسرة اللاذقى فى كتابه (تاريخ الانشقاق) : « إن سبب عقد المجمع المسكونى الرابع كان ظهور بدعة أوطيخا . وهى التعليم باختلاط طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت فى يسوع المسيح إلى طبيعة واحدة كأن طبيعة ناسوته قد اندثرت من - أى أمام - طبيعة لاهوته .»

ويروى لنا جراسيموس اللاذقى قصة المهرطق أوطاخى فيقول إنه فى سنة ٤٤٤ قام على الكرسى الاسكندرى بطريرك اسمه ديوسقورس Dioscurus خلفا لكيرلس . وكان ديوسقورس واحدا من المعترضين على تصالح كيرلس مع النسطوريين وقبوله التوقيع على وثيقة مصالحة يعترف فيها باتحاد طبيعتى المسيح أى اتحاد لاهوته بناسوته . وكان هناك ناسك متقدم فى العمر فى دير كبير يعيش فيه أكثر من ثلثمائة راهب بالقرب من القسطنطينية اسمه أوطاخى اشتهر بمناصبة نسطور مر العداء لدرجة أن كيرلس اعتبره واحدا من حماة المسيحية . تطرف أوطاخى فعلم أن المسيح له طبيعة واحدة وأن جسده يختلف فى جوهره عن أجساد بقية البشر لأن طبيعته البشرية بادت واندثرت تحت تأثير طبيعتة اللاهوتية وذلك بعد اتحاد اللاهوت بالناسوت .

كان الأسقف ثاوذوريتوس من أوائل الذين تصدوا لهرطقة أوطاخى . ولم يرق هذا فى عين

ديوسقورس نصير أوطاخى فأخذ يحرض رهبان القسطنطينية ضده . فضلا عن أنه حرض القيصر ضده متهما كل الكنيسة الشرقية بأنها أصبحت نسطورية . فأرسل أهل أنطاكية احتجاجا على هذا الاتهام وسعوا للدفاع عن أنفسهم متهمين أوطاخى بالسقوط فى بدعة شبيهة ببدعة أبوليناريوس . ولكن احتجاجهم ذهب أدراج الرياح . وفى سنة ٤٤٨ حضر الاسقف أفسابيوس إلى القسطنطينية وشكا إلى بطريركها أفلابيانوس أن أوطاخى أفسد تعليم الآباء فجمع أفلابيانوس مجمعا مكونا من ثلاثين أسقفا للنظر فى الشكوى . فعقد المجمع ست جلسات دعا أوطاخى مرارا لحضورها ولكنه رفض الحضور . غير أن المجمع عقد جلسة سابعة حضرها أوطاخى ومعه كاهن متآمر وبلطجى إسمه خريسافيوس وزمرة من الرهبان والجنود المدججين بالسلاح . وكان المجمع فى هذه المرة الأخيرة مكونا من ٢٩ أسقفا و ٢٣ أرشمندريت . وسأل المجمع أوطاخى إذا كان يعترف بأن المسيح مساو للآب فى جوهر اللاهوت ومساو لأمه فى جوهر الناسوت . فأجاب أوطاخى بأنه يعترف بأنه كان للمسيح طبيعتان قبل الاتحاد وأنه أصبح ذا طبيعة واحدة بعد الاتحاد . وأثار رد أوطاخى سخط المجمع عليه فحكم بتجريده من وظيفته الكهنوتية واستبعاده من رئاسة الدير . ولكن خريسافيوس استطاع أن يوغر صدر القيصر ضد افلابيانوس وأن يجتذبه إلى صف أوطاخى . ومن جانبه قام ديوسقورس بعقد مجمع مضاد أعاد أوطاخى إلى سلك الكهنوت وإلى الدير الذى استبعد منه . وأمر القيصر بعقد مجمع ثان فى القسطنطينية عام ٤٤٩ لفحص قرارات المجمع السابق . . فجاءت قرارات المجمع الثانى مؤيدة الحكم الذى أصدره المجمع الأول ضد أوطاخى . ولم يرق لبابا روما ليو ما أظهره القيصر من عطف على أوطاخى فكتب رسالة مجمعية معروفة باسم (الطومسى) أيد فيها تعليم أفلابيوس ضد أوطاخى . ولما رأى القيصر أن المجمع الثانى أيد قرارات المجمع الأول أمر بعقد مجمع مسكونى فى أفسس عام ٤٤٩ وعين ديوسقوررس رئيسا له . وأمر ديوسقورس أن يحضر أفلابيانوس وجماعته جلسات المجمع دون أن يكون لهم الحق فى ابداء الرأى فى مناقشاته الجارية . وسمح ديوسقورس لطغمة من الرهبان بالحضور وفى مقدمتهم تابع من أتباعه اسمه الأرشمندريت برسوم . فضلا عن أنه سمح أيضاً لمجموعة من الحراس والجنود المدججين بالسلاح بالحضور بهدف قمع معارضة المناهضين لأفكار أوطاخى . وأرسل بابا روما ليو نوابا من طرفه لحضور الاجتماع هم الأسقف يوليوس والقس رينادوس والشماس إيلاريوس . وعندما طلب نواب ليو بابا روما قراءة رسالة هذا البابا إلى البطريرك أفلابيوس رفض ديوسقورس الاستجابة لطلبهم . بل إنه رفض مجرد فتح موضوع بدعة أوطاخى . ثم أمر بتلاوة قرارات مجمع القسطنطينية التى سبق أن صدرت ضد أوطاخى . وما إن وصلت التلاوة إلى الفقرة التى يسأل فيها أفسابيوس المهرطق أوطاخى : « هل تعتقد بوجود طبيعتين فى المسيح بعد التجسد ؟ » حتى تعالت كثير من أصوات الحاضرين الذين صرخوا بأعلى أصواتهم : أحرقوا أفسابيوس ومزقوه إلى قطعتين تماما مثلما مزق هذا الرجل المسيح إلى قطعتين ، مشيرين بذلك إلى الاعتقاد بثنائية طبيعة المسيح . وعندئذ قام أوطاخى ليداور ويناور

ويعلن عن موافقته فى الظاهر على قرارات المجمع النيقوى فأمر المجمع باعادته إلى وظيفته وإلغاء الحكم الصادر باستبعاده من الكنيسة . ثم أصدر المجتمعون حكما بحرمان أفلابيانوس وأفسابيوس والمناهضين لأوطاخى من عضوية الكنيسة . ولما هم أتباع أفلابيوس ونواب بابا روما بالاعتراض على ذلك دخل برسوم ومعه حاكم آسيا يرافقهما عدد كبير من العسكر والرهبان . فأمرهم برسوم أن يوسعوا البطريرك أفلابيانوس ضربا فمات متأثرا بجراحه بعد مضى ثلاثة أيام . ولم يجد ليو بابا روما فى ذهوله من هذه الاحداث وصفا يصف به هذا الاجتماع غير قوله عنه إنه « مجمع لصوص» . ومما قوى من شوكة الأوطاخية أن القيصر أيد القرارات التى اتخذها الأوطاخى ديوسقورس ضد شانئيه ومنها استبدال الأساقفة المعارضين للأوطاخية بأساقفة مؤيديين لها .

ويعلق جراسيموس اللاذقى على هذا الشقاق الذى شطر الكنيسة المسيحية شطرين بقوله : « كان أساقفة مصر وفلسطين وتراكى مع ديوسقورس والباقون مع لاون أسقف رومية إذ أن لاون نهض للمحاماة عن الأرثوذكسية بعد موت أفلابيانوس .»

ولكن الأوطاخية ما لبثت أن منيت بالهزيمة بسبب التغير الذى طرأ على موقف البلاط منها ، الأمر الذى انتهى إلى اعادة جميع الأساقفة الذين نفاهم أو استبعدهم ديوسقورس إلى أماكنهم وإلى عقد مجمع من أخطر المجامع فى تاريخ الكنيسة يعرف بمجمع خليقودنية . وهوما ماسوف نتناوله فى الصفحات التالية .

مجمع خليقدونية (٤٥١) :

لعبت الصدفة التاريخية دوراً بالغ الأهمية فى تغيير موقف البلاط الإمبراطورى من تعاطف مع أوطاخى إلى مناصبته العداء . فقد شاءت المقادير أن يموت الإمبراطور ثيودوسيوس فى يوليو عام ٤٥٠ عقب سقوطه من فوق صهوة جواده دون أن ينجب وليا للعهد يخلفه فى الحكم . فتزوجت أخته بلوشيريا الكارهة للأوطاخية والمؤمنة بثنائية طبيعة المسيح والمؤيدة لليو بابا روما من مارسيان قائد الجيش ، الأمر الذى مكنه من اعتلاء أريكة الملك . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أظهر هذا الحاكم الجديد عطفا على ضحايا أوطاخى وأتباعه وقام بإعادة المنفيين والمستبعدين منهم إلى وظائفهم ومراتبهم الكهنوتية . وأراد مارسيان أن تعيش امبراطوريته فى وئام وسلام فدعا عام ٤٥١ إلى عقد مجمع خلقيدونية المعروف فى تاريخ الكنيسة بالمجمع المسكونى الرابع الذى يحتل من حيث الأهمية المرتبة الثانية بعد مجمع نيقية المنعقد عام ٣٢٥ . ويتراوح عدد المشتركين فى مجمع خلقيدونية من خمسمائة إلى ستمائة عضو جاء معظمهم من الكنائس الشرقية فيما عدا أربعة من روما أرسلهم البابا ليو . واستطاع هؤلاء الأربعة الرومان بفضل مساندة وتأييد بولشيريا والإمبراطور الجديد مارسيان لهم أن يسيطروا على المجمع وأن يجلسوا ديوسقورس فى وسط الاجتماع كشخص متهم . والجدير بالذكر أن خلقيدونية تقع على البسفور فى مكان بديع وخلاب بمواجهة القسطنطينية .

افتتح مجمع خلقيدونية أعماله فى الثامن من أكتوبر واستمر حتى أول نوفمبر وبلغ عدد جلساته خمس عشرة جلسة . وقد تولى مندوبو الإمبراطور مراسم الافتتاح فى كنيسة القديسة أيوفيميا وقد جلس إلى يسارهم مندوبو بابا روما وبجوارهم أناتوليوس أسقف القسطنطينية وماكسيموس أسقف انطاكية ومعظم أساقفة الشرق (وجميعهم من أعداء الأوطاخية) . وعلى اليمين جلس ديوقوروس مندوباً عن الأسكندرية وجوفينال مندوباً عن أورشليم ومعهما كل أساقفة مصر وفلسطين (وجميعهم من مؤيدى أوطاخى) . ويلاحظ أن الإضطراب الشديد ساد أعمال المجمع منذ اللحظة الأولى من انعقاده . واشتبكت الأطراف المتنازعة فى مهاترات لا تليق وكرامة رجال الدين . وما إن بدأ صديق نسطور ومؤيده القديم ثيودوريت يخاطب المجلس حتى استقبله الشرقيون بالتهليل فى حين صاح المصريون فى وجهه : «اطردوا هذا اليهودى ، عدو الله الذى يجدف على المسيح .» فرد عليهم الفريق الآخر بانفعال مماثل : «اطردوا السفاح ديوسقوروس . فمن منا لا يعرف جرائمه» وأدرك ثيودريت حدة العداء الذى يكنه معظم الحاضرين للمهرطق نسطور فاضطر فى الجلسة الثامنة إلى مجاراتهم وتبنى الأناثيمات التى تدمغ صديقه القديم وتدين الذين رفضوا وصف مريم العذراء بأنها أم الله وأيضاً الذين قاموا بتقسيم المسيح إلى جزءين . ولكن عداءهم المشبوب لأوطاخى ومجلس اللصوص كان لا يقل عن عدائهم لنسطور . وأمام غضب المجمع العارم ضد كل من نسطور وأوطاخى تخلى معظم المصريين عن ولائهم للأوطاخية واعترفوا بخطئهم وخضوعهم لابتزاز مجمع اللصوص وبلطجته . وقرر المجتمعون منذ البداية بطلان قرارات هذا المجمع واعتبروا أفلابيانوس شهيداً . ثم قاموا بعزل أنصار أوطاخى أمثال ديوسقوروس أسقف الأسكندرية وجوفنيال أسقف أورشليم . وانتهزت بطريركية القسطنطينية هذه الفرصة لتزيح بطريركية الإسكندرية من طريقها وأعلنت أنها التالية لروما فقط ، وهو الأمر الذى رفضه المصريون . وكان لهذا أثره فى تطور الأحداث فى مصر التى بدأت تتعرض للاضطهاد البيزنطى . يقول جون لوريمر فى كتابه (تاريخ الكنيسة) فى هذا الصدد : «مع عزل ديوسقورس ونفيه تم تعيين بروثيريوس Proterius صديق البيزنطيين بطريركا للاسكندرية بمرسوم إمبراطورى (تذكر أن عاصمة الإمبراطورية البيزنطية كانت القسطنطينية) .كان هذا الإجراء مرفوضاً بجملته تماماً من شعب مصر الذى انتخب من ناحيته تيموثاوس إيلوروس أسقفا له . وحين سنحت الفرصة هب عامة الشعب فى الإسكندرية واغتالوا بروتيريوس . وتلا ذلك عندئذ محاولات أخرى فى القسطنطينية لتنصيب بطاركة بيزنطيين فى الإسكندرية ، ومجهودات أخرى بالتصميم نفسه من المصريين على اختيار قادتهم بأنفسهم »

وليس أدل من ذلك على الروح الوطنية الوثابة والحريصة على الكرامة والعزة والاستقلال التى تميزت بها الكنيسة القبطية عبر العصور .

وبعد وفاة الإمبراطور ثيودسيوس فقد خريسافيوس Chrysaphius الذى كان يشمل أوطاخى برعايته حظوته فى البلاط الامبراطورى وانتهى الأمر بإعدامه . وعندما اجتمع المجمع المسكونى الرابع

فى خلقيدونية كان أول شيء يفعله هذا المجمع هو الحكم ببطلان قرارات مجمع اللصوص كافة والموافقة على طومية Tome ليو إلى جانب إدانة هرطقات أبوليناريوس ونسطور وأوطاخى الذى ينادى بما يعرف بالمونوفسية Monophysitism أى الإيمان بطبيعة المسيح الواحدة . ومن الخطأ على أية حال أن نعتقد أن الاوطاخية اندثرت بسرعة فقد استمرت حتى منتصف القرن الخامس لا يجرؤ كثير من الحكام على الاصطدام بها بصورة علنية وصريحة إما تحاشيا للاحتكاك بالمؤمنين بها وإما بسبب تعاطف هؤلاء الحكام معها . والجدير بالذكر أن بعض بلاد الشرق ظلت وفية للأوطاخية الداعية إلى الإيمان بطبيعة واحدة للمسيح . ومن بينها مصر التى ظلت تدين بالولاء للأوطاخى السكندرى ايوسقوروس . وعندما فرض على المصريين أسقف أرثوذكسى خلفاً لايسقوروس هاجت الدنيا وماجت واندلعت أعمال العنف فى شوارع الإسكندرية واشتبك المصريون مع الجنود وقوات الأمن .

ونحن نشاهد مقاومة مماثلة فى بلاد شرقية أخرى مثل فلسطين . وفى سوريا استطاع متعاطف مع الأوطاخية هو بطرس الفولار Fuller بطريرك انطاكية فى الفترة بين ٤٦٤ و٤٩٠ أن يتولى الكرازة أربع مرات بسبب رغبة المسئولين فى تهدئة خواطر الشعب . وبلغ الأمر حد اعتداء هذا الشعب على حياة أسقف حاول المسئولون فرضه على السوريين بالقوة للتخلص من الأوطاخية وأتباعها . وليس من شك أن الروح القومية المتأججة فى كثير من بلاد الشرق مثل أثيوبيا والنوبة والسودان وأرمينيا هى السبب فى تمسكها بالأوطاخية كنوع من إثبات الهوية القومية ورفض الخضوع لأية قوى أجنبية تريد فرض الفكر الأرثوذكسى عليها عنوة واقتدارا . ويذهب المؤرخون إلى أن المصريين المؤمنين بطبيعة المسيح الواحدة فضلوا أن يمهدوا السبيل لفتح العرب لمصر على الخضوع لسلطان بيزنطة .

الإمبراطور جستينيان وبدعة الفصول الثلاثة :

لم يكن الإمبراطور الرومانى جستينيان رجل تشريع وقانون فحسب بل كان شديد الاهتمام باللاهوت . ورغم ما قيل عن ميله إلى الفكر الأرثوذكسى وازواره عن الأوطاخية فقد لعبت زوجته الفاتنة ثيودورا دوراً مهما فى أن تجعله يتسامح مع الأفكار المنادية بطبيعة المسيح الواحدة بسبب اعتناقها سراً لهذه الأفكار . وبالرغم من اضطهاد جستينيان الوحشى للمهرطقين المنادين بالمونتانية فإنه سمح بتعيين أنتيموس Anthimus المؤمن بالطبيعة الواحدة بطريركا على القسطنطينية عام ٥٣٥ م وكذلك تعيين رجل عديم الشخصية اسمه فيجيليوس Vigilius أسقفا على روما عام ٥٣٨ بعد أن اشترط عليه الترويج للأفكار المؤمنة بطبيعة واحدة للمسيح (أو المنوفوسية) . والجدير بالذكر أن سيفروس وهو أكبر لاهوتى فى عهد جستينيان كان مونوفسيا مؤمناً بطبيعة المسيح الواحدة . وقد زار سيفروس انطاكية فى الفترة بين عامى ٥٠٩ و ٥١١ وترك فيها أعمق الأثر ثم أصبح أسقفا لها عام ٥١٢ .

ورغم إيمان سيفروس بطبيعة المسيح الواحدة فإنه ناصب الأوطاخية والنسطورية العداء إلى جانب هجومه على طومة ليو وشجبه لقرارات مجمع خلقيدونية . وأصدر الإمبراطور جستينيان مرسوماً دان فيه ثلاثة من المعلمين الأنطاكيين المعروفين بعدائهم للمونوفوسية أو الإيمان بطبيعة المسيح الواحدة . وهم معلم نسطور ثيودور Theodore of Mopsuestia وصديقا نسطور Theodoret of Cyros وايباس إديسا Ibas of Edessa رغم أن مجمع خلقيدونية برأ هذين الاخيرين من تهمة الهرطقة . ويتضمن مرسوم جستينيان إدانة كاملة للأول (ثيودور) وإدانة جزئية للاثنين الآخرين (ثيودوريت وإيباس) . وهو ما يعرف فى تاريخ الكنيسة ببدعة الفصول الثلاثة إشارة إلى الأشخاص الثلاثة وكتاباتهم التى دانها المرسوم الإمبراطورى باعتبارها كتابات نسطورية .

وثار الجدل حول سلامة إدانة مؤلفات هؤلاء الثلاثة ومدى أحقية جستنيان فى الحكم على أناس ولوا وانقضوا وأصبحوا فى ذمة التاريخ . وأراد جستنيان أن يحسم هذا الأمر فدعا إلى عقد مجمع مسكونى خامس فى القسطنطينية عام ٥٥٣ تكون من مائة وأربعة وستين أسقفا واستغرق ثمان جلسات أصدر بعدها قرارا بإدانة الفصول الثلاثة أى إدانة شخص وكتابات ثيودور إلى جانب كتابات ثيوديت المعادية لكيرلس والخطاب الذى سطره إيباس . وهكذا أقر المجمع المسكونى الخامس مرسوم جستنيان الذى شجب الفصول الثلاثة بهدف تنقية الكنيسة من أية ارتباطات أو آثار نسطورية .

بدعة رهبان سكيتي :

يقول الدارسون عن هذه البدعة إن أصحابها يرون الله فى صورة بشرية وأعضاء جسدية . ويعتبر الراهب المعروف سيرابيون واحداً من أهم أنصارها ويردون نشأة هذه البدعة إلى حرفية فهم الكتاب المقدس الذى يتحدث عن عين الله وأذنه ووجهه والجلوس عن يمينه وعن يساره .

البيلاجية Pelagianism

مؤسس الهرطقة البيلاجية راهب ايرلندى اسمه بيلاجيوس ظهر فى روما نحو عام ٤٠٠ م . عاش بيلاجيوس عيشة النسك والهدوء والتقوى وكانت حياته مثالاً يحتذى فى الترتيب وضبط النفس . ويبدو أنه لم يعرف الخطيئة فى حياته على عكس ألد أعدائه القديس أوغسطين الذى ظل ردحا من الزمن يعانى من التمزق الداخلى والصراع النفسى الرهيب حتى عفا الله عنه فاستقرت هدايته بصفة نهائية وثبت إيمانه فى الدين المسيحى . وفى حين تلظى أوغسطين بشواظ الشهوة ورغبات الجنس عاش بيلاجيوس فى سلام ووئام مع نفسه . ومعنى ذلك أن موقف كل من الرجلين الدينى انطلق من واقع تجاربهما وحياتهما الشخصية المتباينة . يقول الأنباغريغوريوس فى هذا الشأن : «عاش (بيلاجيوس) كل حياته فى سلام وهدوء من دون أن يجتاز بالجوانب المظلمة فى الحياة

الإنسانية ومن دون أن يغوص إلى أعماق الشر التى يمكن أن تنحط إليها الطبيعة البشرية . ولعله لم يدخل أيضاً إلى تلك المصارعات والمجاهدات التى مر بها أوغسطينوس قبل أن يصبح قديساً .» ولا يمثل الخلاف بين أوغسطين وبيلاجيوس خلافاً جذرياً فى طبائعهما فحسب بل يمثل أيضاً الفرق بين العقلية الشرقية والعقلية الغربية . فأوغسطين القادم من شمال أفريقيا يمثل جنوح الشرق إلى التأمل اللاهوتى فى حين أن بيلاجيوس القادم من روما يمثل انشغال الغربيين بالجوانب العملية من العقيدة المسيحية وبالبحث فى طبيعة الإنسان بدلاً من انصراف الشرقيين إلى البحث عن طبيعة الله .

آمن بيلاجيوس بأن الطبيعة البشرية يمكنها أن تبلغ ذروة الكمال لو أنها شاءت ذلك ومارست إرادتها الحرة فى سبيله . واستند فى رأيه إلى قول السيد المسيح فى الإصحاح الخامس من انجيل متى (آية ٤٨) :« فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى هو فى السماوات هو كامل » . والرأى عنده أنه ليس من المعقول أن يطالب الله الإنسان بالكمال وهو يعلم سلفا أن تحقيق هذا الكمال أمر مستحيل . وهو يذهب إلى أن آدم أخطأ ولكن خطيئته تخصه وحده فهى لم تنتقل إلى الجنس البشرى من بعده . وكل إنسان مسئول مسئولية كاملة عن أفعاله . وبطبيعة الحال تنطوى هذه النظرة على التهوين من شأن الدور الذى يلعبه صلب المسيح فى خلاص البشر . فضلاً عن أنها تنكر أيضاً أهمية الدور الذى يلعبه الانتخاب الإلهى أو النعمة الإلهية فى خلاصهم . فهى ترى أن إتكالهم على هذه النعمة الإلهية يدعوهم إلى التكاسل والتراخى والامتناع عن بذل الجهد الإرادى لإصلاح النفس .

ويبدو أن الذى أشعل فتيل البيلاجية وحفز بيلاجيوس إلى الدعوة إليها هو عبارة أوردها القديس أوغسطين فى كتابه «الاعترافات» استنفرته بسلبيتها المطلقة وتسليمه الكامل للمشيئة الإلهية . يبدأ أوغسطين صلاته المستسلمة تماماً لإرادة الله بقوله «هب ما أمرت به . ومر بما يوافق مشيئتك » . واستثارت هذه السلبية الكاملة بلاجيوس الذى رأى فيها إلغاء للإرادة الإنسانية فدعا إلى ضرورة أن يغير الناس ما بأنفسهم دون الارتكان إلى أية قوة إلهية خارجة عنهم . ولعل من الطبيعى أن يشعر أوغسطين بفضل الله وبالنعمة التى اسبغها عليه . ففى لحظة واحدة ودون سابق انذار شعر أوغسطين أنه ولد من جديد وأن حياته تحولت من الخطيئة والاشتهاء الجنسى الملتاث إلى القداسة والطهارة ، فى حين أن حياة بيلاجيوس الرتيبة المنظمة لم يطرأ عليها تغير بل ظلت على ما هى عليه . لقد كان من الممكن ألا تسبب الهرطقة البيلاجية إزعاجاً للفكر الكنسى التقليدى وألا تقابل بالقمع والاضطهاد لولا أن أحد مريدى بيلاجيوس واسمه سلستيوس Coelestius كان عنيفاً فى الدفاع عنها والعمل على نشرها وذيوعها ، ولولا أن المهرطق الكبير نسطور احتضنها وقدم لكل من بيلاجيوس وتلميذه الحماية فى فلسطين عندما التجأ إليه فى أسقفيته . وليس أدل على ضعف شوكة البيلاجية من أن المؤرخين الإغريق أمثال سقراط وسوزومن وثيودوريث وايفاجريوس تجاهلوها فى كتاباتهم عن تلك الفترة . ولكن نوعاً معدلا من البيلاجية سوف نتناوله فى حينه ظهر فيما بعد ليشكل خطراً أكبر على الكنيسة المسيحية فى الغرب . وبوجه عام يمكن القول إن البيلاجية قريبة

الشبه بالمذهب العقلانى الذى يستسيغه الغربيون فى حين أن رؤية أوغسطين الدينية أقرب ما تكون إلى الصوفية التى يستعذبها الشرقيون .

يقول الأنباغريغوريوس إن الهرطقة البيلاجية مرت بأربع مراحل : الأولى مرحلة قرطاجنة والثانية مرحلة فلسطين والثالثة مرحلة روما والرابعة مرحلة الحكم النهائى فى مجامع أفريقيا وروما . وقبل أن نعرض لهذه المراحل الأربع يجدر بنا أن ننوه بأن بيلاجيوس الذى تبحر فى دراسة اللاهوت اليونانى كان يحظى باحترام شانئه القديس أوغسطين كما يجدر بنا أن نجمل الهرطقة البيلاجية فى النقاط التالية .

(أولاً) ترى البيلاجية أن آدم مخلوق فان وأنه كان سيموت سواء أخطأ أو لم يخطىء . فى حين أن الموقف الأرثوذكسى يقول إن موت آدم جاء نتيجة سقوطه فى الخطيئة .

(ثانياً) تعتقد البيلاجية أن خطيئة آدم أضرت به وحده فى حين أن التفكير الأرثوذكسى يؤمن بأن خطيئة آدم انتقلت إلى البشرية بأسرها .

(ثالثاً) تذهب البيلاجية إلى أن الأطفال الحديثى الولادة ليسوا بحاجة إلى المعمودية فى حين ترى العقيدة الأرثوذكسية ضرورة تعميد الأطفال لتطهيرهم من الخطيئة التى ورثوها عن آدم .

(رابعاً) ترى البيلاجية أن الإنسان بإمكانه أن يتغلب على الشر الموجود فيه دون حاجة إلى نعمة الله أو عون يأتيه من الخارج إذا استخدم إرادته .

***

وفيما يلى المراحل الأربع التى مرت بها الدعوة البيلاجية :

المرحلة الأولى :

بدأت المرحلة الأولى من الدعوة البيلاجية فى عام ٤١١ م وفى قرطاجنة بشمال افريقيا على وجه التحديد حيث وصل بيلاجيوس ومريده سيلستيوس هرباً من اضطهاد الملك القوطى ألاريك لهما فى روما . وفى أفريقيا مر الرجلان بهيبو لزيارة أوغسطين فاكتشفا أنه قد غادرها لتوه وسافر إلى قرطاجنة بهدف التصدى لانشقاق الدوناتيين . وطلب سيلستوس من الأكليروس فى قرطاجنة أن ينصبوه كاهناً هناك . غير أنهم رفضوا إجابته إلى طلبه بسبب ما عرف عنه من شطط وخروج عن المألوف فى الدين ، الأمر الذى اضطره إلى النزوح شرقاً إلى فلسطين .

المرحلة الثانية :

أما المرحلة الثانية من الدعوة البيلاجية فتبدأ بوصول بيلاجيوس إلى فلسطين حيث أثارت هرطقته سخط الناسك جيروم ضده . وكان جيروم يشارك كلا من أمبروز وأوغسطين إيمانهما بفكرة الخطيئة الأولى . بدأ جيروم حياته كواحد من أشد الناس إعجاباً بأفكار اللاهوتى الكبير أوريجانوس غير أنه

ما لبث أن انصرف عنها ليصبح عدواً لدودا لصاحبها ، الأمر الذى زاده سخطاً على بيلاجيوس معتبراً تمجيده للإرادة الإنسانية وحرية الاختيار امتداداً لفلسفة أوريجانوس ورافينوس وأثراً من آثارهما . وقد سعى جيروم حتى نجح عام ٤١٥ م فى عرض أمر المهرطق بيلاجيوس على سنودس عقد فى أورشليم . فتقدم الكاهن الأسبانى الشاب بول أوروزيوس بشهادة ضد المذهب البيلاجى ذكر فيها كل التفاصيل الخاصة بإدانة أوغسطين لسيلستيوس فى مجمع قرطاجنة . ويبدو أن يوحنا رئيس السنودس المجتمع فى أورشليم لمحاكمة بيلاجيوس كان يتكلم اللغة اليونانية وأن أوروزيوس الشاهد لا يعرف غير اللاتينية وأن المترجم الذى تولى أعمال الترجمة أثناء المحاكمة ارتكب أخطاء كان من السهل على المتهم بيلاجيوس الذى أتقن اللغتين اليونانية واللاتينية أن يكتشفها . ولهذا امتنع السنودس عن اتخاذ قرار بشأن هرطقة بيلاجيوس وأحال الموضوع إلى انوسنت الأول أسقف روما للبت فيه باعتبار أن المدعى والمدعى عليه ينتسبان إلى الكنيسة الغربية . ثم انعقد فى اللد بفلسطين سنودس آخر فى ديسمبر فى عام ٤١٥ لإعادة محاكمة بيلاجيوس الذى لجأ هذه المرة إلى التحفظ والمداراة فى عرض أفكاره الأمر الذى دعا هذا السنودس الثانى إلى تبرئة ساحته من تهمة الهرطقة . ولا غرو فقد ذهب بيلاجيوس إلى أنه لا ينكر دور النعمة الإلهية فى هداية الإنسان وصلاحه . كل ما هنالك أنه يعتبرها عاملاً مساعداً أو مجرد منبه خارجى يحرك القوى الطبيعية الكامنة فى الإنسان . وأمام هذه الأقوال المعتدلة امتنع مجمع اللد عن إدانة بيلاجيوس وقرر أن آراءه لا غبار عليها وأمر بإعادته إلى حظيرة الكنيسة التى طردته دون وجه حق من صفوفها .

المرحلة الثالثة :

لم يقف أعداء بيلاجيوس وشانئوه مكتوفى الأيدى أمام انتصاره عليهم . فقد استمر أوغسطين وأساقفة شمال أفريقيا فى الهجوم عليه ومارسوا ضغوطهم حتى نجحوا فى عقد مجمعين فى عام ٤١٦ م أحدهما فى قرطاجنة والآخر فى ميليوم . وأصدر كل من هذين المجمعين قراراً بإدانة بيلاجيوس وسولستيوس رفعاه إلى أسقف روما انسونت الأول لاتخاذ ما يراه مناسباً فوافق على قرار الإدانة وقام باعتماده . ولكن الأسقف انسونت الأول سرعان ما قضى نحبه ليحل محله أسقف آخر لروما هو زوزيموس الذى لم يجد فى المتهمين أية علة . واستطاع بيلاجيوس وسيلستيوس أن يستميلا زوزيموس إليهما فكتب فى سبتمبر عام ٤١٧ رسالة إلى أساقفة أفريقيا أنحى فيها باللائمة عليهم لتسرعهم فى إدانة الرجلين . ورغم أن البيلاجية لم تكن فى أى يوم من الأيام مذهباً شائعاً فإنها وجدت بعضاً من غلاة المتحمسين لها بين الرهبان والنساك والغوغاء فى فلسطين . ففى عام ٤١٦ م اجتمع نفر منهم وداهموا الدير الذى يعيش فيه جيروم وأضرموا النيران فى محتوياته واعتدوا على الرهبان المقيمين فيه ، الأمر الذى اضطر جيروم المتقدم فى السن إلى الفرار .

المرحلة الرابعة

شهدت المرحلة الرابعة من الدعوة البيلاجية إدانة نهائية وحاسمة لها . فلم يسكت أساقفة شمال أفريقيا على خذلان زوزيموس أسقف روما لهم وسارعوا إلى عقد مجمع فى قرطاجنة نحو أواخر عام ٤١٧ وأوائل عام ٤١٨ للاحتجاج على تبرئة كل من بيلاجيوس وسلستيوس . وأمام احتجاجهم لم يجد زوزيموس مفراً من إعادة النظر فى هذا الموضوع الذى أحاله إلى أساقفة أفريقيا للمزيد من الدراسة . وبالفعل اجتمع فى قرطاجنة عام ٤١٨ م مئتا أسقف أفريقى وأصدروا مجموعة من القرارات التى تثبت بطلان الدعوة البيلاجية وتعارضها مع صحيح الدين وتنص هذه القرارات على ما يلى :-

- تحريم الرأى القائل إن آدم مخلوق فان كان محكوماً عليه بالفناء سواء ارتكب خطيئته الأولى أو لم يرتكبها .
- تحريم الرأى القائل بعدم تعميد الأطفال وإنكار حاجتهم لهذا التعميد لتخليصهم من الخطيئة التى ورثوها عن آدم .
- تحريم القول بوجود مكان معين فى مملكة السماء يحيا فيه الأطفال الذين ماتوا دون تعميد حياة كلها حبور وسعادة .
- تحريم التهوين من شأن النعمة الإلهية فى مغفرة الخطايا .

وقد استطاع الأساقفة المئتان المجتمعون فى أفريقيا التأثير على كل من الإمبراطورين هونوريوس Honorius وثيودسيوس Theodesius والحصول منهما على تأييد كامل لقراراتهم . وقد أصدر المجمع منشوراً بإدانة البيلاجية وقعته الغالبية العظمى من الأساقفة المجتمعين دون أن يعترض عليه سوى ثمانية عشر أسقفا من روما تم تجريدهم من ممتلكاتهم ووظائفهم الكنسية . وحكم على بيلاجيوس نفسه بالحرمان الكنسى وضعفت دعوته بشكل ملحوظ وخاصة بعد أن انعقد عام ٤٣١ المجمع المسكونى الثالث فى أفسس لإعلان بطلان الدعوتين البيلاجية والنسطورية . ويقال إن بيلاجيوس مات نحو عام ٤٤٠ م عن عمر يناهز السبعين . وفى عام ٤٢٩ م استقبل المهرطق المعروف نسطور كلا من جوليان وسيلستيوس فى القسطنطينية وأكرم وفادتهما معبراً عن تعاطفه مع آرائهما البيلاجية . ورغم اندحار البيلاجية فقد ظهر نوع جديد منها أشد خطراً على العقيدة الأرثوذكسية بسبب تخليه عن التطرف وميله إلى الاعتدال . تزعمه يوحنا كاسيان وفاوستوس اللذان نبذا كلا من غلواء أوغسطين فى إنكاره الكامل لأهمية إرادةالبشر فى إصلاح ما بأنفسهم وغلواء بيلاجيوس فى إنكار أهمية النعمة الإلهية فى هدايتهم .

الفصل الثالث

هرطقات فردية وجماعية بعد مجمع خلقيدونية (٤٥١) حتى بداية القرن الثاني عشر

يلاحظ المرء أن الهرطقات التى مزقت العالم المسيحى فى القرون الخمسة الأولى كانت هرطقات جماعية تهدد الكنيسة فى وجودها . ولكن الهرطقات التى ظهرت بعد مجمع خلقدونية (٤٥١) كانت فى مجملها هرطقات فردية ذات ضرر محدود ، وظلت كذلك حتى القرن الحادي عشر وقيام الحروب الصيلبية الفاشلة عام ١٠٩٦ ضد العالم الإسلامى . ومع بداية القرن الحادى عشر أخذت الهرطقات الجماعية تعود إلى الظهور . وقد لعبت الحروب الصليبية دورا فى توسيع نطاق الاضطهاد الدينى فى الغرب وفى تنكيل الكنيسة الكاثوليكية الوحشى بكل من يختلف معها فى الرأى . وبعد أن كان الاباطرة هم الذين يسومون الهراطقة والمنشقين مر العذاب مثل طائفة الدوناتيين فى شمال افريقيا وطائفة البريسكاليين ، تولى هذا الأمر بابوات الكنيسة الكاثوليكية بعد أن قويت شوكتهم وتوفرت لهم أسباب السلطة الزمنية . ولا شك أن الحروب الصليبية أساءت من الناحية الاخلاقية إساءة بالغة إلى العالم المسيحى فى الغرب فقد غرست فى نفوس المؤمنين من المسيحيين الرغبة فى سفك دماء المخالفين لهم فى العقيدة . فلما عجزت الكنيسة الكاثوليكية عن فرض إرادتها على العالم الاسلامى التفتت إلى المسيحيين والمنشقين فى صفوفها تنقض عليهم وتسعى إلى الفتك بهم . الأمر الذى يفسر ظاهرة محاكم التفتيش وماصاحبها من تعذيب لا يصدقه عقل .

بعض الهرطقات الفردية بعد خليقدونية (٤٥١)

شهدت الكنيسة فى الفترة بين ٧٢٦ م حتى ٨٤٣ م نزاعا محتدما حول تقديس التماثيل والصور والرسوم الدينية . وذهب الراغبون فى تقديسها إلى اتهام معارضيهم بالمونوفسية أى الايمان بطبيعة المسيح الواحدة وبإنكار تجسده وبشريته . وقد عرض هذا النزاع على مجمع عقد فى خليقدونية عام ٧٥٤ فقرر إدانة تقديس التماثيل والصور والرسوم الدينية . ثم أيد الامبراطور قسطنطين الخامس هذا القرار بمرسوم يعتبر مهرطقا كل من أظهر تقديسا لها . ولكن مثل هذا الحكم لم يقيض له أن يبقى طويلا فسرعان ما تجاهلته الكنيسة الأرثوذكسية واعترفت بقدسية التماثيل والتصاوير الدينية .

وكذلك نشأت فى أسبانيا هرطقة استحدثها إليباند Elipand رئيس أساقفة توليدو الذى (رغم اعترافه بأن المسيح ابن الله وبقدسية ناسوته) أصر على أن بشرية المسيح بشرية كاملة . وقد تأثر بهذه الهرطقة فيلكس أسقف أورجيل فى أسبانيا رغم أن بابا روما حذره من مغبة التردى فيها . ورغم أن فيلكس تظاهر بالتخلى عن هرطقته فقد ظل يدافع عنها فى الخفاء حتى أمر الامبراطور شارلمان بالقائه فى السجن حيث بقى فيه حتى وفاته عام ٨١٨ م .

وفى عام ٨٣١ ذهب راهب اسمه Paschasius Radbertus إلى أن الخبز والخمر فى عملية التناول لهما وجود فيزيقى ويبقيان على حالهما كخبز عادى وخمر عادى ولا يتحولان إلى جسد المسيح ودمه إلا إذا كان المتناول لهما يعتقد فى معجزتهما ، وقد تصدى لمعارضة هذا الرأى راهب اسمه yottschalk بقوله إن للايوخارست (عملية تحول الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح) وجودا موضوعيا ومستقلا . ثم جاء راهب مهرطق آخر هو Ratramus لينكر أهمية الوجود المادى للخبز والخمر فى عملية التناول ويركز على مالهما من أهمية روحية . وقد ظل النقاش حول هذه المسألة محتدما حتى انعقاد مجلس لاتيران الرابع عام ١٢١٥ الذى جعل عملية التحول الايوخارستى مسألة عقيدة وإيمان . ثم تسبب جو تشولك فى اثارة لغط كنسى أكبر عندما تطرف وبالغ فى رأيه أن الانسان عاجز تماما إزاء حياته الأبدية وهلاكه الأبدى فالعناية الإلهية وحدها هى التى تقرر صلاحه أو طلاحه وتكتب له الحياة الأبدية أو الموت الأبدى . ولم يرق هذا التطرف لمور Maur رئيس أساقفة ماينز فقام بطرد جوتشولك وعزله من الكهنوت وسجنه فى الدير . ولم تنفع وساطة أصدقائه فى الشفاعة له .

ويعتبر كلوديوس أسقف تورين واحدا من المهرطقين فى أوائل القرن التاسع . رفض كلوديوس مبدأ تقديس التماثيل والرسوم الدينية وأيضاً الصلاة للقديسين طلبا لشفاعتهم باعتبار أن الذى يحدد بالفعل موقف المرء هو مدى صلاحه وتقواه . وفى الفترة نفسها ظهر مهرطق اسمه سكوتس Sco-tus Eriuginus ذهب إلى أن الله موجود من الأزل حيث لا يوجد ماض أو مستقبل . ومن ثم فإنه يرى كل شيء وكل إنسان فى الوقت نفسه الأمر الذى يستحيل معه الفصلً من المعرفة الإلهية المسبقة وما يكتبه الله ويقدره سلفاً على البشر ، نادى سكوتوس بأن الشر ليس له وجود وأن عقل الإنسان

أهم من أية سلطة دينية أو غير دينية . واضطر سكوتس إلى اللجوء إلى ألفريد ملك انجلترا والاحتماء به من غضب الكنيسة عليه . ويقال إنه تعرض فى انجلترا إلى اعتداء بعض رجال الذين عليه اعتداء أفضى إلى وفاته . وقد أدينت آراء سكوتس فى سنودسين عقدا فى عامى ٨٥٥ و٨٥٩م .

ملحـــق

هيباشيا (٣٧٠ - ٤١٥)

لابد أن نذكر هنا أن الكنيسة القبطية لم تعرف الاضطهاد الدينى بسبب ظروفها التاريخية التى حالت دون أن يتوفر لها أية سلطة زمنية فى أى وقت من الأوقات ، على عكس الكنيسة الكاثوكيلية التى أقامت دولة ثيوقراطية مستبدة وغاشمة فى القرون الوسطى . وتعتبر حالة عالمة الرياضيات والفيلسوفة السكندرية المعروفة هيباشيا من حالات الاضطهاد النادرة التى تورطت الكنيسة القبطية فى ممارستها .

كانت هيباشياوهى امرأة ذات جمال فاتن خطيبة مفوهة تجتذب بفضل ذهنها المتقد وعلمها الغزير وتواضعها الجم أعدادا هائلة من المريدين والتلاميذ ومن بينهم سينسيوس الذي أصبح أسقفاً فيما بعد . وقد سطر لها سنسيوس عدة خطابات عبر فيها عن تبجيله لها وشدة إعجابه بها . وفى عهد كيرلس بطريرك الإسكندرية (الذى تولى مقاليد البطريريكية عام ٤١٢) قام فى عام ٤١٥ حشد من الغوغاء والرهبان بالاعتداء على حياتها والإجهاز عليها بوحشية بسبب علاقتها الحميمة بأور سنيس المسئول الوثنى عن إدارة شئون مدينة الاسكندرية . ويروى المؤرخ سقراط كيف انتزعها المعتدون من عربتها وجروها وجردوها من ملابسها وذبحوها ذبح الشاة ثم قاموا بحرق جسدها قطعة قطعة ويشتبه أن يكون البطريرك كيرلس وراء الاعتداء عليها .ألفت هيباشيا كتبا فى الرياضيات والفلك البطليموسى ضاعت واندثرت . ولكن خطابات سينسيوس تؤكد شدة شغفها بالفلسفة إلى جانب الرياضيات والفلك . وقد استعان البعض بهيباشيا فى عمل استرلاب (آلة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم) وآلة أخرى للكشف عن الأشياء تحت الماء . ومن المؤسف أنه ليس هناك اليوم سبيل لمعرفة آرائها الفلسفية . ولكن من الثابت أنها كانت تحاضر عن أفلوطين . والجدير بالذكر أن المؤلف الإنجليزى تشارلس كنجسلى اتخذ من قصة هيباشيا الأساس الذى بنى عليه عام (١٨٥٣) رواية تاريخية رومانسية .

البابا ثيوفيلس (٣٨٥ - ٤١٢)

شهد عهد الباباثيوفيلس بطريرك الاسكندرية الثالث والعشرون ظاهرة يعتبرها بعض غلاة

المسيحيين علامة صحة وعافية دينية وليس دلالة على القمع والاضطهاد . فقد قام ثيوفيلس بهدم أحد المعابد الوثنية فى الاسكندرية وتحويله إلى كنائس . وقد ذاع صيت هذا المعبد بمبانيه الضخمة لما كانت تضمه من مكتبة يقال إنها احتوت على خمسمائة ألف كتاب وأروقة وأفنية ترتفع فيها الأعمدة والتماثيل . ويذكر المورخون أن هذا المعبد كان يتفوق على جميع معابد العالم فى الحجم والجمال .

الجزء الثاني

تمهيد :

أبرز الهرطقات فى أوروبا فى القرن الحادى عشر

هرطقة فيلجارد - هرطقة لوثارد - الهرطقة الدوسيتية - هرطقة أواسى كامبراى - احراق الهراطقة فى ميلانو - الهرطقة المانية .

أبرز الهرطقات فى أوروبا فى القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر

هرطقة ترانشيلم - الهرطقة المانية فى فرنسا - الهرطقة فى ايفورى - المهرطق هنرى فى لى مان - هرطقة كولونى بالمانيا - هرطقة بيريجيه ولييج وإيودو فى فرنسا - المهرطق أرنولد - انتشار الهرطقة فى ايطاليا (طائفة السبيرونيين - طائفة الهوميلياتى - الهرطقة الكاثارية فى لومباردى - هرطقة الباسجيان) - انتشار الهرطقة أو فقراء ليون) - انتشار الهرطقة فى شمال أوربا (الهرطقة الوالديسية فى انجلترا - العشارون فى فيزيلاى) - العلاقة بين السحر والهرطقة - قصة اختفاء مهرطقة بأعجوبة - الهرطقة فى أراس وميتز - الهرطقة الأماليركية

اضطهاد اليهود فى الغرب المسيحى

تمهيد

ظهرت بوادر الهرطقة فى أوروبا الغربية فى أواخر القرن العاشر حيث تم اكتشافها فى رافينا بإيطاليا نحو عام ٩٧٠م ثم فى أسقفية شالون - سير - مارن فى فرنسا نحو عام ألف ميلادية . ثم أخذت الهرطقة تشتد فى القرن الحادى عشر ولكنها لم تستفحل بصورة تنذر بالشر إلا فى القرن الثانى عشر . والملاحظ أن الهرطقة لم تقتصر على طبقة اجتماعية دون الأخرى فقد انتشرت بين النبلاء والفلاحين على حد سواء وبين العلماء والدارسين والجهلة والأميين كما أنها انتشرت بين رجال الدين والعلمانيين .

ولم يقتصر انتشار الهرطقة فى أوروبا على دولة دون الأخرى فقد انتشرت كما سوف نرى فى فرنسا وإيطاليا واسبانيا لتنتقل بعد ذلك إلى دول البلقان وشرق أوربا . ويختلف الدارسون فى تفسير ظاهرة الهرطقة فبعضهم يرى أنها بدأت كتعبير عن رغبة الكثيرين المتأججة فى استئصال شأفة الفساد التى تفشت بين رجال الأكليروس ، فى حين يرى بعضهم الآخر أنها بدأت كنوع من الململة الاجتماعية ، والاحتجاج من جانب الفقراء على ظلم النبلاء لهم . فقد نشأت الهرطقة فى مجتمعات ازدهر فيها النظام الإقطاعى .

أتخذت الهرطقة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر عدة أشكال بعضها لا يتعارض مع صحيح الدين على الإطلاق ، مثل الزهد والتقشف والإصرار على الطهر والعفاف . إلى جانب معاداة رجال الأكليروس والامتناع عن الزواج وعن تناول بعض الأطعمة وخاصة اللحوم . وأيضاً الامتناع عن تقديس الصليب وعبادة القديسين والازورار عن المعمودية والعهد القديم وإنكار الثالوث والإيمان بعدم جدوى بناء الكنائس ودفع العشور .

ويوجه عام أثارت هذه الهرطقات غضب رجال الأكليروس وانزعاجهم فطالبوا بالقصاص من المهرطقين باستثناء قلة ضئيلة من رجال الكنيسة آمنت بضرورة التسامح معهم مثل وازو أسقف لييج فرنسا . ويؤكد ثقات الباحثين أن الثنائية التى اتسمت بها هرطقة القرن الحادى عشر ليست الثنائية نفسها التى اتسمت بها الهرطقة المانية لأن الأولى ثنائية أخلاقية تنهض على الإيمان بالطهر والنقاء

والتعارض التام بين شهوات الجسد وسمو الروح ، فى حين أن ثنائية الثانية كونية تنهض على الإيمان بأن هناك صراعاً أبدياً لايكف ولا ينتهى بين قوى الشر وقوى الخير وبين قوى الظلام وقوى النور التى تحكم العالم الذى نعيش فيه . فهو صراع فلسفى وميتافيزيقى وليس ذلك الصراع الأخلاقى الذى يستقر داخل النفس البشرية بين شهوات الجسد والتشوق الروحى نحو المثالية والكمال . والجدير بالذكر أن معظم الهراطقة فى القرن الحادى عشر كانوا أناساً بسطاء استفزتهم ممارسات الكنيسة الخاطئة وفساد الأكليروس .

وتتجلى رغبة مهرطقى القرن الحادى عشر فى إصلاح أحوال الكنيسة فى حركتين شعبيتين من حركات الهرطقة ركزتا جل اهتمامهما على مطالبة رجل الأكليروس بالامتناع عن الزواج والإتجار بالوظائف الكهنوتية . ورغبة منه فى إصلاح حال الكنيسة المائل فى مدينة ميلانو قام البابا جريجورى بمساندة حركة شعبية مهرطقة تعرف باسم الباتاريا (ومعناها حزب الإصلاح) . فضلا عن أن أسقف كامبراى ألقى فى عام ١٠٧٦ القبض على رجال اسمه « داميهر دوس » وألصق به تهمة الهرطقة لا لشىء إلا لأن هذا الرجل كان شديد التحمس للإصلاحات التى أراد بابا روما إدخالها على الكنيسة الكاثوليكية ولأنه كان يهاجم بضرواة بيع الوظائف الكهنوتية وشراءها . والجدير بالذكر أن المصادر الخاصة بالهرطقة فى أوربا فى القرن الحادى عشر نادرة . ويفسر الباحثون سبب ندرتها بارتباطها الوثيق بحركة الإصلاح الدينى التى تزعمها بابا روما لتطهير الكنيسة مما علق بها من أوشاب . فقد استطاعت هذه الحركة الإصلاحية البابوية لزمن ما أن تستوعب عداوة المهرطقين للفساد المستشرى بين رجال الدين بحيث أصبحت هذه العداوة جزءاً لايتجزأ من حركة الإصلاح الكنسى الذى تبناه آنذاك بابا روما .

ويذهب الدارسون إلى وجود علاقة بين ظهور الهرطقة على نطاق واسع فى الغرب فى القرن الحادى عشر وبين التغيرات المهمة التى بدأت تطرأ على المجتمع الإقطاعى الأوروبى . ومن بين هذه التحولات الاجتماعية نشأة كثير من القرى والمدن المستحدثة . فضلا عن أن التطورات الاقتصادية التى طرأت على الحياة فى القرون الوسطى وزيادة النشاط التجارى أديا إلى شق الطرق الجديدة وتعبيدها ، الأمر الذى ساعد على سهولة انتقال الهرطقات من مكان لآخر وانتشارها على نطاق واسع بالمقارنة بالماضى .

أما هرطقات القرن الثانى عشر فيرجع ذيوعها إلى الداعين لها . ففى الفترة بين عام ١١٠٠ وعام ١١٢٠ تزعمت بعض الشخصيات القوية والمؤثرة حركات شعبية مهرطقة مثل « ترانشليم » فى البلاد الواطئة (هولندا وبلجيكا) و « هنرى » من لوزان الذى بدأ نشاطه فى « لى مان » ثم نقل نشاطه إلى البلاد الواقعة فى جنوب فرنسا و « بيتر » من برويز بالقرب من منطقة التقاء نهر الرون بالبحر . وكذلك ظهرت فى فرنسا هرطقات أخرى بالقرب من سواسون وتريز . وفى منتصف القرن الثانى عشر ظهرت هرطقة على يد « إيدو » فى منطقة بريتانى . ولم تقتصر الهرطقة على فرنسا . ففى روما

تزعم « أرتولد » من بريشيا حركة هرطوقية قوية انتقلت إلى الجنوب الفرنسى مثل كولونى ولييج وباتت تهدده حيث ظهرت الهرطقة الكاثارية (أو التطهيرية) التى تعتبر واحدة من أخطر الهرطقات فى العصر الوسيط على الإطلاق . وباستثناء الحركة الكاثارية كان قادة الهرطقة هم القساوسة والرهبان والكهنة الذين اعتمدوا فى دعوتهم على نفر من العلمانيين البارزين من غير رجال الأكليروس . ولم تكن هذه الهرطقات مجرد تجمعات محدودة العدد بل حركات شعبية كاسحة . فضلا عن أن هؤلاء المهرطقين رغم اختلافهم وتنوعهم لم يحاولوا الانتظام فى ملل مستقلة ونحل منفصلة ، إذ كانت الخلافات اللاهوتية لاتهمهم فى قليل أو كثير ، بل كانوا يجتمعون على شيء واحد هو الإصرار على مفاسد الكنيسة ومباذلها . وكانوا جميعاً تحدوهم الرغبة فى إصلاح ما اعوج من أحوالها .

ومعنى هذا أن السخط على أحوال الكنيسة المتردية هو الشيء الوحيد الذى كان يحركهم . فلا غرو إذا رأيناهم يعبرون عن طائفة من الأفكار الصادمة لمشاعر عامة المسيحيين بوجه عام ورجال الأكليروس بوجه خاص مثل القول بعدم جدوى بناء الكنائس والتشكيك فى تكريس الأضحية ورفض دفع العشور . وساءت سمعة المهرطق « بيتر » من برويز لأنه تجرأ على الصليب ، وطالب بعدم تقديسه ، ويقال إن المهرطقين « ترانشليم » و « هنرى » كفَرا كل مسيحى لا يتبعهما . ورفض المهرطقون التناول على يد أى قسيس عرف بشرهه أو سوء خلقه . فحتى يكون سر التناول مقدساً لابد أن يأتى من رجل دين تقى وبار . وكان « أرنولد » من بريشيا من أشد هؤلاء الخوارج فى الهجوم على رجال الأكليروس . وأنكر « بيتر » من بريوز والهراطقة القريبون من « ترير » سراً مهماً من أسرار الكنيسة هو تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . كما أن الغالبية العظمى منهم آمنوا بعدم صحة المعمودية إذا حدثت فى فترة الطفولة . وذهب هنرى إلى أنه ليس من الضرورى أن يعترف المسيحى بذنوبه للكاهن أو القسيس . ولكن هؤلاء المهرطقين اختلفوا فيما بينهم بشأن الزواج فالبعض حلله والبعض الآخر حرمه مثلما حرمه الهراطقة فى المنطقة المجاورة لسواسون . غير أن المهرطق هنرى شجع أتباعه من لى مان على الزواج دون أى تقديس من جانبه لرباط الزوجية . أما الهراطقة فى كولونى فسمحوا بالزواج فقط بين الذكور البكر والإناث البكر . وأنكر كثير من المهرطقين جدوى الصلاة على أرواح الموتى . كما أنكر هراطقة كولونى وجود المطهر الذى تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية . والمثل الأعلى الذى احتذاه كل المهرطقين ووضعوه نصب أعينهم هو طهارة حياة الرسل وبساطتها . وإنها لمفارقة لها العجب أن يصبح هذا المثل الأعلى الذى تحرقت جموع المسيحيين شوقاً إلى تحقيقه مصدر قلق وإزعاج لا حد لهما للسلطة الكنسية . ولم يكتف المهرطقون بالاقتداء بحياة الرسل بل أصروا على ضرورة الدعوة إليها والتبشير بها . ويفسر لنا هذا السر فى انتشار المهرطق المتجول فى تلك الفترة الذى لايفتأ يجوب بقاع الأرض داعياً إلى حياة الطهر والنقاء . ومما زاد من البلبلة أن البابا جريجورى السابع نفسه (حوالى عام ١٠٢١ - ١٠٨٥) ذهب إلى القول

ببطلان التناول الذى يتم عن طريق قسيس فاسد أو فاسق . ورغم أن هذا البابا تراجع فيما بعد عن هذا الرأى فقد كان قوله كفيلا بتشكيك قطاعات كبيرة من المسيحيين فى قيمة القداديس والتناولات التى يقوم بها قسيس سيىء الخلق . وكان من الطبيعى أن يتجه كثير من المسيحيين إلى حياة الرهبنة والزهد والنسك فى هذا الجو المتفجر بالحماس الدينى .

الفصل الاول

أبرز الهرطقات في اوروبا في القرن الحادي عشر

قبل أن نتناول أبرز الهرطقات الغربية التى ظهرت فى وقت مبكر فى كل من إيطاليا وفرنسا وأسبانيا فى القرن الحادى عشر نبدأ بهرطقة وجدت استجابة من بعض الناس رغم غرابتها ورغم أنها ليست هرطقة بالمعنى المألوف . فهى نوع من الخيلاء والزهو الأدبى يذكرنا بغرور « فاوست » بعلمه الوفير . وقد ترك لنا المؤرخ « رالف جلابر »المعروف باسم « رالف الأصلع » سجلا بالهرطقات التى شاعت فى القرن الحادى عشر نوردها حسب ترتيبها الزمنى .

١ - نبدأ بهرطقة عالم متفقه فى علوم النحو اسمه « فيلجارد » يرجع تاريخها إلى عام ٩٧٠ تقريباً . ظهر « فيلجارد » فى ميناء ترافينا الإيطالى الواقع على بحر الأدرياتيك وادعى أن أكبر شعراء اللاتينية « فيرجيل » و هوراس » و « جوفنتال » زاروه فى المنام وشكروه على سعة معلوماته ودقة معرفته بأدبهم الخالد ثم وعدوه بحفر اسمه فى لوح الخالدين . ورأى فيلجارد أن أدب هؤلاء الشعراء العظام يستحق ما يستحقه الكتاب المقدس نفسه من احترام وتبجيل واكتشف « بطرس » أسقف رافينا هرطقته فأخمدتها السلطات الكنسية بحد السيف .

غير أن هذا لم يمنع من انتقال هذه الهرطقة ومثيلاتها من إيطاليا إلى أسبانيا عبر جزيرة سردينيا ، ولكن الكاثوليك نجحوا فى التصدى لها بكل قوة وعزم .

٢ - وهناك أيضاً قصة « لوثارد » الفلاح المهرطق الآتى من قرية فيرتوس فى أسقفية « شالون سير مارن » الفرنسية ويرجع تاريخ هذه القصة إلى نحو ١٠٠٠ م ، ومفادها أن هذا الفلاح أصابه الإعياء من جراء يوم عمل شاق فى الحقل فغلبه النوم ورأى فى منامه سرباً من النحل يهاجمه بشراسة

ويدخل جسده من الفتحات الحساسة فيه ثم ينطلق ليخرج من فمه كالصاروخ وهو يسومه مر العذاب بلدغاته ويصم أذنيه بطنينه الرهيب المزعج ، وبدا له أن النحل يكلمه وينقل إليه أوامر ونواهى الكتاب المقدس الذى ادعى أنه أوحى إليه بمجموعة من التصرفات الغريبة . فما إن عاد إلى بيته حتى طرد زوجته منه ثم ذهب إلى الكنيسة ليصلى فأمسك بالصليب وعليه صورة المسيح وقام بتكسيره أمام ذهول الفلاحين وأهل القرية الذين اعتقدوا أن مساً من الجنون قد أصابه . ولكن هذا المهرطق استطاع أن يقنع هؤلاء البسطاء بسلامة تصرفاته ، وأن الله قد أوحى إليه بها . وليس من شك أن دعوته لهم بالامتناع عن دفع العشور قد راقت فى عيونهم . إلى جانب ذلك ذهب لوتارد فى هرطقته إلى حد القول إنه لا ينبغى علينا أن نصدق كل ما جاء على لسان الأنبياء ، فبعض ما قالوه مفيد وبعضه الآخر غير مفيد . وكان فى الأسقفية أسقف عالم عجوز يدعى « جبوين » تصدى لهرطقة الرجل وقام بدحضها وتفنيدها ، الأمر الذى جعل أتباعه ينفضون عنه فانتحر هذا المهرطق بأن ألقى بنفسه فى بئر عميقة . ويقال إن الهرطقة البوجيميلية التى ظهرت فيما بعد تأثرت بأفكاره . ويقال أيضاً إن المهرطق « لوتارد » كان يعانى من مرض الأرجونية الذى تظهر بعض أعراضه فى شعور المصاب به بأن أعضاءه التناسلية تحترق . والجدير بالذكر أنه تكرر ظهور هذه الهرطقة عدة مرات فى منطقة «شالون سير مارن » .

٣ - ويوجد سجل لهرطقة إنتشرت على نطاق واسع فى أورليانز الفرنسية عام ١٠٢٢ اشترك فى استحداثها والترويج لها عدد من العلماء والنبلاء ورجال الأكليروس ، وتميزت هذه الهرطقة بالدعوة إلى الدوسيتية ، أى الإيمان بأن تجسد المسيح وصلبه كان وهماً خادعاً وليس حقيقة واقعة . فضلا عن أنها تميزت بالتركيز على الحياة الروحية الخالصة ، وقد ارتبطت هرطقة أورليانز بمبدأ عبادة الشيطان . وقد سجل وقائع هذه الهرطقة راهب اسمه « بولس » ينتمى إلى طائفة البندكتين . يقول الراهب بولس إنه فى عام ١٠٢٢ إتضح أن عشرة على الأقل من قساوسة الصليب المقدس فى مدينة أورليانز كانوا من أتباع المذهب المانى . وعبثاً حاول المسئولون عن الكنيسة إرجاعهم إلى صوابهم وإعادتهم إلى رشدهم فقد ركبوا رؤوسهم وسدروا فى غيهم . فقام « روبرت » ملك فرنسا بعزلهم من وظائفهم الكهنوتية ثم عاقبهم بالحرق . وكان هؤلاء المهرطقون من أتباع فلاح من بيرجورد ادعى القدرة على عمل المعجزات مستعينا فى ذلك برماد جثث بعض الأطفال حمله معه فى كل مكان يذهب إليه يعطيه لأى شخص فيحوله على الفور إلى واحد من أتباع المذهب المانى . وكان هؤلاء المهرطقون يعبدون الشيطان الذى تصوروه على هيئة إنسان حبشى ثم فى شكل ملاك من نور يأتيهم يومياً بالمال الوفير . وكان هؤلاء الهراطقة يحرصون على إخفاء هرطقتهم ويتظاهرون بإخلاصهم للعقيدة المسيحية . وقد لجأوا إلى هذا التمويه بعد اكتشاف شبكة من « المانيين » فى تولوز وفى عدة أماكن أخرى مثل أكويتين ، لدرجة أن كاهناً اسمه ثيوداتوس استطاع أن يخدع جميع المحيطين به رغم أنه كان من أشد الناس استمساكاً بهرطقته . وبعد وفاته بنحو ثلاث سنوات اكتشف المسئولون عن الكنيسة هرطقته فقام « أودالريك » بإخراج جثته من قبره وألقى بها فى أرض فضاء للقمامة

والمخلفات . والجدير بالذكر أن واحداً من العشرة المهرطقين الذين قام الملك بإحراقهم واسمه « لويز » كان أثيراً لديه وعزيزاً عليه ، وأن هؤلاء المهرطقين ظلوا لآخر لحظة فى حياتهم مؤمنين بسلامة موقفهم ، لدرجة أنهم اقتنعوا تماماً بأن النار لن تؤثر فيهم ، فقد أخذوا يتضاحكون عندما أوثقهم جلادوهم فى نعوشهم تمهيداً لإلقائهم فى النار التى التهمتهم جميعاً وتفحمت عظامهم .

ويستطرد «رالف جلابر» شارحاً الدور الذى لعبه النبيل « أريفاست » سليل دوقيات نورماندى فى كشف النقاب عن هرطقة أورليانز ، كان هناك قسيس اسمه هربيرت سافر إلى أورليانز لطلب العلم ، ولكنه وقع فى شراك الهرطقة عندما تعرف باثنين من عتاة المهرطقين اسمهما «ستيفن» و«ليسويوس» . وحاول هربيرت من جانبه أن يجتذب اريفاست إلى الهرطقة . وأدرك أريفاست خطورة الضلالة التى تردى فيها هذا الرجل فقام بإبلاغ الدوق « ريتشارد » بها ثم طلب إلى هذا الدوق أن يتولى تبليغ الملك « روبرت » بوجود سم الهرطقة الزعاف فى مملكته، كما طلب أيضاً من الملك أن يؤيده فى مساعيه لتطهير البلاد منها ، وبالفعل أمر الملك « أريفاست » أن يسافر بنفسه إلى أورليانز كى يقف على أسرار « هربيرت » والمشتركين معه فى الهرطقة . وفى الطريق إلى أورليانز قابل « أريفاست » قسيساً حكيماً ومتزناً اسمه «إيفرارد » فالتمس لديه المشورة فنصحه « إيفرارد » أن يداوم الذهاب إلى الكنيسة والصلاة فيها ، حتى يهديه الله إلى اتباع الأسلوب الأمثل فى التعامل مع هذه المشكلة ، ونصحه « إيفرارد » أن يتظاهر بالاقتناع بآراء « هربيرت » المهرطقة حتى اطمأن إليه وباح إليه بمعتقدات جماعته كافة المخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، ومنها أن المسيح ليس ابن مريم العذراء ، وأنه لم يتعذب من أجل البشر وأنه فى الحقيقة لم يدفن في قبر كما أنه لم يقم من الأموات . وبالإضافة إلى ذلك ذهب مهرطقو أورليانز إلى أن المعمودية لا تطهر الإنسان من الذنوب وأن الخبز والخمر لا يتحولان فى التناول إلى جسد المسيح ودمه .

وكان من عادة مهرطقى أورليانز أن يجتمعوا فى بعض الأمسيات فى بيت معين حيث يحمل كل واحد منهم فى يديه ضوءاً . ويظل المجتمعون ينشدون الأغانى والأهازيج حتى يخيّل إليهم أن شيطاناً فى صورة وحش قد حل عليهم ، عندئذ يسارع المجتمعون إلى إطفاء الأنوار التى بأيديهم . وما إن يلفهم الظلام الدامس حتى تمتد يد كل رجل منهم إلى أقرب امرأة ، سواء أكانت أماً أم أختاً أم راهبة ، ويمارس الجنس معها دون أدنى شعور بالذنب ، فإذا أدت هذه الممارسات الجنسية إلى إنجاب طفل فإنهم يحضرونه فى اليوم الثامن من مولده ، ويشعلون ناراً عظيمة يلقون فيها بالطفل حتى يتحول إلى حفنة من الرماد يأخذها المجتمعون ويحيطونها بكل مظاهر التبجيل والتقديس ، وكأنها جسد المسيح . وكانوا يعطون جانباً من هذا الرماد إلى كل مريض على وشك الموت .

وبعد أن قام « أريفاست » بكشف أسرارهم وتبليغ الملك « روبرت » وزوجته الملكة « كونستانس » (١١٥٤ - ١١٩٨) عنهم اقتيد الجميع ومنهم « أريفاست » مكبلين بالأغلال إلى كنيسة الصليب المقدس ، وهى الكنيسة نفسها التى كان القساوسة المهرطقون يمارسون فيها شعائر المسيحية التى تظاهروا بالإيمان بها .

وحضر الملك والملكة والأساقفة لاستجواب المهرطقين الذين كانوا على دراية عظيمة بالكتاب المقدس . ولكنهم حاوروا وداوروا مستجوبيهم الذين فشلوا فى الحصول على اعتراف منهم . فواجههم « أريفاست » بحقيقة معتقداتهم فأسقط فى أيديهم ، واضطروا إلى الاعتراف بهرطقتهم . وعلقوا على ولادة المسيح من العذراء مريم بقولهم إن مثل هذه الولادة لاتتفق مع سنة الطبيعة . ومن ثم فإنها تتنافى مع قوانين الخالق ومشيئته . وعبثاً حاول الأساقفة إقناعهم بالتحول عن أفكارهم المهرطقة ، فقد استمروا فى عنادهم وتحديهم وقالوا لمن يستجوبونهم : « افعلوا بنا ماشئتم . إن لنا ملكاً يحكم فى السماء ، وسوف يرفعنا إليه ويجلسنا عن يمينه ويضع أكاليل الغار على رؤوسنا . » وأمام هذا التحدى الصارخ لم يجد الأساقفة مفراً من نزع ملابس الكهنوت عن القساوسة المهرطقين ، وكانت جموع الشعب الغاضب تقتحم الكنيسة للفتك بهم بداخلها لولا أن الملكة كونستانس وقفت بنفسها على الباب لتمنعهم من الدخول . وعندما مر المهرطق « ستيفن » كاهن اعتراف الملكة السابق أمامها ضربته بالعصا على إحدى عينيه ففقأتها ، ولم يرجع عن ضلالة الهرطقة سوى قسيس وراهبة . واقتاد الحرس بقية المهرطقين خارج أسوار أورليانز حيث تم حرقهم . وكانت هذه الواقعة هى أول حادثة حرق فى أوربا على مدار قرون طويلة ، وذلك منذ إحراق البريسيليين المهرطقين عام ٣٨٣ فى أفيلا بأسبانيا بتهمة ممارسة السحر ، لأن الأعراف آنذاك كانت لاتجيز إعدام المهرطق ، حتى ولو كان القانون الرومانى يجيزها ، فى حين أنها أجازت إحراق السحرة . والجدير بالذكر أن التهتك الذى مارسه هؤلاء المهرطقون فى أورليانز يذكرنا بالتهتك الذى مارسته بعض الطوائف الغنوصية فى القرن الرابع الميلادى .

وتدل محاكمة الهراطقة فى أورليانز على أنهم لم يتعرضوا للتعذيب البدنى أو العقلى الذى تعرض له المهرطقون فيما بعد أثناء مثولهم أمام محاكم التفتيش ، واللافت للنظر أن الهرطقة فى أوريليانز بدأت على أيدى مجموعة من القساوسة ثم انتقلت خارج نطاق الأكليروس إلى بعض النبلاء وأفراد المجتمع من غير رجال الدين . ويميل بعض المؤرخين إلى الاعتقاد أن هذه الهرطقة ليست نابعة من فرنسا ، ولكنها جاءت من المنطقة التى تعرف الآن باسم بلغاريا حيث انتشرت على أيدى المهرطقين البوجيميليين لتشيع بعد ذلك فى أرجاء الإمبراطورية البيزنطية . ورغم أن محاكمة المهرطقين فى أورليانز قد تكون لها أسبابها السياسية فليس هناك أدنى ريب فى صحة تهمة الهرطقة الموجهة إليهم .

هذه قصة أول إحراق للمهرطقين فى أوربا فى العصر الوسيط .

٤ - وفى عام ١٠٢٥ ظهرت جماعة من المهرطقين الفرنسيين فى منطقة أراس كامبراى التى كان الأسقف « جيرار الأول » (١٠١٣ - ١٠٤٨) يرعى شئونها الدينية . ويبدو أن الأسقف ترامى إلى سمعه وجود هؤلاء المهرطقين أثناء إحدى زياراته للأسقفية فأمر بإلقاء القبض عليهم والزج بهم فى السجون . وكتب هذا الأسقف إلى زميله روجر أسقف شالون سيرمارن ينحى عليه باللائمة لفشله

فى اكتشاف أمرهم وسهولة انخداعه بهم وتساهله معهم . ومن المعتقد أن هرطقة أراس - كامبراى نشأت أصلا فى إيطاليا على يد زعيم يدعى «جوندولفو» ثم انتقلت بعد ذلك إلى فرنسا . وأمر الأسقف جيرار بسجن هؤلاء الهراطقة لمدة ثلاثة أيام على ذمة التحقيق تعرضوا فيها على مايبدو للتعذيب ، كما أصدر هذا الأسقف تعليماته إلى جميع الرهبان والقساوسة فى أسقفيته بالصيام الانقطاعى يوماً كاملا على أمل أن يرجع هؤلاء المهرطقون عن غيهم وضلالهم . وبعد مرور ثلاثة أيام على الزج بهم فى السجن خرج الأسقف « جيرار » فى موكب مهيب بصحبته رؤساء الشمامسة حاملين الصلبان ونسخاً من الكتاب المقدس يتبعهم بقية الكهنة والشعب . وتوجه هذا الموكب الحافل المهيب إلى الكنيسة ليستمع إلى المحاكمة الرسمية لهؤلاء الهراطقة الذين اعترفوا بأنهم من مريدى « جوندولفو » وأتباعه ، وألقى الأسقف « جيرار » محاضرة مستفيضة حول قواعد الإيمان الأصيل على مسامع الحاضرين ، سواء أكانوا هراطقة أم من رجال الكنيسة . وأخذ الأسقف يقارع هراطقة « أراسى - كامبراى » الحجة بالحجة فاستشعر منهم أنهم :

١ - ينكرون أهمية المعمودية لأن هذه المعمودية لا تمنع وقوع الطفل المتعمد فى الزلل فى قابل حياته .

٢ - أنهم ينكرون تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه .

٣ - أنهم ينكرون أن الكنيسة هى بيت الله .

٤ - أنهم ينكرون المذبح واستخدام البخور .

٥ - ويعترضون على استخدام أجراس الكنيسة .

٦ - ويزدرون مهنة الكهنوت .

٧ - وأيضاً يعترضون على دفن الموتى فى الأماكن المقدسة .

٨ - وعلى الصلاة على أرواحهم .

٩ - وينكرون جدوى التوبة .

١٠ - وجدوى الاعتراف .

١١ - وإنشاد الترانيم .

١٢ - وتبجيل الصليب وتقديسه .

١٣ - ويعترضون أيضاً على الزواج .

١٤ - وعلى صور المسيح على الصليب والقديسين لأنها من صنع البشر .

١٥ - فضلا عن اعتراضهم على التركيب الهرمى للكنيسة .

ويبدو أن الكنيسة الغربية فى القرن الحادى عشر واجهت مشاكل كثيرة بسبب مطالبتها رجال الأكليروس بالامتناع عن الزواج ومطالبة الناس العاديين من غير رجال الأكليروس بضرورة اكتفائهم بزوجة واحدة ، الأمر الذى أثار ضيقهم وحنقهم واعتبروه تدخلا لا مبرر له من جانب الكنيسة فى

حياتهم الجنسية . فقد درج كثير منهم على اقتناء المحظيات والجوارى . ورغم أن الأسقف جيرار نفسه نادى بأن الزواج المسيحى الذى يرضى عنه الله يهدف فقط إلى إنجاب الذرية والأطفال ولايهدف إلى الانغماس فى شهوات الجسد ، فإنه اعترض على دعوة المهرطقين فى أراس - كامبراى إلى نبذ الزواج تماماً . والجدير بالذكر أن موقف هؤلاء المهرطقين المعادى للكنيسة كان نتيجة إيمانهم بأن الفرد مسئول مسئولية مباشرة عن ممارسة الفضيلة . فضلا عن أن هذا العداء للنظام الكنسى أصبح ظاهرة يتسم بها الخارجون على الكنيسة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . والجدير بالذكر أيضاً أن هراطقة أراس - كامبراى دعوا إلى ضرورة كسب القوت بعرق الجبين والتراحم بينهم وبين زملائهم فى الرأى والعقيدة .

وفى نهاية الأمر استطاع الأسقف أن يقنع مهرطقى أراس - كامبراى وهم من البسطاء والأميين بالرجوع عن ضلالهم . وكتب الأسقف بياناً بهذا الشأن باللغة اللاتينية ، وطلب إلى هؤلاء الهراطقة البسطاء التوقيع عليه ، أو الموافقة على ماجاء به . ونظرا لجهل هؤلاء الهراطقة باللغة اللاتينية فقد طلبوا من الأسقف ورجاله ترجمة هذا البيان إلى اللغة الشعبية الدارجة التى يفهمونها . وبمجرد موافقة هراطقة أراس - كامبراى على هذا البيان أطلقت السلطات الكنسية سراحهم وسمحت لهم بالعودة إلى بيوتهم دون توقيع أدنى عقاب عليهم .

٥ - وقعت ثانى حادثة إحراق للهراطقة نحو عام ١٠٢٨ بمدينة ميلانو بإيطاليا . وكانت ظروفها على النحو التالى :

كان « أريبرت » رئيس أساقفة ميلانو فى جولة تفقدية لشعب كنيسته يصحبه عدد من الفرسان . ونما إلى سمعه انتشار الهرطقة فى قلعة مونتيفورت فى أبرشية أستى الواقعة فى جنوب تورين . وكان زعيم الهراطقة فى تلك القلعة رجلا اسمه « جيرارد » لا يذكر لنا التاريخ إذا كان علمانياً أو من رجال الدين . ويروى « لاندولف » الذى عاش فى ميلانو فى وقت قريب من حدوث هذه الواقعة أن رئيس أساقفة ميلانو استدعاه لاستجوابه . فلما مثل أمامه لم يحاول الإنكار على الإطلاق ، على عكس هراطقة أورليانز الذين سعوا فى بادى الأمر إلى إخفاء هرطقتهم ، واعترف جيرارد أنهم يؤمنون بالطهر والعفاف ويعاملون زوجاتهم معاملة الأمهات والأخوات ، وأنهم يمتنعون عن أكل اللحوم ولا يكفون عن الصلاة ليل نهار . فضلا عن أنهم يعيشون على المشاع ويقتسمون الحياة فيما بينهم ويؤمنون بالأب والابن والروح القدس . وهنا اشتم رئيس أساقفة ميلانو رائحة الهرطقة فى مفهوم جيرارد عن التثليث فطلب منه أن يوضح بالتفصيل رأيه فى هذا الموضوع وأجاب « جيرارد » بقوله : الذى أدعوه الأب هو الله الخالد الذى خلق كل الأشياء من البداية والذى تستمد منه كل الكائنات وجودها . والذى أدعوه الابن هو روح الإنسان الذى يؤثره الله ويحبه . والذى أسميه الروح القدس هو إدراك الحقائق المقدسة التى تحكم مسيرة جميع الأشياء كل على انفصال .

وعندئذ سأله « أريبرت » : ياصديق ماذا تقول عن ربنا يسوع المسيح الذى ولدته مريم العذراء -

كلمة الآب ؟ أجاب بقوله : « الذى تدعوه يسوع المسيح هو روح الإنسان المولود بالجسد المولود من مريم العذراء ، أى المولود من الكتاب المقدس أما الروح القدس فهو الإدراك النقى والخالص للكتاب المقدس . وبعدئذ سأله رئيس الأساقفة عن الحكمة فى إقدام الجماعة على الزواج ماداموا لايهدفون إلى إنجاب الذرية واستمرار الجنس البشرى . فأجاب المهرطق « جيرارد » بقوله : لو أن كل الجنس البشرى اتفق على عدم ممارسة فساد الجنس فإن البشرية سوف يتم إنجابها كالنحل بلاصلة رحم . ثم طرح رئيس الأساقفة على « جيرارد » السؤال التالى : هل تتم مغفرة الخطايا عن طريق البابا أو الأسقف أو القسيس ؟ فأجاب بقوله : «ليس لدينا كاهن ـ رومانى أعلى . ولكن لنا كاهننا الخاص بنا الذى يقوم بزيارة أخوتنا المبعثرين فى كل أرجاء العالم وعندما يحضر الله لنا فسوف يتولى غفران خطايانا .» واختتم «جيرارد» هرطقته بقوله إن جماعته لاتأبه بأى عذاب قد يلحقه الآخرون بها وإنه إذا حدث أن واحداً منها أصبح على شفا الموت يقوم زميل له بالتعجيل بوفاته . وهكذا تأكد رئيس أساقفه ميلانو من هرطقة جماعة قلعة مونتفورت فأمر جنده وفرسانه بالتوجه إلى هذه القلعة واجضار كل من يعيشون فيها ومن بينهم كونتيسة استطاع المهرطقون أن يضموها إلى صفوفهم . ومن الغريب أن هذه الحركة وجدت من عامة الناس من يعطف عليها ، غير أن علية القوم أصروا على القضاء عليها دون أن يعبأوا باعتراضات رئيس الأساقفة ، فأقاموا نعشاً ضخماً أضرموا فيه النيران ثم أقاموا بجواره صليباً ترتفع عليه صورة السيد المسيح وخيروا الجماعة بين الموت حرقاً أو التوبة والاعتراف بالصليب . وخاف بعضهم على حياتهم فأعلنوا توبتهم . ولكن الغالبية العظمى لم يبالوا بالموت بل وضعوا أكفهم على عيونهم وقفزوا فى قلب اللهب ليتحولوا إلى رماد . وعبثاً حاول رئيس الأساقفة أن يهدى الكونتيسة الضالة إلى سواء السبيل ، فقد ظل ورجاله يجادلونها ثلاثة أيام متواصلة لعلها ترعوى ولكن دون فائدة .

ويختلف الهراطقة الإيطاليون فى مونتفورت عن الهراطقة الفرنسيين فى أورليانز فى بعض الوجوه أهمها : أن هراطقة أوليانز يتكونون أصلا من رجال أكليروس استطاعوا أن يضموا إليهم نفرا من علية القوم من غير رجال الدين . فضلا عن أن هراطقة أورليانز كانوا جماعة سرية انصرفت إلى بحث المسائل اللاهوتية ومناقشتها . أما هراطقة قلعة مونتفورت فيتكونون أساساً من علمانين من خارج الكنيسة معظمهم من العسكر وأتباعهم . وقد نجح هراطقة مونتفورت فى اجتذاب بعض النبلاء إلى صفوفهم وأيضاً بعض الفلاحين الذين يعيشون فى المناطق المجاورة لمدينة ميلانو . ويرجع خطرهم على الكنيسة إلى أنهم كانوا يجعلون من آيات الكتاب المقدس الأساس الذى تبنى عليه حياتهم اليومية ويتصرفون كقساوسة صالحين .

٦ – وفى الفترة بين عامى ١٠٤٣ و ١٠٤٨ انتشرت فى منطقة « شالون سيرمارن » الفرنسية الهرطقة المانية على نطاق واسع . واستبدت الحيرة بأسقف المنطقة آنذاك « روجر الثانى » ، ولم يعرف كيف يتصدى لهذا الخطر المتفاقم . فأرسل خطاباً إلى « وازو » أسقف منطقة لييج يلتمس لديه

النصح والمشورة . وكان « وازو » معروفاً بحكمته ورجاحة عقله ودفاعه عن استقلال الكنيسة عن أى تدخل مدنى أو علمانى فى شئونها . وقد بلغ « وازو » فى الحجة ورجاحة العقل حداً جعل الإمبراطور « هنرى الثالث » يستشيره فى بعض المناسبات .

وشكا الأسقف « روجر الثانى » إلى « وازو » من أن هؤلاء المهرطقين المانيين يحرمون الزواج وأكل اللحوم وقتل الحيوان عملا بوصية الله فى العهد القديم « لاتقتل » ، وبعد أن شرح « وازو » المفهوم الصحيح لهذه الوصية ، وكيف أنها تعنى تحريم قتل النفس البشرية استفاض فى الحديث عن ضرورة التحلى بالصبر مع هؤلاء المهرطقين اقتداء بالمثل الذى ضربه السيد المسيح عن ترك « الزوان» ينمو مع الحنطة حتى تحين ساعة الحصاد . يقول الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى في هذا الشأن : «يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيداً فى حقله . وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانا وسط الحنطة ومضى فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً فجاء عبيد رب البيت وقالوا له : ياسيد أليس زرعاً جيداً زرعت فى حقلك . فمن أين له زوان . فقال لهم : إنسان عدو فعل هذا . فقال له العبيد : أتريد أن نذهب ونجمعه فقال : لا . لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه . دعوهما ينميا كلاهما معاً إلى الحصاد ، وفى وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولا الزوان واحزموه حزماً ليحرق . وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزنى » .

يقول الأسقف « وازو » إن المسيح ضرب هذا المثل ليعلم أتباعه ضرورة التحلى بالصبر فى التعامل مع البشر لأن اقتلاع الزوان فى غير الوقت المناسب سوف يؤثر تأثيرا سلبياً على نمو الحنطة أو القمح . وعلق وازو أيضاً على رغبة الشعب الفرنسى العارمة فى الفتك بالمهرطقين بقوله : إن طباعهم حادة وعنيفة ويميلون إلى سفك الدماء فقد بلغ بهم الأمر أنهم يوجهون تهمة الهرطقة إلى الأفراد ، لا لشيء إلا لأن وجوههم تعلوها الصفرة لاعتقادهم أن المهرطق مشغول البال على الدوام ، وأن الدم يغيض عن وجهه ، ثم يقترح « وازو » على زميله الأسقف « روجر الثانى » أن يكتفى بحرمان المهرطقين من الكنيسة . ويذكر راوى واقعة الهرطقة فى »شالون» سيرمارن » أنه حدث فى مدينة جوسلار أن السلطات الكنسية شنقت بعض المتهمين بالهرطقة ، وأن « وازو » لوكان موجوداً لما سمح بقتل هؤلاء المتهمين . فقد اتضح من الاستقصاء والتحقيقات أن كل جناية هؤلاء المتهمين بالهرطقة تتلخص فى رفضهم الامتثال لأمر الأساقفة لهم بذبح كتكوت لأن سفك دماء الحيوان كان يخالف مبدأهم .

والجدير بالذكر أن حركة مهرطقة أخرى تعرف باسم « سلام الله » ظهرت فى «أكويتين» وذاعت بين الناس ذيوعاً عظيماً يفوق هرطقتى أورليانز وقلعة مونتفورت .

وقد سجل أخبار هذه الحركة المؤرخ الفرنسى « أديمار شاربان » . يقول « شاربان » إن حركة «سلام الله» استمدت أفكارها من المذهب المانى وأنها أنكرت المعمودية وأهمية الصليب والزواج وأكل اللحوم . وبدا أتباع حركة سلام الله وكأنهم يعيشون عيشة النساك والزاهدين فى حين أنهم

كانوا فى الواقع يمارسون جميع ضروب الفسق والانحلال . ويقال إن السبب فى نشأة هذه الهرطقة وذيوعها هو شكوك عامة الناس فى تصرفات رجال الأكليروس المنحلة ، إذ قيل إن راهباً فاجراً اسمه « جوفرى » حاول الاعتداء على امرأة داخل كنيسة البازيليكا فى مدينة « ليموجو » وأن مسلكه الشائن كان السبب المباشر فى إشاعة الذعر بين أفراد الشعب وفى استيائهم من رجال الكنيسة الذين رأوا فى الخروج على تعاليمها وإتباع المانية وسيلة للاعتراض على مفاسدها .

ويرجح المؤرخون أن حركة « سلام الله» المهرطقة نشأت عام ٩٧٥ على يد أسقف اسمه « جاى» أقسم أمام جمع من العلمانيين على المحافظة على السلام ، وحماية ممتلكات الكنيسة والفقراء . وقد ازدهرت حركة « سلام الله » كما أسلفنا فى مدينة أكويتين تحت رعاية الدوق « وليم الخامس» (٩٩٠ - ١٠٣١) . ويصف المؤرخ « أديمار شاربان » كيف أن جموع الشعب التفت حول هذا الدوق فى غمرة فرحتها بذكرى مرور ألف عام على ميلاد السيد المسيح . وساعدت هذه المناسبة الدينية على التحام جميع طوائف الشعب الأغنياء منهم والفقراء وإلهاب حماسهم الدينى . ولكن هذا التلاحم سرعان ما تبدد ، فقد آثر كثيرون الانضمام إلى صفوف الحركة المانية المهرطقة المعروفة باسم « سلام الله » التى ازدرت تنظيمات الكنيسة الكاثوليكية كافة وخاصة بسبب المباذل التى شاعت بين رجالها آنذاك .

هرطقات أوروبية باكرة :

يجدر بنا أن نذكر أن ظهور الهرطقات فى أوربا الغربية اقترن بغزو قبائل البربر لها عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية . فالهرطقة الأريوسية التى ظهرت فى القرن الرابع والتى تنكر لاهوت المسيح دخلت أواسط ألمانيا على يد المهرطق الجرمانى « الفيلاس » . ويلاحظ أن الكنيسة بذلت جهداً جهيداً حتى استطاعت فى نهاية الأمر أن تتغلب على هذه الهرطقات .

لقد كانت الكنيسة قبل سقوط الدولة الرومانية لا تشعر بالخطر يتهددها من ناحية المهرطقين الذين لم يعدوا أن يكونوا مجرد علماء لاهوت أفراد جمح بهم الشطط الفكرى دون أن يكون لهذا الجموح أى أثر فى الجماهير ، أو مجرد مجموعة من المهاويس وأصحاب التفكير الشاذ بين رجال الأكليروس . ومن بين هؤلاء المهاويس الذين لاخطر منهم على الكنيسة جماعة النساك الذين قابلهم القديس « بونيفاس » (٦٨٠ - ٧٥٤) فى ألمانيا ورآهم يعيشون على الجراد وعسل النحل اقتداء بحياة « يوحنا المعمدان » فى البرية ، أو مثل المبشر الريفى الجلف « ألايبرت » الذى عاش فى منطقة سواسون وادعى أنه قديس ووزع على خلصائه ومريديه خصلات شعره وأظافره المقصوصة يتبركون بها . وسارت على الدرب نفسه مبشرة ريفية أخرى بالقرب من مانيز اسمها « ثيودا » ادعت أن الله أوحى إليها بأن تعلن أن نهاية العالم وشيكة الوقوع . وهناك أيضاً رجل دين آخر مهووس اسمه «كلوديوس» من أكويتين عينه الملك «لويس التقى » (٧٧٨ - ٨٤٠) وهو ابن الإمبراطور « شارلمان

الثالث » -أسقفا فى الفترة بين عامى ٨١٤ و ٨٢٠ فمنع استخدام الصور والتماثيل فى كل الكنائس التابعة له ، كما أنكر قداسة الصلبان وعبادة القديسين وتشكك فى جدوى زيارة الأراضى المقدسة .

وذهب « كلوديوس » إلى أن السلطة البابوية ليست من صحيح الدين ، لأن سلطة الرسول «بطرس » انتهت بموته ، وليس لمخلوق أن يرثها من بعده .غير أن « كلوديوس » فشل فى أن يترك وراءه أى أثر أو أن يجتذب إليه أتباعاً ومريدين .حتى البدعة المعروفة ببدعة التبنى Adoptionism التى ظهرت فى أسبانيا فى القرن الثامن الميلادى ، والتى تذهب إلى القول بأن المسيح ليس ابن الله الحقيقى بل مجرد ابن تبناه الله ،لم تمثل أى خطر حقيقى على الكنيسة رغم انتشارها .

ويؤكد الدارسون أن الهرطقة فى الغرب ظلت ظاهرة نادرة ومتفرقة ولا تشكل أى خطر حقيقى على الكنيسة حتى نهاية القرن العاشر . ومع بداية القرن الحادى عشر أخذت الهرطقة تلح على نحو متكرر لتتخذ صورة عنيفة وعنيدة بمجىء القرن الثانى عشر .

وفى الختام نقول إن السلطة الدينية ممثلة فى الأساقفة وكبار الأساقفة كانت فى بادىء الأمر هى التى تقرر ما إذا كان المرء مهرطقاً أم غير مهرطق .

ولكن هذا الوضع مالبث أن تغير كما سوف نرى عند الحديث عن ظروف إنشاء محاكم التفتيش . وثمة أمر آخر . لقد كان الخارجون على الكنيسة الكاثوليكية يعتبرون أنفسهم أقدر على إدراك الصلاح وتحقيق التقوى وفقاً للروح المسيحية الحقة أكثر من رجال الكنيسة وتنظيماتها المختلفة . وهم لم يروا فى ذلك أى خروج على الدين أو مخالفة لتعاليمه وأعرافه لأنهم كانوا شديدى الاقتناع بسلامة تفسيراتهم للدين وصحة فهمهم له . ولعل هذا السبب الذى حدا بعض المحللين إلى القول بأن الهرطقة الأوربية فى القرن الحادى عشر لم تكن أكثر من مجرد رغبة شعبية عارمة فى تحقيق حياة الزهد والطهر والعفة وتطهير الكنيسة مما علق بها من أوشاب .

ومن ثم فإن هرطقات القرن الحادى عشر ليست هرطقات بالمعنى الحقيقى بل مجرد تهويمات غامضة لأناس يتحرقون شوقاً إلى النسك والتقشف ، بدليل أنها سرعان ما اختفت دون أن تعكر صفو الكنيسة كما عكرته الهرطقة فى القرن الثانى عشر . ولايفوتنا أن الهرطقة فى القرن الحادى عشر تكرر ظهورها فى فرنسا فى منطقتى « شالون سير مارن » و« لييج » أكثر من أى مكان آخر ، ورغم ذلك مالبث أن بادت واندثرت دون أن تترك وراءها أثراً يذكر .

ويذكر المؤرخون أنه نحو عام ١٠٧٦ نما إلى علم أسقف كامبراى بفرنسا أثناء مروره بقرية «لامبر» التابعة له أن رجلا اسمه « راميردوس » يبشر بتعاليم مخالفة للدين المسيحى ويجمع من حوله عدداً كبيراً من المريدين والمريدات فأمر الأسقف بإحضاره للمثول أمامه فى كامبراى للتحقيق معه فى التهم المنسوبة إليه . ولكن هذا التحقيق أثبت براءته أمام جميع رجال الأكليروس الحاضرين وأن عقيدته مسألة لايرقى إليها الشك . وطلب الأسقف من «راميردوس » أن يشترك معهم فى التناول ، غير أنه رفض التناول على يدي أى من رجال الأكليروس لتورطهم جميعاً فى بيع الوظائف الكهنوتية

وشرائها فضلا عن اهتمامهم بالحياة المادية . وأثار موقفه هذا رجال الكنيسة عليه فاعتبروا أنه يستحق إنزال العقاب به واقتاد أتباع الأسقف الرجل إلى مكان وأشعلوا فيه النار بمشاعلهم حتى احترق . ويقال إن الرجل واجه الموت وهو راكع يصلى حتى أتت النيران عليه . ولم تندثر دعوة راميردوس لإصلاح الكنيسة فقد تبعها بعد موته عدد من المؤمنين بها .

الفصل الثاني

أبرز الهرطقات في أوروبا في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر

كان المهرطقون فى القرن الحادى عشر نساكا مسالمين يزهدون فى الحياة ويتشوقون إلى حياة الطهر والعفاف ويناقشون فى العادة آراءهم فى الدين واللاهوت فى دائرة محدودة من الأصدقاء والخلصاء ، فى حين أن مهرطقى القرن الثانى عشر كانوا يميلون إلى تغيير العالم وإصلاح الكنيسة بأيديهم ، فلاغرو إذا رأيناهم يجنحون إلى العنف والتمرد مثلما فعل المهرطق الفرنسى « أيون دى لتوال » الذى نظم قوة من الفلاحين لسرقة الكنائس فى بريتانى ، والمهرطق الإيطالى « أرنولد » من بريشيا الذى تحالف مع المنادين بإقامة نظام جمهورى من أجل انتزاع روما من قبضة السلطة البابوية . أما المصلح المهرطق « ترانشيلم » فكان يحيط نفسه بحرس مكون من الجنود المدججين بالسلاح حيثما ذهب .

وهكذا نرى أن الجيل الجديد من المهرطقين الغربيين يحفل بتأكيد الجانب الاجتماعى من الدين المسيحى وضرورة إجراء تغييرات جذرية بين الأكليروس ، وفى علاقة الكنيسة بالمجتمع ، ويرجع هذا التغير الذى طرأ على موقف المهرطقين من المسالمة إلى العنف إلى حقيقة مفادها أن كثيرين من الرهبان ورجال الاكليروس من ذوى المراتب الدنيا كانوا شديدى السخط على المفاسد الكنسية ويحرضون الناس العاديين من خارج الكنيسة على مقاومتها . ولا شك أن النزاع الذى كان ينشب أحياناً بين الأباطرة والبابوات أسهم فى زيادة التمرد على الكنيسة ، وبالتالى على الانشقاق عليها .

وعلى أية حال لم تكن المناقشات المحتدمة حول فساد الكنيسة وتدهور أحوالها بالأمر الجديد أو المستحدث . ففى عهد البابا « جريجورى الثانى » (٦٦٩ - ٧٣١) حدثت مناقشة علنية وصريحة

حول بيع الوظائف الكهنوتية فى الكنيسة الكاثوليكية . وهذا أيضاً واضح من حركة الباتاريا ، أو الإصلاح التى ظهرت فى ميلانو نحو عام ١٠٥٠ ثم قويت واشتد ساعدها فى أوائل القرن الثانى عشر . وقد تزعم هذه الحركة الإصلاحية الشماس « إريالد » الذى شن حملة ضارية على مفاسد الطبقة العليا من رجال الأكليروس .

وساعد هذه الحركة على الانتشار تمرد طبقة الفقراء على الطبقات الإقطاعية المتحالفة مع قيادات الكنيسة ، والتى لم تكن مباذلها تقل عن مباذل هذه القيادات الدينية . ولم تتمكن حركة الباتاريا من بسط نفوذها فى عدة مدن إيطالية فحسب ، مثل بريشيا وبياسنزا وكريمونا ، بل استطاعت استبدال رجال الكنيسة الفاسدين فى ميلانو برجال دين آخرين عينتهم بدلا منهم لما يتحلون به من فضائل وتقوى وسمعة طيبة . ولاشك أن أحد العوامل المهمة التى ساعدت حركة الباتاريا على الذيوع والانتشار هو تشجيع ومؤازرة الطبقة الدنيا من الرهبان والقساوسة لها . وقد امتدت هذه الحركة لتضم إليها عدداً كبيراً من الناس العاديين من خارج سلك الكهنوت ، مثل الأخوين « لاندولف » اللذين كانا يحرضان أتباعهما على الهجوم على بيوت الفاسدين من رجال الكنيسة ونهب محتوياتها فضلا عن مقاطعة الكنائس التى يمارس فيها القساوسة الفاسدون شعائرهم وطقوسهم الدينية . ورغم أن أحد هذين الأخوين لم تكن له أية صفة كهنوتية فإنه لم يجد أى غضاضة فى مباشرة المهام الكهنوتية من تلقاء نفسه ودون إذن أو تصريح من السلطات الكنسية . وفى نهاية حياته فعل الأخ الآخر واسمه « إرلمبالد » الشيء نفسه فقد أصدر قراراً ينص على عدم أهلية الفاسدين من رجال الكهنوت للقيام بإجراءات المعمودية ، ومن ثم قام بعزلهم واستبدالهم بقساوسة اختارهم من بين أتباعه من الطائفة الباتارية . فلاغرو إذا رأينا الأخوين يتبادلان مع الكنيسة الكاثوليكية تهم الهرطقة والمروق . ولاغرو أيضاً إذا رأينا الهرطقة فى القرن الثانى عشر تختلط بالدعوة إلى الإصلاح .

ومما ساعد على انتشار ظاهرة الهرطقة فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر تلك الحروب الصليبية التى شنتها الكنيسة الكاثوليكية على بلاد الشرق . فقد أدت هذه الحروب إلى احتكاك الصليبيين احتكاكاً مباشراً ببعض هرطقات الشرق بوجه خاص هرطقة البوجميليين التى انتشرت فى بلاد البلقان والقسطنطينية وآسيا الصغرى . وأمام طوفان الهرطقات التى أخذت تكتسح المجتمعات الأوربية وقفت الكنيسة الكاثوليكية مترددة وحائرة وعاجزة عن دفعه أو التصدى له . وكانت هذه الهرطقات فى بادىء الأمر تتسم بالعفوية وظلت تحتفظ بعفويتها حتى ظهور هرطقة الكاثارى فى نهاية القرن الثانى عشر ، فقد تميزت هذه الهرطقة عن أسلافها بدقة التنظيم . وترتبط هذه الهرطقة العفوية بظاهرة شيوع الواعظ المتجول آنذاك فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية لاتمانع فى أن يقوم بعض الأفراد المتحمسين والغيورين على دينهم من غير رجال الأكليروس بالتجوال من مكان إلى مكان للتبشير بكلمة الله . ولا شك أنها مفارقة تنطوى على السخرية أن تصبح كلمات الوعاظ

المتجولين العباءة التى يخرج منها كثير من الهرطقات .صحيح أن الكنيسة فى بعض الأحيان أعطت تصريحاً لبعض الأفراد أن يتجولوا مبشرين بكلمة الله . وصحيح أيضاً أن وعظهم كان فى العادة لا يتعارض مع مبادىء الكنيسة . ولكن تركيز هؤلاء الوعاظ على ضرورة إصلاح الكنيسة أحرج صدرها وخاصة لأن جماهير الشعب التفت حولهم وآثرت الاستماع إليهم وانصرفت عن القساوسة الرسميين ، فلاغرو فقد كانت نغمة الوعاظ المتجولين تريحهم وتدخل السلوى والعزاء إلى قلوبهم المكدودة . فهم يشنون هجوماً ضارياً لا هوادة فيه على مباذل القيادات الدينية ومفاسدها مثل الاتجار فى الوظائف الكهنوتية والجرى وراء جمع الثروات والاستغراق فى الشهوات والملذات الحسية .

وليس من شك أن الفقراء المطحونين وجدوا فى مثل هذا الهجوم متنفساً للإحباط الذى كابدوه وهم يرون حياة العربدة والسفه التى عاشتها الطبقة العليا من الأكليروس ناهيك بسفه النبلاء وعربدتهم . لهذا كان من الطبيعى أن يلتف عامة الناس حول الواعظ المتجول المعروف بورعه وتقواه ونسكه وتقشفه . كما كان من الطبيعى أن يسبب هذا النقد اللاذع للسلطة الكنسية إزعاجاً شديداً لها ، الأمر الذى اضطرها فى نهاية الأمر إلى ممارسة الضغوط على الوعاظ المتجولين كى ينبذوا تجوالهم ويستقروا فى أماكن محددة . وهكذا انتهى الأمر بكثير من هؤلاء الوعاظ إلى الانسحاب من الحياة والانخراط فى الرهبنة داخل أسوار الأديرة . وقد بلغ الأمر ببعضهم إلى الالتجاء إلى الغابات يتعبدون فيها بعيداً عن صخب العالم وآثامه . وكانت صورة الواعظ المتجول فى أذهان الناس صورة رجل زاهد يؤثر الفقر ويرتدى الأسمال البالية ويسير حافى القدمين ويستخدم الحمار فى انتقاله من مكان إلى مكان ، مصراً على أن يحيا حياة الرسل البسيطة الطاهرة النقية . وراقت هذه الصورة الصوفية لعامة الناس فاستقبلوها بقلوب منشرحة مطمئنة . ولفرط إعجابهم بها لم يعودوا ينتبهون أو حتى يهتمون إذا كان كلام الواعظ المتجول يتمشى مع صحيح الدين أم لا .

وفيما يلى أبرز الهرطقات التى ظهرت فى أوروبا فى القرن الثانى عشر .

١) هرطقة ترانشيلم :

« ترانشليم » مهرطق من أصل هولندى يطلق عليه أحياناً اسم «تاندم » . ورغم أنه علمانى أصلا فهو يفوق كثيراً من رجال الدين فى بلاغته وطلاقة لسانه . ويعرف العالم حكاية هذا المهرطق عن طريق أعدائه وخاصة قساوسة « أو لتخريت » . ويرسم هؤلاء القساوسة صورة هذا المهرطق كرجل ديماجوجى فاسق يدعى لنفسه الألوهية والقدسية ويحرض الشعب على كراهية الكنيسة ويرتدى أفخر الثياب الموشاة بماء الذهب ويمشى فيها مختالا عاقداً خصلات شعره المجدول بالأشرطة . واستطاع هذا الرجل بجاذبيته وولائمه أن يحيط نفسه بحرس من أتباعه المدججين بالسلاح يبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل . ويقول عنه شانئوه إنه كان يغتصب العذارى والفتيات فى حضرة

آبائهن وأمهاتهن والزوجات فى وجود أزواجهن مدعياً أنه يمارس الطقوس الدينية والممارسات الروحية . وكان لايتورع عن قتل من يجرؤ على معارضتة والفتك به . وبالرغم من أن أحد القساوسة تمكن من قتله فى قارب ، بأن ضربه ضربة قاتلة على أم رأسه ، فقد ظلت تعاليمه مستمرة بعد وفاته الأمر الذى حدا الكنيسة أن تكلف كاهناً اسمه « نوربرت » بالتصدى لها ومحاربتها وهو ما نجح فيه بعد لأى شديد . غير أن بعض الدارسين المحدثين يصورون « ترانشيلم» على أنه ناسك وواعظ متجول لعب دوراً نشيطاً فى أوائل القرن الثانى فى مساندة وتأييد دعوة البابا « جريجورى السابع » (١٠٧٣ - ١٠٨٥) إلى إصلاح الكنيسة . ويذكر المؤرخون أن « ترانشيلم » سافر نحو عام ١١١٢ ، إلى روما من أجل إدماج بعض مهام أسقفية « أولتخريت » فى عمل أسقفية « ثيروان » التابعة لفرنسا ، ويذهبون إلى أنه من الجائز أن هذا أوغر صدور قساوسة « أولتخريت » ضده فألصقوا به تهمة الهرطقة . وعلى أية حال فقد سطر قساوسة أولتخريت رسالة إلى فريدريك رئيس أساقفة كولونى (١١٠٠ - ١١٣١) يشكرونه فيها على الدور الذى لعبه فى وضع هذا المهرطق عدو المسيح عند حده . وجاء فى هذه الرسالة أن ترانشليم يستغل الداعرات والمومسات اللائى يتمتع بأجسادهن فى نشر هرطقاته والدعاية لنفسه حتى استفحل خطره وصار يسير فى الناس مزهواً بنفسه تحيط به حاشية من الحراس ترفع الأعلام وتلوح بالسيوف . فضلا عن أنه يخاطب الشعب وكأنه إمبراطور أو ملك متوج ، وذكر قساوسة « أو لتخريت » أن هذا المهرطق يرفض قداديس ومناولات بعض الكهنة بحجة أنهم يفتقرون إلى الطهر والعفاف . فضلا عن أنه حرض الشعب على الامتناع عن دفع العشور لقساوسة الكنيسة . والأدهى من هذا أن هذا المهرطق يضع نفسه فى مرتبة المسيح ، ويقول إن الروح القدس التى حلت فى المسيح حلت فيه أيضاً . وهو يجد من البسطاء من يعبدونه لدرجة أنه يوزع عليهم الماء الذى يستحم به ليتباركوا به ويشربونه باعتباره ماء مقدساً يشفى كلا من الجسد والروح من العلل والأمراض . ويضيف قساوسة « أولتخريت » أن هذا المهرطق بلغ من القحة حدا جعله يأمر أتباعه بحمل تمثال للسيدة مريم العذراء وسط حشد من الناس ، ثم يمد يده ليلمس جسدها ، وهو يتلو كلمات العرس ويتفوه بألفاظ الزفاف التقليدية ، وكأنه يصير بذلك بعلا لها . ويجمع ترانشليم الشعب من حوله ليقول لهم : « انظروا يا أحبائى الأعزاء . لقد أتممت خطبتى على السيدة العذراء فهل تقومون أنتم بإعداد مائدة العرس وتتكفلون نفقات الزواج . ثم يضع صندوقين أحدهما عن يمين التمثال ، والآخر عن شماله ، وهو يقول للجمع « دع الرجال يضعوا هداياهم فى هذا الصندوق والنساء فى الصندوق الآخر ولسوف نرى أياًمن الجنسين يحبنى ويحب عروسى أكثر من الآخر » . فيندفع الشعب نحو الصندوقين كى يملأهما بالعطايا والهدايا وتخلع النساء أقراطهن الثمينة وقلائدهن النفيسة ويضعنها فى الصندوق الخاص بهن فيقوم ترانشيلم بجمعها .

وأيضاً تم القبض على مهرطق من أتباع « ترانشليم » اسمه « مانسيس » يعمل حداداً ولا يقل عن أستاذه سوءاً . فقد حذا حذوه وأسس جماعة تتكون من اثنى عشر عضواً على غرار تلاميذ المسيح

وحوارييه الاثنى عشر . وضم إلى هذه الجماعة امرأة ساقطة اعتبرها بمثابة مريم العذراء كان جميع الأعضاء يمارسون الجنس معها بهدف تأكيد روح الأخوة التى تربط بينهم .

وكذلك هجر أحد القساوسة واسمه « إيفرواتشر » وظيفته الكهنوتية ليتبع المهرطق ترانشليم ويغتصب العشور المستحقة فى كنيسة القديس بطرس ويقوم بطرد قسيسها من مذبحها تحت تهديد السلاح بل وخارج الكنيسة نفسها . ويعبر قساوسة أولتخريت عن غبطتهم لإلقاء القبض عليه . ويختتم الشاكون من رجال الأكليروس إلى كبير الأساقفة بمطالبتهم بضرورة توقيع أقصى عقوبة على المهرطق ترانشيلم وعلى أعوانه وأتباعه من المقبوض عليهم وإلا كانت العاقبة وخيمة على الشعب كله . ويستشهدون بآراء القديس أوغسطين المنادية بضرورة مطالبة الحكام المدنيين من الأمراء باستئصال شأفة هذا الداء من جذوره حتى لا يستشرى كالسرطان فى جسد الأمة المسيحية .

٢) الهرطقة المانية في مدينة سواسون الفرنسية :

يروى لنا قصة هذه الهرطقة المانية التى انتشرت فى منطقة بوفيه بفرنسا راهب اسمه « جوبرت » وقد نظر فى أمر هذه الهرطقة مجمع سواسون الذى انعقد فى يناير ١١١٥ .

وفيما يلى قصة هذه الهرطقة :

فى نحو عام ١١١٤ عاش كونت شرير اسمه « كليمنت » مع أخ له يدعى « إيفرار » فى ضيعة سواسون بالريف الفرنسى . وادعى هذا الكونت السيىء أنه ليس هناك من يفوقه فى الحكمة . وكان هذا الكونت يتزعم طائفة من الهراطقة ترى أن ما قام به المسيح ليس إلا وهماً ، وأنه من الخطأ تعميد الأطفال غير الناضجين سواء أكان الذى يقوم بتعميدهم رجل صالح أو رجل طالح ؛ ومن ثم فإنهم استحدثوا طقوسا للتعميد خاصة بهم ، وكان هؤلاء المهرطقون يمقتون الأسرار التى يقوم بها القساوسة والكهنة على مذبح الهيكل . ومع ذلك فقد دأبوا على إنكار هرطقتهم وإخفائها تحت ستار الإيمان بمبادىء الكنيسة الكاثوليكية كافة .

وزيادة فى الخداع والتمويه كانوا يقدمون على التناول ليس باعتباره سراً من الأسرار المقدسة بل مجرد طعام عادى يكتفون به طوال اليوم . وهم لا يرفضون الزواج فحسب بل أى طعام ناتج من ذكر وأنثى . ورغم إعراضهم عن الزواج فقد كانوا يمارسون شعائر موغلة فى الفسق والدعارة . ففى اجتماعاتهم التى يعقدونها سراً فى القباء وتحت الأرض كان رجالهم ونساؤهم يجتمعون فى مكان واحد . وحين تضاء الشموع تقوم النسوة الموجودات بتعرية أردافهن للرجال المجتمعين خلفهم . وبمجرد إطفاء الشموع يصرخن جميعاً فى صوت واحد « الفوضى » . ثم تضاجع كل امرأة أقرب رجل موجود بجوارها فإذا انتهت هذه المضاجعة بإنجاب طفل كانوا يأتون به إلى المكان نفسه حيث يوقدون نارا يتحلقون حولها ثم يتقاذفون الطفل فوق ألسنة اللهب وتظل أياديهم تتلقفه حتى يلفظ أنفاسه وبعد موته يقومون بإحراقه ويصنعون من رماده أرغفة خبز يعطون لكل واحد منهم قطعة

كدليل الولاء الكامل للجماعة والالتزام التام بتعاليمها . ويقول الراهب « جيبرت » استنادا إلى رأى القديس أوغسطين إن هذه الهرطقة أقرب ماتكون إلى الهرطقة المانية .

وقد قام « ليسيارد » أسقف سواسون باستدعاء كليمنت زعيم الجماعة وأخيه فأنكرا تهمة الهرطقة ولكنهما اعترفا بعقد اجتماعاتهما خارج نطاق الكنيسة .وتظاهر هؤلاء الهراطقة بولائهم الكامل لجميع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية . فآثر الأسقف أن يطبق عليهم حد الماء أى أن يحاكمهم بامتحانهم عن طريق توثيقهم ثم إلقائهم فى فنطاس الماء . وجاء رئيس الشمامسة بكليمنت موثوقا وألقى به فى فنطاس الماء فطفا جسده على السطح (دلالة على براءته) فتهللت الكنيسة كلها وسادتها الفرحة الغامرة . ولكن الهراطقة الآخرين كانوا أكثر سوءا فى حظوظهم فقد انغمست أجسادهم فى الماء ، الأمر الذى أثبت عليهم تهمة الهرطقة . وأودع الهراطقة فى السجن فى انتظار استشارة الأساقفة فى « بوفيه » فى أمرهم . غير أن الشعب الذى تجمع خشى أن يعامل الأساقفة هؤلاء المهرطقين بتساهل ورأفة فاقتحموا أبواب السجن وجروا نزلاءه خارج المدينة حيث قاموا بإحراقهم .

٣) الهرطقة فى أيفوري بالقرب من ترايرر بفرنسا :

يرجع تاريخ الهرطقة بالقرب من أسقفية ترايرر بفرنسا إلى الفترة بين عامى ١١١٢ ، و ١١٢٢ تقريبا . وهى هرطقة قريبة الشبه بهرطقة ترانشيلم من حيث إنها تنكر تحول الخبز والخمر فى التناول إلى جسد ودم المسيح كما أنها تنكر جدوى معمودية الأطفال فى تطهيرهم من الذنوب : وتصدى الأسقف برونو لهذه الهرطقة باستدعاء أربعة من القائمين بها للمثول أمامه ، أحدهم يدعى « فردريك » والآخر يدعى « دومنيك وليام » إلى جانب رجلين علمانيين من خارج الكنيسة هما «دايراند» وأماليك . وقد تمكن هذا الأخير من الهرب أثناء قيام الأسقف برونو بالتحقيق مع زملائه المهرطقين الثلاثة الآخرين . واعترف ديراند بذنبه وأعلن توبته . غير أن القسيس فردريك أبى أن يتراجع عن هرطقته ، الأمر الذى جعل الأسقف برونو ينحى عليه باللائمة فقد كان خليقا به وهو رجل دين أن يهدى الناس إلى سواء السبيل ، لا أن يقودهم إلى الزلل والضلال . وعبثا ساق الأسقف « برونو » آراء القديس أوغسطين الخاصة بقدرة المعمودية فى الطفولة على محو ذنوب الإنسان التى ورثها عن آدم وحواء ، فقد ظل القسيس فردريك سادرا فى غيه وضلاله .

ولهذا لم تجد الكنيسة مندوحة عن إدانته والحكم عليه بأنه مستوجب العقاب .

أما القسيس الآخر دومنيك وليام فقد تراجع عن هرطقته وأذعن للكنيسة كى تضعه تحت الاختبار كما تشاء . وحتى تتأكد الكنيسة من صدق توبته أقام القساوسة قداسا وطلبوا إليه الاشتراك فى التناول . ولكنهم اكتشفوا زيف توبته وأنه يتظاهر بها حتى يتخلص من محنته ويتم إخلاء سبيله . وبمجرد إطلاق سراحه طفق يهرطق من جديد على نحو أشد سوءا عن ذى قبل فضلا عن انغماسه فى ممارسة الزنا ، الأمر الذى انتهى بموته أشنع ميتة .

٤) المهرطق هنرى من مدينة لى مان :

يعد المهرطق « هنرى » وشريكه لبعض الوقت « بطرس » من أبرز المهرطقين فى القرن الثانى عشر ويعرف المهرطق هنرى بالآتى من « لى مان » أحيانا ، والآتى من « لوزان » أحيانا أخرى .أما المهرطق- بطرس فكنيته الآتى من « برايز » . وفى بلدة « لى مان » الفرنسية استطاع المهرطق هنرى أن يحظى بشعبيه كبيرة بين رجال الأكليروس . ويعجز المؤرخون عن معرفة هرطقة هنرى على وجه التحديد . ولكن الشىء المؤكد أنه أوغرصدور رجال الكنيسة بشدة هجومه عليهم . ويقال إنه عاش حياة ملؤها الفسق والمجون . ويذهب الباحثون المحدثون إلى أن هنرى الذى لعب دورا بارزا فى تحريض الناس ضد الكنيسة مهد الطريق لانتشار « الهرطقة الكاثارية » و « الهرطقة الوالدية » وهما من أهم الهرطقات التى سوف نعرض لها بالدراسة والتحليل فيما بعد ، ويصوره مؤرخ من رجال الدين على أنه رغم صغره صاحب صوت يبعث على المهابة والاحترام . وهو طويل القامة أشعث الشعر يسير على الأرض حافى القدمين ويؤثر فى الناس بطلاقة لسانه . . وكان يتظاهر بأنه يحيا حياة ملؤها الزهد والتقشف لدرجة أن النساء والمراهقين والمراهقات اعتبروه رمزا للحكمة والقداسة يجثون عند قدميه ويقبلونهما ويربتون على جسده بكل رقة وحنان .

يقول الرواة إن الأسقف « هيلدبرت » فى مدينة « لى مان » كان ضحية هذا المهرطق وخداعه . فقد أرسل إليه هنرى اثنين من أتباعه ليمهدا الطريق للالتقاء به . واستقبلهما الأسقف الطيب القلب بحفاوة بالغة وأكرم وفادتهما دون أن يتطرق إليه أدنى شك فى إخلاصهما وصدق نوايا الذى أرسلهما . ورحب « هيلدبرت » بمقدم « هنرى » ولأنه كان يتأهب آنذاك للسفر إلى روما فقد أصدر تعليماته لأعوانه ومساعديه فى الكنيسة أن يحسنوا استقبال الضيف القادم إلى أسقفيتهم ويقدموا إليه التسهيلات كافة حتى يتمكن من الالتقاء بالناس وإلقاء المواعظ عليهم . والغريب أن بعض رجال الأكليروس يؤازرهم جماهير الشعب التفوا حول المهرطق هنرى وأعدو اله منصة ليلقى منها خطابا ينضح بكراهية رجال الدين والزراية بهم .واستطاع المهرطق هنرى ببلاغته أن يلعب بقلوب المستمعين إليه لدرجة أنهم قاطعوا أتباع الأكليروس وخدامهم ورفضوا الاتصال بهم أو التعامل معهم وامتنعوا عن بيع أى شىء لهم أو شراء أى شىء منهم . كما أنهم هددوا بتعذيبهم والضرب على أيديهم باعتبارهم عشارين ووثنيين . وأيضاً هددوا بتدمير منازلهم والسطو على ممتلكاتهم ورجمهم وتعليق المشانق لهم . وكاد هؤلاء الطغمة أن يفتكوا بهم بالفعل لولا أن حاكم المدينة – وهو كونت – تدخل لحماية الأكليروس وأتباعهم من براثنهم .

واقترح بعض الأكليروس فى المدينة وعلى رأسهم الكاهن « وليم درنك نوواتر » الذى تحالف مع الوثنى « أولدريك » مناقشة المهرطق هنرى فى أفكاره بدلا من التصدى له . ومن جانبها تصدت الجماهير الهائجة للمعارضين لهذا المهرطق وقامت بمهاجمتهم وإلقاء الطين والقاذورات عليهم ، الأمر الذى اضطر أعوان الكونت إلى الهرب بجلدهم . ولولا أن الكونت الذى يحكم المدينة تدخل

لحمايتهم من براثن الجماهير الغاضبة لتمكنت هذه الجماهير من القضاء عليهم . وآلى الكونت على نفسه أن يسعى ما وسعه السعى للدفاع عن طبقة الأكليروس التى استطاع المهرطق هنرى أن يؤلب الجماهير ضدها . ولم يجرؤ رجال الأكليروس أنفسهم على إجراء اتصال مباشر مع المهرطق فسطروا رسالة عبرت عن موقفهم منه وعما يجيش فى صدورهم نحوه . يقول رجال الأكليروس فى رسالتهم مخاطبين المهرطق هنرى إنهم استقبلوه ورفاقه بكل الود والحب باعتبارهم رسل هداية وسلام . ولكن على العكس من ذلك اتضح أنهم ذئاب كاسرة على هيئة حملان وديعة كل هدفهم أن يبذروا بذور الشقاق بين الكنيسة والشعب ، ولهذا نراهم يطلبون من المهرطق هنرى وأتباعه باسم الثالوث المقدس والكنيسة ومريم العذراء والقديس بطرس وأيضاً باسم البابا « باسشال الثانى » (١٠٩٩) وباسم « هيلدبرت » أسقف «لى مان » أن يمتنعوا عن إلقاء خطبهم ومواعظهم فى شعب أسقفية لى مان فى السر والعلن والإاضطرت السلطات الكنسية إلى حرمانهم من الكنيسة . وعندما تقدم رجال الكنيسة برسالتهم إلى هنرى رفض هذا المهرطق أن يتسلمها فاضطر أحدهم واسمه «وليام موسكا » إلى تلاوتها على مسامعه فقرة فقرة .فثارت ثائرة الجماهير وهددت «وليام موسكا » بالاعتداء لأنه يهين مثلهم الأعلى ويطعنه فى كرامته ويحط من شأنه أمام الملأ . وأنكر هنرى الاتهامات الموجهة إليه ووصفها بأنها كذب ومحض افتراء . ومن المؤكد أنه لولا وجود رسول الكونت بينهم لحدث مالا يحمد عقباه ولحق « بوليام موسكا » مكروه .

وأمام هذه الضغوط اضطر المهرطق إلى مغادرة « لى مان » ولكنه لم يرعو بل ظل يعقد الاجتماعات وينشر الهرطقات فى منطقتى سانت جيرمان وسانت فنسنت بباريس حيث أخذ يبشر بمذهب جديد مفاده أن تقوم النساء الزانيات وهن عرايا بحرق ملابسهن وشعرهن على مرأى من جميع الناس . فضلا عن أنه حرم على الزوجات أن يقدمن أية دوطة لأزواجهن . وذهب هنرى إلى أن الزواج ينبغى أن يقوم على رضاء الطرفين وأن الطقوس الدينية التى يقوم بها رجال الكنيسة لإتمام العقد شىء لا معنى له وينبغى الاستغناء عنه . ويقال إن هذا المهرطق كان يتفحص أجساد النساء العرايا ويثنى على المفاتن الخاصة بكل جسد . ومن فرط إعجاب الناس به كانوا يعطونه الغالى والنفيس فينفق القليل منه على شراء ملابس للزيجات التى تتم عن طريقه ويحتفظ بالباقى لنفسه . وهى زيجات انتهت جميعها بالفشل . فقد اكتشف غالبية الرجال خيانة زوجاتهم لهم فهام كثيرون منهم على وجوههم واستقروا فى بلاد الغربة حيث ارتبطوا بعلاقات جنسية جديدة وهو الشىء نفسه الذى فعلته زوجاتهم الأصليات عندما وجدن أنفسهن بلا عائل أو مأوى .

قلنا إن هنرى لم يقصر هرطقته على لى مان . فعندما شعر بقرب عودة أسقفها «هيلدبرت » الذى رحب به وأكرم وفادته آثر الابتعاد عن أسقفيته ليمارس دعاراته وبذاءته فى قرية سانت كاليه . وتنكر هذا المهرطق لأفضال الأسقف « هيلدبرت » عليه فما إن عاد هيلدبرت إلى أسقفيته يتبعه رهط كبير من القساوسة وأخذ يبارك شعبه ويصلى من أجله حتى اكتشف سخط هذا الشعب ضده وتمرده

عليه . ولاغرو فقد نجح المهرطق فى شحن عواطفهم ضده أثناء غيابه عن أسقفيته . ورفض الشعب فى لى مان أن يقبل من أسقفه الصلوات والبركات وصاحوا فى وجهه : « نحن لا نريد أن نعرف طرقك كما أننا لا نريد أيا من بركاتك ، نحن نبارك القذارة ونقدسها ولنا أب ورئيس دينى يدافع عنا ويفوقك فى السلطان ويبزك فى الحجى والمعرفة ، إن قساوستك الأشرار يعارضونه وينكرون تعاليمه ويرفضونه بحجة أنه مهرطق لأنهم فى حقيقة الأمر يخشون افتضاح جرائمهم بسبب نفاذ بصيرته وقدرته على كشف المستور . ولهذا فهم يرمونه بالهرطقة والعربدة . ولكن الويل لشانئيه فسوف ترتد خناجر الحقد إلى نحورهم لأنهم يتجرأون بشكل لا يتصوره العقل ويمنعون رجل الله المقدس بالتبشير بما تلهمه به السماء .

ورغم هذا السيل المنهمر من المقذعات فقد تحلى الأسقف هيلدبرت بالصبر وتحمل هذه الإهانات الموجهة إليه وهو يصلى من أجل الغوغاء الذين يتطاولون عليه حتى لا تتعرض الكنيسة للشقاق . وحدث فى ذلك الوقت أن شب حريق هائل مفاجىء فى ضواحى المدينة دمر كل شىء ولم يبق أو يذر وكأنه علامة من السماء أن هرطقة هذا الشعب وضلالته جاوزت كل حدود . وبعد لأى شديد استطاع الأسقف أن يفضح جهالة هذا المهرطق أمام الناس . ويجعل منه أضحوكة ومضغة الأفواه . فقد سأله الأسقف على أى أساس يمتهن مهنة الواعظ فلم يفهم المهرطق السؤال . وعاد الأسقف إلى سؤاله عن رتبته الكنسية فأجاب أنه شماس . عندئذ سأله الأسقف إذا كان قد حضر قداس اليوم فأجابه المهرطق بالنفى وهنا انتهز الأسقف هذه الفرصة لفضح جهل هذا الدعى المطبق بكل طقوس الكنيسة بأن بدأ فى إنشاد هذه الطقوس طالباً من هنرى أن يشاركه الإنشاد فاضطر هذا المهرطق إلى الاعتراف بأنه يجهل نظام القداس وترتيب الصلوات الخاصة به .

وتعمد الأسقف إظهار جهله الفاضح أكثر فأكثر بأن بدأ وحده فى إنشاد الترانيم الخاصة بمريم العذراء . وهى ترانيم لم يعرف المهرطق مجرد كلماتها . ولما وجد هنرى نفسه محاصراً من كل جانب لم يعترف بجهله فحسب بل بقدرته على التأثير فى الناس عن طريق طلاقة لسانه وحدها . وعندما تبين للأسقف افتضاح أمره أمام الجميع أمره بمغادرة أسقفيته ، فذهب إلى مناطق أخرى يزاول فيها هرطقته وفساده . ورغم جهوده المضنية فقد وجد الأسقف صعوبة بالغة فى إقناع الشعب بفساد هذا المهرطق لدرجة أن بعض الناس ظلوا رغم مرور الوقت يحتفظون بذكراه عاطرة .

وفى نحو عام ١١٣٥ كتب بعض المؤرخين يقولون إن السلطات الكنسية ألقت القبض على المهرطق هنرى وقدمته للمحاكمة أمام البابا أنسونت الثانى فى مجمع بيزا الذى اتهمه بالهرطقة وزج به فى السجن . ولكن هذا لم يمنعه من بث سمومه بمجرد اطلاق سراحه . وقد عثر الباحثون المحدثون على مخطوطات يرجع تاريخها إلى الفترة بين عامى ١١٢٣ و ١١٣٥ تصور أهم ملامح هرطقة هنرى . والجدير بالذكر أن إبروين المسئول عن دير ستانيفلد أرسل نحو عام ١١٤٣ إلى برنارد كليرفو رسالة شكا فيها من انتشار الهرطقة فى مدينة كولونى بفرنسا وطلب إليه أن يشير

عليهم بالرأى ويتدخل لوضع حد لهذه الهرطقة . وتتضمن رسالة أبروين إشارة إلى انتشار نوعين من أنواع الهرطقة فى كولونى أولاهما أقرب ما تكون إلى الهرطقة الكاثارية التى سوف نتناولها بالتفصيل فيما بعد ، والثانية تنطوى على ازدراء رجال الاكليروس والحط من شأنهم . وتلقى رسالة إبروين الضوء على أهم المعالم التى اتسمت بها هرطقة كولونى . ويذكر إبروين أن الكنيسة استطاعت أن تعيد بعض هراطقة كولونى إلى حظيرة الإيمان الحقيقى . ولكن اثنين من غلاة الهراطقة ظلا سادرين فى غيهما ورفضا التراجع عن موقفهما الأمر الذى جعل مراجل الغضب تغلى فى عروق الجماهير التى ألقت بهما فى النيران . والغريب أنهما تحملا شواظ اللهب بنفس راضية وقلب مطمئن يندر أن نجد له نظيراً فى أشد الناس إيمانا بالمسيحية واستمساكاً بمبادئها . ويفاخر مهرطقو كولونى بأنهم لايملكون من حطام الدنيا شيئاً وأنهم يعيشون على باب الله على عكس رجال الأكليروس الذين يتكالبون على متاع الدنيا . ويمكننا أن نلخص أهم ملامح هرطقة هنرى فيما يلى :

١ - أنها ترفض الخطيئة الأولى وترى من الظلم أن يرث الأبناء ذنوب الآباء .

٢ - أنها تنكر جدوى التناول بسبب فساد الأكليروس الذين يمارسونه .

٣ - أنها تنادى بأن الموافقة وحدها هى شرط زواج الرجل بالمرأة وهى تنكر جدوى الطقوس الكنسية لإتمامه .

٤ - أنها تنكر اعتراف المسيحى الخاطىء أمام أب الاعتراف أو توبته أمام القسيس .

٥ - أنها تنكر أن للصيام والصلوات والأعمال الصالحة والابتهالات للقديسين أى جدوى فى الشفاعة للموتى لأن مصير الموتى وحكم الله النهائى عليهم يتحدد بمجرد موتهم .

٦ - أنها تنادى بأنه لاينبغى بناء الكنائس من الخشب أو الحجارة .

٧ - أنها تنادى بتجريد رجال الدين من ممتلكاتهم وثرواتهم .

ويعتبر القديس واللاهوتى برنارد رئيس دير كليرفو بمنطقة شامبانى فى فرنسا من أبرز رجال الدين الذين تصدوا لهرطقة هنرى . ولكليرفو سوابق للتصدى للهرطقة فقد سبق أن وقف بالمرصاد لتعاليم رجل الدين المهرطق أبيلارد (١٠٧٩ - ١١٤٢) وأيضاً لتعاليم المهرطق ارنولد من بريسكيا - تلميذ أبيلارد - حتى نجح فى استصدار أمر بطرده من الأراضى الفرنسية . وفى حملته ضد هنرى أرسل برنارد كليرفو نحو عام ١١٤٥ خطاباً إلى حاكم مدينة تولوز الكونت الفرنسى جوردان (١١١٢ - ١١٤٨) ينبه فيه إلى الخطر الذى يهدد مدينته نتيجة السماح للمهرطق هنرى بالوعظ فيها ، ويخبر برنارد حاكم المدينة بعزمه وبعض رفاقه الأساقفة مثل الأسقف أستيا على زيارة مدينة تولوز بهدف استئصال شأفة الفساد الذى ينشره هذا المهرطق . ويذكر جوفرى سكرتير برنارد كليرفو شيئاً عن هذه الزيارة نعرف من ثناياه أن تعاليم المهرطق هنرى تحرم على المسيحيين الحج إلى الأراضى المقدسة وبناء الكنائس وطلب شفاعة القديسين . وقد أصابت زيارة برنارد إلى تولوز نجاحاً عظيماً

فقد نجح هذا الحبر فى هداية كثيرين وتبديد الأفكار الملوثة والفاسدة التى غرسها المهرطق هنرى فى قلوب وعقول سكان تولوز .

٥) هرطقة كولوني بألمانيا :

وقد انتشرت فى كولونى هرطقة تحرم شرب الألبان وأكل منتجاتها وأى ناتج عن الذكور والإناث . وتؤمن هرطقة كولونى بعدم جدوى تعميد الإنسان فى طفولته لأنه غير راشد ولا يدرك معنى هذا الطقس أو أهميته . فضلا عن أنها تنكر التعميد بالماء وتدعو إلى التعميد بالماء والنار مثلما جاء على لسان يوحنا المعمدان . ويستشهد هراطقة كولونى على ذلك بشهادة لوقا من أعمال الرسل التى لا تشير بالمرة إلى تعميد بولس الرسول بالماء بل بوضع الأيدى . وطبقاً لهرطقة كولونى فإن وضع اليد على المهرطق يؤهله للارتقاء من مرتبة السامع إلى مرتبة المؤمن ليرقى بعد ذلك إلى مرتبة المختار . وتنكر هرطقة كولونى شفاعة القديسين ونيران المطهر فى الحياة الأخرى فالميت فور وفاته إما أن يذهب إلى الفردوس أو إلى الجحيم . وتفوح هرطقة كولونى برائحة الكاثارية . كما أن وشائج القربى تربطها بهرطقة هنرى . وقد انتشرت هرطقة كولونى فى أماكن عديدة وشملت بعض الرهبان ورجال الأكليروس . ويجدر بالذكر أن برنارد كليرفو استجاب لخطاب أرسله إليه الراهب إروين ستيانفلد طالبا منه أن يتصدى للهرطقة بوجه عام وهرطقة كولونى بوجه خاص . ففى عام ١١٤٤ سطر برنارد كليرفو واحدة من مواعظه التى تبرز خطر المهرطقين الذين يخفون هرطقتهم ويتظاهرون بالامتثال لأوامر الدين المسيحى ونواهيه والحرص على الذهاب إلى الكنيسة واحترام القساوسة والاعتراف وتقديم النذور والمشاركة فى القداديس والتناول ، فى حين أنهم يبطنون المقت والعداوة لها . ويفضح برنارد كليرفو ادعاء هؤلاء الهراطقة العفاف والطهارة الجنسية فهم يفاخرون بأنهم يعيشون مع النساء تحت سقف واحد دون أن يسقطوا فى شهوات الجنس . ويقول برنارد كليرفو فى هذا الشأن إنه عندما سأل مهرطقاً عن قرابته بالمرأة التى يعيش معها اتضح من كلام هذا المهرطق أن المرأة ليست زوجته أو ابنته أو أخته أو ابنة خالته أو عمته بل هى غريبة عنه تماماً . ولا يعقل كليرفوأن يعيش ذكر مع أنثى غريبة عنه دون أن يحدث بينهما ما لاتحمد عقباه . والرأي عنده أن الإنجيل يحرم مثل هذا المسلك الذى يثير الفضائح والشبهات .

٦) هرطقة بيريجيه بفرنسا :

عثر الباحثون على مخطوط يرجع تاريخه إلى نحو عام ١١٤٧ يتناول التحذيرات التى تضمنها الخطاب الذى سبق للراهب هربيرت أن أثارها . ويشكو هربيرت من انتشار الهرطقة فى منطقة بيريجيه بفرنسا حيث ينسب الهراطقة إلى أنفسهم حياة الزهد والتقشف ويتظاهرون بالاقتداء بحياة الرسل . هؤلاء الهراطقة لا يأكلون اللحوم ولا يشربون الخمر إلا بكميات ضئيلة مرة واحدة كل ثلاثة

أيام . وهم لا يعترفون بالإحسان بحجة أنه لا يحق للمحسن امتلاك ما يحسن به . وهم يصطنعون الاشتراك فى القداس لمجرد التمويه ، كما أنهم لا يقدسون الصلبان وصور المسيح . وقد نجح هراطقة بيريجيه فى اجتذاب النبلاء والقساوسة والرهبان والراهبات .

٧) هرطقة لييج بفرنسا :

وأيضاً وجه قساوسة لييج خطابا إلى بابا روما يشكون فيه إليه انتشار الهرطقة فى هذه البلدة . ونظراً لأن هذا الخطاب لايحدد اسم البابا بل يكتفى بذكر الحرف الأول من اسمه وهو (ل) فقد اختلف الباحثون حول شخصية المرسل إليه وبالتالى حول تاريخ الخطاب . فالذين يرون أن الخطاب يرجع إلى عام ١١٤٤ يميلون إلى الاعتقاد بأن الخطاب موجه إلى لوسيوس الثانى الذى تولى البابوية فى الفترة ما بين (١١٤٤ و ١١٤٥) . فى حين يرى آخرون أن الخطاب موجه إلى البابا ليو التاسع الذى تولى البابوية فى الفترة بين (١٤٠٨ و ١٠٥٤) . وأياكان تاريخ الخطاب فإنه يتضمن الشكوى من انتشار الهرطقة فى قرية مونتوايمر الفرنسية وفى كثير من البلدان المجاورة . ويخبرنا كاتب الخطاب أنه تم القبض على بعض هؤلاء الهراطقة الذين اعترفوا بجرمهم وأن الجموع الغاضبة كادت تفتك بهم وأن تلقيهم فى النار لولا رحمة الله التى شاءت أن يتدخل المسئولون لإنقاذ حياتهم فى آخر لحظة على أمل أن يهتدوا ويسيروا فى طريق الصلاح . ويلقى الخطاب الضوء على معتقدات هراطقة لييج ومنها أن المعمودية لا تمحو الخطيئة وأن التناول طقس لاجدوى منه . فضلا عن امتناعهم عن الزواج . ويذكر الخطاب أن لهذه الطائفة المهرطقة قساوستها وكهنتها وأنها تخفى هرطقتها بالتظاهر بالمشاركة فى قداديس الكنيسة وأنشطتها . ويقول كاتب الخطاب إنه وزملاءه سوف يرسلون إلى بابا روما المهرطق إمرى - وهو واحد من أبرز هراطقة لييج كى يتخذ بشأنه القرار الذى يراه مناسبا لعله يعود إلى حظيرة الإيمان الصحيح فقد وعدهم بالتوبة بعد أن أنقذوا حياته من براثن الجموع الغاضبة كما أنهم احتفظوا ببقية زملائه فى دور العبادة لحين أن ينظر البابا فى أمرهم ويبت فيه . والذى دعا المسئولين فى لييج إلى التصرف على هذا النحو خشيتهم من زيادة انتشار هرطقتهم بين الناس كما اتضح من استجوابهم .

٨) هرطقة إيودو في منطقة بريتاني بفرنسا :

كان المهرطق « إيودو »» الذى يعرف أحيانا باسم إيون دى إيتوال ، أحياناً وإيون دى ستيلا أحياناً أخرى يتزعم عصابات تهاجم الكنائس والأديرة فى منطقة بريتانى وتستولى على ما فيها . وقد استمرت اعتداءاته لفترة تقترب من ثلاث سنوات وقام المؤرخون بتسجيلها عام ١١٤٥ . واستطاع رئيس أساقفة مدينة ريمز القبض عليه عام ١١٤٨ بعد أن عجز رجال الكنيسة عن تحقيق ذلك . والعجيب أن إيودو وهو من عائلة نبيلة المحتد استطاع رغم جهله وأميته (فهو يكاد يفك الخط) أن

يجتذب نحوه حشداً غفيراً من السذج والبسطاء . ويقول مؤرخ مجهول الهوية إن لسانه لم يكن عفاً وهو يلقى مواعظه على أتباعه ومريديه رغم أنه كان يؤسسها على الكتاب المقدس . ومع أن الكنيسة لم تعينه قسيساً أو كاهناً فقد اغتصب هذه الوظيفة عنوة واقتداراً وسمحت له صفاقته أن يقيم القداديس . وزين له غروره المجنون أن يدعى أنه ابن الله . وكان أحياناً يجتمع بأتباعه وأعوانه ويحشد قواته فى أماكن نائية بعيداً عن الأنظار ثم يفاجئون الكنائس والأديرة بشن هجوم عليها .ويقال إن أحد أقاربه - وهو فارس - جاءه بمرافقة واحد من أتباعه لإقناعه بالعودة إلى أهله وذويه وإلى حظيرة الكنيسة التى انشق عنها . ولكن إيودو عرض عليه رشوة مغرية حتى يصبح واحداً من مؤيديه ويتجاهل المهمة التى جاءه من أجلها . فرفضها الفارس بكل إباء وشمم . غير أن تابعه لم يستطع أن يقاوم الإغراء . فقد طلب من المهرطق إيودو أن يعطيه صقراً فى منتهى الجمال . وعبثا حاول سيده الفارس إثناءه عن قبول هذه الهدية التى أسماها هدية الشيطان وتحذيره من مغبة قبولها . ولم يمض وقت حتى صدق ظنه فقد انقض الصقر على الرجل وأحكم قبضته على يده ثم طاربه فى الهواء ليختفى عن الأنظار إلى الأبد .

وبعد أن نجح رئيس أساقفة ريمز فى القبض على المهرطق إيودو ونفر من معاونيه جاء به أمام البابا أيوجنيوس الثالث الذى كان آنذاك فى زيارة لريمز . وعقد البابا مجمعاً فى ريمز لمحاكمة إيودو الذى كان يحمل عصا غريبة الشكل فى أعلاها شوكتان . وسأله البابا عن هويته فقال عن نفسه « أنا إيون الذى سوف يأتى فيما بعد لمحاكمة الأحياء والموتى ومحاكمة العالم بالنار .» وبعد ذلك سأله إذا كان للعصا الغريبة الشكل التى فى يده أى معنى خاص بالنسبة له فرد عليه بالإيجاب شارحاً ذلك بقوله إن توجيه العصا بشوكتيها إلى أعلى معناه أن الله لا يملك سوى ثلثى العالم وأنه تنازل عن الجزء الثالث له ، فى حين أن توجيه العصا بشوكتيها إلى أدنى معناه أن إيودو يمتلك ثلثى العالم وأنه يعطى الجزء الثالث فقط إلى الله . وهنا انفجر الجميع فى السخرية والضحك وانتهوا إلى أنهم يتعاملون مع ملتاث . وكان إيودو يخلع على أعوانه ألقاب التفخيم والتعظيم فسمى أحدهم بالحكمة والثانى بالمعرفة والثالث بالقضاء . وكان هؤلاء المأفونون يأخذون ألقابهم الرنانة مأخذ الجد لدرجة أن الرجل الذى أسماه إيودو القضاء توسم فى نفسه بالفعل القدرة على محاسبة الناس ومحاكمتهم فهدد الذين اقتادوه إلى السجن بالويل والثبور وعظائم الأمور وأمر الأرض أن تنشق وتبتلع أعداءه . ولم يكتب لهذا المهرطق الملتاث أن يعيش طويلا فقد مات بعد إيداعه السجن بوقت قصير . أما أتباعه فقد سدروا فى غيهم واستمروا فى ضلالهم وفشلت كل محاولات الكنيسة لإصلاح حالهم وهدايتهم فلما يئس رجال الأكليروس منهم أسلموهم إلى السلطة الزمنية أو العلمانية لتتعامل معهم فحكمت عليهم بالموت حرقاً .

٩) أرنولد المهرطق من مدينة بريسكيا الإيطالية :

لم يكن أرنولد بريسكيا مهرطقاً بالمعنى الصحيح بل كان فى الجوهر والأساس مصلحاً اجتماعياً يسعى إلى إشعال نار الثورة فى النظام الكنسى برمته من قمته إلى سفحه حتى يطهره مما استشرى فيه من فساد . ولم يكن فى آراء أرنولد شطط أو غلواء ولكن تطرفه فى إبداء الرأى وحماسه فى التعبير عنه هو الذى اتسم بالشطط والغلواء . فلاغرو إذا رأينا الكنيسة الرومانية تناصبه مر العداء وتتهمه بالهرطقة . والذى لا شك فيه أن أرنولد كان يمثل تهديداً مباشراً لسلطة الكنيسة الكاثوليكية وأنه ترك بصمتين واضحتين فى تاريخ الهرطقة الغربية تتجلى الأولى فى نشوء الطائفة المهرطقة المعروفة باسم الكومباردين التى تناولها الأديب والمؤرخ سالزبرى فى كتاباته . وتتجلى البصمة الثانية فى نشأة طائفة أخرى من المهرطقين تعرف بالأرنولديين فى شمال ايطاليا فى نهاية القرن الثانى عشر . ودعا هؤلاء الأرنولديون إلى إنكار التناول والقداديس التى يقوم بأدائها القساوسة الفاسدون ، وإنكار ولاية السلطة الكنسية على المسيحيين كما ذهبوا إلى عدم أحقية الأكليروس فى امتلاك الثروات والضياع وفى احتكارهم التبشير بالكتاب المقدس ونادوا بأنه يحق للعلمانيين أن يبشروا بكلمة الرب تماماً كما يفعل رجال الكنيسة .

وقد ترك جون سالزبرى المولود فى أوائل القرن الثانى عشر نبذة يرجع تاريخها إلى عام ١١٤٩ يقيم فيها أفكار أرنولد . وكذلك ترك أوتو فرايزنج رجل الدين والسياسة والمؤرخ الذى لايشق له غبار وسليل العائلة المالكة فى ألمانيا للإمبراطور فردريك الأول نبذة أخرى تحدث فيها عن شخصية أرنولد باستهجان واضح .

يقول سالزبرى إن شقاقاً حدث بين بابا روما والحكام الرومان آنذاك حاول البعض إزالة أسبابه دون أن يفلحوا فى ذلك بسبب إصرار الحكام الرومان على عدم الاستجابة إلى طلب بابا روما بطرد أرنولد الآتى مدينة بريسكيا من البلاد . ويبدو أنهم أعرضوا عن طلب البابا لأن أرنولد كان حليفاً يؤازرهم فى صراعهم ضد البابا وأنه أقسم على الدفاع باستماتة عن الجمهورية الرومانية . وقد تجاهل الحكام الرومان القرار الذى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية بحرمان أرنولد من الكنيسة .

كان أرنولد قسيساً زاهدا فى الحياة دائم الصيام والصلاة يرتدى الملابس الخشنة بليغاً فى مواعظه وخطبه ومتعمقاً فى دراسة الكتاب المقدس . وبلغت عداوة أرنولد لرجال الأكليروس مبلغاً جعله يقيم الدنيا ويقعدها ضدهم فى كل مكان يذهب إليه . ففى فترة من الفترات كان أرنولد رئيساً لدير بريسكيا وتصادف غياب أسقف هذه المدينة فى زيارة إلى روما وانتهز أرنولد فرصة غيابه وهيج الناس ضده وأثار حفيظتهم عليه لدرجة أنهم كادوا يغلقون أبواب المدينة فى وجهه عند عودته من روما ويمنعونه من دخول أسقفيته . ولهذا السبب قام البابا أنسونت بطرده من إيطاليا فشد رحاله وعبر جبال الألب وذهب إلى فرنسا حيث تتلمذ على يد رجل الدين والفليسوف المهرطق المعروف بيتر أبيلارد . وفى باريس بدأ أرنولد يلقى مواعظه على الدارسين فى كنيسة سانت هيلارى . فالتف

حوله نفر من الدارسين الفقراء الذين يعيشون على الشحاذة والإحسان ويطرقون أبواب البيوت طلباً لكسرة خبز . وقد نذر أرنولد حياته للهجوم بكل ضراوة على ثراء رجال الكنيسة وترفهم . ولهذا طلب رجال الكنيسة من ملك فرنسا طرده من البلاد ، الأمر الذى اضطره إلى العودة إلى إيطاليا بعد وفاة البابا إنسونت حيث قطع على نفسه وعداً بأن يكون مطيعاً للكنيسة الرومانية . وبعد أن تولى إجنيوس الثالث كرسى البابوية عام ١١٤٥ قبل أن يستقبله بعد أن أعلن توبته . ومرة أخرى استطاع أرنولد أثناء وجوده فى روما أن يستميل عدداً غفيراً من الناس إلى جانبه . وقد ساعد على تمتعه بحرية الوعظ والحركة أن البابا كان مشغولا فى فرنسا ببعض شئون الكنيسة . وزاد من إعجاب الناس بتعاليمه أن تلاميذه اقتدوا به وحذوا حذوه فى حياة التقوى والزهد والتقشف الأمر الذى جعل الناس - وخاصة النساء الفاضلات - يحبونهم ويقبلون عليهم . ويذهب الباحثون إلى أن أرنولد فى هذه الفترة من حياته أنشأ طائفة مهرطقة تعرف بطائفة اللومبارديين . وصف أرنولد رجال الدين بأنهم تجار ولصوص وقطاع طريق وأنهم البديل المعاصر للكتبة والفريسيين فى أيام المسيح . حتى البابا نفسه لم يسلم من لسانه فقد وصفه بأنه جلاد يهدف إلى ترسيخ سلطانه على الأرض عن طريق البغى والطغيان مضحياً فى سبيل ذلك بالأبرياء وأنه يستولى على ما فى جيوب الناس ويفرغه فى جيبه .

أما النبذة التى كتبها أوتوفرايزنج فيرجع تاريخها إلى عام ١١٥٥ وهو العام نفسه الذى توفى فيه أرنولد . وقد جاء فيها أن هاردريان بابا روما (١١٥٤ - ١١٥٩) اجتمع بكرادلته ليشكو لهم من الأثر البغيض والعميم الذى تركته هرطقة أرنولد فى نفوس كثيرين من أهل روما ومناداة هذا المهرطق باضطهاد رجال الدين والرهبان والاعتداء عليهم وتجريدهم من ممتلكاتهم . ويذكر أوتو فى نبذته أن هذا المهرطق لا يقصر هجومه على الأكليروس وحدهم فهو يمتد ليشمل النبلاء أيضاً . والجديد الذى تضيفه شهادة أوتو هو أن رجال الأكليروس خشوا إن هم دفنوا جثة أرنولد بريسكيا فى قبر أن تنتشر ضلالته بين الناس أكثر فأكثر ، ولهذا قاموا بحرق جثته وتحويلها إلى رماد نثروه فى مياه نهر التيبر حتى يختفى كل أثر له .

إن الكنيسة الكاثوليكية فى بعض الفترات حاولت أن تتصدى للفساد الذى استشرى فيها مثلما فعل البابا ليو التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) والراهب هومبرت المتوفى عام ١٠٦١ الذى عينه ليو التاسع كاردينالا وأسقفا على سيلفاكانديدا عام ١٠٥٠ والبابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) . غير أن هذه المحاولات باءت بالفشل فى استئصال شأفة الفساد الكنسى الأمر الذى أدى إلى ظهور تيارات تناصب المؤسسات الدينية العداء وتعمل على نسفها . ولهذا ظهر فى أوربا فى تلك الفترة اتجاهان متعارضان أحدهما يدعو إلى إصلاح الموسسات الدينية من داخلها وثانيهما يدعو إلى ضرورة اجتثاثها من جذورها باعتبارها بؤرة الفساد ورأس الداء . والجدير بالذكر أن بعض البابوات تحالفوا مع الساخطين على فساد الكنيسة وشجعوهم على انتقادها للاستفادة منهم فى إصلاح

الكنيسة وتطهيرها . ولعل حالة الواعظ المتجول روبرت أربرسيل دليل على ذلك .فقد تجاهلت الكنيسة ضراوة هجومه على رجال الأكليروس فى الستينيات من القرن الحادى عشر أثناء تجواله فى كل من بريتانى وأنجو بفرنسا كما تجاهلت التفاف اللصوص والعاهرات حوله . وطلب إليه البابا الاستمرار فى التصدى لمباذل رجال الدين . فضلا عن أن الكنيسة كرمت روبرت أربرسيل عند وفاته عام ١١١٥ واعتبرته بطلاً من أبطالها . ولكن الأوراق اخذت تختلط عندما استضاف صديق لأربرسيل هو هليدبرت أسقف مدينة لى مان الفرنسية (أثناء سفره إلى روما) المهرطق هنرى الذى نجح فى التخلص من رجال الأكليروس وتعيين نفسه الرئيس الدينى لهذه المدينة . وزاد الطين بلة أن كثيراً من العلمانيين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر اضطلعوا بمهمة رجال الدين .

وتمثل محاكمة المهرطق إيودو (ثم أرنولد بريسكا من بعده) نقطة تحول مهمة فى موقف الكنيسة الكاثوليكية من المهرطقين (وهى أمور سوف نعود إلى معالجتها عند الحديث عن نشأة محاكم التفتيش) . ولقد كان القانون الرومانى هو الأساس الذى اتبعته الكنيسة الكاثوليكية .غير أن القانون الرومانى لم يتضمن أى نص بشأن معاقبة المهرطقين . ويتضح لنا هذا عندما قام برتشارد أف ورمز نحو عام ١٠٠٢ بجمع القوانين الكنسية كافة فتبين خلوها من أى نص خاص بأسلوب التعامل مع الهرطقة . صحيح أن رجال الأكليروس الكاثوليكى اقترفوا أعمال قمع واضطهاد بالغة البشاعة ، ولكن هذا لم يكن القاعدة . وكما رأينا فإن الأسقف وازو فى لييج كان يميل إلى اظهار التسامح مع الهراطقة . ولكنه أرسى مبدأ كنسيا مهما يتلخص فى ضرورة فحص وتمحيص أية بلاغات خاصة بالهرطقة والتحقيق مع المهرطقين ثم حرمانهم من الكنيسة إذا ثبت إدانتهم إلى جانب ضرورة دحض وتفنيد هرطقاتهم علنا . ورغم أن مجمع مونتبلييه المنعقد عام ١٠٦٢ ومجمع تولوز المنعقد فى ١١١٩ طالبا بتسليم الهراطقة للسلطات العلمانية غير الكنسية لتتولى معاقبتهم فإن معظم الأساقفة كانوا يشاركون وازو تسامحه لأنهم لم يريدوا أن تتلطخ أيديهم بدماء المهرطقين . ولعلنا نذكر أن البابا إيوجين اكتفى بالتحفظ على إيون دى ليتوال رغم بشاعة اعتداءاته على الكنيسة والأديرة وأن الذين حكموا على أعوانه بالحرق لم يكونوا من رجال الأكليروس بل من أصحاب السلطة الزمنية . والحقيقة أن الكنيسة فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر وقعت فى حيص بيص . فهى من الناحية النظرية مسئولة عن التصدى للهرطقة فى حين أنها من الناحية العملية عاجزة عن التصدى لها ولا تملك أسباب هذا التصدى الأمر الذى جعل الهرطقة فى القرن الثانى عشر تنتشر انتشار النار فى الهشيم . ناهيك بانخراط بعض رجال الأكليروس أنفسهم فى أعمال الهرطقة . وأيضاً كما سبق أن شاهدنا لم يعامل رئيس أساقفة أوتخرت المهرطق الهولندى ترانشيلم بقسوة كما أن رئيس أساقفة أرلس أظهر فى عام ١١٣٥ تسامحاً ملحوظاً فى معاملة المهرطق هنرى الذى اكتفى مجمع بيزا بإيداعه أحد الأديرة . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الكنيسة لم تكن لديها أية سياسة ثابتة أو واضحة تجاه الهرطقة حتى عام ١١٤٠ تقريباً وأنها كانت فى تخبطها وانتفاء الرؤية الواضحة

تعامل كل حالة هرطقة على حدة وفقاً لظروفها . ولكن قرب منتصف القرن الثانى عشر حدث تغير فى أسلوب تعامل الأساقفة مع الهراطقة فقد أرسل بطرس المبجل رئيس دير طائفة الرهبان المعروفة بالكلونى رسالة إلى أربعة أساقفة يحذرهم من زيادة نشاط المهرطق بيتر برايزر فى أسقفياتهم . ولعل من الغرابة بمكان أن نرى رئيس هذا الدير يطالب السلطة الزمنية بالتدخل فى الشئون الداخلية للأسقفيات من أجل القضاء على نشاط المهرطقين . وأيضاً من الأحداث المهمة الدالة على تغير موقف الكنيسة المتساهل من الهرطقة أن القديس برنارد كليرفو طلب أن يتدخل على نحو مباشر فى شئون مقاطعة لانجويدوك بفرنسا بسبب انتشار الهرطقات فيها . فقد أرسل عام ١١٤٥ رسالة إلى الكونت الذى يحكم تولوز يعبر فيها عن عزمه الحضور إلى مقاطعته وبرفقته مندوب البابا ألبريك أسقف أوستيا ومعه جوفرى أسقف تشارتر للتصدى للسموم التى ينفثها المهرطق هنرى لويزان هناك . واستطاع القديس برنارد أن يحصل من أهل تولوز على الموافقة على قراره بعدم الاعتداد بشهادة المهرطقين أو المتعاطفين معهم فى المحاكم وعدم أحقيتهم فى رفع القضايا أمامها فضلا عن عدم التعامل أو الاتجار معهم بجانب مقاطعتهم ونبذهم من المجتمع .وفى عام ١١٤٨ قرر مجلس ريمز تسليم أتباع المهرطق أيون إلى السلطة الزمنية كى تقوم بإحراقهم كما قرر تجريد الهراطقة ومعاونيهم والمتسترين عليهم بحرمانهم من الكنيسة ومصادرة ممتلكاتهم .ثم انعقد مجمع ريمز مرة أخرى بعد مضى تسعة أعوام برئاسة رئيس أساقفة هذه المدينة ليظهر قدراً أكبر من القسوة على المهرطقين المنتشرين فى منطقة البلقان والمعروفين باسم الفيليين ، فقد أصدر ضدهم أحكاماً بالسجن المؤيد واختبار صدقهم وحسن نواياهم بكيهم بالنار وكذلك كى جباههم ووجناتهم بالحديد المحمى للدلالة على هرطقتهم وتمييزهم عن عباد الله . ومن التطورات التى حدثت فى تاريخ الهرطقة نحو عام ١١٦٣ أن الكنيسة لم تعد كما كان الحال فى الماضى تستقبل البلاغات عن المهرطقين بل بدأت تنقب وتميط اللثام عنهم لأن المهرطقين على حد قولها أصبحوا يعملون بالتقية ويظهرون غير ما يبطنون .ولم تمر بضعة أعوام حتى قام كبير الرهبان هنرى دى مارسى عام ١١٧٨ بزيارة أخرى إلى مدينة تولوز لأنه لم يكن راضيا عن تباطؤ أهلها والمسئولين فيها عن الكشف عن المهرطقين ومعاقبتهم . ومن ثم أصدر تعليماته إلى الأساقفة والأكليروس والقناصلة والأهالى بسرعة التبليغ كتابة عن وجود أى مهرطق بين ظهرانيهم وحذر من مغبة التستر عليه لقاء تقاضى مبالغ مالية . وفى العام الثانى (١١٧٩) حمل هنرى مارسى مجمع لاتيران الثالث على إصدار قرار بمقاطعة المهرطقين وعدم التعامل معهم قطعياً وإلا تعرض المخالف للحرمان الكنسي ومصادرة أملاكه . وسوف نستكمل قصة هذه التطورات التى أدت فى النهاية إلى نشأة محاكم التفتيش بعد أن نواصل الحديث عن المزيد من الهرطقات التى انتشرت فى إيطاليا وفرنسا وبعض البلاد الأوروبية الأخرى فى منتصف القرن الثانى عشر وقرب نهايته وبداية القرن الثالث عشر .

انتشار الهرطقة في إيطاليا في الفترة بين ١١٦٠ و ١٢١٦

١) طائفة السبيرونيين :

يعتبر هيجو سبيروني الذى درس القانون المدنى فى بولونيا نحو عام ١١٤٥ وعاش أيام الدراسة مع صديقه فاكاريوس تحت سقف واحد ، مؤسس الهرطقة التى اتبعها نفر محدود العدد يعرف بطائفة السبيرونيين وكان صديقه فاكاريوس واحداً من أوائل أساتذة القانون الرومانى فى إنجلترا ثم أصبح قنصل اسبتزا . ونحو عام ١١٧٧ دب الخلاف بين سبيرونى والكنيسة وهو خلاف انتهى إلى انكاره وظيفة الأكليروس متهماً إياهم بالرذيلة فضلاً عن إنكاره جدوى المعمودية وأسرار التناول والاعتراف فكل هذه الطقوس فى نظره عديمة الجدوى لأن نقاوة الإنسان من الداخل ينبغى أن تكون معيار الحكم عليه . وإلى جانب ذلك أنكر سبيرونى أهمية الأعمال الصالحة فى خلاص النفوس لأن الله فى رأيه هو الذى يهب المرء قداسته الداخلية وهى قداسة لا تزيدها مراعاة شكليات التقوى والورع . ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن هذا الرأى الأخير لسبيرونى هو الذى مهد الطريق لظهور اثنين من أعلام الإصلاح الدينى هما لوثر وكالفن . وقد عبر هيجو سبيرونى عن آرائه فى كتاب أرسل منه نسخة إلى صديقه القديم فاكاريوس الذى قام بدحض وتفنيد ما جاء فيه مستخدماً فى ذلك بعض آيات الكتاب المقدس . ولكن اختلاف فاكاريوس مع صديقه لم يفسد الود القائم بينهما . فهو يعرض آراء سبيرونى ثم يتصدى لتفنيدها بروح ودية لا تعرف الحقد أو البغضاء فى المقدمة التى استهل بها مؤلفه : «كتاب ضد الأخطاء الكثيرة المتنوعة» .

٢) طائفة الهيوميلياتي أو الداعين إلى بساطة الملبس :

ترجع نشأة هذه الطائفة وطوائف مماثلة إلى رغبة كثيرين فى الاقتداء بحياة الرسل وبتقشفهم وتقواهم الأمر الذى أدى إلى ظهور أنواع من التدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . وفى بعض الأحيان شقت هذه الأنواع عصا الطاعة على الكنيسة وفى أحيان أخرى ضاقت الكنيسة ذرعاً بها فقامت بتحريمها واستئصالها . ولكن هذا لم يمنع الكنيسة أحياناً ثالثة من السعى إلى استيعابها وتمثلها مثلما فعل البابا انسونت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) حتى يتمكن من إزكاء الروح الدينية والاحتفاظ بقوة الدفع الكنسية . وقد امتدت الرغبة فى الاقتداء بحياة الرسل إلى ظهور عدة حركات دينية سبقت ظهور أنواع الرهبنة التى اختارت حياة الفقر والتسول والتى انتشرت فى القرن الثالث عشر . وتعتبر حركة الوالديسيين . من أبرز الحركات السابقة لظهور هذه الأنظمة الرهبانية . والجدير بالذكر أن طائفة الهيوميلياتى ظهرت فى إيطاليا حتى قبل أن يصل إليها نفوذ الوالديسيين ، وتعبر هذه الطائفة عن سخطها لاستغراق الناس فى الحياة المادية كما تعبر عن تمجيدها لحياة الفقر والتقوى والمشاركة الجماعية والتبشير بكلمة الله . وعندما أصر الهيوميلياتيون على حقهم فى التبشير بكلمة

الله خارج الكنيسة عاقبتهم الكنيسة بالطرد منها عام ١١٨٤ ، ولم يمض على ذلك أكثر من خمسة عشر عاماً حتى تمكن البابا أنسونت الثالث من إرجاعهم إلى حظيرة الكنيسة ووافق أيضاً على انخراطهم فى ثلاثة تنظيمات ؛ تنظيم يضم الناس من غير الكهنوت ويسمح لهم بالعيش مع عائلاتهم وتنظيم ثان يضم غير الكهنوت وزوجاتهم ويسمح لهم بأن يعيشوا عيشة قريبة من عيشة النساك فى مجتمعاتهم العمالية وتنظيم ثالث كهنوتى يضم رجال الدين . أما الفئة التى فشلت الكنيسة فى استيعابها وظلت خارج حظيرتها فقد استوعبتها الحركة الوالديسية وكانت السبب فى حدوث شقاق فى صفوف الجماعات الدينية المشار إليها .

وفى نحو عام ١١٧٨ - ١١٨٤ عاشت فى مدن اللومباردى بإيطاليا إحدى هذه الطوائف فى بيوتها ومع عائلاتها وآثرت أن تحيا حياة دينية فهى تمتنع عن الكذب والقسم والإلتجاء إلى المحاكم فضلاً عن إيثارها لبساطة الملبس . وقد طلبت هذه الطائفة من البابا أن يوافق على أسلوب حياتها ولم يمانع البابا فى ذلك ولكنه منع أتباعها من الاجتماع سراً أو التبشير علناً غير أنهم لم يعبأوا بهذه الأوامر البابوية الأمر الذى جعل البابا يحرمهم من الكنيسة . وقد أطلقوا على أنفسهم اسم الهيوميلياتى لأنهم امتنعوا عن ارتداء الملابس الملونة المزركشة والاكتفاء بارتداء الملابس البسيطة .

٣) الهرطقة الكاثارية في لومباردي :

ظهرت الهرطقة الكاثارية (أو التطهيرية) فى إقليم لومباردى بإيطاليا فى العقدين الأول والثانى من القرن الثانى عشر وظل العالم الخارجى يجهل كثيراً عنها حتى توطدت أركانها فى شمال إيطاليا فى بدايات القرن الثالث عشر حيث شاهدت لأول مرة تسجيلاً لها فى الفترة من ١٢٠٠ و١٢١٤ تقريباً .

بدأت الهرطقة الكاثارية تنتشر فى لومباردى فى الفترة بين عامى ١١٥٠ و١٢٠٠ بزعامة أسقف رسم فى بلغاريا اسمه مرقص . وإلى جانب لومباردى انتشرت الهرطقة الكاثارية فى منطقتى توسكانيا وتريفيزا . وجاء إلى لومباردى رجل اسمه الأب نيشيتا هاجم سيامة مرقص البلغارية كأسقف ، الأمر الذى اضطر مرقص إلى نبذ سيامته البلغارية ليقبل الدخول على يد الأب نيشيتا فى طائفة تعرف بطائفة الدروجنثيا . ثم جاء فيما بعد إلى لومباردى رجل اسمه بيتراشيوس يرافقه نفر من أصحابه عبر البحار حاملاً أخباراً عن فسق سيمون أسقف دروجنثيا الذى كان مسئولاً عن سيامة نيشيتا . قال بيتراشيوس إنهم رأوا سيمون وهو يزنى بامرأة فى حجرة ويرتكب أفعالاً أخرى منافية . وعند ظهور بيتراشيوس كان مرقص قد وافته المنية بعد أن عين قبل وفاته أسقفا آخر اسمه جون جوديوس . وبسبب شهادة الزنا التى أدلى بها بيتراشيوس ضد سيمون بدأ الشك يساور بعض الناس فى جدوى سيامة سيمون فى حين استمر الآخرون يؤمنون بها . وهكذا انقسمت الجماعة إلى أنصار ومعارضين واستمسك بعضهم الآخر بمنافسه بطرس فلورنسا . وظل الانقسام بينهما على هذا الحال

لعدة سنوات . وتدخل العقلاء لفض المشاحنات بين الفريقين المتناحرين فاقترحوا إرسال مندوبين عن كل جانب إلى اجتماع يعقده أسقف شمال الألب ليتولى الفصل فى هذا النزاع ووافق الطرفان المتخاصمان على الانصياع إلى ما يصل إليه هذا الأسقف من رأى . واستمع الأسقف بعناية شديدة لوجهة نظر الجانبين المتنازعين ثم حكم بأن يتقابل الأسقفان المتخاصمان جون جوديوس وبطرس فلورنسا ويقترعان على أحقية كل منهما فى الأسقفية بحيث يقبل كل طرف منهما نتيجة الاقتراع حتى إن لم تكن فى صالحه وأن يقوم الأسقف الذى تقع عليه القرعة بالسفر إلى بلغاريا لرسمه أسقفا يرتضى به الجميع . وعاد المندوبون إلى لومباردى ليعلنوا القرار الذى توصل إليه أسقف شمال الألب على الملأ . وعندما جاء الوقت المحدد للاقتراع تراجع أسقف فلورنسا عن الاتفاق ورفض فكرة الاقتراع من أساسها .غير أن نفراً من أتباعه استاءوا من حنثه بوعده فقاموا بتنحيته من وظيفته وإسناد واجباتها إلى منافسه الأسقف جون جوديوس . ولكن بقية أتباعه عارضوا قرار التنحية ورفضوا أن يطيعوا جون جوديوس الأسقف المقترع عليه ، الأمر الذى هدد بانفجار الصراع بين الفريقين المتنازعين من جديد . ومرة أخرى تدخل العقلاء لحل المشكلة فاقترحوا على جون جوديوس التنازل عن أحقيته فى الأسقفية تفاديا للصراع والاقتتال كما اقترحوا أن يقوم كل من الفريقين المتخاصمين باختيار شخص من الفريق المضاد . ويتم الاقتراع على الشخصين المختارين فإذا فاز بالقرعة أحدهما ينصب أسقفا محل جون جوديوس ، وقبل جون جوديوس هذا الحل لإدراكه أنه سوف يعجز عن إدارة شئون أسقفيته فى هذا الجو المشحون بالعداوة والبغضاء . وعندما حان وقت الاقتراع ، اجتمع الفريقان فى مكان اسمه موسيو حيث جرت عملية الاقتراع . ووقع الاختيار من جانب فريق جون جوديوس على رجل اسمه جارتوس ومن فريق بطرس فلورنسا على رجل اسمه جون دى جوديس وكانت القرعة من نصيب جارتوس الذى فاز بالأسقفية . وهكذا ساد السلام بين الفرقاء المتخاصمين واختاروا فيما بينهم معاونين للأسقف الجديد وبدأوا يجمعون المال اللازم لسفره إلى بلغاريا حيث تتم مراسم سيامته أسقفا ثم العودة إلى بلاده . ولكن مفاجأة وقعت بددت السلام وأعادت جو الشحناء إلى الفرقاء فقد تقدم شاهدان ليتهما جاراتوس بأنه على علاقة آثمة بإحدى النساء الأمر الذى يجعله غير أهل لشغل وظيفته الكهنوتية ويخلصهم فى الوقت نفسه من الوعد الذى قطعوه على أنفسهم بطاعته . وكانت نتيجة ذلك أن المشاكل تفاقمت والانقسامات استفحلت . وبعد أن كان الانقسام قاصراً على فريقين امتد ليشمل ست فرق : فقد أنشأ بعض أهالى ويستزاتو طائفة اختاروا لها أسقفاً اسمه جون الطيب القلب أرسلوه إلى دروجنثيا حيث تمت سيامته . واختار البعض من أهل مانتوا أسقفاً اسمه كاليونيس الذى تم إرساله بعد سيامته إلى سكلفونيا أى البوسنة ، وقام أهل فيسنزا باختيار رجل اسمه نيكولا . وكذلك تمت سيامة أسقفين فى توسكانيا . هذه الفرق الست شقت جميعاً عصا الطاعة على جاراتوس الذى فشل فى فرض كلمته على المناوئين له . ولكن نفراً من أهل ميلانو تصدوا لهؤلاء المنشقين على جاراتوس وأصروا على الاستمساك به .

ولكن جارتوس رفض أن يستجيب لهم لإدراكه بالشعور العدائى الذى يضمره عدد كبير من الناس ضده . واقترح جاراتوس عليهم اختيار جون جوديوس بدلاً منه لأنه يفوقه فى الصلاح والتقوى ولأنه سبق أن تخلى طواعية عن أحقيته فى الأسقفية حتى يحتفظ بالسلام بين الفرقاء ولكن جون جوديوس رفض . فأرسل الفرقاء للمرة الثانية مندوبين عنهم لاستشارة أسقف شمال الألب الذى عبر عن استيائه من هذه الانقسامات وعدم الالتزام برأيه . ولهذا أرسل إلى جون جوديوس يطالبه بالذهاب إلى بلغاريا حتى تتم سيامته أسقفا على كل الذين وافقوا عليه وتعهدوا بطاعته . وبالفعل نفذ جون جوديوس مشيئة أسقف شمال الألب . ثم مات جون جوديوس بعد ذلك فحل محله رجل اسمه يوسف الذى مات بدوره ليخلفه جاراتوس الذى كان فيما مضى موضعاً للنزاع . وهنا ذكر جاراتوس وأتباعه أن الأساقفة الآخرين أخطأوا عندما شقوا عليه عصا الطاعة واغتصبوا أحقيته فى الأسقفية ومن ثم رفض الاعتراف بهم أو تقديم الاحترامات الواجبة لهم بحكم وظائفهم .

هذه هى الظروف التى نشأت فيها الهرطقة الكاثارية التى تشعبت وتعددت وتحولت إلى ملل ونحل .

غير أن الروايات الخاصة بنشأة الهرطقة الكاثارية تختلف من راو إلى آخر ، فقد ذهب أنسلم السندريا الذى عاش فى جنوة نحو عام ١٢٥٦ أى بعد انقضاء قرن كامل على ظهور هذه الهرطقة إلى تأثرها بالمذهب الفارسى المعروف بالمانية . ويقول السندريا إن الكاثارية نشأت أول ما نشأت فى القسطنطينية بتركيا وفرنسا وبلغاريا وأنها انقسمت إلى عدد كبير من الملل والنحل . ومنه نعرف كثيراً عن الكاثارية عن طريق اعترافات واحد من أتباعها اسمه بونا كور سوس بمدينة ميلانو نبذها وتراجع عنها في الفترة بين عامى ١١٧٦ و١١٩٠ . ويؤمن معظم الكاثاريين أن الشيطان هو المسئول عن كل الانقسامات التى نراها فى الطبيعة وأنه خلق آدم من تراب وأودع فيه قبساً من النورانية الملائكية . فضلاً عن أنه خلق حواء بعد ذلك ثم ضاجعها فأنجبت منه قابيل . ولما عرف آدم بهذا قام بدوره بمضاجعة حواء وأنجب منها هابيل الذى أرداه أخوه قابيل قتيلاً . ويعتقد الكاثاريون أن الكلاب خلقت من دم الأخ القتيل الأمر الذى يفسر طبيعتها المخلصة وولاءها للإنسان . وكذلك يؤمن الكاثاريون أن جميع مخلوقات المادة والأرض والهواء الحى منها وغير الحى من صنع إبليس . ثم أنجبت حواء بنات ضاجعتهن الشياطين وأنجبت منهن عمالقة . وأخبرت الشياطين أبناءها أن إبليس خلق جميع الأشياء والمخلوقات . فاغتم إبليس لهذا وندم على أنه خلق الإنسان ولم ينقذ نوح من الفيضان إلا جهله بهذا السر . ولهذا نرى إبليس يتلطف به ويطلب إليه الاحتماء بالفلك من الفيضان . ويذهب الكاثاريون إلى أن إبليس هو الذى أوحى إلى إبراهيم واسحق ويعقوب بأقوالهم وإلى أنه ظهر لموسى وتحدث إليه ومكنه من الإتيان بالمعجزات فى حضرة فرعون كما مكن بنى إسرائيل من عبور البحر الأحمر والعودة إلى الأرض المقدسة . ويرى الكاثاريون أن روح الله هى التى أوحت إلى الأنبياء ببعض نبوءاتهم وأن روحاً شريرة هى التى أوحت إليهم ببعضها الآخر . وهم

يهاجمون داود ويدينونه بسبب اقترافه الزنا والقتل . ويذهبون إلى أن الشيطان وضع ليشع فى عربة ثم طار بها فى عنان السماء . ويؤكدون أن الملاك الذى أرسله الله إلى زكريا ليس فى الواقع سوى ملاك بعث به الشيطان إليه . حتى يوحنا المعمدان نفسه لا يسلم من هجوم الكاثاريين عليه لأن الشك ساوره فى شخصية المسيح . فقد جاء فى الإصحاح السابع آية ١٩ من أنجيل لوقا : «فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع قائلاً أنت هو الآتى أم ننتظر آخر .» وهم يؤمنون كذلك أن مريم أم المسيح ولدت من مشيئة امرأة فقط ولم تولد من مشيئة رجل ، إلى جانب إيمانهم بأن المسيح ليس له جسد بشرى حى فهو لا يأكل أو يشرب ولا يأتى بما يأتيه البشر من أفعال رغم أنه يبدو أنه يفعل هذه الأشياء . والكاثاريون ينكرون قيامة المسيح بالجسد من الأموات وصعوده إلى السماء ، كما ينكرون بعث أجساد البشر ويؤكدون أنه لا يمكن المساواة بين الابن والأب استناداً إلى قول المسيح فى إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ الآية ٢٨ : «لأن أبى أعظم منى» ويضيف الكاثاريون أن الصليب شىء سيىء لا يصح تقديسه فهو علامة الوحش الذى نقرأ عنه فى سفر الرؤيا . وهم يعتبرون أن البابا سلفستر الأول (٣١٤ - ٣٣٥) هو عدو المسيح وابن الهلاك ، والرأى عندهم أن الخلاص حكر على طائفتهم وأن من المستحيل على الأزواج الحصول عليه . وهم يصبون لعناتهم على آباء الكنيسة وقديسيها مثل أمبروز وجريجورى وأوغسطين وجيروم ويعتقدون أن اللعنة تحل على كل من يأكل اللحوم والبيض والجبن ومنتجات الحيوان كافة . وهم أيضاً ينكرون أن المعمودية بالماء تفضى إلى حلول الروح القدس أو أن الخبز والخمر يتحولان فى سر التناول إلى جسد المسيح ودمه . وفى نظرهم أن الذى يقسم يستحق اللعنة وأن المعمودية تتم عن طريق وضع الأيدى على الأيدى . وفى اعتقادهم أن الشيطان يسكن الشمس وأن حواء تتجسد فى القمر وأن الشيطان وحواء يرتكبان الزنا مرة كل شهر تماماً كما يرتكب الرجل الزنا مع مومس أو عاهرة .

٤) هرطقة الباسجيان :

الباسجيان طائفة مهرطقة قليلة العدد ظهرت فى إيطاليا فى أواخر القرن الثانى عشر ودعت إلى الاستمساك بالشريعة الموسوية وأنكرت قدسية المسيح والثالوث وبعض أسرار الكنيسة المقدسة . وقد ورد ذكر هذه الطائفة لأول مرة فى إدانة بابا روما لها عام ١١٨٤ فى حين أنها لم تعرف باسم الباسجيان إلا فى عام ١٢٩١ . وليس هناك على الإطلاق ما يدل على استمرار هرطقتهم ويبدو أنها اندثرت بحلول منتصف القرن الثالث عشر إذ إن المساجلات التى احتدمت آنذاك حول الهرطقات لا تشير إليها بالمرة . وهناك من الدارسين من يعتقد أن هرطقة الباسجيان اقتصرت على لومباردى ولم تتجاوزها . والجدير بالذكر أن كتاب «الجامع» المجهول المؤلف والمكتوب فى الفترة بين ١١٨٤ و١٢١٠ هو المصدر الوحيد الذى يستقى منه الدارسون معلوماتهم عن هذه الهرطقة . والفصول الأربعة الأولى من «الجامع» تتناول الهرطقة الكاثارية فى حين تنصرف فصوله الستة المتبقية إلى دحض هرطقة الباسجيان .

ويذهب الفصل الخامس من كتاب «الجامع» إلى أن المسيح كائن طاهر من خلق الله ويسوق آيات ٢٤ - ٢٦ من الإصحاح ٤٤ من سفر أشعيا للتدليل على ذلك : «أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدى باسط ومقيم كلمة عبده ومتمم رأى رسله» وهم يرون أن لفظة العبد هنا إشارة إلى السيد المسيح . ومعنى هذا أن المسيح مخلوق فحسب أقل مرتبة من الأب . وفى أشعيا أيضاً نجد أن الرب يتحدث عن المسيح بقوله الإصحاح ٤٢ : «هوذا عبدى الذى عضده مختارى الذى سرت به نفسى» وأيضاً فى إنجيل متى الإصحاح ٢٠ آية ٨ نطالع : «فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله» ، الأمر الذى يدل على أن مرتبة الابن أقل شأناً من مرتبة الأب وأنهما ليسا من الجوهر نفسه . ويقول الكتاب كذلك : «ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلى قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس . ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (إنجيل متى إصحاح ٢٦ آية ٣٩) .والرأى عند الباسجيان أنه مادام الابن يطلب من الأب فمعنى هذا أنه يقل عنه فى المرتبة وأن الأب منحه القوة والسلطان كما يتضح من الآية التالية «دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض» (متى إصحاح ١٤ آية ١٨ : «لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الآب لأن أبى أعظم منى» . وجاء فى أول رسالة من بولس الرسول إلى أهل كورنثيوس (إصحاح ١٥ آية ٢٨) : ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل» . ومعنى خضوع المسيح لله أنه دون الله فى مرتبته . ويتناول الفصل السادس من كتاب «الجامع» ضرورة الاستمساك الحرفى بالتعاليم الموسوية المنصوص عليها فى التوراة . ويسوق «الجامع» فى هذا الصدد عدداً كبيراً من الآيات التى تنص على ذلك مثل قول المسيح فى الإصحاح الخامس من إنجيل متى آية ١٧ : «لا تظنوا إنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل .» يقول انجيل متى فى الآية الرابعة من الإصحاح الثامن إن المسيح قال للأبرص بعد أن شفاه : «انظر ألا تقول لأحد بل اذهب أر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم .» وأيضاً جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية إصحاح ٣ آية ٣١ : «أفنبطل الناموس بالإيمان . حاشا بل نثبت الناموس» .وكذلك فى الإصحاح السابع آية ١٢ من هذه الرسالة . «إذن الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة» .

وتتلخص مراعاة التعاليم الموسوية التى دعت إليها الهرطقة بالباسجيانية فى ضرورة مراعاة الختان . فقد ورد فى سفر التكوين (إصحاح ١٧ آية ١٣ - ١٤) ما يشير إلى أن الختان هو السبيل إلى الخلاص : «يختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدى فى لحمكم عهداً أبدياً . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها إنه قد نكث عهدى» . وهذا ما تؤكده الآية ٩ من الإصحاح ٤٤ من سفر حزقيال : «هكذا قال السيد الرب ابن الغريب أغلف القلب وأغلف اللحم لا يدخل مقدسى» وتدل الآية ٢٣ من الإصحاح السابع فى انجيل يوحنا أن المسيح يرى فى الختان نوعاً من الشفاء الجزئى : «فإن كان الإنسان يقبل الختان فى السبت لئلا ينقض

ناموس موسى أفتسخطون على لأننى شفيت إنساناً كله فى السبت» . وأيضاً تقرأ فى الآية ٧ من الإصحاح الثانى من رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية إن الختان يعتبر إنجيلاً وأن هذا الأنجيل قد أعطى لبطرس : «إذ رأوا أنى أؤتمنت على إنجيل الغرلة كما بطرس على أنجيل الختان» .

وتدعو الهرطقة الباسجيانية أيضاً إلى ضرورة مراعاة السبت وتقديسه ، والرأى عندها أن مراعاة السبت لا تقتصر على الشريعة الموسوية بل هى سابقة عليها بقدر ما هى لاحقة لها . وتستند الباسجيانية فى ذلك إلى بعض الآيات الواردة فى الكتاب المقدس والتى تتحدث عن قداسة هذا اليوم مثل الآية ٣ فى الإصحاح ٢ من سفر التكوين : «وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، والآيات ١٥ - ١٧ من الإصحاح ٣١ من سفر الخروج : «وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب . كل من صنع عملاً فى يوم السبت يقتل قتلاً . فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت فى أجيالهم عهداً أبدياً .»

ويتناول الفصل العاشر من «الجامع» الأطعمة التى يحرم الله على البشر أكلها مثل الحيوان المخنوق أو اللحم الحى الذى به دم : «غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه» (سفر التكوين الإصحاح التاسع الآية الرابعة) . وأيضاً الآية ١٤ من الإصحاح السابع عشر من سفر اللاويين : «لا تأكلوا دم جسد ما» . ومن الآية ٢٨ - ٢٩ من الإصحاح ١٥ من أعمال الرسل : «لا نضع عليهم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التى إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون» . وهكذا يؤكد الباسجيان أنه من الواضح أن العهدين القديم والجديد يحرمان أكل الحيوان الذى يقدم ضحية للأوثان كما يحرم أكل الحيوان المخنوق .

وينكر الفصل الحادى عشر من «الجامع» سلامة معظم المؤسسات الكنسية واللاهوتية ولا يعتبرها من صحيح الدين . فكل ما لم يرد فى العهدين القديم والجديد ليس سوى إضافة من صنع البشر من غير سند فى التوراة أو الإنجيل ومن ثم يجب الازورار عنها وعدم الاكتراث بها . وهم يفسرون ما جاء فى سفر التثنية وغيره من الأسفار على هذا الأساس ، ففى الإصحاح الثانى عشر آية ٣٢ من سفر التثنية نطالع ما يلى : «كل الكلام الذى أوصيكم به إحرصوا لتعلموه لا تزد عليه ولا تنقص منه» ومعنى هذه الآية كما يقول الباسجيان أنه ينبغى الالتزام فقط بكل ما جاء فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وعدم التقيد بأية إضافات أخرى من صنع البشر أو رجال الكنيسة .

ومن المفيد أن نختتم حديثنا عن الباسجيان بما يقول يافيس الناربونى فى هذا الشأن . كان يافيس الناربونى حتى نحو عام ١٢١٤ أحد القساوسة التابعين لجيرالد ماكيمورت رئيس أساقفة منطقة بوردو بفرنسا خلال الفترة من عام ١٢٢٧ حتى ١٢٦١ . وقد هرب يافيس الناربونى من فرنسا والتجأ إلى إيطاليا عندما اتهمته الكنيسة بالهرطقة . وفيما يلى جزء من الرسالة التى كتبها يافيس الناربونى إلى رئيس الأساقفة المشار إليه . وهى تتناول أحداثاً وقعت عام ١٢١٤ رغم أن تاريخ كتابة الرسالة (نحو عام ١٢٤١) لاحق على ذلك .

يقول الناربونى فى رسالته أن حساده وشانئيه اتهموه بالهرطقة أمام روبرت كورسون المندوب البابوى الذى عاش فى عام ١٢١٣ - ١٢١٤ فى جنوب فرنسا حيث ترأس مجمع نوردو المنعقد فى يونيو عام ١٢١٤ وبشر بالحروب الصليبية وخشى الناربونى على نفسه من مغبة اتهامه بالهرطقة وتقديمه للمحاكمة فهام على وجهه متنقلاً من مكان إلى مكان حتى وصل إلى مدينة كومو حيث شكا أمره إلى طائفة كاثارية تعرف بالباتارينيين كانت تعيش هناك . ويصرح الناربونى أنه لم ينضم إلى هذه الطائفة أو يؤمن بأى من تعاليمها رغم اختلاطه بأعضائها . ورحب به هؤلاء الباتارينيون وأكرموا وفادته واعتبروه ضحية الأمانة والاستقامة والشرف . وعاش بين ظهرانيهم لمدة ثلاثة أشهر عيشة هنية ممتعة ولكنه أخذ يلاحظ يوماً بعد يوم مقدار الفظاعات التى ينطق بها هؤلاء الهراطقة فى حق الرسل والكتاب المقدس . ورغم هذا فقد آثر الناربونى أن يلتزم الصمت إزاء هرطقتهم بسبب إحساسه بفضلهم الكبير عليه بل إنه تقديراً من جانبه لهم وشعوراً بالامتنان نحوهم قطع على نفسه وعداً أمامهم بالتبشير بمعتقداتهم . وعندما اطمأنوا إلى ولائه لهم أخذوا شيئاً فشيئاً يكشفون عن أسرارهم وعرف منهم أنهم أرسلوا إلى باريس عدداً من أكفأ الطلبة والدارسين الإيطاليين من منطقة لومباردى وبعض مدن توسكانيا كى يتعمقوا فى دراسة المنطق واللاهوت بهدف الإطاحة بالعقيدة الكاثوليكية . وأيضاً قامت الجماعة بإرسال عدد كبير من التجار للتأثير فى الأثرياء خارج دائرة الأكليروس واجتذابهم إلى آرائها . وعاش يافيس الناربونى عيشة التنقل والترحال من مدينة إلى أخرى فى كنف الجماعة المهرطقة التى أظلته بوارف ظلالها . والجدير بالذكر أن الناربونى كان على حد قوله يجارى الهراطقة من الظاهر فقط دون أن يؤمن فى أى وقت من الأوقات بأى من معتقداتهم . وسافر الناربونى مع عضو من أعضاء الجماعة من غير رجال الأكليروس وحطا رحالهما فى مدينة بالنمسا يقال لها نيوستدات بالألمانية ومعناها المدينة الجديدة ، وهناك استقبلته طائفة دينية مهرطقة جديدة تعرف باسم البجومينيين . ثم طاب له المقام فى مدينة فيينا النمساوية والبلدان المجاورة لها فعاش فيها عدة سنوات . ويعترف الناربونى أنه فى تلك الفترة من حياته استغرق فى الآثام والملذات الحرام حتى غيره الله فرجع عن ضلالته وأخذ يهدى المهرطقين سواء السبيل .

انتشار الهرطقة في جنوب فرنسا في الفترة بين ١١٥٥ و ١٢١٦

انتشرت الهرطقة على نحو ينذر بالشر المستطير فى منطقة لانجويدوك بجنوب فرنسا خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر حين وصلت سمعة الأكليروس إلى الحضيض الأمر الذى ساعد على ذيوع الهرطقة الكاثارية (أى التطهيرية) ذيوعاً واسع النطاق فى كل مكان وبين طبقات المجتمع كافة . وأخفقت جميع المحاولات التى بذلتها الكنيسة الكاثوليكية للحد من انتشار هذه الهرطقة . بل إن الهرطقة فى قرية لومبرز الواقعة على بعد نحو عشرة أميال من جنوب مدينة ألبى أظهروا جرأة

وتحديا للسلطة الكنسية منقطع النظير فى صيف عام ١١٦٥ . والأدهى من ذلك أن الهراطقة فى لومبرز وجدوا من الجمهور تعاطفاً معهم . وحدا هذا بأسقف ألبى أن يتطلع إلى تنفيذ القرار الذى سبق أن اتخذه مجمع تولوز عام ١١٦٣ بشأن حظر تعامل المسيحيين مع الهراطقة . وتشير الهرطقة المنتشرة فى قرية لومبرز إلى تأثرها بشكل أو بآخر بالهرطقة الكاثارية فضلاً عن تأثرها بهرطقة كل من بيتر برايز وهنرى التى سبق أن عالجناها .

١ - شاهدت قرية لومبرز عام ١١٦٥ مواجهة علنية وساخنة بين الهراطقة ورجال الدين تعتبر نموذجاً لكثير من المواجهات التى حدثت بينهم فى جنوب فرنسا فى العقود الأخيرة من القرن الثانى عشر . وكانت هذه المواجهة العنيفة والصاخبة بمثابة محاكمة عقدها الأساقفة فى لانجويدوك لجماعة من المهرطقين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الرجال الصالحين وحظوا بتأييد نبلاء لومبرز ومؤزارتهم . وكانت هذه المحاكمة أشبه ما تكون بالمناظرة المحتدمة التى اصطدمت فيها آراء المهرطقين بمعتقدات الكنيسة الكاثوليكية كما كانت محاكمة مشهودة يشار إليها بالبنان حضرها حشد هائل من الأساقفة ورؤساء الشمامسة إلى جانب عدد كبير من رجالات المجتمع الراقى فى جنوب فرنسا أمثال الكونت ريموند من تولوز وزوجته كونستانس . وخرج الشعب فى كل من مدينة ألبى وقرية لومبرز ليشاهدوا هذا الحدث الكبير .

بدأت المحاكمة برئاسة أسقف ألبى ومعاونيه بأن طرح أسقف لوديف على هراطقة لومبرز عدداً من الأسئلة بدأها بالسؤال عن موقفهم من شريعة موسى والأنبياء ومزامير داود والعهد القديم وآباء الكنيسة فى العهد القديم . وجاهر المهرطقون أمام جميع الحاضرين بأنهم لا يؤمنون بأى منها بل يؤمنون بالأناجيل ورسائل بولس وأعمال الرسل وسفر الرؤية . وعندما سألهم أسقف لوديف عن تفاصيل معتقداتهم التزموا الصمت قائلين إنهم لن يجيبوا عن هذا السؤال إلا إذا أجبروا على ذلك . وأيضاً عندما سئلوا عن رأيهم فى معمودية الأطفال رفضوا الخوض فى هذا الموضوع وأضافوا أنهم فقط على استعداد للإجابة عن أية أسئلة خاصة بالأناجيل ورسائل الرسل . ثم سألهم أسقف لوديف عن رأيهم فى تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه وقدسية هذا السر الكنسى كما سألهم إذا كان هذا السر يفقد قداسته وفاعليته إذا مارسه إنسان فاسد أو فاسق . فأجابوا بقولهم إن الخلاص من نصيب الذين يشاركون هذا السر ويمارسونه عن جدارة واستحقاق . أما الذين يمارسون هذا الطقس دون جدارة واستحقاق فتحل عليهم اللعنة . ثم أضافوا أنه يمكن لأى رجل صالح سواء كان ينتمى إلى الأكليروس أو إلى غير الأكليروس أن يمارس هذا الطقس ، غير أنهم امتنعوا عن الإدلاء بمزيد من المعلومات عن معتقداتهم بحجة أنه لا يليق بالسائل أن يرغمهم على الإجابة عن أسئلته . وعندما سئلوا عن رأيهم فى المعاشرة الزوجية وهل تقف عائقاً أمام خلاص الزوجين امتنعوا عن الإجابة ولكنهم قالوا إنهم يرون رأى القديس بولس الرسول فى الزواج ومعنى ذلك أنهم يفضلون الامتناع عن الزواج إذا أمكن ذلك . ثم سألهم أسقف لوديف إذا كانت التوبة فى آخر لحظة

كافية لخلاص الإنسان مثل المقاتل الجريح الذى يتوب عندما يشعر بدنو أجله وإذا كان يتعين على الخاطىء أن يعترف بخطاياه إلى القساوسة أو إلى الناس العادين فأجابوه بأنهم يسيرون وفق التعاليم التى أوردها يعقوب فى رسائله والتى تسمح للمريض أن يفضى باعترافاته إلى أى فرد عادى يقع عليه اختياره . غير أنهم رفضوا الإجابة عن توبة المحاربين عندما يشعرون بدنو أجلهم لأنه ليس هناك ما يشير إلى موافقة القديس يعقوب على ذلك . وحين سألهم أسقف لوديف إذا كان الشعور بالندم واعتراف الخاطىء بذنبه كافيين للخلاص أم يتعين عليه الصيام وتعذيب النفس والنواح على ما أتى به من أفعال فردوا بأن القديس يعقوب لم يطالب الخاطىء بأكثر من الاعتراف بذنبه وأنهم لا يطمحون إلى أكثر مما أمر القديس يعقوب به . وكذلك أكد المهرطقون أن القسم حرام وأن المسيح ينهى عنه . وقالوا إن بولس فى رسالته بين لنا نوع الأساقفة والقساوسة الذين ترسمهم الكنيسة . فإذا لم تكن الشروط الواجبة متوفرة فيهم فإنه لا يمكن اعتبارهم رجال دين بحال من الأحوال . واحتدم الجدل أثناء المحاكمة بين نفر من كبار الأكليروس أمثال بون أسقف ناربون وأسقف تيمس ألدبرت والراهب بطرس سندراس والراهب فونتفروا . وبعد أن استمع أسقف لوديف إلى الجدال المحتدم بين المهرطقين ورجال الدين أصدر حكمه النهائى فى هذا الأمر ونطق بالحكم التالى فى وجود كل الحاضرين : «أنا جوسلين أسقف لوديف بأمر من أسقف ألبى وأعوانه أعلن هرطقة الذين يطلقون على أنفسهم (الرجال الصالحين) وأدين طائفة أوليفر ورفاقه والمنضمين إلى هراطقة لومبرز حيثما وجدوا . وهذا الحكم مبنى على أساس نصوص الكتاب المقدس وهى الأناجيل والرسائل والمزامير وسفر الرؤية » .

ولم يسكت المهرطقون على إدانة أسقف لوديف لهم فاتهموه بأنه ذئب منافق وعدو الله وأنه رجل جائر وظالم . وقالوا إنهم توخوا الحذر فى شرح أفكارهم لأنهم يتوجسون خيفة منه بسبب شره وزيفه وخسته . ورد الأسقف على ذلك قائلاً إن حكمه يستند إلى القانون وإنه على استعداد للدفاع عن هذا الحكم فى المحكمة البابوية أو فى محكمة لويس ملك فرنسا أو فى محكمة ريموند كونت تولوز أو أية محكمة أخرى مماثلة . ولما أدرك الهراطقة هزيمتهم واندحارهم أمام أسقف لوديف إلتفتوا إلى الشعب يشرحون له معتقداتهم فقالوا بعكس ما جاهروا به فى البداية . قالوا إنهم يؤمنون بإله واحد حى قيوم يجمع بين الوحدانية والتثليث فهو الأب والابن والروح القدس . وقالوا أيضاً إنهم يؤمنون بأن الابن تجسد وأصبح بشراً وأنه تعمد فى نهر الأردن وصام فى البرارى وتعذب ومات ودفن ثم قام فى اليوم الثالث من الأموات ليصعد إلى السماء . والرأى عندهم أن التناول ضرورى للخلاص وأن هذا التناول لابد أن يتم فى الكنيسة على يد كاهن بغض النظر إذا كان هذا الكاهن حميد الخلق أو سيىء الخلق . وأكد المهرطقون إيمانهم بالدور الذى يلعبه تعميد الأطفال فى خلاصهم وأن المعاشرة الزوجية لا تحول دون دخول المتزوجين ملكوت السماء . وهكذا يتضح لنا أن الهراطقة آثروا أن يتراجعوا عن سابق آرائهم . وانتهت هذه المحاكمة الغريبة بأن أيد أسقف ألبى الحكم

الذى أصدره أسقف لوديف باسمه محذراً نبلاء لومبرز وفرسانها من مغبة مؤازرة الهراطقة وتقديم الدعم لهم .

٢ - وفى الثمانينات من القرن الثانى عشر اجتاحت الهرطقة مقاطعة تولوز التى عجزت عن وقف انتشارها الأمر الذى حدا حاكمها الكونت تولوز إلى طلب النجدة من خارج مقاطعته . ورغم اخفاق التدخل الخارجى فى القضاء على الهرطقة فإنه يمثل سابقة لها خطورتها . ففى عام ١١٧٦ ناشد حاكم تولوز ريموند الخامس (١١٤٨ - ١١٩٤) جيرانه فى المقاطعات المجاورة أن يتدخلوا لإنقاذ مقاطعته من براثن الهرطقة غير أن تدخلهم عام ١١٧٨ باء بالفشل الذريع . ومما زاد من تفاقم أحوال كونت تولوز دخوله فى صراعات سياسية وعسكرية مع جيرانه . فقد اشتبك فى صراع مع ألفونس الثانى ملك أراجون (١١٦٢ - ١١٩٦) للإستيلاء على منطقة بروفانس . ولكن غريمه ملك أراجون استطاع عام ١١٧٦ أن يفوز بها . وظل منافسه القوى يمارس ضغطه المتواصل على حدود مقاطعة تولوز الغربية . فضلاً عن أن حليفه فردريك بارباروس كاد يستسلم فى صراعه ضد البابا ألكسندر الثالث . وكذلك بات جيرانه فى منطقة أكويتين يشكلون خطراً داهماً على حدود مقاطعته . وضعفت قوة الكونت تولوز إلى الحد الذى جعله يفقد السيطرة على مدينة تولوز عاصمة مقاطعته . وعندما شعر كونت تولوز باهتزاز سلطانه فكر فى أن يلعب بورقة الدين الرابحة وأن يظهر كحامى حمى المسيحية ضد الكفار والهراطقة وبوجه خاص هؤلاء الهراطقة الذين انتشروا فى مقاطعته . ومن ثم ناشد هذا الكونت عام ١١٧٨ تنظيماً رهبانياً يعرف بالرهبنة السيسترياينة كى يبادر بمد يد العون له على نحو ما فعل القديس برنارد عام ١١٤٥ عندما أنقذ تولوز من الهرطقة . وبالإضافة إلى ذلك طلب كونت تولوز من ملك فرنسا لويس السابع وملك إنجلترا هنرى الثانى أن يخفا لمساعدته . ولكن الملكين اكتفيا بالاشتراك مع بابا روما ألكسندر الثالث بتشكيل لجنة بابوية عام ١١٧٨ جاءت إلى تولوز ولديها صلاحيات التبشير وهداية الهراطقة والتحقيق واستخدام العنف معهم إذا لزم الأمر . ويعتبر بعض الدارسين أن هذه اللجنة التى ضمت عدداً من كبار رجال الأكليروس وغير الأكليروس بمثابة البذرة الأولى لمحاكم التفتيش . والجدير بالذكر أن هذه اللجنة ظلت تمارس عملها لمدة ثلاثة أشهر تلاحق فيها الهراطقة من أتباع أريوس وإن كان الواقع يشير إلى أنهم كانوا من أتباع الكاثارية .

وفى عام ١١٧٨ سطر روجر هوفون العامل فى بلاط الملك هنرى الثانى نبذة عن هرطقة تولوز والإجراءات التى اتخذت للقضاء عليها . والجدير بالذكر أن هذا المؤرخ استقى جانباً من معلوماته من كتابات عضوى اللجنة المشار إليها وهما المندوب البابوى الكاردينال بطرس بافيا ورئيس دير كليرفو . يقول هوفون إنه كان يعيش فى مدينة تولوز مهرطق واسع الثراء يملك منزلين منيفين أحدهما داخل المدينة والآخر خارجها . وكان فى بادىء الأمر يجاهر بهرطقته . ولكنه خاف على نفسه فأخذ يتظاهر بسلامة عقيدته . ولما عرف الكاردينال بأمره استدعاه للمثول أمامه وطرح عليه

الأسئلة فاتضح من إجاباته عنها شدة انحرافه عن صحيح الدين فأدانه الكاردينال ومعه الأساقفة وأعلنوا هرطقته وأصدروا حكماً بمصادرة أملاكه وهدم أبراجه الجميلة . ولما رأى المهرطق أملاكه تضيع من بين يديه ذهب إلى الكاردينال والأساقفة وارتمى عند أقدامهم طالباً منهم الصفح والمغفرة . وحتى يتأكدوا أن توبته نصوح أمروا بجلده وهو عريان فى ميادين المدينة وشوارعها .وقطع الرجل على نفسه عهداً بالسفر إلى الأراضى المقدسة ككفارة عن خطاياه والبقاء فيها ثلاث سنوات ينصرف فيها إلى خدمة الله . وبعد عودته من هناك يسترد أملاكه المصادرة بعد أن يدفع غرامة كبيرة لحاكم المقاطعة الكونت تولوز . ولقن هذا المهرطقين الآخرين درساً قاسياً فقد جاءوا من تلقاء أنفسهم فى السر واعترفوا بخطاياهم لرجال الكنيسة وطلبوا منهم المغفرة فترفقوا بهم وعاملوهم برحمة ولين .

وأيضاً كان هناك فى تولوز أخوان مهرطقان أحدهما يدعى ريموند والآخر اسمه برنارد ادعيا القدرة على تحويل نفسيهما إلى ملائكة نورانية واستطاعت هرطقتهما أن تخدع عدداً كبيراً من الناس ، وعندما استدعى الأساقفة هذين الرجلين للتحقيق معهما طلبا توفير الأمان لهما فوافق الأساقفة على ذلك . ومثل المهرطقان أمام الكاردينال وحشد كبير من الأساقفة والنبلاء والشعب ثم أخرجا فى وجودهم وثيقة مكتوبة باللغة اللاتينية قالا إنها تتضمن آراءهما الدينية وما إن بدأ المهرطقان فى تلاوة الوثيقة حتى اكتشف الجميع جهل الرجلين المطبق باللغة اللاتينية فقد عجزا عن قراءة عبارة واحدة فى هذه الوثيقة . وعندئذ تساهل معهما الأساقفة وسمحوا لهما بشرح وجهة نظرهما الدينية باللغة الفرنسية الدارجة . وبدا من هذا الشرح شدة استمساكهما بالعقيدة المسيحية الحقة وأنه لا غبار على معتقداتهما الدينية . وكان كونت تولوز وآخرون حاضرين فتبينوا على الفور أنهما كاذبان يلجآن إلى الخديعة والتمويه فقد سبق لهما أن عبرا فى حضرتهم عن طائفة من الأفكار المهرطقة ثم حاولوا مؤخراً التراجع عنها . وهنا هب كونت تولوز وآخرون لتكذيبهم ومواجهتهم بسابق مواعظهم وآرائهم المهرطقة . ومنها قولهم بوجود إلهين : إله خير وإله شر وإن الإله الخير هو خالق الأشياء غير المنظورة التى لا تتغير أو تفسد فى حين أن الإله الشرير هو الذى خلق السموات والأرض والإنسان وكل الأشياء المرئية . وأكد بعض الشهود أنهم سمعوا هذين المهرطقين يقولان إن التناول يفسد إذا تم على يد كاهن فاسد ، وأنهما لا يريان أية فائدة أو جدوى من تعميد الأطفال . واتهم المهرطقان هؤلاء الشهود بأنهم شهود زور وأكدا أمام الكاردينال والأساقفة والشعب إيمانهم بإله واحد خالق كل ما هو مرئى وغير مرئى وأن سر التناول لا يفسد حتى إذا كان القسيس زانياً أو مجرماً وأن الخبز والخمر يتحولان بفضل هذا السر الإلهى إلى جسد المسيح ودمه . وكذلك أكدا أن تعميد الأطفال - شأنه فى ذلك شأن تعميد الكبار والراشدين - يؤدى إلى خلاصهم جميعاً من الخطيئة . وأنكرا أنهما يدعوان إلى أى نوع آخر من التعميد مثل التعميد بلمس الأيدى . وخلافاً لما ذهبا إليه فيما مضى نراهما الآن يقولان إن الكنائس ودور العبادة أماكن مقدسة تقام من أجل مجد الله وإن احترام الأكليروس واجب وكذلك اعطاءهم العشور . فضلاً عن أنه يمكن إعطاء الصدقات إلى

رجال الدين مثلما يمكن إعطاؤها للفقراء والمحتاجين . ثم أمر الكاردينال وأساقفته الرجلين أن يقسما على أنهما بالفعل يؤمنان بما يقولان ولكنهما اعترضا على ذلك استناداً إلى قول المسيح فى الإصحاح الخامس من إنجيل متى : «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة» (آية ٣٣ - ٣٤) وأيضاً قوله : «ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير» (آية ٣٧) . وعبثاً حاول الأكليروس إقناعهم بأن القسم من أجل تأكيد كلمة الله وتثبيتها شيء مختلف عن القسم لأغراض دنيوية . وأقتناعاً بهرطقتهما أصدر البابا والكاردينال ورؤساء أساقفة مقاطعتى بورجيس وناربون وأسقف تولوز قراراً بحرمانهما من الكنيسة وحثوهما بالعودة إلى حظيرة الإيمان الصحيح . والتفت رجال الدين إلى الشعب لتحذيره من الوقوع فى شراك هذه الفئة الضالة . وأخيراً أقسم كونت تولوز ومعه الشخصيات البارزة أمام كل الناس بأنهم لن يسمحوا لأمثال هؤلاء الهراطقة أن يلتمسوا معاملتهم بالرأفة أو التستر عليهم وحمايتهم نتيجة تقاضى الرشاوى .

٣ - جذور الهرطقة الوالديسية أو فقراء ليون : مؤسس هذه الهرطقة التى تعرف بفقراء ليون أحياناً والوالديسية أحياناً أخرى تاجر واسع الثراء فى مدينة ليون . وقد قيض لهرطقته أن تذيع ردحاً طويلاً من الزمان . شق والديس عصا الطاعة على الكنيسة الكاثوليكية بسبب إصراره على حق الأفراد من غير رجال الأكليروس فى التبشير بكلمة الله ، أى الإصرار على المطالبة بألا يكون الوعظ والتبشير حكراً على الكنيسة .

وعبثا حاول الأكليروس فرض الحظر على دعوة والديس الأمر الذى يعيد إلى الأذهان قصة القديس فرانسيس الأسيسى مع الكنيسة .

عاش والديس فى مدينة ليون عام ١١٧٥ حيث أصاب ثراء عريضاً من الربا واستغلال حاجة الآخرين . وفى يوم من الأيام بينما والديس يسير فى شوارع ليون وجد حشدا غفيرا من الناس يلتف حول منشد دينى يتغنى بقصيدة شعر فرنسية يرجع تاريخ تأليفها إلى نحو عام ١٠٤٠ وسط اعجابهم ونشوتهم بها . وتروى هذه القصيدة قصة زاهد اسمه القديس ألكسيس الذى عاش فى روما فى القرن الرابع الميلادى . تقول القصة إن هذا الزاهد الرومانى ينحدر من أسرة عريقة وأنه نبذ ثروته وآثر أن يعيش عيشة التسول يجوب بقاع الأرض وأمصارها حتى استقر به المقام فى سوريا . وفى أخريات حياته قرر هذا الناسك أن يعود إلى روما موطنه الأصلى . وهناك ذهب إلى أهل بيته الذين لم يعرفوا هويته وطلب منهم أن يأووه تحت سقفهم ويقيموا أوده . ولكن ألكسيس كشف لهم حقيقة أمره عندما شعر بدنو أجله . وقد شاعت هذه القصيدة وحظيت بشعبية عظيمة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . استمع والديس إلى هذه القصة الدينية فانتشى بها وبإنشادها الأمر الذى حداه إلى دعوة المنشد إلى منزله .

وبلغ التأثر بوالديس مبلغاً جعله يتوجه فى اليوم التالى إلى مدرسة اللاهوت ليلتمس عند

معلميها النصح والإرشاد . وذكر له المعلم أنه لا سبيل إلى تحقيق المرء خلاصه الروحى إلا باتباع نصيحة السيد المسيح للرجل الغنى الذى جاءه ليسأله ما عساه أن يفعله ليربح الحياة الأبدية فنصحه المسيح أن يذهب ويبيع كل أملاكه ويتبعه . وقرر والديس أن يختار طريق الخلاص فطلب من زوجته أن تختار بين الاحتفاظ بممتلكاته المنقولة أو ممتلكاته الثابتة . وحزنت المرأة لأن زوجها قرر أن ينبذ العالم ولكنها اختارت الاحتفاظ بممتلكاته الثابتة . فأعطاها إياها . ثم باع والديس المنقولات التى درت عليه عائداً كبيراً فأعاد جانباً منه إلى من تعرضوا فيما مضى لاستغلاله ثم أعطى جانباً آخر لابنتيه الصغيرتين . غير أنه أنفق الجانب الأعظم من ماله على الفقراء والمحتاجين فى ليون .

وحدثت فى تلك الأيام مجاعة مروعة اجتاحت جميع أرجاء فرنسا وألمانيا فسارع والديس بإطعام الجياع ومساعدة المحتاجين . وخصص من أجل ذلك ثلاثة أيام فى الأسبوع من عيد العنصرة الموافق آنذاك ٢٧ مايو ١١٧٣ حتى أول أغسطس من العام نفسه . وفى تلك الفترة قدم بوفرة الخبز والخضروات واللحوم لكل المحتاجين الذين يأتون إليه . وفى يوم ١٥ أغسطس ١١٧٣ خرج إلى الشارع ليوزع على الفقراء مبلغاً كبيراً من المال . بينما يفعل ذلك إذ به يصيح مردداً قول المسيح الوارد فى الإصحاح السادس من انجيل متى آية ٢٤ : «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . . . . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» . فهرع الناس نحوه وفى اعتقادهم أن مساً من الجنون أصابه . ورأوه يعتلى مكاناً مرتفعاً بدأ يعظهم منه قائلاً إنه ليس مجنوناً كما يظنون وإنه يشعر بالندم لأنه ظل طيلة حياته يعبد المال دون الله والمخلوق دون الخالق وأضاف أن الناس سوف يلومونه لأنه يتصدق عليهم علانية وبرر ذلك بقوله إنه فعل هذا لسببين حتى يظنوا أنه مجنون من ناحية وحتى يضعوا كل أملهم فى الله سبحانه وتعالى ولا يثقون بالمال والجاه .

وفى اليوم التالى ذهب والديس إلى الكنيسة .وبعد أن خرج منها مال على زميل سابق له ورجاه أن يعطيه حاجته من الطعام فاستضافه زميله فى بيته وقطع عهداً على نفسه أن يوفر له احتياجاته الأساسية مدى الحياة . وعلمت زوجة والديس بما فعله زوجها فأصابها غم شديد وجن جنونها وجرت كالملتاثة إلى مقر رئيس الأساقفة لتشكو زوجها الذى يفضل أن يشحذ خبزه من الغرباء ويرفض الالتجاء إليها مع أنها الأولى بذلك . وتأثر الحاضرون بقصة الزوجة وبكوا وأمر رئيس الأساقفة بإحضار والديس وزميله الذى استضافه . وما إن رأت الزوجة زوجها حتى بكت بحرقة وأمسكت طرف لباسه وهى تقول له : «يا زوجى أليس من الأفضل أن أكفر عن ذنوبى بدلاً من الغرباء فأقدم لك ما تحتاج إليه من صدقة» . وعندئذ أمر رئيس الأساقفة والديس بعدم قبول أى طعام من أى إنسان فى مدينة ليون غير زوجته . ولم تمض سنوات قلائل حتى وجد والديس مريدين من الأغنياء والموسرين الذين تبعوه مؤثرين حياة الفقر والعوز على حياة الرغد والدعة . ولكن كثيرين استقبلوهم بادىء الأمر بالازدراء والسخرية .

مجمع لاتيران الثالث والوالديسية :

فى عام ١١٧٩ دعا البابا ألكسندر الثالث لمناقشة الهرطقة الوالديسية . وأصدر المجتمعون قراراً بإدانة الهراطقة ومن يدافع عنهم أو يتستر عليهم . ورغم أن هذا البابا رحب بدعوة والديس إلى نبذ المال واستحسن اختياره حياة الفقر والعوز إلا أنه أصدر له ولأتباعه أمراً بمنعهم من الوعظ والتبشيّر إلا بموافقة القساوسة المحليين . وانصاع والديس وأتباعه لهذا الأمر البابوى ولكن لفترة قصيرة للغاية ثم ما لبثوا أن رفعوا راية العصيان ضده ، الأمر الذى جر عليهم المشاكل وأوخم العواقب .

وفى هذا العام نفسه (١١٧٩) رسم قاض إنجليزى متجول اسمه ماب المولود نحو عام ١١٤٠ والمتوفى نحو عام ١٢٠٨ والذى كان يعمل فيما سبق فى خدمة الملك هنرى الثانى أول صورة عرفها العالم عن أتباع والديس كما رآهم وعاشرهم فى روما . ويصورهم والتر ماب بأنهم مجموعة من البسطاء والأميين الذين نسوا أنهم جهلاء وطلبوا من البابا أن يسمح لهم بمزاولة الوعظ والتبشير ، الأمر الذى أثار زراية كثيرين منهم . ويذكر والتر بأن الوالديسيين لم يعيشوا فى سكن مستقر بل كانوا دوما يتنقلون من مكان إلى مكان ويسيرون أزواجاً حفاة الأقدام ويرتدون الملابس الصوفية الخشنة لا يملكون من متاع الدنيا شيئاً ويحيون كالرسل حياة جماعية مشتركة ولا يجدون غضاضة فى المشى عراة .

الكنيسة توحي إلى والديس بالهجوم على الكاثارية :

فى نحو عام ١١٨٠ - ١١٨١ ألقى والديس بياناً أمام جمع من كبار رجال الدين يضم هنرى مارسى المندوب البابوى فى فرنسا وهنرى رئيس دير كليرفو اللذين لعبا دوراً نشيطاً فى محاكمة الهرطقة الكاثارية فى تولوز عام ١١٧٨ . وأيضاً حضر جوفرى أوكسير هذا الاجتماع الذى كان برئاسة رئيس أساقفة جويتشارد الذى لعب فى عام ١١٦٧ دوراً حاسماً فى التصدى لطائفة مهرطقة تعرف بطائفة فيزلاى التى سوف نشير إليها فيما بعد . واستدعى المجمع والديس للمثول أمامه ليعلن على الملأ عقيدته الدينية ويدفع عن نفسه تهمة اغتصاب وظيفة الكهنوت وزرايته برجال الأكليروس والاعتماد فى معاشه على جهد الآخرين وكدهم . وقد خلا بيان والديس تماماً من كل أثر للمروق على الكنيسة الكاثوليكية أو الخروج على صحيح الدين وظهر للوهلة الأولى من صياغة البيان أنه يتعارض تماماً مع التعاليم الكاثارية . ومن الواضح أنه مأخوذ من بيان تقليدى قديم عن العقيدة المسيحية يرجع تاريخه إلى القرن السادس وأن نسخة معدلة أعطيت لوالديس نحو عام ١١٨٠ - ١١٨١ ليتلوها على المجمع . ويرجع السبب فى إدخال التعديلات الكثيرة على البيان إلى قلق الكنيسة من انتشار الهرطقات فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وإلى رغبتها فى دحض الكاثارية عن طريق والديس الذى اتفق فى بيانه مع مبادى الكنيسة الكاثوليكية كافة . قال والديس إنه يؤمن بالثالوث (الأب والابن والروح القدس) وأن الثالوث إله واحد خالق الكل ما هو منظور وما

هو غير منظور وخالق العهدين القديم والحديث فهو إله موسى والأنبياء والرسل . ويشهد والديس بأن للمسيح لاهوتا وناسوتا وأنه لا يشك للحظة واحدة فى ناسوته فهو مولود بالجسد من مريم وكابد العذاب والآلام على الصليب . ثم قام بعد دفنه من الأموات . والرأى عنده أن خلاص المسيحى لا يتم إلا عن طريق الكنيسة المسيحية وأن الخبز والخمر يتحولان بالفعل إلى جسد المسيح ودمه وأن فساد الكاهن الشخصى لا يعنى فساد الأسرار التى يتولى القيام بها . ولا ينكر والديس أهمية الجانب الجسدى فى الزواج ولا يرى أن أكل اللحوم حرام . وعقيدته أن جسد الإنسان سيبعث على هيئة جسدية وأن إعطاء الصدقة وإقامة القداديس وفعل الخير كرحمة على الموتى أمر لا يتعارض مع صحيح الدين ومعمودية الأطفال سليمة لأنها توفر الخلاص للأطفال الذين يموتون فى طفولتهم . فضلاً عن أن التنظيمات الكنسية كافة سليمة ولا ينبغى مهاجمتها . وهكذا يتبين لنا أن الآراء التى عبر عنها والديس فى بيانه تناقض ما كانت الهرطقة الكاثارية وغير الكاثارية (مثل هرطقة كل من هنرى لوزان وبطرس برايزر) تذهب إليه . وكما أسلفنا يبدو أنه جاء بناء على طلب رجال الكنيسة الذين انزعجوا انزعاجاً شديداً بسبب ذيوع الهرطقة وانتشارها آنذاك .

ولكن هذه المصالحة بين الوالديسية والكنيسة الكاثوليكية لم تدم طويلاً . فقد جاء رئيس أساقفة جديد ليقلب لهم ظهر المجن ويشن حرباً شعواء عليهم ويتهمهم بالهرطقة صراحة ودون مواربة ويأمر بطردهم من مدينة ليون .

شهادة ستيفن بوربون عن أصل الوالديسية أو فقراء ليون :

بالرغم من أن ستيفن بوربون أدلى بشهادته بعد ظهور نحو نصف قرن على الوالديسية فإن شهادته لها أهمية خاصة نظراً لأنها تستقى معلوماتها من أناس خالطوا والديس وعرفوه فى حياته . درس ستيفن بوربون (المتوفى عام ١٢٦١) فى باريس والتحق بدير الدومنيكان فى ليون عام ١٢٢٣ ثم أصبح محققاً فى محاكم التفتيش بعد ذلك . وفى عام ١٢٤٩ اعتزل الدنيا ليعيش عيشة النسك فى صومعته . وفيما يلى ما سمعه ستيفن بوربون عن أصل الوالديسية من قسيس فى مدينة ليون اسمه برنارديد وس كان على صلة وثيقة بطائفة الرهبان الدومينيكان . عمل برنارد يدوس فى شبابه كاتبا لدى والديس الذى طلب منه بسبب جهله باللاتينية وعلمه المحدود أن يترجم له الأناجيل وبعض كتابات الآباء من اللاتينية إلى اللغة الفرنسية العامية . وبعد أن توفر والديس على دراسة هذه الترجمات وحفظها عن ظهر قلب قرر أن يعيش كما عاش الرسل وأن يكرس حياته للكرازة . وصور له خيلاؤه أنه واحد من هؤلاء الرسل . ويذكر ستيفن بوربون أنه نما إلى علمه أن بعض زعماء الوالديسية يلجأون إلى الحيلة والخداع لتغيير مظهرهم والتمويه على أعدائهم . فالواحد منهم يبدو حاجاً أحياناً وراتق أحذية أحياناً أخرى وحلاقاً أو حاصداً أحياناً ثالثة . وهو يذهب إلى أن الوالديسية ظهرت عام ١١٧٠ على وجه التحديد فى عهد يوحنا رئيس أساقفة ليون .

مناظرة بين الكاثوليك وأتباع والديس

نزح أتباع والديس إلى جنوب فرنسا بعد طردهم من مدينة ليون . وفى خلال سنوات قلائل بدأوا يبشرون بآرائهم بالقرب من مدينة ناربون دون يعبأوا بإدانة برنارد جوسلين رئيس أساقفة ناربون لهم وذلك فى مجمع دعا إلى عقده نحو عام ١١٩٠ . وعندما لم يتوقف أتباع والديس عن التبشير تصدت لهم الكنيسة وناظرتهم وقارعتهم الحجة بالحجة على نحو ما فعلت من قبل فى قرية لومبرز المهرطقة عام ١١٦٥ . وفى عام ١١٩٠ تقريباً أصبحت مدينة ناربون والأماكن المجاورة لها مسرحاً لهذه المناظرات الدينية المحتدمة . وقد قام رئيس دير اسمه برنارد مونتكود المتوفى عام ١١٩٣ بتسجيل معظم هذه المناظرات فى كتاب يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١١٨٥ تقريباً . وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء يتناول الجزء الأول فيه (من الفصل الأول حتى الفصل الثالث) الخطأ الذى ارتكبه أتباع والديس عند عصيانهم أمر الكنيسة . ويتناول الجزء الثانى (من الفصل الرابع حتى الفصل الثامن) المحاجات المؤيدة والمناهضة لتعاليم الوالديسية . أما الجزء الثالث والأخير (من الفصل التاسع حتى الفصل الثانى عشر) فيتناول العقائد الدينية التى يرفضها الهراطقة سواء كانوا من أتباع والديس أو غيرهم . وفيما يلى ملخص لأهم ما جاء فى كتاب برنارد جوسلين .

يتضمن الفصل الأول اعتراضاً على رفض الوالديسيين طاعة أوامر البابا ورجال الأكليروس . ويتحدث الفصل الثانى عن السلطة المخولة لرجال الكنيسة ووجوب احترامهم وإطاعة أوامرهم . ويعارض الفصل الثالث الذين ينكرون على رجال الدين قدرتهم على شفاء الروح . أما الفصل الرابع فيدحض رأى الوالديسيين القائل بأنه يحق لكل الناس التبشير بكلمة الله سواء كانوا من الأكليروس أو غيرهم . ويحرم الفصل الخامس على الوالديسيين تبشير المسيحيين . ويفند الفصل السادس المحاجة الزائفة والتى يتعلل بها الوالديسيون والتى تقوم على الاستشهاد الخاص من الكتاب المقدس مثل الاستشهاد بالآية ٢٩ من الإصحاح الخامس من أعمال الرسل : «ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس» . ويصف الفصل السابع نوع الأشخاص الذين ينجح الوالديسيون فى خداعهم وتضليلهم . ويفند الفصل الثامن مزاعمهم فى أحقية النساء فى ممارسة الوعظ والتبشير . كما يدحض الفصل التاسع ادعاءهم بأن الصدقة والصيام وإقامة القداديس والصلاة لا تفيد الموتى فى قليل أو كثير .

ويرد الفصل العاشر على إنكار الوالديسيين وجود نار المطهر وزعمهم أن الأرواح عند خروجها من الأجساد تنطلق مباشرة إلى الفردوس أو الجحيم . ويعترض الفصل الحادى عشر على الرأى القائل بأن أرواح الموتى وهى تنتظر النشور لا تذهب إلى السماء أو الجحيم بل تلجأ إلى ملاذات أخرى . أما الفصل الثانى عشر والأخير فيدحض الرأى الرافض لبناء الكنائس والصلاة فيها باعتبار أن الكنيسة من صنع البشر واستناداً بغير وجه حق إلى ما جاء فى الآية ٤٨ من الإصحاح السابع من أعمال الرسل : «لكن العلى لا يسكن فى هياكل مصنوعات الأيادى» .

الشاعر الفيلسوف ألان ليل يهاجم الهراطقة الوالديسيين :

فى نهاية القرن الثانى عشر أصبحت مقاطعة لانجويدوك بجنوب فرنسا تمور بالهرطقة بوجه عام والهرطقتين الكاثارية والوالديسية بوجه خاص . وليس من شك أن اصرار الكاثارية والوالديسية على إصلاح الكنيسة وتطهيرها من أو شابها ساعدهما على الذيوع مثلما ساعدت نزعة هنرى لى مان الإصلاحية على انتشار أفكاره المهرطقة من قبل .

ويعتبر الكتاب الأدبى الذى ألفه الشاعر والفيلسوف اللاهوتى الكبير آلان ليل من الأعمال العلمية ذات المستوى الرفيع التى تصدت للهرطقة الوالديسية . ومن المؤسف أن الدارسين لا يعرفون غير النذر اليسير فى حياة هذا العالم المتبحر فى شئون الدين .

ولد آلان فى مدينة ليل نحو عام ١١٢٨ وتوفى فى عام ١٢٠٣ . وتلقى تعليمه فى مدينة شارتر ثم اشتغل بالتدريس فى باريس . ذاع صيته كشاعر ووجدت بعض قصائده استجابة شعبية كبيرة . كتب آلان بحثه «عن العقيدة الكاثوليكية » فى الفترة بين عامى ١١٧٩ و١٢٠٢ وفيه يشن هجوماً يغلب عليه الطابع الموضوعى والأكاديمى على الهرطقات الشائعة وعلى رأسها الوالديسية إلى جانب هجومه على اليهود . ويتميز أسلوب آلان ليل فى مبحثه بسعة الإطلاع والتعمق اللاهوتى والقدرة المدهشة على استخدام الحاجات المنطقية والفلسفية فيما يعرض من مناقشات فضلاً عن اقتباساته العميقة من المؤلفين الكلاسيكيين وكتابات آباء الكنيسة .

يصف آلان ليل الوالديسيين بأنهم أدعياء فضيلة وصلاح وأنهم تقاة فى الظاهر فقط مع أنهم ذئاب مفترسة تنهش أرواح المؤمنين . والرأى عنده أن جهلهم بالكتاب المقدس يمنعهم من التبشير فليس من المعقول أن يبشر إنسان بشىء لا يفهمه فضلاً عن أنهم كسالى لا يكسبون أرزاقهم من عرق جبينهم فى حين أن الكتاب المقدس يحث على العمل . ويسوق لنا آلان عدداً كبيراً من آيات الكتاب المقدس التى تثبت أنه لا يمكن لأى إنسان أن يضطلع بمهمة التبشير بكلمة الله بدون سماح من سلطة أعلى مثلما أذن المسيح لتلاميذه بأن يفعلوا ذلك . ومثلما جاء على لسان الأب فى الآية الخامسة من الإصحاح الأول من سفر إرميا : «مثلما صورتك فى البطن عرفتك ومثلما خرجت من الرحم قدستك جعلتك نبياً للشعوب» . وجميع الأنبياء فى العهد القديم مرسلون من قبل الله لتبشير الناس وهدايتهم . ثم إن الكتاب المقدس ينص صراحة على تحريم اغتصاب أعمال الآخرين ووظائفهم فنحن نطالع فى الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن قورح هلك حرقاً بالنار لأنه اغتصب عمل غيره . ومما يزيد الطين بلة أن الوالديسيين يسمحون للنساء بالتبشير بكلمة الله خلافاً مع النص الكتابى الصريح . فقد جاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس إصحاح ١٤ آية ٣٤ - ٣٥ : «لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً . ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة .»

التوفيق بين فريق الوالديسيين والكنيسة :

فى أوائل القرن الثالث عشر تفاقمت الصراعات بين الكاثوليك وطائفتى المهرطقين الكاثاريين والوالديسيين . وزاد من تعقيد الأمور أن فريقاً من الوالديسيين تصالح مع الكنيسة من أجل العمل تحت مظلتها فى محاربة أعدائهم من الكاثاريين . ففى ديسمبر عام ١٢٠٨ قبل البابا إنسونت الثالث توبة واحد من أبرز المهرطقين الوالديسيين أسمه ديراند هويسكا ومعه أربعة من رفاقه . واقترح هؤلاء الهراطقة التائبون إنشاء جمعية دينية جديدة أطلقوا عليها جمعية الكاثوليك المساكين بهدف التصدى للهرطقة والوقوف فى وجهها . فوافقهم بابا روما على ذلك . ومارست هذه الجمعية نشاطها على ثلاثة مستويات تبدأ بمناقشة الهراطقة فى آرائهم ثم زيادة الوعى الدينى لدى أعضاء الجمعية ثم مخاطبة الجماهير العريضة ووعظهم وتبشيرهم . وهناك خطاب كتبه البابا إنسونت الثالث فى ١٨ ديسمبر ١٢٠٨ يدل على موافقته على انتهاج جمعية الكاثوليك المساكين لهذه السياسة التى بدأ المهرطق الوالديسى السابق ديراند ورفاقه فى تنفيذها على الفور . وبحلول شهر إبريل من عام ١٢٠٩ نجح ديراند ورفاقه فى تجنيد بعض الوالديسيين - الذين نبذوا الوالديسية - فى مدينة ميلانو الإيطالية وأراد ديراند أن يثلج صدر البابا فأبلغه أن بإمكانه استمالة أكثر من مائة شخص آخر اجتذبهم من صفوف الوالديسيين الإيطاليين فى لومبارديا الذين أعلنوا عن انشقاقهم منذ عام ١٢٠٥ عن فقراء ليون بفرنسا . ولكن جمعية الكاثوليك الفقراء لم ترق فى عيون بعض الناس فاشتكوا بأن مسلكهم يثير الشك فى إخلاصهم وصدق توبتهم . وقد وجهت إلى الكاثوليك الفقراء - كما وجهت إلى الوالديسيين من قبل - تهمة ازدراء رجال الدين . ورغم ما أصابته هذه الجماعة من نجاح محدود لبعض الوقت ورغم تأييد البابا لها فقد كان الأكليروس يشكون فى أمرها . ومن ثم أصدرت السلطات فى ناربون عام ١٢٤٧ أمراً بمنعهم من التبشير فى هذه المدينة . ومما زاد الموقف تعقيداً أن يظهر فى الوقت نفسه الذى أنشئت فيه جمعية الكاثوليك الفقراء تنظيمان كبيران للرهبنة التى تختار طريق الفقر هما التنظيمان اللذان أقامهما القديس فرانسيس الأسيسى (١١٨١ - ١٢٢٦) والقديس دومينيك (نحو ١١٧٠ - ١٢٢١) . والأول هو مؤسس رهبنة الفرنسيسكان والثانى مؤسس رهبنة الدومنيكان .

ويجدر بالذكر أن ديراند هويسكا فعل نفس ما فعله والديس من قبل عندما آثر أن يتصالح مع الكنيسة بأن وقع على وثيقة يعرب فيها عن إيمانه الكامل بكل مبادىء الكنيسة الكاثوليكية . وتكاد الوثيقة الإيمانية التى وقع عليها وتلاها ديراند هويسكا فى حضرة الشهود أن تكون صورة طبق الأصل من الوثيقة التى سبق لوالديس أن تلاها . وقبل أن يقبل البابا توبة ديراند هويسكا وعودته إلى حظيرة الكاثوليكية نراه يطلب إليه أن يقسم على إخلاصه وصدق نواياه وبعزمه الأكبر على محاربة الهرطقة والتصدى لها .

وسجل الخطاب الذى بعث به البابا إلى ديراند هويسكا وإخوانه الاتهامات التى وجهها إليهم

بعض رجال الدين فى ناربون وبيزيه وغيرهما من المدن . وتتلخص هذه الاتهامات فى تصويرهم بالوقاحة وسوء الأدب فى معاملة الكهنة والأساقفة ورؤساء الأساقفة وفى أن ديراند هويسكا درج على اصطحاب نفر من الهراطقة الوالديسيين الذين لم يقرر رجال الكنيسة أنهم تابوا عن هرطقتهم ودعوتهم لحضور الكنيسة حيث يشتركون معه فى ممارسة بعض الأسرار الكنسية . فضلاً عن أنه يصاحب عدداً من الرهبان الذين هجروا الدير ونبذوا الرهبنة كما أنه يضعف الكنيسة الكاثوليكية بتحريض تلاميذه ومريديه ضد ارتيادها والاكتفاء بتعاليمه لهم فى مدارسه ومنتدياته بل إنه يحرض أصدقاءه من رجال الأكليروس على الامتناع عن الذهاب إلى الكنيسة . ويزجره البابا ويعنفه قائلاً إنه كان يجدر به أن يتبع القانون الكنسى الذى ينص على عدم السماح بالمطرودين من الكنيسة أن يعودوا إليها دون أن تأذن الكنيسة بذلك . وأيضاً يحذره من مغبة مخالطة المرتدين عن الدين كما أنه ينحى عليه بالملامة لأنه لم يتخلّ عن ملبسه القديم الذى اعتاد أن يرتديه أيام الهرطقة ، ونهاه عن لبس ذلك الصندل المفتوح الذى درج الهراطقة الوالدسيون على لبسه . وينتهى خطاب البابا بضرورة أن يتحلى ديراند هويسكا بالتواضع وإظهار الاحترام اللائق والطاعة الواجبة نحو رجال الكنيسة .

الوالديسيون والهوميلياتيون وجماعة صغار الرهبان :

إلى جانب الوالديسيين ظهرت فى الفترة بين ١٢١٠ و١٢١٦ جماعتان دينيتان حظيتا بموافقة البابا هما جماعة صغار الرهبان وجماعة «الواعظون» . ويرجع السبب فى موافقة البابا عليهما رغبته فى التصدى لنشاط حركتين دينيتين أخريين اعتبرهما هذا البابا من الحركات المهرطقة المنتشرة فى إيطاليا وهما حركتا الهوميلياتيين وفقراء ليون الذين كانوا لا يكفون فى اجتماعاتهم السرية عن الزراية برجال الكنيسة .وقد سعى لدى بابا روما عضو فى جماعة فقراء ليون اسمه برنارد حتى يوافق على نشاط جماعته ويستجيب لمطالبها . كان فقراء ليون ينتقلون من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة يبشرون بكلمة الله ويقتدون بحياة الرسل ويعرضون عن متاع الدنيا . ورغم ذلك أنحى البابا عليهم باللائمة لأنهم يفتحون أحذيتهم من فوق فإذا ساروا بدوا كما لو كانوا حفاة .ومع أنهم كانوا يلبسون غطاء الرأس نفسه الذى يلبسه الرهبان فإنهم كانوا يقصون شعرهم على طريقة الناس العاديين من غير الأكليروس كما أنهم كانوا يصطحبون النساء فى جولاتهم التبشيرية ويسكنون معهم تحت سقف واحد . ويقال إنهم لم يتورعوا عن النوم معهن فى الفراش نفسه .ولهذا امتنع البابا عن تعضيد هذه الجماعة مفضلاً عليها جماعة أخرى تعرف باسم «الفقراء الأصغر» (أو الأمل) التى أعرضت عن الممارسات الفاضحة المرتبطة بنشاط فقراء ليون . غير أن أعضاء «جماعة الفقراء الأصغر» كانوا يتنقلون وهم حفاة تماماً صيفاً وشتاء من مكان إلى مكان . ورفضوا أن يأخذوا من الناس أى نقود أو أى شىء آخر باستثناء الزاد الذى يقيم أودهم لمجرد يوم واحد لا أكثر . وأحياناً كانوا يقبلون بعض الملابس التى قد يقدمها إليهم المحسنون من تلقاء أنفسهم . وفيما بعد اختارت هذه

الجماعة اسماً آخر هو «صغار الرهبان» ليبعدوا عن أنفسهم مظنةَ التباهى بالفقر والتفاخر بالاتضاع . وقد قطعت هذه الجماعة على خلاف جماعة فقراء ليون عهداً بالانصياع للكنيسة وطاعة البابا فى كل شيء . أما جماعة «الواعظون» التى تعتبر خليفة جماعة الهوميلياتيين فكانت تمارس التبشير الدينى وتتلقى اعترافات المسيحيين دون إذن من الكنيسة التى كان أعضاء الجماعة لا يخفون احتقارهم لها . وأراد البابا أن يحد من نشاط هذه الجماعة المعادية للكنيسة بتشجيع جماعة «الواعظون» وفى حين كانت جماعة الهيوميلياتيين تتسم بالجهل عنيت جماعة «الواعظون» . أشد العناية بالتوفر على دراسة الأناجيل والكتاب المقدس واستنساخ الكتب والاستماع إلى شرحها من أساتذتهم ومعلميهم . ويرجع رضاء البابا عن هذه الجماعة إلى أنها أظهرت الطاعة والولاء له .

وثيقة تتناول هرطقة البيجانسيين والوالديسيين :

عثر الدارسون على وثيقة تتناول الهرطقتين البيجانسية والوالديسية فى الفترة بين عامى ١٢٠٨ و١٢١٣ . ونظراً لأن الوثيقة تعالج الهرطقة البيجانسية التى تنسب إلى مدينة ألبى بفرنسا فسوف نركز على الضوء الذى تلقيه الوثيقة على هذه الهرطقة دون غيرها .

انتشرت هرطقة ألبى فى الفترة المشار إليها فى عدد من المدن الفرنسية مثل ناربون وبيزيه وتولوز وألبى . وتنادى هذه الهرطقة عادة بوجود إلهين إله للخير وإله للشر مستندة فى ذلك إلى الآية ١٩ من الإصحاح الخامس فى سفر إرميا التى تقول : «إنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم» . والرأى عندها أن إله الشر هو خالق العالم المنظور فهو عالم شرير ومن المستحيل أن يتصور إنسان أنه من خلق إله خير . والهرطقة البيجانسية تستند فى ذلك إلى ما جاء فى الآية ٧ من الإصحاح ١٨ من إنجيل متى التى تقول : «لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة» . وتذهب البيجانسية إلى أن شريعة موسى من صنع إله الشر وتدلل على ذلك بما جاء فى الآيتين ٥ و ٦ من الإصحاح السابع فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية : «لأنه لما كنا فى الجسد كانت أهواء الخطايا التى بالناموس تعمل فى أعضائنا لكى تثمر للموت . . .» فضلاً عن أن البيجانسيين يرفضون معمودية الأطفال بالماء لأنه لا جدوى من المعمودية إلا إذا كان الإنسان مدركاً لأهميتها . وهم لا يؤمنون ببعث الأجساد فى هيئتها الجسدية استناداً إلى قول بولس الرسول آية ٥٠ إصحاح ١٥ من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : «فأقول أيها الأخوة إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد» . ويزعم هؤلاء الهراطقة فى اجتماعاتهم السرية أن الله الشرير خلق أول ما خلق أربعة كائنات اثنين من الذكور واثنتين من الإناث وكذلك أسدا وآكل النمل ونسراً وروحاً . واستطاع إله الخير أن ينتزع من إله الشر الروح والنسر وصنع منهما الأشياء التى خلقها . وبعد انقضاء فترة من الزمان استبد الغضب بإله الشر وأراد الانتقام منه لأنه سلبه بعض مخلوقاته فأرسل واحداً من أبنائه اسمه لوسيفر وبصحبته عدد كبير من الرجال والنساء إليه للانتقام

منه عن طريق الخديعة . وبالفعل انخدع إله الخير بذكاء لوسيفر ومظهره الجميل فعينه أميراً وكاهناً وسيدا على شعبه . وأعطى لوسيفر عن طريق إله الخير عهداً لشعب إسرائيل . وهكذا تمكن لوسيفر من تضليل شعب إله الخير .وإمعاناً فى خداعهم وتضليلهم وعدهم بعالم غير الذى يعرفونه يفيض بالعذوبة والمتعة والجمال . كما نجح فى تحريضهم ضد إله الخير الذين يدينون بالولاء له . ولم يكتف لوسيفر بهذا بل حمل جانباً منهم وبعثرهم فى أرجاء ممالكه ثم أرسل الناس الأكثر نبلاً إلى عالم الأرض الذى يسميه أحياناً البحيرة الأخيرة وأحياناً أخرى الأرض القاصية وأحياناً ثالثة الجحيم العميق .وأيضاً أرسل الأرواح التى يقال إنها تركت أجسادها مسجاة على رمال الصحراء . هؤلاء هم خراف بنى إسرائيل المفقودين الذين جاء المسيح لإنقاذهم ، وفى اعتقاد البيجانسيين أن مريم المباركة أم المسيح لم تكن من كوكب الأرض كما أن المسيح الذى يتطلعون إلى الخلاص على يديه لم يكن له أى وجود مادى بل كان وجوده روحياً صرفاً . ويرجع مظهره المادى وانتماؤه إلى العالم إلى أنه سكن جسد بولس الرسول كما يتضح من الآية الثالثة من الإصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس : «إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم فى» . وهم يرون أن المسيح ولد فيما يسمونه أرض الأحياء من يوسف ومريم اللذين يعتبرهما آدم وحواء . وأرض الأحياء عامرة بالمدائن والماء العذب والمراعى الخضراء والأشياء كافة المألوفة فى هذا العالم . كما أن الناس عند انتقالهم إلى عالم الأحياء يفعلون نفس ما يفعله البشر على كوكبنا الأرضى . فهم يأكلون ويشربون وينامون ويلعبون ويمرحون . والمرء فى عالم الأحياء لا يعاشر زوجته فحسب بل أحياناً تكون له خليلة . والله فى نظر هؤلاء الهراطقة له زوجتان اسم الأولى كولام والثانية كوليبام . كما أنه ينجب بنين وبنات مثلما يفعل البشر ، فلا غرو إذا رأينا بعض هؤلاء المهرطقين لا يجدون أدنى غضاضة فى الممارسات الجنسية حتى ولو كانت لقاء أجر . وهم يؤمنون بأن روح الميت تدخل جسداً آخر قد يكون جسد إنسان أو حيوان . أما إذا مات المرء مؤمناً بعقيدتهم فإن روحه سوف تذهب إلى أرض جديدة يعدها الله لكل الأرواح التى يكتب لها الخلاص . وهناك تنتظر حتى يحين وقت نشورها فى عالم الأحياء حيث تتمتع بكل مواريثها وممتلكاتها . ومن بين تعاليم البيجانسيين كذلك أن المسيح تزوج مريم المجدلية وأنها هى المرأة نفسها السامرية والمرأة نفسها التى ضبطها اليهود فى حالة زنا فأرادوا رجمها بالحجارة لولا أن المسيح قال لهم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر . كما أن يوحنا المعمدان روح شريرة . غير أن البيجانسيين لم يتفقوا جميعاً على مذهب هرطوقى واحد فقد كان منهم من يخترع ويجدد فى هرطقته مثل اعتقاد بعضهم بوجود إله واحد وأن هذا الإله أنجب ولدين هما المسيح وأمير هذا العالم واعتقادهم بأن الابنين ارتكبا المعصية ولكن المسيح تغلب على الخطيئة وتصالح هو وشعبه مع الله .

وصف بيترفو دي سيرناي للهرطقتين الكاثارية والوالديسية :

كان بيتر راهباً فى دير طائفة السسترسيان الذى يقع نحو خمسة وعشرين ميلاً فى جنوب فرنسا

وكان عمه الذى اشترك فى شن الحملة الألبجناسية فى منطقة لانديك فى عام ١٢١٢ رئيساً لهذا الدير منذ عام ١١٨٤ . ومن ناحيته اشترك بيتر فى الهجوم على سيمون وأتباعه من هراطقة مونتفورت الذين تناولناهم فى موضع آخر . يقول بيتر إن هرطقة الوالديسيين تتلخص فى أربع نقاط .

١ – التشبه بالرسل فى لبس الصنادل .

٢ – رفض القسم تحت كل الظروف .

٣ – رفضهم إزهاق الروح حتى ولو كانت روح حيوان .

٤ – منح كل من يلبس صندلا على طريقتهم الحق في إعطاءالتناول بدون إذن من الكاهن أو الكنيسة . ويضيف بيتر أن أسلوبهم فى المعمودية كان عن طريق وضع يد الكاهن الخاص بهم على رأس المتلقى للمعمودية وتقبيله ثم إلباسه رداء أسود .

ويقول بيتر عن الكاثاريين إنهم يؤمنون بوجود إلهين أحدهما شرير والآخر خير على نحو ما أسلفنا وأن العهد الجديد من صنع إله الخير والعهد القديم من صنع إله الشر باستثناء عدد محدود من الفقرات التى وجدت طريقها من العهد القديم إلى العهد الجديد . وإله العهد القديم فى نظرهم كاذب بل قاتل فهو قد أحرق شعب سدومة وعامورة وأغرق العالم بالفيضان كما أغرق فرعون والمصريين فى البحر الأحمر ، ولهذا فإن اللعنة تصيب كل أنبياء العهد القديم . يقول بيتر إن الكاثاريين يذهبون إلى وجود مسيحين لا مسيح واحد : المسيح الذى ظهر على الأرض ورآه الناس فى بيت لحم وصلبوه فى أورشليم وهو مسيح شرير اتخذ من مريم المجدلية محظية وهى المرأة نفسها التى قال عنها الكتاب إنها ضبطت فى ذات الفعل . أما المسيح الآخر الخير فلم يأكل أو يشرب ولم يكن له جسد مادى بل كان مجرد روح اتخذت من شخص بولس جسداً لها . ويعتقد بعض هؤلاء المهرطقين أن هناك عالماً آخر غير منظور ولد المسيح وصلب فيه . وعلى أية حال ذهب بعضهم إلى وجود خالق والد أنجب ابنين هما المسيح والشيطان كما ذهب بعضهم الآخر إلى أن إله الخير كان يحتفظ بزوجتين أنجب منهما البنين والبنات . وهاجم هؤلاء الهراطقة الكنيسة الكاثوليكية واعتبروها مغارة لصوص ووصفوها بالعاهرة التى جاء ذكرها فى سفر الرؤية . كما هاجموا القداديس وطقوس الكنيسة المقدسة وأعلنوا أن ماء المعمودية لا يختلف عن ماء النهر وأن الخبز الذى يتحول إلى جسد المسيح لا يختلف عن أى خبز عادى . واحتجوا بأنه حتى لو كان جسد المسيح فى حجم جبال الألب لفنى عن آخره واستهلكه المسيحيون الذين يشتركون فى سر التناول على مر الزمان وتعاقب العصور . والرأى عند بيتر أن تظاهر الكاثاريين بالطهر وامتناعهم عن أكل اللحوم والبيض والجبن لا يخرج عن كونه إدعاء وليس أدل على انحلالهم من قول بعضهم إن أعضاء الإنسان من الخصر فأسفل لا تعرف الخطيئة . واعتبروا الصور والتماثيل فى الكنائس ضربا من عبادة الأوثان وذهبوا إلى أن أجراس الكنيسة وأبواقها رجس من الشيطان . وكان شمامستهم وأساقفتهم يضعون أيديهم على

رؤوس أتباعهم الذين ينتظرون الموت ويصلون معهم «أبانا الذى فى السموات» فيضمنون لهم بذلك الخلاص مهما بلغت درجة انحلالهم . أما إذا مات الشخص دون أن يفعل له الكاهن هذا أو يتبين أنه لا يحفظ أبانا الذى فى السموات فمصيره الهلاك .

انتشار الهرطقة في شمال أوروبا في الفترة من عام (١١٥٥ و١٢١٦) :

لعلنا نذكر انتشار الهرطقة الكاثارية فى مدينة كولونى الألمانية فى الفترة بين عامى (١١٤٣ و١١٤٤) الأمر الذى دفع الراهب إيروين إلى التماس النصح والمشورة من القديس برنارد . وبعد مرور عشرين عاماً اكتشف المسئولون أن الهرطقةلم تندثر من كولونى وأن مجموعة صغيرة من المهرطقين لا تزال هناك ، يظن بعض الدارسين أنها مجرد فلول من قدامى المهرطقين الكاثاريين فى هذه المدينة ويظن بعضهم الآخر أنهم جاءوا من فلاندز هرباً من الضغط والاضطهاد . وعندما أطلت الهرطقة فى كولونى برأسها من جديد تصدى لها قساوسة المدينة وعلى رأسهم واحد اسمه إكبرت . وفى ٥ أغسطس ١١٦٣ على وجه التحديد تم القبض على هراطقة كولونى . وبعد أن قامت السلطة العلمانية باستجوابهم أصدرت حكماً بإدانتهم .وعندما هم الحراس بجذبهم من أماكنهم لإخراجهم طلب زعيمهم أرنولد ممن حوله أن يعطوه خبزاً وإبريق ماء . غير أن بعض الحاضرين توجسوا خيفة من هذا الطلب وخشوا أن يستخدمه أرنولد فى عملية التناول وإشراك زملائه فيه ، واقتاد الحراس الهراطقة خارج المدينة بالقرب من مدافن اليهود وألقوا بهم عن بكرة أبيهم فى النار . واجتمع الناس للفرجة عليهم وهم يحترقون فرأوا زعيمهم أرنولد يضع يده على رؤوس تلاميذه الذين اشتعلت النيران فى أجسادهم ليشجعهم وليشد من عزمهم بقوله : «اثبتوا فى إيمانكم فاليوم سوف تكونون مع لورانس» ويعنى بذلك شهيد المسيحية الذى مات حرقاً فى ١٠ أغسطس عام ٢٥٨ .

وكان بين الهراطقة فتاة حسناء رثى لحالها بعض الموجودين فأبعدوها عن النيران وتعهدوا بالعمل على تزويجها أو إرسالها إلى الدير . ويبدو أنها وافقت على هذا ولكن بعد احتراق زملائها الهراطقة حتى الموت التفتت إلى حراسها القابضين عليها وسألتهم : «أين جثة ذلك الرجل الذى ضللنا» فأشاروا لها إلى جثة أرنولد وفجأة انتزعت الفتاة نفسها من قبضة حراسها وغطت وجهها بردائها ثم ألقت بنفسها على جسد الرجل الميت لتلفظ أنفاسها معه .

الهراطقة في إنجلترا :

كان انتشار الهرطقة فى إنجلترا ضعيفاً ومحدوداً للغاية ، ويسجل المؤرخ الإنجليزى وليم نيوبر أول إشارة إلى ظهور الهرطقة فى إنجلترا . ومنها نعرف أن الهرطقة فى إنجلترا التى تعرف بجماعة العشارين لم تكن إنجليزية الأصل بل جاءت إلى إنجلترا عن طريق منطقة فلاندرز الفرنسية أو الراين

الألمانية ولا يستبعد أنهم تأثروا بالكاثاريين . وبعد وصولهم إلى الأراضى الإنجليزية بسنوات قلائل ألقت السلطات الإنجليزية القبض عليهم وأصدرت ضدهم فى مدينة أكسفورد حكماً بإدانتهم . وفيما يلى قصة العشارين الإنجليز .

فى الفترة بين عامى (١١٦١ - ١١٦٦) نزحت إلى إنجلترا جماعة صغيرة مهرطقة من أصل ألمانى وتتحدث الألمانية ولا يزيد عددها على ثلاثين مهرطقاً يتزعمها مهرطق مجهول الهوية اسمه جيرارد . واستطاع هؤلاء الهراطقة أن يضموا إلى صفوفهم امرأة مسكينة . ولم يكن من الصعب اكتشاف أمر هذه الفئة الضالة بسبب أعجميتها . وبعد القبض عليهم أمر ملك إنجلترا بعدم اطلاق سراحهم أو إنزال أى عقاب بهم إلا بعد استجوابهم . واتضح من التحقيق معهم أنهم يحتقرون المعمودية وعملية تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ويهاجمون الزواج . وعبثاً حاول رجال الأكليروس الإنجليز إقناعهم بخطئهم فقد ظلوا يتشبثون بهذا الخطأ أكثر فأكثر . ولهذا قام الأساقفة بتسليمهم إلى رئيسهم ليوقع عليهم ما يشاء من عقاب بدنى فأمر بدمغ علامة العار والشنار على حواجبهم وضربهم فى وجود الناس وطردهم من المدينة . وعندما سمع هؤلاء الهراطقة الحكم الصادر ضدهم عبروا عن فرحتهم وابتهاجهم واقتادهم حراسهم وهم يغنون وينشدون الآية (١١) من الإصحاح الخامس من إنجيل متى : «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين» ، وقامت السلطات بدمغ زعيمهم بعلامة العار مرتين على كل من حاجبه وذقنه وجردوهم من ثيابهم حتى الخصر وضربوهم ضرباً مبرحاً ثم طردوهم من المدينة . وفى العراء هلك هؤلاء الهراطقة بسبب شدة برودة الجو فى الشتاء وامتناع الأهالى عن تقديم يد العون إليهم . وأدى هذا العقاب الصارم إلى تطهير إنجلترا بصورة نهائية من أو شاب الهرطقة .

العشارون في فيزيلاي :

انتشرت فى فيزيلاى بشمال فرنسا فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر هرطقة العشارين فى جو مضطرب عاصف يمور بالتمرد المدنى ويرفض مبدأ تدخل العلمانيين والكنسيين فى شئون الأديرة . وتفوح هرطقة العشارين برائحة الكاثارية كما أنها تذكرنا بالمهرطقين هنرى وبطرس برايزر . وقد أرخ لهرطقة فيزيلاى رجل اسمه هيو بواتيه أمضى حياته الباكرة فى دير القديسة مادلين فى فيزيلاى ، والجدير بالذكر أن الصراع احتدم عام (١١٥٢) بين أهالى فيزيلاى والمسئولين عن رئاسة الدير . ففى عام (١١٦٧) ألقى القبض على مجموعة من الهراطقة العشارين فى فيزيلاى . وعند استجوابهم حاول هؤلاء العشارون أن يخفوا حقيقة هرطقاتهم الكريهة وأن يتظاهروا بالإيمان بمبادىء الكنيسة الكاثوليكية الأمر الذى دفع رئيس الدير إلى وضعهم فى السجن الانفرادى بحيث بقوا فيه ستين يوماً أو ماينيف . وبعد استماع الرهبان والأساقفة ورؤساء الأساقفة إلى أقوالهم قرروا إدانة هذه الجماعة لرفضها كل أسرار الكنيسة الكاثوليكية مثل معمودية الأطفال

وتحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه وتقديس الصليب ورش الماء المقدس وبناء الكنائس وفعل الخير عن طرق دفع العشور والعطايا والعلاقات الجنسية بين الرجل وزوجته وحياة الرهبنة ووظيفة الأكليروس . ولما بدأت الاحتفالات بعيد الفصح أحس اثنان من المهرطقين بأنهما هالكان لا محالة وأنه سوف يحكم عليهما بالموت حرقاً فتظاهرا بالإيمان بكل مبادىء الكاثوليكية وطلبا من الكنيسة السماح لهما باجتياز امتحان الماء فوافقت على ذلك .اقتيد المهرطقان أثناء احتفالات عيد الفصح أمام جمهور غفير فى الدير حيث اجتمع عدد من الأساقفة ورؤساء الأساقفة . وبدا من استجوابهما أنهما لا يحيدان قيد أنملة عن صحيح الدين وطلب إليهما رجال الدين المجتمعون أن يثبتا صحة عقيدتهما عن طريق اجتياز امتحان الماء .وكان من حسن حظ أحدهما أن يجتازه بنجاح فى حين أخفق الثانى فى اجتيازه . غير أن رجال الدين الحاضرين اختلفوا فى الرأى فيما بينهم فأودعوا المهرطق فى السجن . وطلب الرجل إعادة اختباره بامتحان الماء ولكنه فشل فى اجتيازه للمرة الثانية فكان ذلك بمثابة تأكيد لإدانته . ولهذا صدر الحكم بحرقه ولكن رئيس الدير تقدم لإنقاذه فاكتفى بالأمر بطرده من المدينة بعد ضربه أمام الجميع . أما المهرطقون الآخرون البالغ عددهم سبعة فقد صدر حكم بإحراقهم فى النار . وقد تم حرقهم بالفعل فى وادى أكوان . وكان حرقهم استجابة لرغبات الشعب فعندما التفت رئيس الدير متحدثاً إلى الحشد قائلاً : «أيها الأخوة ما رأيكم فى طريقة معاملة الذين يتشبثون بعنادهم» أجابه الجميع بصوت واحد : « الموت حرقاً . . . الموت حرقاً» .

العلاقة بين السحر والهرطقة :

السحر قديم قدم الإنسانية الأمر الذى جعله ينتقل من العالم الوثنى إلى العالم المسيحى . لقد دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على ممارسة السحر باعتباره وسيلة سيطرة على الطبيعة مثل إسقاط الأمطار أو حدوث التحاريق أو إثارة الرياح والزوابع أو التسبب فى الأمراض والحوادث المميتة التى تصيب الإنسان والزرع والضرع . إتخذت الكنيسة منذ البداية موقفاً معادياً للسحر وعملت كل ما تستطيع لإبطال مفعوله السيىء والشرير . وفى أواخر القرن التاسع أصدرت الكنيسة بعض القوانين الخاصة بكيفية معاملة السحرة . ومنحت هذه القوانين الأسقف المحلى الحق فى توقيع الحرمان الكنسى على السحرة ، وطردهم من أسقفيته إذا لم يتوبوا وظلوا فى غيهم سادرين . ورغم أن الكنيسة أنحت بالملامة والتقريع على المسيحى الذى يؤمن بقدرة السحرة على استحضار الأرواح والشياطين فإنها كانت فى بادىء الأمر تعتبر ممارسة السحر هرطقة . غير أن موقفها هذا لم يلبث أن تغير فى القرن الثانى عشر فقد بدأت ترى فى اتصال السحرة بالشياطين التشجيع على احترام هذه الشياطين . ومن ثم دعاها هذا إلى إعادة النظر فى السحر باعتباره ضرباً من ضروب الهرطقة . وبحلول منتصف القرن الثانى عشر درجت الكنيسة على اعتبار السحر نوعاً من عبادة الشياطين وتقديسها . وبعد مرور فترة من الزمن كانت الكنيسة تلاحق السحرة وتضطهدهم . ففى النصف

الثانى من القرن الثالث عشر انصرف بعض المحققين فى محاكم التفتيش إلى استقصاء بعض حالات السحر التى يعقد فيها الساحر صفقة مع الشيطان وهى صفقة يعطى فيها الساحر صكه للشيطان مقابل أن يعطيه المنعة والقوة والقدرات الخارقة للطبيعة .وفى الفترة من (١٢٣١ و١٢٣٣) كلف البابا جريجورى التاسع كونراد جورج بالتصدى للهراطقة فى ألمانيا . فأبلغ كونراد هذا البابا بانتشار هرطقة تدعو إلى عبادة الشيطان وطلب منه ضرورة التدخل لاستئصالها ، ولكننا نرى موقفاً كنسياً أقل تشدداً فى الفترة بين عامى (١٢٥٨ و١٢٦٠) حيث ينصح البابا ألكسندر الرابع بعض المحققين فى محاكم التفتيش ممن التمسوا مشورته أن يبذلوا قصارى جهدهم فى اكتشاف الهرطقة والضرب عليها بيد من حديد ولكن مع ضبط النفس فى حالة السحر إلا إذا كانت هذه الحالة شديدة الوضوح ويستحيل السكوت عليها . ثم عادت الكنيسة إلى اتخاذ موقف من السحر أكثر تشددا فى عام ١٤٨٤ عندما أدخل البابا أنسونت الثامن تعديلات على الموقف البابوى المتساهل تجاه السحر وأصدر تعليمات مشددة إلى محاكم التفتيش ألا تأخذهم أدنى شفقة أو رحمة بالمتعاملين مع الشياطين .

قصة اختفاء مهرطقة بأعجوبة :

يروى هذه القصة رئيس الدير السيسترياني فى كوجزهول فى الفترة بين (١٢٠٧ و١٢١٨) ، وتناول أعجوبة حدثت لمهرطقة ساحرة من طائفة العشارين المنتشرة فى مدينة رايمز بشمال فرنسا وذلك خلال الفترة بين (١١٧٦ و١١٨٠) .

فبينما كان اللورد وليم رئيس أساقفة هذه المدينة يتجول فى ربوع الريف و خارجها وبصحبته رهط من الأكليروس إذ بشماس شاب اسمه جريفيه تيلبرى يرى فتاة آية فى الحسن والبهاء تسير بمفردها . فتقدم منها وحياها وسألها عن هويتها وعما كانت تفعله فى تلك المنطقة بمفردها . واندفع الشماس الشاب فى ولهه يحييها ويتلطف بها بل ويعرض عليها الزواج . وارتبكت الحسناء وقالت له فى خفر : «أيها الشاب الطيب إن الله لا يرغب فى زواجى منك أو من أى رجل آخر لأننى إذا أسلمت عفتى وتدنس جسدى فسوف أسقط بكل تأكيد فى اللعنة الأبدية التى لا رجاء من رفعها عنى .» وهكذا اكتشف الشماس الولهان انتماء الفتاة إلى طائفة العشارين المهرطقة والمنتشرة فى كل مكان والتى وقف لها فيليب كونت فلاندز بالمرصاد . وبينما كان الشماس مشغولاً بمجادلة الفتاة ومناقشتها فى آرائها محاولاً إقناعها بخطأ تفكيرها إذ برئيس الأساقفة وحاشيته يقتربون منهما . وعندما علم رئيس الأساقفة بالموضوع أمر بإحضار الفتاة إليه فى مدينة رايمز . وسعى الحاضرون من رجال الدين إلى إقناعها بالعدول عن تفكيرها الخاطىء واستشهدوا بعدة آيات من الكتاب المقدس . فاعترفت الفتاة بعجزها عن تفنيد محاجاتهم ولكنها أضافت أنه فى مقدور سيدتها أن ترد عليهم . وبسؤالها عرف رجال الدين اسم وعنوان هذه السيدة المهرطقة فأمروا بإحضارها على الفور للمثول أمام مجلس مكون من رئيس الأساقفة وكهنته . وفى يسر شديد استطاعت هذه السيدة دحض

أسانيد الكهنة عن طريق إساءة تفسير آيات الكتاب . واتضح من حوار الكهنة معها أنها ضليعة فى الكتاب المقدس وتعرف محتواه جيداً . ولما أيقن رجال الأكليروس استحالة إرجاع السيدة والفتاة إلى صوابهما أودعاهما السجن حتى اليوم التالى . ولما جاءاليوم التالى أمر رئيس الأساقفة المرأتين بالمثول أمام محكمة حضرها حشد كبير من النبلاء ورجال الدين . ومرة أخرى رفضت المرأتان التخلى عن أفكارهما المهرطقة . ولهذا قررت المحكمة إحراقهما من أجل تشبثهما بالضلال . لم تأبه السيدة بتهديد المحكمة لها بل امضت فى تحديها واتهامها بالظلم وواجهتها بعجزها عن تنفيذ الحكم الصادر بإحراقها . وفجأة أخرجت السيدة من صدرها شلة خيط وألقت بها خارج النافذة وطلبت إلى الكهنة الإمساك بطرف الخيط ففعل البعض ذلك . ودهش الكهنة عندما رأوا سجينتهم تستخدم الخيط للإرتفاع من الأرض إلى فوق مثلما فعل الساحر سيمون من قبل . وهكذا اختفت السيدة عن أنظارهم . أما الفتاة فقد اقتيدت إلى النار الموقدة وألقيت فيها فلم تند عنها صرخة أو زفرة متأوهة أو دمعة بل تحملت آلام الحرق برباطة جأش أمام الردى لا تقل عن رباطة جأش شهداء المسيحية .

ويختتم رالف رئيس الدير السيسترياني حديثه عن هرطقة العشارين لتأكيد ما سبق لغيره أن قاله عنهم من أنهم رفضوا المعمودية فى الطفولة لعدم جدواها وارجائها عند بلوغ الإنسان مرحلة الفهم كما ذهبوا إلى عدم جدوى الصلاة للترحم على الموتى وطلب شفاعة القديسين من أجلهم . ودعوا إلى الامتناع عن شرب الألبان وأكل أى طعام ناتج من جماع الذكر والأنثى وعارضوا فكرة الكاثوليك بوجود نار المطهر الذى تذهب إليه الروح فور خروجها من الجسد . فالرأى عندهم أن روح الميت تنطلق مباشرة إما إلى النعيم أو الجحيم . وهم لا يؤمنون بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ولا بالأناجيل الأربعة فضلاً عن أنهم رأوا أن العالم المادى ليس من صنع الله بل من خلق ملاك مرتد اسمه لوازيل فى حين أن الروح من خلق الله الذى وضعها فى الجسد . فلا غرو إذا رأينا أن هناك صراعاً دائماً قديماً بين الروح والجسد . ويتهم رالف العشارين بأنهم مجموعة من الفسقة الماجنين الذين يخفون فسقهم تحت ستار زائف من الطهر والعفاف . وهو ما تؤكده رواية أخرى كتبها والتر ماب نحو عام ١١٨٢ .

انتشار الهرطقة في أراس وميتز :

انتشرت الهرطقة فى الفترة بين ١١٨٠ و١٢١٥ فى عدد من البلاد الواقعة فى شمال أوروبا وبخاصة فى شمال فرنسا مثل أراس وميتز ونيفير وروين وسواسون . ففى عام واحد قام فيمالد أسقف أراس بالقبض على أربعة مهرطقين يذكر التاريخ اسمى اثنين منهم فقط هما آدم ورالف .

وفى عام ١١٨٣ اجتمع وليم رئيس أساقفة رايمز والكونت فيليب حاكم منطقة فلاندز لمناقشة انتشار الهرطقة فى مدينة رايمز التابعة لهما . واختلف الناس فى تصنيف الهرطقة فمنهم من دعاها المانية ومنهم من سماها بالأريوسية ولكن البابا ألكسندر الثالث أطلق عليها اسم الباتارينية . وأصدر

رئيس الأساقفة والكونت فيليب حكمهما بحرق الهراطقة وهم موثوقون إلى عمود خشبى وبمصادرة ممتلكاتهم . ولكن عدداً منهم استطاع أن ينجو من الموت فقد تمكنوا لحسن حظهم من اجتياز امتحان الحديد الساخن وامتحان الماء . ففى مدينة يرب وحدها نجح اثنا عشر مهرطقاً فى إثبات براءتهم باجتياز امتحان الحديد الساخن وامتحان الماء .

ونحو عام (١١٩٩ - ١٢٠٠) ظهرت الهرطقة الوالديسية فى مدينة ميتز فى عهد أسقف اسمه براتراند . فبينما كان هذا الأسقف يعظ فى الكاتدرائية رأى وسط الجمع رجلين من أعوان الشيطان فصاح صارخاً : إننى أرى رسل الشيطان بينكم مشيراً إلى الرجلين ثم أردف بقوله : ويوجد بينكم أشخاص أدينوا فى مدينة مونبيلييه فى وجودى بتهمة الهرطقة وتم نفيهم خارجها . ولكن أحد هؤلاء المهرطقين كان جريئاً وذلق اللسان فأمعن فى أن يكيل الإهانات للأسقف مما اضطره إلى مغادرة الكاتدرائية . وبدأ الناس يتجمعون حول هذا المهرطق ويستمعون إلى وعظه وضلالاته . فتصدى له واحد من رجال الأكليروس سائلا إياه : «من الذى أذن لك بالتبشير والوعظ» . فرد عليه بقوله : «الروح القدس» . وكانت هناك خصومة بين الأسقف وبعض علية القوم فى المدينة لأنه أمر بإخراج جثة قريب لهم مدفونة فى الكنيسة بسبب ممارسة صاحبها للربا . ولم يخف هؤلاء الناس عداوتهم للأسقف وتشجيعهم الصريح للمهرطقين . ولهذا لم يتمكن الأسقف من استخدام العنف ضد الهراطقة . وكان هؤلاء الهراطقة السبب فى انتشار الهرطقة الوالديسية فى مدينة ميتز بعد ذلك .

انتشار الهرطقة الأماليريكية :

نشأت الهرطقة الأماليريكية (نسبة إلى مؤسسها أماليريك) فى مدينة أورليانز بفرنسا نحو عام ١٠٢٢ .كان أماليريك أستاذاً محاضراً فى الفنون والمنطق واللاهوت فى باريس فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . وبعد وفاته عام ١٢٠٦ اتهمته السلطات الكنسية بالهرطقة دون سبب واضح . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى اعتماده فى التدريس على مؤلفات عالم من علماء القرن التاسع الميلادى اسمه جون سكوتس اريجنز . ولعله يرجع إلى تأثره بالأفكار الغنوصية وآراء المهرطق جوشيم فلورا والهراطقة البنجويين ، فضلاً عن تأثره بمؤلفات أرسطو التى وصلت إلى أوروبا آنذاك عن طريق العرب ومعها الشروح العربية لفلسفة هذا الفيلسوف الأغريقى الكبير .

بعد مرور بضعة أعوام على وفاة أماليريك أماط المسئولون اللثام عن جماعة مهرطقة من أتباعه فى باريس والأسقفيات المجاورة لها . ولعل أهم ما تميز به هؤلاء الهراطقة إيمانهم بالنبوءات الواردة فى سفر الرؤية وبوحدانية الوجود (أى حلول الله فى الكون) . وبالرغم من المعاملة القاسية للغاية التى لقيها الأماليريكيون فقد فشل الاضطهاد فى القضاء على مبادئهم التى ما لبثت أن عادت إلى الظهور فى السنوات اللاحقة على يد الجماعة المعروفة باسم الروح الحرة وغيرها من الجماعات .

يقول المؤرخ جوزيف ستراخ إن هرطقة الأماليريكيين ظهرت فى باريس فى وقت ظهور الهرطقة

البيجانسية نفسه . والغريب فى الأمر أن الأماليريكية ذاعت بين عدد كبير من القساوسة والشمامسة ودارسى اللاهوت مثل مساعد الشماس وليم الجواهرجى ووليم بواتييه المحاضر فى مدرسة الفنون فى باريس والذى توفر على دراسة اللاهوت لمدة ثلاثة أعوام والقس جوارين الذى درس اللاهوت على يدى ستيفن رئيس أساقفة كانتربرى .

والغريب أيضاً أن هؤلاء الكهنة والدارسين تجاوزوا سن الطيش وبلغوا مرحلة النضج الفكرى . آمن الأماليريكيون بعدم وجود فرق بين الخبز الذى يتحول فى المذهب المسيحى إلى جسد المسيح وبين أى خبز عادى وأن الله يحدث البشر عن طريق الشاعر أوفيد مثلما يخاطبهم عن طريق القديس أوغسطين . وأنكر أتباع أماليريك بعث الأجساد ووجود الجنة والنار . وقالوا بوجودهما بداخل الإنسان فكل من يعرف الله يشعر بوجود الله بداخله وكل من يعرف الشر يكابد الجحيم فى نفسه . ورفضوا إقامة الذبائح للقديسين وكذلك الصور والتماثيل المقدسة التى اعتبروها ضرباً من عبادة الأوثان فضلاً عن استهزائهم بتقبيل رفات القديسين وتجرؤهم على الروح القدس بقولهم إن هذه الروح إذا حلت بإنسان فلا يهم ما يرتكب من زنا وموبقات . واستندوا فى هذا الرأى الغريب إلى محاجة مفادها أن الروح التى تحل فى الإنسان تظل منفصلة عن جسده تماماً . ومن ثم فإنها تحتفظ بطهارتها وليس بإمكانها ارتكاب أى إثم . وبناء على ذلك يستحيل على أى إنسان فيه الروح أن يرتكب الإثم ولهذا اعتبر كل من الأماليريكيين نفسه مسيحاً أو روحاً قدساً .

وكانت ظروف اكتشاف الهرطقة الأماليريكية على النحو التالى . جاء مساعد شماس اسمه وليم الجواهرجى إلى زميل له يدعى رالف نامور وحاول تجنيده معه إلى جماعته . وادعى وليم الجواهرجى أن مجىء المسيح أنهى العمل بالشريعة الموسوية واستبدلها بالشريعة المسيحية التى تقوم على الأيوخارست والمعمودية والأسرار الكنسية الأخرى . وذهب وليم الجواهرجى إلى أن جميع الأسرار الكنسية التى أتى بها المسيح سوف تختفى بدورها وينتهى العمل بها . عندئذ سوف تهبط الروح القدس وتتجسد فى سبعة أشخاص زعم وليم الجواهرجى أنه واحد منهم . وتنبأ الجواهرجى بوقوع أربع ضربات ولم تتحقق أى من هذه النبوءات الأربع . قال : إن مجاعة سوف تقضى على الشعب كله وأن النبلاء سوف يقتلون بعضهم بعضاً وإن الأرض سوف تنشف وتبتلع سكان المدينة . أما الضربة الرابعة والأخيرة فسوف تقع على رؤوس الأكليروس وعلى رأسهم البابا الذين اعتبرهم جميعاً أعداء المسيح .

تمشى رالف نامور مع وليم الجواهرجى فى هرطقته وسايره ليعرف منه المزيد عن الجماعة مدعياً أن قسيساً من معارفه على استعداد للانضمام إليها . فلجأ وليم الجواهرجى إلى ثلاثة من الكهنة المسئولين عن الجماعة وأبلغهم بالأمر فاصطحبوا نامور إلى باريس لعرض الموضوع على أسقفهم وعلى ثلاثة من أساتذة اللاهوت فى المدينة . وازعج الجميع مما سمعوه من رالف نامور فطلبوا منه مسايرة المهرطقين والدخول فى زوارقهم حتى يعلم كل شىء عنهم وعن هرطقتهم . وبالفعل

خالطهم رالف نامور وعاش بينهم لمدة ثلاثة أشهر متصلة وهو يتنقل معهم من مكان إلى مكان حتى يعرف كل شيء عنهم . ثم عاد إلى باريس ليبلغ المسئولين عن الكنيسة به . وأمر أسقف باريس بإلقاء القبض على الهراطقة وعرضهم على مجموعة كبيرة من رجال الدين وفقهائه من باريس والأسقفيات المجاورة ولم يبدر عن الهراطقة ما ينم عن ندمهم أو توبتهم أو استعدادهم للتراجع باستثناء عدد محدود للغاية . ورأى المجلس الذى استجوبهم وأدان الغالبية العظمى منهم أنهم يستحقون الموت حرقاً . ولكنه تعين عليهم الانتظار لحين عودة ملك فرنسا إلى باريس . وبالفعل تم تنفيذ حكم الإحراق فيهم بعد فضحهم وتجريسهم . غير أن أربعة من الهراطقة نجوا من الحرق . واكتفت المحكمة بسجن كل من جوارين قسيس أولنج والشماس كيفين مدى الحياة . كما أن البعض الآخر أصابه الذعر منذ البداية فقرر أن يرعوى . أما جثة زعيمهم أما ليريك فقد استخرجت من جبانتها وألقيت فى الحقول . وأصدرت الكنيسة فى باريس أمراً بحظر تدريس الفلسفة الطبيعية لمدة ثلاثة أعوام وحظرت كتب اللاهوت المكتوبة باللغة الفرنسية ومؤلفات بعض المؤلفين .

وتتلخص أضاليل الأماليركيين كما وردت فى بعض كتابات المؤرخين فيما يلى . الثالوث فى العقيدة المسيحية كل واحد لا ينقسم ولا يتجزأ ولكن الأماليركيين يذهبون إلى أن الأب كان فى البدء بدون الابن أو الروح القدس . وتذهب العقيدة المسيحية إلى أن الابن وحده هو الذى تجسد فى حين يقول الأماليريكيون إن الأب أيضاً تجسد فى شخص إبراهيم وإن الابن تجسد فى مريم وإن الروح القدس تتجسد فينا كل يوم .

ترى العقيدة المسيحية أن كل شيء على الأرض باطل فى حين أن الأماليركيين يرون أن الله يحل فى كل الأشياء لدرجة أن أحدهم ادعى أن النعش والتعذيب لن يؤثرا فيه لأن الله موجود فيهما . ويزعم الأماليركيون أن الروح القدس تجسدت فيهم وأنها تكشف لهم عن كل شيء كما أنهم يدعون أنهم قاموا الآن من الأموات . ويرى الأماليركيون أن عمل الابن قد انتهى الآن وأن الروح القدس التى تعمل فيهم قد حلت محل الابن . ونسبوا إلى أنفسهم الصلاح والتقوى إلى حد القول إن الأبناء الذين ينجبونهم ليسوا بحاجة إلى المعمودية . ويخبرنا المؤرخون أن الذين استشهدوا من الأماليركيين تسعة ؛ أربعة قساوسة وشماسان وثلاثة شماسين مساعدين لم يهتموا مطلقاً بما لحق بهم من خسف واضطهاد .

الفصل الثالث

اضطهاد اليهود في الغرب المسيحي

تعرض اليهود إلى الاضطهاد فى عهد الإمبراطور الرومانى جستنيان (٤٨٣ - ٥٦٢) فقد استن هذا الإمبراطور مجموعة من القوانين التى تهدف إلى حرمانهم من الالتحاق بالجيش ومهنة المحاماة ومنعهم من حق كتابة الوصايا والإرث والادلاء بالشهادة والتقاضى فى المحاكم . لقد كان اليهود فى بادىء الأمر يتمتعون بميزات فريدة لا يتمتع بها أى شعب آخر داخل الإمبراطورية الرومانية فقد كانوا الوحيدين الذين استثنوا من الانحناء أمام شخص الإمبراطور المقدس احتراماً لمشاعرهم الدينية التى تتعارض مع فكرة تقديس البشر . والجدير بالذكر أن اضطهاد الرومان لليهود جاء عقب الحرب الضروس التى شنها اليهود على الرومان فى القرن الأول الميلادى والتى أدت إلى هزيمتهم الماحقة وشتاتهم فى أرجاء الأرض بعد تحطيم هيكلهم فى أورشليم ، وبعد الشتات تناثر اليهود فى ربوع الإمبراطورية الرومانية حيث انغلقوا على أنفسهم وقاموا بتنظيم حياتهم المدنية والتجارية وفقاً لأوامر ونواهى دينهم .

ظل اليهود حتى عام ٤٢٩ يأتمرون بأمر البطريرك اليهودى فى فلسطين الذين حظى بمكانة رفيعة فى الحياة المدنية فى الإمبراطورية الرومانية فقد كان من حقه جباية الضرائب من اليهود كافة فى طول الإمبراطورية وعرضها وفرض النظام على كهنتهم . لقد ساهمت حياة اليهود المنعزلة فى الاحتفاظ بهويتهم الدينية والثقافية ومنعها من الاندثار . ولكن هذه العزلة عن بقية الشعوب الخاضعة للإمبراطورية الرومانية سهلت فيما بعد أمر اضطهادهم والاعتداء عليهم عندما تغير الموقف منهم . فضلاً عن أنه جعل اليهود يعتمدون اعتماداً مطلقاً على حماية الحكام الرومان لهم .

عندما قويت شوكة المسيحية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين حرم المسيحيون على اليهود الزواج من المسيحيات أو الاحتفاظ بخدم وعبيد من المسيحيين أو تحويلهم إلى الدين اليهودى . وقد

منع البابا هونوريوس الأول (الذى تولى كرسى البابوية فى عام ٦٢٥) اليهود من تشييد المعابد ولكنه لم يمنعهم من إصلاح وترميم المعابد القديمة وارتيادها بحرية للتعبد فيها . وليس أدل على التساهل مع اليهود أن البابا جريجورى الأعظم حوالى (٥٤٠ - ٦٠٤) أمر أسقف كالينسيوم بإيطاليا بدفع غرامة لليهود لتعويضهم عن إحراق معبدهم عام ٤١٥ . وأصدر الإمبراطور الرومانى ثيودسيوس حوالى (٣٤٦ - ٣٩٥) مجموعة من القوانين اشتملت على نحو خمسين عبارة تنص جميعها على منع تولية اليهود على المسيحيين أو التبشير بالدين اليهودى . وقد رأت هذه البنود المعوقة لليهود طريقها فيما بعد إلى القوانين التى أصدرها الملوك والأباطرة الألمان فى القرنين الخامس والسادس . ولكن هذه القوانين فى أحيان كثيرة كانت لا تؤخذ مأخذ الجد أو توضع موضع التنفيذ . فالشواهد تشير إلى أن اليهود كانوا يتمتعون بحماية الإمبراطور شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤) وخلفائه بدليل أن أسقف أجوبارد فى ليون ناشد ملك فرنسا لويس الورع أو لويس الأول (٧٧٨ - ٨٤٠) أن ينفذ القوانين الخاصة بحرمان اليهود من تملك الأرض والاحتفاظ بالخدم المسيحيين ولكن الملك رفض الاستجابة لهذا الطلب رفضاً باتاً . بل إن الأباطرة والملوك درجوا على إغماض عيونهم عن اشتغال اليهود بتجارة العبيد المسيحيين رغم ما تضمنه هذا من انتهاك صارخ للقانون . وفى نهاية المطاف لم يكن هذا التغاضى والتساهل فى تنفيذ القوانين المكبلة لليهود فى مصلحتهم لأنهما فى آخر الأمر ولّدا ردود فعل عنيفة ضدهم ابتداء من منتصف القرن التاسع الميلادى . فقد شنت الكنيسة الفرنسية حملة بالغة الضراوة بزعامة هينكمار رئيس أساقفة رايمز لإعادة العمل بالقوانين التى تحرم على اليهود تولى المناصب القيادية والعامة كما تحرم عليهم بناء المعابد الجديدة .

وتتجلى بداية التحول من السماحة مع اليهود إلى اضطهادهم والقسوة عليهم من الأحداث التى وقعت فى القرن الحادى عشر وبالذات فى الفترة من عام (١٠٦٠ و١١١٢) عندما تعرض اليهود فى بعض مدن فرنسا مثل ليموج وأورليانز وروين وماينز للهجوم بعد أن سرت إشاعة مفادها أن قبر المسيح فى أورشليم تعرض للاعتداء بتحريض من اليهودية . وفى عام (١٠٦٣) تعرضت المجتمعات اليهودية فى جنوب فرنسا إلى هجوم الفرسان عليها وهم فى طريقهم لمحاربة المسلمين فى أسبانيا . وقد أنحى بابا روما على رئيس أساقفة ناربون باللائمة لأنه سمح للفرسان بالاعتداء على اليهود فى مدينته . وكانت هذه الحوادث المتفرقة بمثابة مقدمة للمجازر التى تعرض لها اليهود عام (١٠٩٦) فى مدن الراين وفى أماكن أخرى على يد المقاتلين فى الحملة الصليبية الأولى . ومن الثابت تاريخياً أن مدينة روان الفرنسية كانت آنذاك مسرحاً للمجازر التى امتدت إلى أماكن أخرى متفرقة . ويذهب جوبيرت نوجنت أن الصليبيين كانوا يجمعون اليهود كقطعان الماشية فى أماكن العبادة ثم يحيطون بهم ويعملون فيهم تقتيلاً سواء كانوا ذكوراً أم أناثاً ، صغاراً أم كباراً . ولم ينج من القتل إلا اليهود الذين قبلوا أن يتحولوا إلى الدين المسيحى . وفى كثير من الأحيان عجزت السلطة الكنسية عن حماية اليهود من الاعتداء على حياتهم . صحيح أن أسقف سباير تمكن من التدخل لإنقاذ حياة

بعض اليهود من مجزرة أودت بحياة أحد عشر يهودياً . ولكن مدينة ويرمز شاهدت مقتل ثمانمائة يهودى فضل بعضهم الانتحار على إجبارهم على اعتناق الدين المسيحى . تقول الوثائق فى هذا الشأن إن الأخ كان يؤثر أن يقتل أخاه والابن أبويه والزوج زوجته وأبناءه والخطيب خطيبته والأمهات أولادهن هرباً من إرغامهم على اعتناق المسيحية . وبعد مضى أيام قلائل حدثت مجازر مماثلة فى عدد آخر فى مدن مثل مانز وكولونى وترابر وميتز وبامبرج ورجنز برج وبراج . ويجد الدارسون عسراً فى تقييم عدد ضحايا الاضطهاد من اليهود . ولكن من الثابت أن اليهود فى ألمانيا ومنطقة الراين تعرضوا آنذاك لاعتداءات وحشية وإهانات بالغة واستغلال بشع . ولولا تدخل برنارد كليرفو للحد من هذه الاعتداءات الوحشية والمتكررة عليهم لارتفع عدد الضحايا بينهم . ولكن راهباً يدعى رالف نجح فى إثارة الشعب ضدهم للفتك بهم فى كثير من مدن الراين مثل ماينز وورمز وسباير وبنتراسبورج ووزبرج . ولما أيقن برنارد كليرفو الخطر الداهم الذى يهدد اليهود بسبب إثارة هذا الراهب لخواطر الناس طلب منه أن يكف عن التحريض وأمره بالعودة إلى الدير . وغلت مراجل الغضب فى عروق الأهالى لدرجة تنذر بالشر المستطير لولا أن تدخل الكاهن برنارد كليرفو لكبح جماح عواطفهم .

بدا كما لو كان هناك علاقة بين الحروب الصليبية واضطهاد اليهود وتزايد المشاعر المعادية لهم . ولكن هذا على أية حال أشد ما يكون غموضاً رغم اقتران الاعتداء على حياة اليهود بالحملات الصليبية . وبفضل نجاح الملك الإنجليزى ريتشارد الأول قلب الأسد (١١٥٧ - ١١٩٩) فى تنظيم الحملة الصليبية الثالثة انتقلت حمى معاداة السامية إلى إنجلترا . ففى اليوم نفسه الذى تم فيه تتويج ملك إنجلترا ريتشارد الأول - وهو الثالث من سبتمبر (١١٨٩) تم إحراق ما لا يقل عن ثلاثين يهودياً فى لندن . وتحت وطأة الاضطهاد آثر كثير من اليهود فى مدينة يورك الانتحار هرباً من التعذيب الذى تعرضوا له فى مارس (١١٩٠) . ولعل أفظع حادثة اضطهاد تعرض لها يهود فرنسا فى نهاية عام (١١٩١) هو مقتل ثمانين شخصاً منهم على يد ملك فرنسا فيليب أوجسطيوس (١١٦٥ - ١٢٢٣) فى مدينة براى سير ساين . وهى حادثة منفصلة ولا تربطها أية صلة بالحروب الصليبية رغم أنها وقعت بعد مجزرة يورك بسنوات قلائل . وما من شك أن اليهود تعرضوا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر لتصاعد حدة الاضطهاد الواقع عليهم ، الأمر الذى يدل على موقف أوروبا العدائى آنذاك منهم وأن اضطهادهم لم يقتصر على جنوب أوروبا بل امتد إلى شمالها . ومما مهد السبيل إلى ممارسة سياسة مناوئة لليهود فى إيطاليا نجاح راثيريوس أسقف فيرونا فى الفترة بين (٩٣١ و٩٣٨) فى طرد اليهود من مدينته .

وفى نحو عام (١٠٢٠ أو ١٠٢١) اتهم المسيحيون فى مدينة روما اليهود المقيمين هناك بالسخرية من الصليب والزراية به مما أدى إلى توقيع العقوبات الوحشية عليهم . وفى هذا الوقت نفسه وقعت عليهم فى لوكا اضطهادات مماثلة . وأيضاً فى عام (١٠٦٢) اتهم المسيحيون اليهود بالقرب من

بسكارو بالتجديف . وفى العام التالى تم طرد الجالية اليهودية من مدينة بنيفيتو الإيطالية . الشيء نفسه حدث فى أوائل القرن الحادى عشر فى مدن جنوب غرب فرنسا مثل تولوز وبيزييه وأرلس وشالون سيرسون حيث جرت العادة على إحضار يهودى خارج الكنيسة ولطمه على وجهه كل يوم أحد من أعياد القيامة المجيدة . وفى تولوز وافقت السلطات الكنسية على تخفيف هذه العقوبة فاستبدلت عام (١٠٧٧) بفرض الضرائب على المجتمع اليهودى . ورغم هذا فإن التقليد الخاص بلطم اليهود على الوجه فى بعض المناسبات الدينية المسيحية استمر إذ يقول أدهما وتشابان إن الرجل الذى أسندت إليه مهمة ضرب اليهود فى تولوز نحو عام ١٠٢٠ قام فى إحدى المرات بواجبه بكفاءة عالية فسدد إلى ضحيته لطمة جعلته يفقد إحدى عينيه ليموت بعد ذلك بوقت قصير .

وبالرغم مما تعرض له اليهود فى القرن الثانى عشر والثالث عشر من خسف واضطهاد على يد المسيحيين فقد حظى اليهود فى تلك الفترة فى جنوب أوروبا وشمالها بالثراء العريض كما أنهم تمكنوا من تحقيق نوع من النهضة الثقافية . غير أن وضعهم كان أبعد ما يكون عن الاستقرار بسبب تعرضهم من وقت لآخر إلى اعمال الشغب . ومما زاد من محنتهم أن العالم المسيحى درج آنذاك على تصوير اليهود على أنهم عدو المسيح رقم ١ ، الأمر الذى عرض اليهود للخطر الدائم فى حياتهم اليومية . وهذا واضح من حوار سجله المؤرخ جلبرت فى كتاب بعنوان : «حوار بين مسيحى ويهودى» سطره مؤلفه فى أوائل عام (١٠٩٠) حيث نجد يهودياً من مدينة ماينز يطرح على جلبرت كريستين السؤال التالى : «إذا كانت المسيحية تشترط على المسيحى احترام شريعة موسى فلماذا إذن تعاملون أتباعها وكأنهم كلاب وتطردونهم وتطاردونهم بالعصى فى كل مكان ؟»

وفى عام (١١٧٩) أصدر مجمع لاتيران الثالث ملحقاً لقراراته يعتبر بمثابة شرح للتعليمات التى أصدرها البابا بعدم حرمان اليهود من امتلاك الأرض والمال والبضائع إلا بعد تقديمهم إلى المحاكمة وبناء على حكم محكمة . كما أوصى البابا المسيحيين بعدم رجم اليهود أو الخروج عليهم بالعصى أثناء أدائهم احتفالاتهم الدينية وكذلك عدم التعرض لمدافنهم وانتهاكها . ويذكر ريجورد فى سيرة حياته عن ملك فرنسا فيليب أوجسطيوس أن هذا الملك ناصب اليهود العداء بسبب ثرائهم الفاحش وممارسة الربا وقساوة قلوبهم وقتلهم الأطفال المسيحيين وتدنيس المقدسات المسيحية . وليس من شك أن سبباً من أسباب عداوة العالم المسيحى لليهود يرجع إلى اكتنازهم المال وبراعتهم فى التجارة .

وهناك أسباب أخرى دفعت العالم المسيحى إلى اضطهاد اليهود منها اعتقاد المسيحيين السائد فى القرون الوسطى بأن اليهود طغمة من المشتغلين بالسحر يسخرهم الشيطان لتدمير العالم المسيحى من الناحيتين الروحية والمادية . فضلاً عن اعتقادهم بوجود علاقة بين اليهود والشيطان . وهو اعتقاد استمدوه من تفسيراتهم لبعض آيات العهد الجديد فقد جاء فى الإصحاح الثانى آية ٤٣ - ٤٤ من إنجيل يوحنا قول المسيح لليهود : «لماذا لا تفهمون كلامى لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى . أنتم

من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .» كما جاء فى الآية التاسعة من الإصحاح الثانى من سفر الرؤية : إن اليهود مجمع شياطين : «إنهم يهود وليسوا يهوداً بل مجمع الشيطان» وهو الوصف ذاته الذى جاء فى الآية التاسعة من الإصحاح الثالث فى السفر نفسه : «هأنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون .» والجدير بالذكر أن آباء الكنيسة الأوائل مسئولون عن ذيوع الفكرة التى تربط بين اليهود والاشتغال بالسحر . وهذا واضح من الاتهام الذى وجهه أحد المتحولين حديثا للدين المسيحى إلى اليهود بأنهم قاموا حول عام (٩٩٢) بمحاولة اغتيال الكونت ماين عن طريق غرس الدبابيس فى صورة صنعوها له من الشمع . أما المؤرخ جويبرت نوجنت فذهب إلى وجود علاقة بين اليهود والجنس والسحر وإبليس . كتب نوجنت عام (١١١٠) يحكى لنا حكاية راهب مرتد ساعده أحد اليهود على إتقان السحر الأسود عن طريق بيع روحه إلى الشيطان . وقد مهدت هذه الحكاية وذيوعها لظهور فكرة ضرورة تعقب السحرة ومطاردتهم . وهى فكرة سادت العقود الأخيرة فى الغرب المسيحى من القرن الثانى عشر .

وفى أوائل عام ١١٤٤ مات صبى اسمه وليم يعمل عند تاجر جلود فى غابة بالقرب من نوروتيش بإنجلترا . ولم يثر موته آنذاك أية ضجة تذكر . ولكن أم الصبى وخاله اتهما اليهود بقتله . واستطاع عمدة نوروتيش القضاء على هذا الاتهام فى مهده ووصفه بأنه مجرد فرية . ولكن بعد مرور ستة أعوام سرت شائعة كالنار فى الهشيم مفادها أن اليهود فى نوروتيش عذبوا الصبى حتى الموت . وساعد على انتشار الشائعة مجىء عمدة جديد وأسقف جديد للمدينة . وأيضاً سرت شائعة بحدوث سلسلة من المعجزات على قبر الصبى القتيل . وفى القرن التالى (الثانى عشر) نجحت هذه الشائعة عن حدوث المعجزات فى اجتذاب عدد غفير من الشعب إليها والإيمان بصحتها . وقد وجه المسيحيون تهماً مماثلة إلى اليهود الذين يعيشون فى بعض مقاطعات انجلترا الأخرى مثلما حدث فى مقاطعة جلوستر عام (١١٦٨) وبرى سانت ادموند فى (١١٨١) وونشستر عام (١١٩٢) . كما تكررت فى نوروتيش عام (١٢٣٥) اتهامات مماثلة لليهود . وقد بلغ هياج الجماهير وغضبها ذروته عند اكتشاف جثة طفل فى قاع بئر فى لينكولن عام (١٢٥٥) . والغريب أن القضاة الإنجليز أظهروا آنذاك ميلاً واضحاً لتصديق مسئولية اليهود عن مقتل هذا الصبى الآخر فجرجروهم إلى لندن للمثول أمام المحكمة التى أصدرت حكماً شديد الجور بشنق تسعة عشر يهودياً . ولولا تدخل ريتشارد كورونويل أخى ملك إنجلترا آنذاك للقى تسعون يهودياً آخرون المصير نفسه .

وفى القرن الحادى عشر بدأ المعادون للسامية يستخدمون نغمة جديدة فحواها أن اليهود ينسجون مؤامرة دولية تهدف إلى تقويض أركان العالم المسيحى . وانتشرت شائعة بأن اليهود هم المسئولون عن التفريط فى أسبانيا وتسليمها للعرب فى القرن الثامن كما أنهم خانوا بوردو الفرنسية وبرشلونة الأسبانية وسلموهما إلى قبائل الفايكنج فى القرن التاسع . فضلاً عن اتهام يهود أورليانز بتحريض خليفة المسلمين بتحطيم قبر المسيح فى أورشليم . وقد بلغ عدد المحاكمات التى اتهم فيها اليهود

باقتراف مثل هذه الجرائم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نحو مائة وخمسين محاكمة . وهى اتهامات وجهت إلى اليهود ليس فى انجلترا وحدها بل فى جميع أرجاء القارة الأوروبية . ففى عام (١١٤٧) اتهم يهود ورزبرج بإغراق طفل مسيحى فى نهر الماين . وقبل الكونت ملبوا مثل هذه الشائعات على عواهنها دون فحص أو تمحيص وأجرى محاكمات أصدرت أحكاماً بشنق واحد وثلاثين يهودياً وهو أمر امتعض له الملك لويس السابع فيما بعد . ولكن خلفه الملك لويس أجسطيوس لم يجد غضاضة فى الاستمرار فى سياسة اضطهاد اليهود فقد أتهمهم دون أن يتوفر لديه دليل واحد على ذلك بأنهم قتلوا واحداً من خدمه وعبيده فعاقبهم بمحاصرة منطقة براى سيرساين وتطويقهم وتنفيذ حكم الإعدام فى ثمانين يهودياً . وبحلول منتصف القرن الثالث عشر دخل فى روع المسيحيين أن اليهود اعتادوا ذبح الأطفال المسيحيين من أجل استخدام رفاتهم فى إقامة بعض شعائرهم الدينية . ورغم أن البابا سعى إلى تكذيب هذه الشائعات وإعلان بطلانها (وبخاصة فى عامى ١٢٤٢ و١٢٥٣) فقد ساد الاعتقاد بأن التهم المنسوبة إلى اليهود صحيحة رغم أن لجنة تقصى الحقائق التى كونها فردريك الثانى (١١٩٤ - ١٢٥٠) انتهت إلى بطلانها . وأدت شائعة مماثلة فى ألمانيا إلى عقد ما لا يقل عن مائة محاكمة لليهود بتهمة التحالف مع الشيطان الذى أوعز إليهم بتدنيس قربان التناول . ففى عام (١١٥٠) سرت شائعة فى كولونى أن واحدا من اليهود المتحولين حديثاً إلى المسيحية حضر القداس فى الكنيسة وأخذ القربان الذى أعطاه القسيس إياه فى عيد القيامة ودفنه فى حديقة بيته . فلما نبش القسيس الحفرة وجد أن القربانة قد اتخذت شكل طفل صعد بمعجزة إلى السماء . وهى قصة تكرر شيوعها فى الغرب المسيحى فى زمن الحملة الصليبية الأولى . فقد شهد بعض المسيحيين أن يهودياً فرنسيا أخذ يغلى قربانة التناول فى الزيت والماء فإذا بها تتحول إلى طفل أثناء غليانها فى الإناء . وأيضاً فى برليتز بالقرب من برلين فى عام (١٢٦٣) وبروكسل عام (١٣٢٠) تم إحراق عدد كبير من اليهود بتهم مماثلة . وقد ساعد على تصديق هذه الشائعة قرار الكنيسة عام (١٢٦٤) باستحداث عيد دينى أطلقت عليه عيد جسد المسيح هدفه مقاومة الهرطقة ، وإلهاب حماس الشعب للعقيدة المسيحية الخاصة بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وفى منتصف القرن الثانى عشر حذر بطرس المبجل رئيس دير كولونى الملك لويس السابع من أن اليهود يتناولون بأيديهم بعض الأوانى ذات الطابع المقدس ويستخدمونها فى أغراض منحطة ودنيئة . واستمرت هذه النغمة حتى بعد مرور مائة عام حيث نسمع عن يهودى اسمه إبراهيم بركماستيد استخدم مراحيضه لحفظ صورة العذراء مريم وطفلها يسوع .

اتسم وضع اليهود فى القوانين الأوروبية بالغرابة : فقد وردت فى المجلد الأول من تاريخ القانون الإنجليزى (كامبردج ١٨٩٥) فقرة تنص على أنه ليس من حق اليهودى أن يمتلك أى شىء لنفسه بل من أجل ملك البلاد إذ يتعين على اليهودى أن يعيش من أجل الآخرين . ويتضح هذا من نصوص القوانين الأوروبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . ورغم أن استئناف القوانين الخاصة بعبودية

اليهود لم يحدث إلا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فإن الجذور ترجع إلى القرارات التى أصدرها مجمع توليدو بإيطاليا المنعقد عام (٦٩٤) وهى قرارات من شأنها تحويل جميع يهود أسبانيا إلى طبقة من العبيد . ويبدو أن الهدف من وراء هذه القرارات كان يرمى إلى تحقيق غرض اقتصادى يتلخص فى اعتبار جميع أملاك اليهود ملكاً خاصاً للملك يحق له الاستيلاء عليها فى أى وقت أو إلى إضعاف اليهود من الناحية السياسية حتى لا يتكتلوا ويصبحوا قوة ضغط يخشى منها .

وفى نهاية القرن الثانى عشر نص ميثاق أراجون وكاستيل فى أسبانيا بكل صراحة على أن اليهود عبيد التاج وينتمون تماماً إلى الخزانة الملكية» . ونحن نرى اليهود فى القوانين الفرنسية الصادرة فى عهد الملك لويس الورع يتمتعون بوضع متفرد يحتفظ لهذا الملك بأحقيته وحده فى البت فى قضاياهم وذلك عن طريق موظف قضائى . ولعل السبب فى استنان هذا الوضع المتفرد لليهود هو رغبة الملك فى التدخل لحمايتهم بنفسه من عدوان شعبه المتكرر عليهم . غير أن الأيام أثبتت أن هذا الوضع المتفرد الذى يتمتع به اليهود أصبح فى نهاية الأمر وبالا عليهم فقد كان النبلاء كثيراً ما يدخلون فى صراعات مع الملوك لانتزاع السلطة التى يمارسونها على اليهود . وقد حدث هذا فى أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر عندما ضعف سلطان الملوك وقويت شوكة النبلاء . ولاشك أن النبلاء لم يكن يهمهم الدفاع عن حرية اليهود بل كان يهمهم أيلولة أموالهم وممتلكاتهم بعد وفاتهم . وهكذا أصبح النبيل أو الإقطاعى الأوروبى فى كثير من الأحوال الوارث الوحيد لممتلكات اليهود وأموالهم . ففى عام (٩٨٥) اعتبر كونت برشلونة نفسه وريث جميع اليهود الذين لقوا مصرعهم فى الحصار المفروض على مدينة ألمانزور . فضلاً عن أنه قام عام (١٠٢٢) بمصادرة ممتلكات يهودى أدين بارتكاب الزنا مع امرأة مسيحية . ولم يكن وضع اليهود فى إنجلترا فى عهد وليم الفاتح وخلفائه مختلفاً . وتنص القوانين المعمول بها فى عهد الملك هنرى الأول على وصاية الملك على جميع اليهود فى مملكته كما تنص على عدم جواز خضوع أى منهم لسلطة النبلاء . وفى عام (١٠٩٠) أمر الملك هنرى الرابع بأن يصبح جميع اليهود فى مملكته تابعين له . ويذكرنا هذا بما فعله الملك هنرى عام (١١٠٣) والإمبراطور فردريك الأول عام (١١٧٩) والإمبراطور فردريك الثانى عام (١٢٣٦) .

والجدير بالذكر أن وضع اليهود فى فرنسا تدهور بشكل واضح بعد أن إعتلى الملك فيليب أجسطيوس مقاليد الحكم . فهذا الملك لم يكن يمقت اليهود فحسب بل كان أيضاً يطمع فى الاستيلاء على ممتلكاتهم . وبعد تتويجه ملكاً بثلاثة أشهر أمر بالقبض عليهم فى أماكن عبادتهم . ثم أصدر بعد مضى عامين أوامره بطردهم من ممتلكاتهم وسمح لهم فقط ببيع منقولاتهم فى حين احتفظ الملك لنفسه ببيوتهم وأراضيهم وعقاراتهم الثابتة . وبعد هذا قام الملك بتسليم المعابد اليهودية إلى الأساقفة لتحويلها إلى كنائس واستقبلت الأديرة هذا القرار بالفرحة الغامرة . وشملت أوامر الطرد عدة بلدان فرنسية مثل باريس وبورج وأورليانز . وإحقاقاً للحق يجب أن نذكر أن الملك فيليب لم

يستحدث نظام استعباد اليهود فقد وجده مطبقاً بالفعل فى منطقتى أنجو ونورماندى عندما ضمهما إلى أراضيه عام (١٢٠٤) . كما أن البابا أنسونت الثالث أكد عبودية اليهود الدائمة فى مرسومه البابوى الصادر عام (١٢٠٥) كعقاب لهم على صلب السيد المسيح . وتدل المعاهدة التى عقدها الملك مع أحد نبلائه الكونت تشامبا فى عام (١١٩٨) على رغبة هذا العاهل فى استغلال اليهود على نحو بشع لمصلحته ومصلحة ملوك فرنسا والنبلاء التابعين له . فكلما شعرت خزانة الدولة بنقص مواردها المالية التجأ الملك وأعوانه إلى فرض الضرائب على اليهود مقابل توفير الحماية لهم أو الاستيلاء على بضائعهم وإعادتها إليهم نظير المال . بل إنه كان أحياناً يقوم بطردهم من البلاد ثم يعيدهم إليها لقاء الإتاوات . وظل اليهود فى فرنسا يتعرضون لهذا الاستغلال حتى تم طردهم نهائياً من البلاد عام (١٣٩٤) .

وفى إنجلترا لم يكن استغلال الملوك لليهود بمثل هذا الحد من البشاعة فقد اتسمت الضرائب المفروضة عليهم فى عهدى الملك هنرى الثانى وريتشارد الأول بالاعتدال . ولكن أحوال اليهود فى إنجلترا ما لبثت أن ساءت وتدهورت بعد أن اعتلى الملك جون الحكم وخاصة فى الفترة التى أعقبت عام ١٢٠٤ عندما بدأت الضرائب المفروضة على اليهود تتزايد بطريقة عشوائية . غير أن خلفاء جون رفضوا تنفيذ قرارات مجمع لاتيران المجحفة باليهود على نحو صارخ كما رفضوا الانسياق وراء الكنيسة فى اتباع سياستها الظالمة نحوهم كما تتمثل فى قرارات مجمع لاتيران . . والجدير بالذكر أنه تعين على يهود إنجلترا آنذاك أن يلبسوا شارة لتمييزهم عن بقية أفراد المجتمع المسيحى . وقد درج معظم اليهود الإنجليز على شراء التصاريح التى تعفيهم من لبس هذه الشارات المميزة . ولكن هذا التحسن فى معاملة ملوك إنجلترا لليهود لم يدم طويلاً بل ازداد سوءاً فى عهد الملك هنرى الثالث فتم طرد اليهود من مقاطعة جاسكونى الفرنسية عام (١٢٨٨ - ١٢٨٩) ومن إنجلترا عام (١٢٩١) بسبب رغبة الملوك والحكام فى الاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم . ووصلت التفرقة الدينية بين المسيحيين واليهود إلى ذروتها فى أوروبا خلال القرن الثالث عشر . فحتى ذلك القرن لم تكن صورة اليهودى الكاريكاتورية بأنفه المقوس الطويل قد استحدثت بعد . ومما يذكر أن الكنيسة لعبت أحياناً دوراً فى تعميق التميز بين اليهود والمسيحيين بإصرارها على أن يلبس اليهود شارة العار حتى يسهل تمييزهم عن المسيحيين ، وعلى الأخص فى القرن الثالث عشر . يقول المرسوم الذى أصدره مجمع لاتيران فى هذا الشأن : تجد فى البلاد التى لا يميز المسيحيون أنفسهم عن اليهود والعرب فى زمن الحروب الصليبية أن المسيحيين يقيمون علاقات مع اليهود وهؤلاء العرب . وحتى لا يتكرر حدوث هذا الخطأ فى المستقبل فإنه يتعين عن طريق الملبس تمييز اليهود من الذكور والإناث عن بقية الناس .»

الجزء الثالث

محاكمة فرسان هيكل سليمان

بلغت الحروب الصليبية التى شنها الغرب المسيحى على العالم الإسلامى لاسترداد بيت المقدس فى فلسطين ذروتها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وذلك فى الفترة بين عامى ١٠٩٥ و١٢٩١ . وهى الفترة التى شاهدت تأسيس وازدهار جماعة من النساك المقاتلين يدعون «فرسان المسيح وهيكل سليمان الفقراء» التى بدأت نشاطها فى أورشليم على يد فارس من مقاطعة شمبانيا بفرنسا وثمانية من زملائه الفرسان أقسموا فيما بينهم عام ١١١٨ على حماية زوار بيت المقدس من اعتداءات قطاع الطرق . ومعنى هذا أن فرسان هيكل سليمان كانوا يمسكون بالكتاب المقدس فى يد وبالسيف فى اليد الأخرى . وينتمى هؤلاء الفرسان إلى عدد من الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وإنجلترا . وكان هؤلاء الفرسان فى بادىء الأمر يعيشون على الشحاذة . غير أن زعيمهم هيو دى باين استطاع عام ١١٢٧ أن يسافر إلى الغرب حيث نجح فى الحصول على موافقات الجهات الكنسية وجمع الثروات الطائلة واجتذاب الأعضاء الجدد . ويروى لنا وليم رئيس أساقفة مدينة صور بفلسطين البدايات المتواضعة لهذه الطائفة التى تجمع بين الحياتين الدينية والعسكرية فيقول إنها نشأت عام ١١١٩ وأن الفضل فى نشأتها يرجع إلى نفر من أصحاب الثروة والجاه مثل جود فروا دى سانت أومر وهيو دى باين الذى جاب أرجاء فرنسا وانجلترا واسكتلندة للبحث عن أعضاء يضمهم إلى جماعته . ولم تكن لدى هذه الجماعة فى بادىء الأمر كنيسة خاصة بها أو مكان تعيش فيه فسمح لها الملك بولدوين (١١٠٠ - ١١١٨) ملك أورشليم آنذاك بالإقامة فى قصره . فضلاً عن أن الأحبار وضعوا تحت تصرفها فناء تابعاً للهيكل الذى يتعبدون فيه . والجدير بالذكر أن فرسان هيكل سليمان ارتبط مصيرهم صعوداً وهبوطاً بمصير الحروب الصليبية . فقد تمتعوا بأسباب المنعة والبأس والثراء عندما أصابت الحملات الصليبية النجاح واعتراهم الضعف والوهن عندما آلت هذه الحملات إلى

الفشل والاخفاق . وقد ساعدت قرارات مجمع ترويز المنعقد عام ١١٢٨ فى ترسيخ أقدام جماعة هيكل سليمان إذ اعترف هذا المجمع بها رسمياً كما أنه كلف زعيمها البارز برنارد دى كليرفو بإعداد ميثاقها الذى يشتمل على اثنتين وسبعين فقرة .

انقسمت جماعة فرسان هيكل سليمان إلى طبقة عليا من ذوى المحتد النبيل وطبقة دنيا يطلق عليها اسم الأخوة الخادمين ، واشترط ميثاق الجماعة أن يكون أعضاؤها من القادرين على حمل السلاح والامتناع عن معاشرة النساء . وكانت طبقة الفرسان تتميز بلبس الملابس البيضاء للدلالة على الطهر والعفاف . أما طبقة الأخوة الخادمين فيلبسون وشاحاً أسود أو بنى اللون للدلالة على أنهم أدنى مرتبة من الفرسان . ولم يكن مسموحاً للمتزوجين بعضوية الجماعة بل سمح لهم فقط بالانتساب إليها شريطة أن يتركوا للجماعة معظم أموالهم وممتلكاتهم ولا يتركون سوى جزء منها لزوجاتهم ، ونظراً لأن الكنيسة لم تقم برسمهم كقساوسة فقد سمحت لهم بالاستعانة بمن يشاؤون من القساوسة الخارجيين ، كما أن الكنيسة أخذت تعامل الجماعة بالطريقة نفسها التى عاملت بها الأديرة فأعطتها الحق فى أن تكون لها أملاكها الخاصة . وقد استثمر فرسان هيكل سليمان مؤازرة مجمع ترويز لهم فكرسوا جهودهم لتجنيد الأعضاء الجدد وضمهم إليهم وخاصة فى فرنسا . وتلقى تنظيم فرسان هيكل سليمان قدراً كبيراً من المعونات والمنح من المتحمسين لهم فى شكل ممتلكات وأراض ، الأمر الذى جعلهم يتبوأون مركزاً اقتصادياً حصيناً وخاصة فى فرنسا مما أعطى الانطباع العام بأن الجماعة تدين بالفضل فى ازدهارها إلى تشجيع الفرنسيين لها . وعلى أية حال لم تكن جماعة فرسان هيكل سليمان الوحيدة التى جمعت بين الطابعين الدينى والعسكرى . فقد ظهرت جماعة أخرى مماثلة فى الشرق حوالى عام ١٠٧٠ اتخذت من مستشفى القديس يوحنا المعمدان مقراً لها . وتعرف هذه الجماعة الأخرى بجماعة مستشفى القديس يوحنا المعمدان بأورشليم . ساهم الفارس برنارد دى كليرفو بنصيب وافر فى ازدهار جماعة فرسان هيكل سليمان . فقد كتب نحو عام ١١٣٠ نبذة يدافع فيها بقوة عن فكرة انشاء قوة مثالية من النساك والزاهدين للدفاع عن بيت المقدس . وهم نساك ينحدرون من طبقة النبلاء والفرسان الذين لم يعنوا بمظهرهم على الإطلاق . فقد كانوا لا يغتسلون وكانت الأتربة تعفر جباههم المحروقة بسبب تعرضها لأشعة الشمس الشديدة . وكانوا يحملون السلاح يجهزون به على الأشرار وأعداء الله دون أن يعتبروا هذا الاجهاز قتلاً بل مجرد استئصال للشرور والآثام . وكان من الطبيعى أن ينجذب إلى هؤلاء النساك المقاتلين ذلك الطراز من المسيحيين الذين يزورون عن حياة التأمل وينصرفون إلى الفعل . ومن ثم كان التناغم كاملاً بين المشاركين فى الحروب الصليبية وبين تنظيم فرسان هيكل سليمان . وكان أيضاً من الطبيعى أن يتعاطف المسيحيون فى الغرب مع هؤلاء الفرسان الذين آلوا على أنفسهم حماية زوار بيت المقدس فى أورشليم من اعتداءات المسلمين . غير أن الغرب المسيحى قلب لهم فى نهاية المطاف ظهر المجن بمجرد أن أخفقت الحروب الصليبية فى تحقيق أهدافها إذ بحث عن كبش فداء لهذا الإخفاق فلم يجد شماعة أفضل من تنظيم فرسان هيكل سليمان يعلق فشل الصليبيين عليها .

والجدير بالذكر أن تنظيم فرسان هيكل سليمان نشأ وترعرع فى أحضان الكنيسة الكاثوليكية . فقد أصدر بابا روما فى الفترة بين ١١٣٩ و١١٤٥ ثلاثة مراسيم تؤازر هذا التنظيم صدر الأول منها فى ٢٩ مارس ١١٣٩ والثانى فى ٩ يناير ١١٤٤ والثالث فى ٧ إبريل ١١٤٥ . وينص المرسوم الأول على الموافقة على إنشاء جماعة فرسان هيكل سليمان . ولم يتعهد الكرسى البابوى بتوفير الحماية لها فحسب بل منحها الحق فى الاحتفاظ بأية أسلاب يستولون عليها من المسلمين . فضلاً عن منحها بعض الامتيازات الأخرى مثل دفن موتاهم وحق زعماء الجماعة فى طرد الأعضاء غير الصالحين . أما المرسوم الثانى فيمنح الصالحين والاتقياء فى هذا التنظيم الصكوك القمينة بمغفرة خطاياهم . أما المرسوم الثالث فيسمح لهذا التنظيم بإقامة أماكن لعبادتهم ومدافن لموتاهم فى أفنية الكنائس .

وعن ثراء تنظيم فرسان هيكل سليمان الفاحش حدث ولا حرج ، فقد استطاع فى منتصف القرن الثانى عشر أن يمتلك الضياع الشاسعة ويحتفظ بعدد كبير من عبيد الأرض ، بالإضافة إلى قطعان الحيوان والماشية والطواحين وعصارات النبيذ فضلاً عن رأس مال ضخم الأمر الذى حول الجماعة فى نهاية الأمر إلى بنك قادر على التمويل وإقراض الحكام والملوك . فعلى سبيل المثال أقرض تنظيم فرسان هيكل سليمان لويس السابع ملك فرنسا مبلغ ثلاثين ألف صلدة . ويؤكد لنا أحد حجاج بيت المقدس واسمه ثيودريك فى عام ١١٧٢ ثراء هذا التنظيم العريض فيقول : «ليس من السهل على أى إنسان أن يتخيل قوة فرسان هيكل سليمان وثراءهم فقد كانوا - مثل أعضاء تنظيم مستشفى القديس يوحنا المعمدان بأورشليم - يمتلكون معظم المدن والقرى الغنية فى منطقة اليهودية بفلسطين . فضلاً عن أنهم بنوا القلاع فى كل مكان وملأوا الثكنات بالجند إلى جانب الضياع الكثيرة التى لا سبيل إلى حصرها والتى كان من المعروف أنهم يمتلكونها فى بلاد أخرى . وعندما اغتال أربعة من الفرسان القديس الإنجليزى المعروف توماس بيكيت (١١١٨ - ١١٧٠) فى كاتدرائية كانتربرى فرض الملك هنرى الثانى على قاتليه غرامة مالية كبيرة وأودع الغرامة لدى فرسان هيكل سليمان للصرف منه على إعالة مائتى فارس لمدة عام كامل فى الأراضى المقدسة فى فلسطين . وفى عام ١١٨٢ منح فاعلو الخير كلا من تنظيمى فرسان هيكل سليمان وفرسان القديس يوحنا المعمدان مبلغاً قدره خمسة آلاف قطعة فضية فضلاً عن إعطاء زعيميهما مناصفة مبلغاً آخر قدره خمسة آلاف قطعة فضية للانفاق على الدفاع عن بيت المقدس فى أورشليم .

اتصف فرسان هيكل سليمان وفرسان مستشفى القديس يوحنا المعمدان بأورشليم بالشراسة والضراوة فى القتال ،فلولاهم لما تمكن لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية بين عامى ١١٤٧ و١١٤٨ من الوصول إلى الأراضى المقدسة على الإطلاق . وأيقن المسلمون أنهم يواجهون طبقة من المحاربين الأشداء الذين لا يشق لهم غبار . ويتضح لنا هذا من كتابات ابن الأثير الذى سجل وقائع المعارك التى خاضها صلاح الدين الأيوبى ضدهم . فقد وصفهم ابن الأثير بأنهم فى موقع القلب من جسد قوات الفرنجة . وبعد انتصار صلاح الدين الأيوبى على الفرنجة عام ١١٨٧ فى موقعة حطين

تخلى عن رحمته المأثورة فى معاملة أعدائه وأمر بقطع رؤوس كل فرسان هيكل سليمان وفرسان مستشفى القديس يوحنا المعمدان لأنهم يبزون بقية الفرنجة فى شراستهم القتالية ولأنه أراد أن يخلص أمة الإسلام من شرورهم . وليس أدل على قوة نفوذ فرسان هيكل سليمان من امتلاكهم الاقطاعيات والأراضى فى عشرة بلاد شرقية وأوروبية هى : أورشليم وطرابلس وانطاكية وفرنسا وإنجلترا وأنجو والبرتغال وأبوليا والمجر . وجرت العادة أن يقوم اثنان أو ثلاثة من كبار السن فى تنظيم فرسان هيكل سليمان بامتحان كل عضو مستجد للتأكد من أنه ليس متزوجاً أو خاطباً وغير مقيد بقسم ولاء لأى تنظيم آخر وأنه ليس عليه أية ديون ويتمتع بالصحة والعافية ولا يشكو من أية أمراض خافية وأنه ليس عبداً فى أرض أى إنسان . فإذا تأكد الفرسان كبار السن من توفر هذه الشروط سمحوا للمستجد بالمثول فى حضرة رئيس التنظيم الذى يخاطبه قائلاً : «أخى الصالح . أنت تسعى إلى شيء عظيم للغاية . ولكنك لا ترى من تنظيمنا غير السطح وهو الظاهر . وأنت تشاهد على السطح أننا نملك خيولاً والجمة جميلة وأننا نأكل ونشرب أطيب الطعام والشراب ، ونرتدى أجمل الملابس . وهكذا يبدو أن مقامك بيننا سوف يطيب لك . غير أنك لا تدرك قسوة الأوامر التى ينطوى عليها الباطن لأنك سوف تجد من العسير عليك وأنت سيد نفسك أن تراها خاضعة خضوع عبيد الأرض لأى إنسان آخر .» وبعد أن يجتاز المستجد الامتحان يقسم على الطاعة العمياء والطهارة والفقر ومراعاة كل عادات التنظيم وأحكامه . ثم يقسم على أن يسعى إلى استعادة الأراضى المقدسة . وبعد قبول عضوية المستجد فى التنظيم يضع زملاؤه وشاحاً على كتفه وهم يصلون ويتغنون بالمزامير ثم يلثمون الأعضاء الجدد على أفواههم . وفى فترة قوتهم وبأسهم منح بابا روما فرسان هيكل سليمان الاستقلال عن الجهات المدنية والعلمانية كافة . الأمر الذى أوغر ضدهم صدر وليم ملك صور الذى شن هجوماً عنيفاً على التنظيمات الدينية العسكرية عند انعقاد مجمع لاتيران الثالث عام ١١٧٩ فاضطر هذا المجمع إلى إصدار تشريع ينص على الحد من امتيازات فرسان هيكل سليمان . والجدير بالذكر أن هؤلاء الفرسان تعرضوا عام ١١٦٠ لمضايقة بعض الناس لهم فاضطر البابا إلى إصدار مرسوم يمنعهم من اجتذاب هؤلاء الفرسان من فوق صهوة جيادهم والإساءة إليهم . ثم قام البابا انسونت الثالث فيما بعد فى الفترة بين عام ١١٩٩ وعام ١٢١٠ بإصدار مراسيم مماثلة يحذر فيها من استخدام العنف ضد فرسان هيكل سليمان أو الاعتداء على أتباعهم وممتلكاتهم . فضلاً عن أنه دان الأساقفة الذين قاموا بسجن بعض هؤلاء الفرسان .

وهناك بعض الأحداث الأخرى التى تشير إلى تضايق المسئولين من تصرفات أعضاء تنظيم هيكل سليمان . ومنها أن رئيسهم سمح لأعوانه فقط بدخول مدينة إسكالون عند فرض الحصار عليها عام ١١٥٣ وذلك بسبب رغبته فى استئثار أعوانه بالأسلاب مما أدى إلى عرقلة هذا الحصار . ويقال أيضاً إن فرسان هيكل سليمان فرطوا فى كهف حصين كان تحت سيطرتهم فسلموه إلى قائد المسلمين الأمر الذى أغضب الملك أماليريك من فرسان هيكل سليمان فقتل اثنى عشر فارساً منهم . وفى عام

١١٦٨ تقاعس زعيم فرسان هيكل سليمان عن مساندة الهجوم الثالث الذى شنه الملك أماريك على مصر وأدى هذا التقاعس إلى فشل هذا الهجوم . ويرجع السبب فى تقاعسهم إلى اشتداد التنافس بينهم وبين فرسان مستشفى القديس يوحنا المعمدان فى أورشليم . ويقال أيضاً إن بعض فرسان هيكل سليمان قاموا بالاعتداء على حياة رسول أرسلته طائفة الحشاشين إلى الملك أما لريك ليتفاوض معه بشأن اسقاط الجزية التى اعتاد أفراد هذه الطائفة دفعها إلى تنظيم فرسان هيكل سليمان . فثارت ثائرة الملك أماريك فأمر رغم الحصانة الممنوحة لفرسان هيكل سليمان بالقبض على مرتكب الحادث ومحاسبته . ومما ساعد على أفول نجم هؤلاء الفرسان وتقويض سلطانهم أن البابا أنسونت الثالث رماهم عام ١٢٠٧ بالكبرياء والخيلاء وسوء استغلال الإمتيازات الممنوحة لهم . وفى عام ١٢٦٥ عبر البابا انسونت الرابع عن ضيقه من زهوهم بأنفسهم فكتب إلى رئيسهم ينبهه إلى فضل الكرسى البابوى عليهم فهو الذى يوفر لهم الحماية من مضايقات الحكام واعتدائهم عليهم .

ولكن بعض الاتهامات الموجهة ضد فرسان هيكل سليمان باطلة . مثل الزعم باعتراض زعيمهم جيوم دى سوناك على الهجمة الصليبية التى شنها الملك لويس التاسع على مصر عام ١٢٤٨ . فقد نصح جيوم دى سوناك قائد هذه الحملة الصليبية ألا يقدم على مهاجمة المنصورة لأسباب تكتيكية وعسكرية محضة فاتهمه هذا القائد بعرقلة الحملة الصليبية لمصلحته الخاصة وبأنه لا يريد الحاق الهزيمة بمصر خوفاً من فقدان سلطانه على فلسطين . بل إن أهالى فلسطين اعتبروا جيوم دى سوناك خائناً عندما وافق على عرض من السلطان قلاون بتوفير السلام لسكان عكا مقابل أن يدفع كل واحد منهم عملة البندقية . وفى ١٥ مايو ١٢٩١ سقطت عكا أمام هجوم السلطان قلاون عليها الأمر الذى أدى إلى تشتيت جماعة فرسان هيكل سليمان هرباً من الموت والتجائها إلى جزيرة قبرص للإقامة فيها بدلا من تمركزهم فى أورشليم . ويعتبر الفارس جاك دى مولاى الذى كان فى منتصف العمر وقت تعيينه رئيساً للجماعة فى عام ١٢٩٣ آخر من تولى زعامة فرسان هيكل سليمان . حاول دى مولاى جاهدا أن يستعيد سلطان الجماعة الذى فقدته فى أورشليم . وفى عامى ١٢٩٤ و ١٢٩٥ زار دى مولاى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا فى محاولة يائسة للحصول على إمدادات جديدة من الرجال والعتاد كى يرسلها إلى الشرق . فأرسل سفناً محملة بالقمح والسلاح والملابس إلى جماعته المتمركزة فى قبرص . واشترك فى بعض المعارك الدائرة على أرض مصر غير أن قوات المصريين المتفوقة محقت حاميته الصغيرة . ويتناقض هذا الفشل مع النجاح المذهل الذى أصابه تنظيم فرسان هيكل سليمان بعد انعقاد مجمع تروبز عام ١١٢٨ . وبواكب هذا الفشل ذلك الفشل الذى منيت به الحملات الصليبية بوجه عام . فقد اقتنعت المجتمعات المسيحية أن الله لا يبارك هذه الحملات وأن نشر المبادىء المسيحية بالحسنى أفضل من نشرها بحد السيف . وهناك عامل هام آخر يقبع وراء هذا الإخفاق هو أن النمو الاقتصادى الذى حققه الغرب المسيحى أخذ يمر بمرحلة ضمور ابتداء من القرن الثالث عشر . وتلفت الناس من حولهم باحثين عن الأسباب المباشرة لهذا الاخفاق فلم يجدوا غير

التنظيمات الدينية - العسكرية يحملونها مسئولية ما حدث وغير بابوات رومايلومونهم على مؤازرتهم لها .

وفى عام ١٢٧٤ عقد البابا جريجورى العاشر مجمع ليون وكان أحد أهدافه الإعداد لحملة صليبية جديدة تختلف عن الحروب الصليبية السابقة فى أنها تستند إلى الواقع وتنبذ الشطط فى الخيال . ولكن رئيس فرسان هيكل سليمان آنذاك وهو جيوم دى بيجو رفض الاستجابة لرغبة البابا فى شن هجوم صليبى جديد . وكان أحد فرسان هيكل سليمان حاضراً انعقاد مجمع ليون فوصف الحملات الصليبية بأنها لا تخرج عن كونها كلباً صغيراً ينبح على كلب كبير لا يعير الكلب الصغير أدنى التفات . غير أن كليمنت الخامس الذى أصبح بابا روما عام ١٣٠٥ كان مصراً على شن حملة صليبية جديدة كبيرة العدة والعدد . ولهذا قام فى يونية ١٣٠٦ باستدعاء فولك دى فيلوريه رئيس فرسان القديس يوحنا المعمدان بأورشليم وجاك دى مولاى رئيس فرسان هيكل سليمان والتقى بهما فى مدينة بواتييه ملتمساً لديهما النصح والمشورة . وشد جاك دى مولاى رحاله إلى فرنسا يصحبه نفر قليل من فرسانه وساعده رامبو دى كارون مسئول الجماعة فى جزيرة قبرص . ومن ناحيته أعد دى مولاى مذكرتين للعرض على البابا إحداهما تتضمن اقتراحاً بتنظيم حملة صليبية جديدة قوامها ١٥ ألف فارس وخمسة ألف جندى من المشاة يتضافر ملوك أوربا فى تجهيزها وإمدادها بالسلاح على أن تمد المدن الإيطالية الحملة المقترحة بأسطول بحرى كبير . وكان من الواضح من مثل هذا الاقتراح أن نصر الغرب المسيحى على المسلمين لن يكون سهلا وإلا لما كانت هناك حاجة إلى مثل هذه القوة . وتتضمن المذكرة الثانية اقتراحاً بتوحيد صفوف جميع التنظيمات الدينية - العسكرية . وهو اقتراح ينم عن عجز تنظيمه بمفرده وهو فرسان هيكل سليمان عن تحقيق النصر . غير أن دى مولاى أساء التقدير فلم يدرك آنذاك مقدار الكراهية التى أضمرها كثير من المسيحيين وخاصة في فرنسا لفرسان الجماعات الدينية العسكرية . وقد بلغت هذه الكراهية حداً جعل محامياً من نورماندى اسمه بيير ديبوا يتطلع إلى إلغاء جماعة فرسان هيكل سليمان . فقد كتب هذا المحامى عام ١٣٠٦ بحثاً مطولاً بعنوان « عن استرجاع الأراضى المقدسة» جاء فيه أنه من الواجب على التنظيمات الدينية العسكرية التى تملك ثروات هائلة على الشواطىء الأوربية للبحر الأبيض المتوسط أن تسهم بالمال اللازم لتحرير أورشليم من قبضة المسلمين . وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا تجمعت هذه الثروات الضخمة فى صندوق واحد . وهكذا كان ديبوا يراوده حلم بأن يذوب تنظيم فرسان هيكل سليمان فى كيان أكبر وهدف أكبر هو تحرير الأراضى المقدسة . وفى ١٤ سبتمبر عام ١٣٠٧ أصدر الملك فيليب الرابع أوامره السرية بالقبض على أعضاء تنظيم فرسان هيكل سليمان الموجود فى فرنسا . ولم يكتف المرسوم الملكى الخاص بأمر القبض بصب اللعنات عليهم فحسب بل اتهمهم بإنكار المسيح ثلاث مرات والبصق فى صورة المسيح ثلاث مرات أيضاً . وأضاف أن أى عضو مستجد فى هذا التنظيم يقف عرياناً كما ولدته أمه أمام رئيس التنظيم الذى يقوم بتقبيل ما فوق ردفيه وسرته وشفتيه .

ويذهب الملك إلى أنه تحرى الأمر بدقة حتى لا يتهم أحداً منهم زوراً وبهتاناً بعد أن راودته الشكوك فى أن هذه التهم قد تكون من اختراع أعدائهم وشانئيهم . . ولهذا السبب لجأ الملك إلى التشاور مع قساوسته وبابا روما وطبقة النبلاء حول أفضل سبيل لمعرفة هذا التنظيم على حقيقته . وبناء على النصيحة التى أسداها جيوم دى باريس مسئول البابا لدى محاكم التفتيش فى فرنسا أمر الملك المذكور بالقبض على سائر أعضاء هذا التنظيم ، والاحتفاظ بكل ممتلكاته دون الاستيلاء عليها . وقد تمت بنجاح منقطع النظير وسرية كاملة عملية القبض على معظم أعضاء التنظيم فى وقت واحد هو فجر يوم الجمعة الموافق ١٣ أكتوبر ١٣٠٧ . غير أن نفراً قليلاً منهم تمكنوا من الهرب . ولكن السلطات نجحت فى القبض على الكثير من الفارين . ولعل أهمهم جيرارد دى فيلييه الذى منحه التنظيم رتبة ناصح فرنسا . ومن ناحيته حاول الفارس بيير دى بوكل إخفاء معالمه ونبذ الوشاح الخاص بالتنظيم وحلق ذقنه . لكن هذا لم يحل دون القبض عليه . وكذلك افتضح أمر عضوين آخرين فى التنظيم هما جين دى تشالى ويتير دى موديز اللذان حاولا التخفى دون جدوى ، وأيضاً تم القبض فى إنجلترا على إمبير بلانك ناصح منطقة أو فيرنى الذى هرب إلى إنجلترا . وبطبيعة الحال فقد زعيم التنظيم جاك دى مولاى الحظوة التى كان يتمتع بها فى البلاط الملكى نتيجة هذا الهجوم المفاجىء على فرسان هيكل سليمان . والغريب أن عدداً كبيراً من الأعضاء الجدد التحق بالتنظيم قبيل توجيه الضربة المباغتة له . فعندما منح الملك عام ١٣١٠ فرسان هيكل سليمان الفرصة للدفاع عن أنفسهم احتج الكثيرون بأنهم التحقوا بالتنظيم منذ فترة وجيزة ومن ثم فإنهم لا يعرفون عن التنظيم شيئاً .

ويبدو أن الملك فيليب الرابع اتخذ إجراءات القبض على فرسان هيكل سليمان أثناء وجودهم فى فرنسا دون الرجوع إلى بابا روما كلمنت الخامس ودون الحصول على موافقته . ولم يكن البابا المريض آنذاك يحبذ اتخاذ أية إجراءات متسرعة ضدهم . ويبدو أنه كان لا يصدق الإشاعات عنهم . ومن جانبهم توجه ممثلون عن هؤلاء الفرسان إلى مدينة بواتيه حيث اتخذ البابا مقراً موقتاً منتظرين هناك حتى يمن الله على البابا بالشفاء فيتمكن من مقابلتهم والاستماع إلى دفاعهم عن أنفسهم ضد اتهامات الملك فيليب لهم . وليس أدل على أن البابا لم يخطر له على باله آنذاك إلحاق الأذى بأعضاء التنظيم من أنه تعهد للملك فيليب بتقصى الحقائق الخاصة بهذا التنظيم وتبليغه بها . فضلا عن أنه طلب من الملك فيليب أن يوافيه بأية معلومات قد يتوصل إليها بشأنهم ، وذلك فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه هذا الملك باتخاذ إجراءات القبض عليهم . والواقع أن أحداً من المؤرخين لا يعرف حقيقة ما حدث على وجه التحديد لأن بعضهم يذهب إلى أن الملك فيليب الرابع لم يقدم على ما أقدم عليه إلا بعد أن أجرى مفاوضات مستفيضة مع البابا فى بواتييه فى شهر مايو ١٣٠٨ وبعد أن أخذ موافقته وهو الأمر الذى ينكره البابا انكاراً تاماً . وأغلب الظن أن الملك فيليب اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه . ونحن نرى المندوب البابوى لدى فرنسا جيوم دى بارى يدافع عن اتخاذ فيليب لها حتى يدرأ

عن البلاد خطر انتشار الهرطقة . كما نرى البابا كليمنت الخامس يرسل خطابات شديدة الغضب إلى الملك فيليب يحتج فيها على القبض على فرسان هيكل سليمان دون استشارته أو الرجوع إليه . ومن ناحيته كتب الملك فيليب إلى زميله الملك جيمس حاكم أراجون يطلب إليه أن يحذو حذوه فى مطاردة أعضاء هذا التنظيم وتعقبهم الأمر الذى يوحى بأن الانقضاض عليهم كان من تدبير الحكومة الفرنسية وبدون علم الكرسى البابوى . ولم يكن بابا روما على استعداد لتصديق الشائعات حول فرسان هيكل سليمان لأن الكثير منها جاء على ألسنة أناس لا يتمتعون بالصدق والسمعة الطيبة . ويذهب البعض إلى أن أحد الفرسان المرتدين من الأشرار المهرطقين حكم عليه زعيم التنظيم بالحبس مدى الحياة هو الذى تآمر مع شرير آخر للوقيعة بالتنظيم . فقد تقابل فى السجن مع سجين آخر من فلورنسا اسمه نوفو . فقرر الإثنان الوشاية بفرسان هيكل سليمان لدى ملك فرنسا على أمل أن يجزل لهما العطاء ويأمر بإطلاق سراحهما من السجن . ومن الجائز أن تكون منطقة جنوب غرب فرنسا هى المصدر فى انتشار الشائعات حول التنظيم فقد ذكر فارس من هذه المنطقة اسمه جيرارد لافيرنا أثناء استجواب السلطات له أنه خشى على حياته لأنه أول من أفشى أسرار هذا التنظيم . ويقال فيما بعد خلال الإستجوابات التى أجريت مع المقبوض عليهم من أعضاء التنظيم عام ١٣١١ أن رجل دين علمانياً ممن ألقت السلطات الفرنسية القبض عليهم تم ضبطه وهو يحمل خطابات من رئيس الرحلات فى تنظيم مارسيليتا إلى الرئيس الأعلى العام للتنظيم تتضمن تحذيراً له من الاتهامات التى يوجهها إلى تنظيمه كل من الملك والبابا . وأيضاً تطلب هذه الخطابات من رئيس التنظيم التدخل لكسب رضاء الملك وتحسين صورة التنظيم لديه . وقد ورد فى هذه الخطابات أن أحد الفرسان من مقاطعة جاكسون هو المسئول عن توجيه الاتهامات المشار إليها .

وفى يوم ٢٧ نوفمبر ١٣٠٩ حاول الفارس بونسارد دى جيزى الدفاع عن نفسه مستخدماً حقه الذى كفله قانون محاكم التفتيش القاضى بأحقية المتهم فى تحديد الأشخاص الذين يشتبه فى كونهم السبب وراء توجيه الاتهامات الباطلة له . وبناء عليه حدد بونسارد دى جيزى أربعة أشخاص كأعداء له ولتنظيم فرسان هيكل سليمان الذى ينتمى إليه هؤلاء الأربعة وهم الراهب جيوم روبرت الذى تولى تعذيبهم واسكوان دى فلوريان وبرنارد بيليه وجيرارد دى بويزول . ويجدر بالذكر أن الملك فيليب الرابع كان قد أرسل أحد هؤلاء الأربعة وهو برنارد بيليه إلى إنجلترا فى أكتوبر عام ١٣٠٧ فى محاولة فاشلة لإقناع الملك ادوارد الثانى بأن فرسان هيكل سليمان طغمة من الأشرار . ونسب اسكوان دى فلوريان إلى نفسه مسئولية كشف النقاب عن مباذل هذه الطغمة . فقد كتب فى ٢٨ يناير ١٣٠٨ خطاباً إلى جيمس الثانى ملك أراجون يفاخر فيه بأنه هو الذى كشف لملك فرنسا عن سوء أفعال فرسان هيكل سليمان . ويضيف اسكوان أنه حاول أن يقنع جيمس الثانى ملك أراجون بسوء مسلكهم ولكن هذا الحاكم لم يشأ أن يصدق كلامه عنهم ، الأمر الذى اضطره إلى الالتجاء إلى ملك فرنسا الذى اتضح له سوء خلقهم ساطعاً كالشمس . وقد ترتب على هذا اقتناع البابا

وبعض الملوك والأمراء الآخرين مثل ملكى ألمانيا وإنجلترا بجرمهم وجريرتهم . ولكن هدف اسكوان الحقيقى من خطابه لم يكن إطلاع الملك جيمس الثانى على الدور الهام الذى لعبه فى كشف حقيقة فساد طغمة الفرسان ولكن السعى للحصول على مكافأة كبيرة منه . ومن الخطأ أن نعتقد أن جيمس الثانى ملك أراجون استقى معلوماته عن التنظيم من اسكوان وحده ، فقد استقاها أيضاً من مجموعة من المخبرين والجواسيس . يقول جيوم دى سليزيان فى هذا الشأن إن الملك جيمس الثانى كلف اثنى عشر من أتباعه باختراق التنظيم فى كل أنحاء المملكة وأصدر إليهم التعليمات بضرورة انصياعهم لكل تعليماته وأوامره . فأكدوا للملك صحة الاتهامات . ويعتبر القسيس جين فولياكو أول فارس يتقدم بشهادته ضد التنظيم . فقد قال إن التنظيم لم يرق له وأنه لم يكن ليتردد فى تركه لو كان ذلك فى مقدوره . وأضاف أن هناك وثائق تدل على ذلك إلى جانب اعترافه بذلك لأسقف باريس . ولأن شهادة هذا الرجل كانت محل ثقة فقد تم استدعاؤه للإدلاء بشهادته أمام البابا فى بواتييه فى صيف عام ١٣٠٨ . ومن الشهادات التى يعتد بها أيضاً تلك التى أدلى بها أتيين دى ترويز الذى أخبر البابا أنه اقتيد إلى ملك فرنسا قبل القبض على فرسان هيكل سليمان . ولكنه اعترف أنه لم يجرؤ على البوح بأسرار التنظيم . ولكنه عندما أيقن أن الملك عاقد العزم على تقديم أفراد التنظيم إلى المحاكمة اعترف بالإشتراك فى الأخطاء المنسوبة إلى التنظيم فى حضور الملك وقسيس اعترافه وآخرين . ويذهب بليزيان عام ١٣٠٨ الى أن زعيم التنظيم نفسه جاك دى مولاى ظهر أمام البلاط الملكى فى بواتييه ملتمساً لديه الأعذار لنفسه ولجماعته . ولكن الذى حدث هو العكس فقد فاه دى مولاى بكلمات الهرطقة أثناء دفاعه عن نفسه وعن زملائه فى التنظيم ثم أردف قائلا إن زملاءه خشوا من مغبة الإعتراف بذنوبهم فتولى غفران خطاياهم فى مبنى المجمع رغم أن بليزيان يذكر أنه كان غير مؤهل لذلك بسبب عدم انتمائه إلى سلك الكهنوت . فضلاً عن أنه لم يكن من المفروض أن يحتفظ بمفاتيح المبنى .

ويرى البعض أن الملك أراد أن يضع البابا أمام الأمر الواقع وأن يفاجئه بالقبض على فرسان هيكل سليمان . وسعى الملك إلى تدعيم موقفه عن طريق حمل هؤلاء الفرسان على الإعتراف بعد إجراء التحقيقات معهم . وأمر الملك بإحضارهم أمام محاكم التفتيش وطلب جيوم دى باريس من زملائه المحققين الاضطلاع بواجباتهم بعناية شديدة . وبعد انتهاء المحققين من تحقيقاتهم تولوا إرسال نتائجها إلى ملك فرنسا على وجه السرعة فى مظروف مغلق بالشمع الأحمر . ولإثبات تفانيه فى خدمة ملك فرنسا بدأ جيوم دى باريس عملية القبض على فرسان هيكل سليمان فى المنطقة الخاضعة له . ثم تعهد بالقيام بعمل مماثل فى المناطق الأخرى فى الجنوب من فرنسا . ولم يحل دون تنفيذه ذلك غير اعتلال صحته . وقد أصدر الملك إلى موظفيه مجموعة من التعليمات المشددة طالباً إليهم دقة مراعاتها قبل القبض على هؤلاء الفرسان وفى مقدمتها تفتيش منازلهم . وإمعاناً فى التمويه قام هؤلاء الموظفون بتفتيش كل المنازل الدينية بحجة أنهم يزعمون فرض ضريبة العشور عليها . وأيضاً

قضت تعليمات الملك بتهديدهم وتعذيبهم إن اقتضى الأمر قبل مثولهم رسمياً أمام المحققين . وليس من العسير أن نتخيل مقدار فزع هؤلاء الفرسان من عنف الإجراءات المتخذة ضدهم وخاصة لأن نفراً من أعضاء التنظيم لم يكونوا من الفرسان المقاتلين بل كانوا مدنيين يعيشون فى الريف عيشة رعوية هادئة . وتضم قائمة أعضاء التنظيم الذين تم التحقيق معهم فى باريس أناساً لا علاقة لهم بالقتال أو الفروسية . فقد كان من بين المقبوض عليهم رعاة غنم مثل باريسيه ودى بيريه وعمال زراعة وعاملون فى الطواحين ونجارون مثل النجار العجوز أودودى وريميس البالغ من العمر ستين عاماً . أكثر من هذا إن أحد المقبوض عليهم واسمه جوتييه دى باين بلغ من العمر ثمانين عاماً وأن قسيساً اسمه البرت دى روفوكوت الذى لم تزد فترة التحاقه بالتنظيم عن ثلاثة أعوام فقط كان فى السابعة والستين من عمره . ولم يرحم زبانية المحقق نوجاريه تقدمهم فى السن فلم يتورعوا عن تعذيبهم . وتدل الوثائق التى لم تندثر الخاصة بمحاكمات فرسان هيكل سليمان التى عقدت فى باريس فى الفترة من أكتوبر حتى نوفمبر ١٣٠٧ على أن معظم المتهمين غيروا أقوالهم واعترفوا بصحة ما نسب إليهم من ادعاءات بسب الخوف والفرق الذى أصابهم أو درءاً لأهوال التعذيب الذى ينتظرهم . وأيضاً تدل وثائق المحاكمات التى عقدت فى الأقاليم فى الفترة من أكتوبر ١٣٠٧ حتى يناير ١٣٠٨ على اعتراف عدد كبير من أعضاء التنظيم بذنبهم . . ولم يصر على البراءة وبراءة التنظيم من أية ممارسات مشينة و تصرفات ذميمة سوى عدد قليل للغاية منهم ، ويصف لنا بعض المؤرخين بعض صنوف التعذيب التى تعرضوا لها منها استخدام الراك وهو إطار خشبى مثلث يربط فيه المتهم بحبل بحيث يتصل بهذا الحبل شيء أشبه بآلة الرفع التى تؤدى حركتها إلى الضغط على عظمتى المعصمين وعظمتى كعبى القدمين الأمر الذى يتسبب فى نقل عظام المعصمين والكعبين من مكانها . وهناك أسلوب آخر فى التعذيب يعرف بالاسترابادو الذى يتم عن طريق ربط يدى المتهم خلف ظهره بحبل يتدلى من عرق خشب قريب من السقف بحيث يمكن عن طريق هذا الحبل رفع الضحية حتى يكاد أن يرتطم بالسقف ثم تركه ليهبط دفعة واحدة حتى يكاد أن يرتطم بالأرض . وإمعانا فى تعذيبه كانوا يربطون بعض الأثقال بأعضاء الجسم حتى يكون الهبوط من عل حاداً ومفاجئاً . ويشهد أحد هؤلاء الفرسان واسمه جيرارد دى باساجيو بأنه تعرض للتعذيب بتعليق بعض الأثقال فى أعضائه التناسلية أو بعض أعضاء جسده الأخرى . أما التعذيب بالحرق فكان يتم عن طريق وضع قدمى السجين أمام نار مشتعلة بعد دهن قدميه بالدهون فتشتعل القدمان بالنيران . وإذا جاء وقت استجواب السجين كانوا يضعون عازلا بين النار المشتعلة وقدمى السجين . وقد تم تعذيب برنارد فاهو فى ألبى على هذا النحو الوحشى لدرجة أن النار أكلت اللحم المحيط بكعبى القدمين فتساقطت عظامهما . ومن الأمور التى تدعو إلى السخرية أن المحققين مع السجناء كانوا يزعمون أنهم اعترفوا رغبة منهم فى الخلاص الروحى وأنهم لم يعترفوا نتيجة تعذيبهم أو استخدام العنف معهم . فى حين أن الواقع يشهد أن الفترة بين ١٣٠٨ و ١٣١١ رأت تعرض الكثيرين من فرسان هيكل سليمان لصنوف التعذيب .

يقول مزارع بالغ من العمر خمسين عاماً اسمه بيير بروكارت إن المحققين باشروا التحقيق معه فى باريس يوم ٢١ أكتوبر ١٣٠٧ فاعترف أمامهم بالبصق على الصليب وتقبيل زملائه على نحو بذىء . فضلا عن اتباعه تعليمات التنظيم القاضية بممارسة الشذوذ الجنسى . ثم ذكر أنه أدلى بهذه الإعترافات دون أى ضغط ومن تلقاء نفسه . غير أنه لم يلبث أن غير اعترافاته فى صيف ١٣٠٨ وأقر بأن حراسه كانوا فى حالة سكر بين عندما نزعوا عنه ثيابه وقاموا بتعذيبه . وهذا ما يذكره أخ آخر فى التنظيم فى الثالثة والخمسين من عمره اسمه جين دى كوجى الذى يدير طواحين التنظيم فى باريس . فقد أبلغ هذا الرجل محقق محاكم التفتيش جيوم دى بارى أن زائر التنظيم فى فرنسا المدعو هوج دى بيرو أخذه خلف المذبح وقبله أعلى الردفين وعلى السرة وهدد بوضعه فى السجن مدى الحياة إذا لم ينكر المسيح كما أرغمه على البصق على الصليب (ولكنه آثر البصق على الأرض) ، وأخبره أنه يمكنه ممارسة الشذوذ الجنسى مع بقية زملائه فى التنظيم . ورغم أنه قال فى بادىء الأمر إن أحداً لم يرغمه على الإعتراف إلا أنه فى العام التالى ذكر فى حضرة البابا والكرادلة أن صحة اعترافاته لا تعنى عدم تعرضه للضغط والتعذيب . أما أثيريوس دى روشفورت مسئول التنظيم فى أسقفية كاركاسون فقد تعرض بعد القاء القبض عليه للتعذيب المتواصل رغم اعترافه فى جلسة التعذيب الأولى بإنكاره للمسيح والبصق على الصليب وطبع القبلات البذيئة والتحريض على ممارسة الشذوذ الجنسى . فقد ظن القائمون بتعذيبه أنه يخفى بعض المعلومات المتعلقة بعبادة الأصنام وهو الأمر الذى لم يكن يعرف عنه شيئاً . ومن ناحيته حاول فارس اسمه جيرارد دى سانت ميشيل أن يرفض الإعتراف ويقاوم سلطات التحقيق معه غير أنه لم يصمد أمام التعذيب وانهار معترفاً بكل شىء ثم امتنع المحققون عن تعذيبه واكتفوا بإعاشته فى السجن على الخبز والماء فقط لمدة ثلاثة أسابيع . ويشهد فارس اسمه جاك دى سوكى فى فبراير عام ١٣١٠ أن خمسة وعشرين فارساً على الأقل ماتوا من التعذيب . ورغم أن محاكم التفتيش هى التى قامت بتوجيه هذه المحاكمات فإن الملك كان فى واقع الأمر القوة الدافعة لها . ويتضح لنا هذا بجلاء من المحاكمات التى أجريت فى باريس حيث تولى جيوم دى بارى مباشرة التحقيق مع الشهود الأوائل البالغ عددهم سبعة وثلاثين شاهداً خلال جلسات المحاكمات الأولى . وهى الجلسات التى اعترف فيها بالذنب كل من جاك دى مولاى رئيس التنظيم وجيوفرد دى شارنى مسئول التنظيم فى مقاطعة نورماندى . وتدل الشواهد أن تدخل الملك فى سير المحاكمات فى الأقاليم والمحافظات كان أشد وضوحاً . وكثيراً ما طلب الملك بنفسه عرض نتائج التحقيق عليه شخصياً . فضلاً عن أنه أصدر الأوامر لموظفيه أن يتولوا التحقيق مع الفرسان المتهمين قبل إحالتهم إلى السلطات الكنسية .

وفى باريس وحدها نجح هذا الأسلوب فى انتزاع الإعترافات من ١٣٤ عضواً فى تنظيم فرسان هيكل سليمان من مجموع المقدمين منهم إلى المحاكمة البالغ عددهم ١٣٨ عضواً . لقد سبق أن ذكرنا أن بعض المقدمين إلى المحاكمة كانوا طاعنين فى السن مثل جوتييه دى باين . ولكن قائمة

المتهمين ضمت أحداثاً مثل بيير دى سيفرى الذى لم يتجاوز عمره السادسة عشر أو السابعة عشر . وإذا كان هناك أعضاء قدامى فى التنظيم ترجع عضويتهم إلى نحو خمسين عاماً فإن هناك أيضاً من التحق بالتنظيم فى عمر متأخر للغاية . والجدير بالذكر أن أنسيل دى روهير وإلياس دى جاكرو كانا يافعين فى الثالثة عشر عندما انضما إلى التنظيم . ولم تقتصر الإعترافات على البارزين من أعضاء التنظيم فحسب بل امتدت إلى العاديين والمغمورين منهم . ومن ثنايا اعترافات الفرسان يتضح أن مراسم استقبالهم كأعضاء جدد فى التنظيم اقتضت منهم انكار المسيح ثلاث مرات والبصق على صورته على الصليب وطبع القبلات البذيئة على جسد مسئول التنظيم فى أعلى ردفيه وسرته وشفتيه . غير أنهم لم يجمعوا فى أقوالهم على الاعتراف بعبادة الأصنام أو ممارسة الشذوذ الجنسى . ويتضح لنا من اعتراف جوتييه دى باين أن تنظيم فرسان هيكل سليمان كان يحظر على أعضائه إقامة أية علاقات جنسية مع النساء فى حين أنه حرضهم على ممارسة الشذوذ الجنسى مع زملائهم . ويذكر نيكولاس دى سارا فى اعترافاته أنه أطاع الأمر بإنكار صورة السيد المسيح على الصليب ثلاث مرات والبصق عليها . ثم نزعت عنه ثيابه ليطبع مستقبله فى التنظيم قبلة فوق ردفيه وأخرى على سرته وثالثة على فمه . ولم تطبق هذه الطقوس على البرت دى رومركورت بسبب تقدمه فى السن . وقد ذهب دى رومركورت فى اعترافه إلى أنه لو كان يعلم حقيقة طقوس التنظيم منذ البداية لما قبل الدخول فيه ولآثر الموت على الالتحاق به . واقتيد العضو المستجد إلياس دى جوكروا خلف المذبح ليسأله مسئول التنظيم عما إذا كان يؤمن بيسوع المسيح ومريم العذراء فأجاب بالإيجاب الأمر الذى أثار حنق مسئول التنظيم عليه وجعله يعتدى عليه بالضرب المبرح قبل أن يلقى به فى السجن لمدة يوم بدون طعام أو شراب . وهدده مسئول التنظيم بإعادته إلى السجن فاضطر إلى الإعتراف بخطئه وخاصة لأنه كان يرغب فى الخروج لزيارة بيت أبيه . وخلاصة القول إن معظم أعضاء فرسان هيكل سليمان كانوا حريصين على تأكيد براءتهم وإظهار أنهم ضحايا التنظيم الذى حرضهم على الإتيان بأفعال لا يرضون عنها . يقول رينود دى بروفنس مسئول التنظيم فى أورليانز فى اعترافاته أمام محكمة التفتيش أنه التحق بالتنظيم منذ خمسة عشر عاماً حيث أدخلوه محراب الكنيسة وأظهروه على صورة السيد المسيح وسألوه السؤال التقليدى إذا كان يؤمن بالمسيح .فلما أجاب بالنفى أبدى المسئول ارتياحه وقال له « أحسنت فى إجابتك فالمسيح نبى مزيف ،» وأضاف رينود أن أعضاء التنظيم أعفوه من تطبيق الطقوس البذيئة كافة عليه لأن أقاربه وأصدقاءه كانوا ينتظرونه خارج باب الكنيسة .

وبطبيعة الحال لا تخلو اعترافات الفرسان من التضارب والتناقض . ورغم ما قد يشوبها من قصور أو تنافر فإنه يتضح أن من بين الـ ١٣٨ عضواً الذين مثلوا أمام المحاكم فى باريس أجمع مائة وثلاثون عضواً منهم على أن التنظيم طلب منهم انكار المسيح . فضلا عن أن ١٠٢ عضواً منهم اعترفوا ضمنياً أو صراحة بتشجيع التنظيم للشذوذ الجنسى . ومع هذا فإن عدد المعترفين بممارسة

الشذوذ الجنسى فعلاً لا يزيد على ثلاثة أعضاء من مجموع المقدمين للمحاكمة وعددهم ١٣٨ عضواً كما أسلفنا . وجاء فى اعتراف جيوم دى جياكوا وهو عضو عادى فى التنظيم أنه أثناء نزوله فى بيت دى مولاى الرئيس الأعلى للتنظيم باشر الجنس مع مضيفه مولاى ثلاث مرات فى ليلة واحدة . ويقول بيير دى صافيد - وهو أيضاً أحد القائمين بالخدمة فى منزل رئيس التنظيم مولاى - إن زميلاً له أسبانياً يدعى مارتن مارس الجنس معه وأنه تقبل ذلك لأن رئيس التنظيم مولاى شرح له شرعية مثل هذا العمل فى يوم استقباله كعضو مستجد فى التنظيم .

غير أن السواد الأعظم من المقدمين إلى المحاكمة فى باريس لم يكونوا على علم بالطقس الخاص بعبادة الأوثان داخل التنظيم فلم يعترف بها سوى تسعة أعضاء فقط على نحو مبتسر وغير واضح . ولكن شهادة راءول دى جيزى فى هذا الشأن كانت قاطعة فهو يحدثنا عن عبادة رأس بشعة فى سبع كنائس مختلفة حيث كان مسئول التنظيم هوج دى بيرو يعرضها على أتباعه فيخرون أمامها على الأرض ساجدين . ويقول راءول دى جيزى إن منظر هذه الرأس المقطوعة بدا له وكأنه شيطان رجيم جعل فرائصه ترتعد لدرجة أنه لم يجسر على مجرد النظر إليها .

وساعة أن استقبل جين دى لاكاسانى فى تنظيم الفرسان وجد هذا الرجل رئيس التنظيم منبطحاً على أريكة فقام العضو المستجد لاكاسانى ومعه الأعضاء المستجدون بتقبيله على فتحة الشرج . وبعد ذلك جلس مسئول التنظيم على مقعد فقام الأعضاء المستجدون بتقبيله على سرته . ثم أخرج مسئول التنظيم تمثالاً أو صنما فقام المستجدون بعبادته . وقد اعترف أحد المنتمين إلى التنظيم أن مسئول التنظيم فى فرنسا واسمه أمورى دى لاروش أخبره أن المسيح نبى كذاب وأمره بإنكاره ثلاث مرات . لا شك أن الاعتراف الذى أدلى به الرئيس العام للتنظيم جاك دى مولاى البالغ آنذاك من العمر ستين عاماً واحد من أهم الإعترافات فقد خارت قواه واعترف بذنبه ثم مالبث أن أنكره ليعود إلى الإعتراف به . وهكذا بدا هذا الزعيم ضعيفاً وواهنا ومتردداً أمام موظفى الملك الذين يحققون معه فاعترف أمام جيوم دى بارى أنه دخل التنظيم منذ اثنين وأربعين عاماً فى بلدة بيون بأسقفية أوتان الفرنسية حيث كان فى استقباله همبرت دى بيرود مسئول تنظيم الفرسان فى إنجلترا وأمورى دى لاروش رئيس التنظيم فى فرنسا . قال دى مولاى إن همبرت دى بيرود أحضر له صليباً مصنوعاً من البرونز وطلب منه أن يبصق على صورة المسيح المصلوب ففعل هذا كارهاً مؤثراً البصق على الأرض ومتظاهراً بأنه يبصق على صورة المسيح . غير أن مولاى أنكر تهمة ممارسة الشذوذ الجنسى وأردف قائلا إنه قام باستقبال عدد محدود من حالات المستجدين تاركاً لأتباعه الأتيان بأية أفعال تفوح منها رائحة البذاءة . وانتهز ملك فرنسا الفرصة كى يفضح تنظيم فرسان هيكل سليمان أمام الشعب ويثير تقزز عامة الناس من أفعاله . ولهذا استدعى قادة التنظيم وزعماءه إلى اجتماع عام حضره مولاى نفسه وجيرارد دى جوش وجى دوفين وجيفروا دى شارنى وجوتييه دى لياناكورت . وعقد هذا الإجتماع العام فى مقر تنظيم فرسان هيكل سليمان فى باريس . وأيضاً حضر هذا الإجتماع عدد

كبير من أبرز القساوسة والقادة الدينيين والعلمانيين وأساتذة جامعة باريس ليسمعوا أقوال الفرسان المستجوبين . وفى إحدى جلسات الاستجواب استمع أساتذة الجامعة فى باريس إلى مولاى وهو يكرر اعترافاته على نفسه وعلى زملائه الحاضرين من زعماء التنظيم . كما أنه عرض للهدف الأصلى النبيل الذى أقيم من أجله هذا التنظيم وهو حماية الأراضى المقدسة . ولكن هذا الهدف النبيل سرعان ما تحول إلى ممارسات شائنة وقميئة على نحو ما ذكرنا . وعزا مولاى امتناعه عن الكشف عن نشاط التنظيم الذى تحول إلى نشاط مناهض للمسيحية إلى خشيته من أن يفقد هذا التنظيم الثروة الكاملة التى يتمتع بها إذا عرف العالم الخارجى حقيقته وتهجمه على الدين المسيحى . وأعلن مولاى أنه وزعماء التنظيم أشد ما يكونون ندماً على ما فعلوه وطلبوا من الجمع الحاضر أن يتوسط لدى السلطات كى تتسامح معهم . ولم يمض وقت كبير حتى سطر مولاى خطابات مفتوحة دعا فيها أعضاء التنظيم فى كل مكان أن يعترفوا بذنوبهم والضلالة التى وقعوا فيها الأمر الذى شجع قادة التنظيم أن يحذوا حذوه ويعترفوا بخطئهم . والجدير بالذكر أن ملك فرنسا كان يبث عيونه فى صفوف أعضاء التنظيم . من بين هذه العيون جين دى فولياكو الذى انضم إلى التنظيم للتجسس عليه لحساب الملك . وليس من المستبعد أن يكون مولاى زعيم التنظيم قد تعرض للتعذيب على يد المحقق نوجاريه . ففى ربيع ١٣٠٨ ذكر أحد شهود العيان أن مولاى قام بتمزيق ثيابه للكشف عن الحروق والإصابات التى أصابت ذراعيه ورجليه وظهره وبطنه . ومن المحتمل أن يكون هذا المحقق قد لجأ إلى استجواب المتهم استجواباً متواصلاً لإنهاك قواه وكذلك الزج به فى زنزانة وحرمانه من الطعام والنوم . ومن جانبه دعا فيليب ملك فرنسا بقية الحكام أن يحذوا حذوه ويسيروا على دربه . ومن ثم أرسل إلى جيمس الثانى ملك أراجون يطلب منه سرعة التدخل لإنقاذ الكنيسة من العار والشنار الذى ينتظرها على أيدى هؤلاء الكفرة المارقين . وأدى اعتراف مولاى إلى تشجيع أتباعه الموجودين فى فرنسا إلى الاعتراف والإستسلام دون مقاومة أمام السلطات . ومن بين الذين استسلموا لسلطات الملك هيوج دى بيرود نائب مولاى الذى كان يشغل فى الوقت نفسه وظيفة زائر فرنسا وهى إحدى وظائف التنظيم العالية . وكان لهيوج دى بيرود وضع خاص ومتميز فى التنظيم نظراً لأنه كان قد مضى على التحاقه به مدة أربعة وأربعين عاماً وهى مدة أطول من المدة التى قضاها مولاى رئيس التنظيم وهى اثنان وأربعون عاماً . فضلاً عن قرابة هيوج دى بيرود لهمبرت دى بيرود الرجل الذى كان له فضل استقبال مولاى كعضو مستجد فى تنظيم الفرسان . ولعب اعتراف هيوج دى بيرود دوراً هاماً فى الكشف عن طقوس هذا التنظيم فلا أحد استقبل حالات جديدة داخل التنظيم مثلما فعل هذا الرجل . وبالنظر إلى أهمية هيوج دى بيرود تكالبت عليه أصوات كثيرة باللوم والإدانة وحمله أتباعه مسئولية ما ساد التنظيم من مروق وفساد لأنه هو الذى قدم إليهم تمثالاً على هيئة رأس ليعبدوه . واعترف واحد من أتباعه أنه أراد ممارسة طقس التناول الأساسى فى الدين المسيحى ولكن دى بيرود حال بينه وبين ذلك . وأخيراً اعترف هذا التابع أن

الأعضاء المستجدين قاموا بتقبيل رئيسهم على ردفيه وفى سرته وشفتيه . فضلا عن أنه طلب منهم إنكار المسيح ثلاث مرات والبصق على الصليب وعليه صورة السيد المسيح . ورغم أن البعض أبدى تردداً فى تنفيذ هذه الأوامر فقد نفذوها فى نهاية المطاف . كما أن بيرود نصحهم بعدم مضاجعة النساء والإكتفاء بمعاشرة زملائهم فى التنظيم إذا ما استبدت بهم شهوة الجسد . ويجدر بالذكر أن رامبو دى كارون مسئول التنظيم فى قبرص الذى رافق رئيس التنظيم مولاى لمقابلة البابا عام ١٣٠٦ واحد من الذين غيروا أقوالهم تحت وطأة التعذيب فقد أكد فى بداية التحقيق أن حفلات استقبال الأعضاء الجدد كانت تخلو مما يخجل أو يشين ثم عاد ليعترف بأن التنظيم سمح لهم بممارسة الشذوذ الجنسى .

ويذكر جيوفروا دى جونوفيل رئيس التنظيم فى أكويتين وبواتو أنه رفض عند استقباله للمرة الأولى أن ينكر المسيح ويبصق على الصليب . بل أخذ يجادل المسئول عن إدخاله فى الجماعة . وشرح له هذا المسئول السبب فى اتباع التنظيم الطقس الخاص بإنكار المسيح بقوله إن مؤسس التنظيم الأصلى وقع فى أسر أحد سلاطين المشرق فوعده بالإفراج عنه إذا أنكر المسيح أمامه ففعل كما وعد بتحريض الآخرين على إنكاره . وبهذا تم الإفراج عنه وأصبح إنكار المسيح جزءاً لا يتجزأمن إجراءات الإلتحاق بالتنظيم . وحين لاحظ مسئول التنظيم ارتياع جيوفروا من إنكار المسيح آثر أن يتساهل معه ووافق على ضمه إليه دون إنكار المسيح وأيضاً دون أن يبصق على صورة السيد المسيح . واكتفى المسئول أن يبصق جيوفروا على يده هو بدلا من البصق على الصليب . ويرجع السبب فى تساهله مع جيوفروا إلى أن جيوفروا كان غنيمة كبيرة للتنظيم لأنه كان ابن عم مستشار ملك إنجلترا . وسأل المحقق عن سبب إخفاء جيوفروا مخازى التنظيم طوال هذه الفترة الطويلة فأجابه بأن الأمل كان يحدوه أن يتخلص التنظيم من المثالب والعيوب التى تشوبه . وأضاف جيوفروا بأنه فكر جاداً أكثر من مرة فى إماطة اللثام عن خبايا التنظيم المخزية . ولكن اعتماده الكامل فى معاشه وتنقلاته ورحلاته على أموال التنظيم أخرس لسانه . والحقيقة أن أهمية جيوفروا أضفت على اعترافه أثراً بالغاً فى افتضاح أمر التنظيم الذى اعترف قادته بمخازيه . وأمام اعتراف السواد الأعظم من قادة التنظيم بعيوبه لم يعد هناك أية أهمية لامتناع أربعة من أعضائه عن الإعتراف بذلك وهم جين دى شاتوفيلار وهنرى دى هرسينى وجين دى بارى ولامبرت دى تويزى .

لقد أصاب فيليب الرابع ملك فرنسا نجاحاً مذهلاً فى الإنقضاض على تنظيم فرسان هيكل سليمان بتهمة الخروج على الدين والإنحلال . غير أن بقية العالم المسيحى لم تتخذ موقفاً معادياً من هذا التنظيم . بل إنه أظهر شكاً واضحاً في اتهام فيليب الرابع له بالفساد . ويتضح لنا هذا من موقف كل من ادوارد الثانى ملك انجلترا وجيمس الثانى ملك أراجون . فقد رد الأول على رسالة ملك فرنسا إليه بأنه يستحيل عليه تصديق مثل هذه الفظائع عن تنظيم الفرسان . كما ذهب جيمس الثانى فى رده على رسالة من ملك فرنسا إليه إلى أنه يستحيل عليه أن يصدق مثل هذه الاتهامات عن تنظيم

لعب دوراً بطولياً فى الزود عن المسيحية والوقوف فى وجه المسلمين الذين يهددون حجاج بيت المقدس من المسيحيين . وكتب أحد أعوان الملك جيمس الثانى وهو رجل يدعى كريستيان سبينولا ويعيش فى جنوة بإيطاليا أنه لم يصدق حرفاً واحداً من الاتهامات ضد تنظيم فرسان هيكل سليمان التي نمت إلى مسامعهم وعزا هذه الاتهامات الباطلة إلى مكيدة الملك فيليب الرابع وبابا روما للاستيلاء على أمواله وممتلكاته . فضلا عن تطلع الملك فيليب الرابع إلى توحيد جميع التنظيمات المماثلة لتنظيم فرسان هيكل سليمان فى كيان واحد بحيث تصبح جميعها تحت إمرة واحد من أبنائه . ولعل الأسبانى أرنولد فيلا نوفا المناصر لتنظيم الرهبان المعروف باسم الفرنسيسكان الوحيد الذى لم يندهش لتهمة البذاءة والهرطقة الموجهة ضد تنظيم الفرسان . ورغم عدم اندهاشه من مسلك فرسان هيكل سليمان فقد أبدى تشككه فى نوايا ملك فرنسا فيليب الرابع الذى لم يأبه لهذا التشكك من جانب فيلا نوفا وغيره فى نواياه . بل مضى لا يلوى عن شيء فى تنفيذ خطته الرامية للقضاء على تنظيم الفرسان الأمر الذي أثار غضب بابا روما كليمنت الذى كتب إليه كى ينبهه إلى أنه يتجاوز حدوده لأن التحقيق فى أمر الهرطقة من شأن السلطة الكنسية وحدها ولا دخل للسلطة المدنية فيها . ولكن فيليب الرابع لم يعبأ بهذا وشاء أن يتحدى البابا ويستخف بسلطانه فأخذ زمام المبادرة وألقى القبض على أعضاء التنظيم وقدمهم إلى المحاكمة مستولياً على أموالهم وممتلكاتهم . وفى غضبه اتهمه البابا بأنه يتعمد إهانته . وأراد البابا أن يكبح جماح الملك فأرسل إليه اثنين من كرادلته هما بيرنجار فريدول وإثيان دى سويستى ليشتركا مع فيليب الرابع وأعوانه فى التحقيقات التى يجرونها مع فرسان هيكل سليمان . ولكن البابا أخفق فى الحفاظ على هيبته أمام اعتداء ملك فرنسا عليها .

البابا كليمنت الخامس يتدخل :

عندما ترامى إلى أسماع البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) نبأ قبض أعوان الملك فيليب الرابع على فرسان هيكل سليمان اضطرب اضطراباً شديداً . وكان البابا آنذاك خارج مدينة بواتييه الفرنسية فسارع بالذهاب إليها حيث عقد على الفور جلسة استثنائية طارئة للتحقيق فى المسألة . وهال البابا أن يقبض ملك فرنسا وأعوانه على أحد أقطاب هذا التنظيم وهو هوج دى بيرو ومعه سبعة عشر من أتباعه فى مدينة بواتييه متجاهلين سجلهم الحافل فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية . واستدعى البابا أعوانه فى مكان مغلق عليه حراسة شديدة للتشاور وكى يتدبر ما عساه أن يفعل أمام هذا الإعتداء الصارخ على صلاحياته كزعيم دينى . وقرر البابا فى هذه الاجتماعات أن يتصدى للملك فيليب الرابع . فبعث برسالة تأييد ومناصرة إلى تنظيم فرسان هيكل سليمان عن طريق الموظف المعين من قبله كمسئول الخزانة فى هذا التنظيم الذى آثر ملك فرنسا ألا يمسه بسوء ويستثنيه من أى أذى باعتباره موظفاً معيناً من قبل الكرسى البابوى فى روما . ومن ثم تجنب الملك القبض

عليه كتعبير عن حسن نواياه إزاء البابا . وفى الرسالة التى وجهها البابا إلى أعضاء التنظيم حثهم على الصمود وعدم الإستسلام لطغيان الملك الغاشم . واستجاب له مسئول تنظيم الفرسان فى لومباردى فوعده بأن الفرسان لن يفزعوا من الضغوط التى يمارسها ملك فرنسا عليهم مؤكداً له أنهم كعهدهم دائماً مسيحيون كاثوليك صالحون أفنوا حياتهم وطوال فترة إنشاء التنظيم (وهى مائة وتسعون عاماً) وهم يذودون عن المسيحية ضد أعدائها المسلمين ويرفعون رايتها خفاقة عالية .

استبد الغضب بكليمنت الخامس بسبب القبض على فرسان هيكل سليمان وشعر أن الملك فيليب الرابع جرحه فى كرامته . ولم يخفف من استيائه أن الملك استأذن المندوب البابوى فى محاكم التفتيش الفرنسية للقبض على الفرسان واستجوابهم . ولم يكن غضب البابا راجعاً إلى حرصه على سلامة الفرسان بل إلى شعوره بأن ملك فرنسا يسعى إلى استذلاله وتهديد سلطانه . ومعنى هذا أن الخلاف الذى نشب بين البابا وملك فرنسا كان فى الأساس خلافاً سياسياً تخفى فى شكل الخلاف الدينى . ولم يكن جاك دى مولاى رئيس التنظيم يدرك الخلفية السياسية للصراع الدائر رحاه بين الملك والبابا . ولم يدر بخلده أن كلا البابا وملك فرنسا يستخدمان تنظيم الفرسان كمطية لقضاء مآربهما . وقد دام الصراع بينهما زهاء سبعة أعوام كان الفرسان يعلقون آمالهم ويضعون ثقتهم العمياء فى الكرسى البابوى . وفى النهاية استطاع ملك فرنسا أن ينتزع زمام المبادرة من البابا كليمنت الخامس بمكر ودهاء . فقد ظل يتظاهر بإطاعة الأوامر البابوية والانصياع لها . ومن ناحيته لم يجد البابا مخرجاً من ورطته سوى مسايرة الملك فى سياسته تجاه الفرسان والإصرار على أن اليد الطولى لابد أن تكون للكرسى البابوى . أى أن البابا أراد أن يثبت أن سلطته تفوق سلطة الملك . ولهذا أصدر البابا بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٣٠٧ مرسوماً ينص على أحقيته دون سواه فى معالجة قضية الفرسان ، الأمر الذى ساعده على منع الملك فيليب الرابع من الإسراع بالتخلص من تنظيم الفرسان دون ضجة أو عجيج وخاصة لأن البابا أصر على إجراء محاكمة علنية للفرسان . وكان هدفه الرئيسى من إصدار مرسومه البابوى أن يقوم جميع الحكام المسيحيين فى كل أرجاء الأمة المسيحية بالقبض على تنظيم الفرسان والاستيلاء على ممتلكاتهم باسم البابا . وذكر البابا فى مرسومه أنه على علم بممارسات الفرسان الخاطئة والمنافية للدين غير أنه لم يصدق أن هؤلاء الفرسان الذين أنشأوا تنظيمهم للذود عن المسيحية يمكن أن يحيدوا على هذا النحو عن جادة الطريق وينقلبوا هذا المنقلب . وأضاف البابا فى مرسومه أن رئيس التنظيم نفسه اعترف بذنبه علناً وفى حضرة فقهاء الدين المسيحى البارزين فى باريس إلى جانب اعتراف نفر منهم أمامه . وبالرغم من هذا الإعتراف بالذنب فقد آثر البابا أن يتخذ من تنظيم الفرسان موقفاً محايداً وامتنع عن إدانتهم حتى يقف على نتيجة التحقيقات معهم . فإذا ثبتت براءتهم فسوف تكون فرحة الله بهم عظيمة . وأصدر البابا تعليماته إلى كل البلاد المسيحية بضرورة القبض باسمه على جميع أعضاء التنظيم والاحتفاظ بممتلكاتهم لحين انتهاء التحقيق معهم ، الأمر الذى أدى إلى القبض على فرسان التنظيم فى كل من

إنجلترا وأيرلندا وكاستيل وأراجون والبرتغال وألمانيا وإيطاليا ومملكة جزيرة قبرص التى ضمت على أرضها القيادة العامة للتنظيم بعد انتقالها من أورشليم . ويبدو أن ملك فرنسا كان لا يرغب فى استثارة البابا ورأى أن مصلحته تقتضى مسايرته ليضمن تعاونه . ولهذا سمح الملك للبابا من الناحية الرسمية أو الشكلية أن يبدو وكأنه قد أخذ زمام المبادرة . وتتضح لنا سياسة المهادنة هذه من خطاب أرسله البابا إلى الملك يبلغه فيه أنه سوف يرسل اثنين من كرادلته وهما بيرنجار فريدول وإتيين دى سويسى لينوبا عنه فى المحاكمة . والجدير بالذكر أن الملك بعث برسالة إلى البابا تؤكد أن حكومته بصدد تسليم الفرسان إلى السلطة البابوية كى تتخذ بصددها ما تشاء من إجراءات وتعد البابا بأن الملك لن يضم أراضى تنظيم الفرسان إلى أراضيه بل سوف يفصل إدارة ممتلكاتهم عن الخاصة الملكية . ولكن الملك التجأ إلى حرب الإشاعات يقوض بها سلطان البابا فقد روج شائعة بأن البابا عهد إليه بتولى التحقيق فى أمر الفرسان . وبلغ ضيق البابا مبلغاً جعله يؤكد أن هذا مجرد اختلاق ليس له أساس من الصحة . ورغم أن السجلات الوثائقية الخاصة بفترة الصراع بين البابا والملك حول هذا الموضوع محدودة للغاية فإن النذر اليسير الذى تبقى منها يدل على أن الحكومة الفرنسية سعت ما وسعها السعى إلى الضغط على البابا فى نفس الوقت الذى سلمت له بحقه فى معالجة موضوع الفرسان والاحتفاظ بهم . وقد ذكر أحد هؤلاء الفرسان واسمه برنارد دى باينولز أن الكاردينالين اللذين أرسلهما البابا إلى بواتييه بفرنسا لاستلام الفرسان عادا إليه صفر الأيادى . فأمر البابا بعودتهما على الفور إلى فرنسا لتنفيذ الأمر البابوى . وهدد البابا بتطبيق الحرمان الكنسى على الملك ومصادرة ممتلكاته حتى ينصاع لمشيئة الكرسى البابوى . وكانت نتيجة ذلك أن ملك فرنسا وافق على تسليم رئيس تنظيم الفرسان ومائتين وخمسين من أتباعه إلى ممثل البابا . ولكن هذه الموافقة ظلت مجرد وعد دون أن تتحول إلى واقع ، الأمر الذى يقال أنه جعل أعوان البابا يستضعفونه . ويقال - رغم أن هذا ليس مؤكداً - إن البابا عين عشرة كرادلة ولكنهم رفضوا هذا التعيين لأنهم ليسوا على استعداد لخدمة بابا مهيض الجناح وعاجز عن بسط نفوذه على جميع أرجاء العالم المسيحى الكاثوليكى . ومن ناحيتهم أشاع الفرسان أن البابا طمأنهم بأنه سوف يتسلم جميع الفرسان من الملك . غير أنه يبدو أن هذا كان مجرد نوع من أحلام اليقظة علق عليه الفرسان أملهم فى الخلاص .

وتذكر وثيقة أخرى أخباراً مماثلة . وهذه الوثيقة عبارة عن خطاب مرسل إلى شخص يدعى برنارد من ماجوركا . وتفيد هذه الوثيقة أن إثنين من الكرادلة توجها إلى باريس للحصول على معلومات خاصة بسير المحاكمات ففهما من مستشارى الملك ومحققيه أن التهم ثابتة على الفرسان . وعاد الرجلان إلى بابا روما ليخبراه بذلك . غير أن البابا تشكك فى صحة هذه المعلومات . فأمرهما بالعودة إلى باريس لمقابلة الفرسان ومعرفة الحقيقة من أفواههم . ورجع الرجلان إلى فرنسا وطلبا إلى الملك أن يساعدهما فى استجلاء الحقيقة . فلم يمانع فى إحضار رئيس التنظيم مولاى ونفر كبير من

أتباعه إلى مندوبى البابا لسؤالهم . وتقول الوثيقة إن الكردينالين لم يكادا يسألان رئيس التنظيم إذا كان قد اعترف فعلا بذنبه حتى مزق الرجل ثيابه ليظهر لهما آثار التعذيب الذى تعرض له ، مؤكداً أن التنظيم برىء من التهم التى يلصقها أعوان الملك به . فتأثر مندوبا البابا وأجهشا بالبكاء من فرط التأثر . ولما طلب مستشارو الملك أن يصدرا إدانة للفرسان رفضا الاستجابة إليه قائلين إن ضميرهما لا يسمح لهما بأن يحكما بإدانة الأبرياء . فانزعج الملك انزعاجاً شديداً وراودته المخاوف من وضع الفرسان فى سجون يحرسها أعوان البابا وأمر بالزج بهم فى سجون يتولى أتباعه حراستها . وعاد فيليب الرابع الغائب على وجه السرعة إلى باريس ليكتب رسالة شديدة اللهجة إلى البابا يطلب منه فيها ضرورة إدانة فرسان هيكل سليمان وإلا حكم على البابا وكرادلته بالهرطقة . غير أن البابا لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة قائلا إنه مستعد أن يواجه الموت ولا يحكم بإدانة برىء . وأضاف البابا أنه حتى إذا ثبت له ذنب الفرسان فالواجب الدينى يحتم عليه استتابتهم وغفران خطاياهم وإعادة كل ممتلكاتهم إليهم . ورغم أن تفاصيل مثل هذه الرواية وغيرها ليست مؤكدة فإن الشيء الذى لا يرقى إليه شك أن رئيس التنظيم رجع عن اعترافه كما نبذ العشرات من أتباعه اعترافاتهم بأنهم مذنبون - فأصدر البابا فى فبراير ١٣٠٨ أمراً بوقف التحقيقات التى يجريها معهم أعوان الملك فقد دعا تراجع الفرسان عن أقوالهم إلى الشك فى صحة الاتهامات الموجهة ضدهم . وخشى الملك من مغبة مسلك البابا فلجأ إلى تخويفه وإرهابه . ورغم أن البابا ظل صامداً أمام هذا التخويف فإنه شعر بعجزه أمام الملك بسبب عدم توفر القوة المادية التى يمكنه الاستناد إليها فى صراعه ضد الملك .

ثم حدثت حادثة كانت السبب فى اضطراب البابا فقد استطاع أوليفييه دى بن مسئول التنظيم فى لومباردى (الذى سبق أن تقابل مع البابا فى أكتوبر ١٣٠٧ واطمأن منه على مصيره ومصير سائر الفرسان) أن يهرب من المكان الذى احتفظ به البابا فيه لحين انتهاء استجوابه . وساعد على هربه أن أعوان البابا تركوه بلا حراسة . فقام البابا على الفور فى اليوم التالى بعقد مجمع أصدر عقبه أمرا بحبس جميع الفرسان المقبوض عليهم ووضعهم تحت الحراسة المشددة كما أمر الكرادلة بعمل الاستفسارات اللازمة لمعرفة كيف استطاع مسئول التنظيم فى لومباردى من الهروب . ورصد جائزة مالية كبيرة قدرها عشرة آلاف فلورين لمن يستطيع القبض عليه . ويرجع السبب فى انزعاج البابا الشديد من هرب هذا السجين أنه كان يدرك أن الملك سوف يستغل هذا الهرب ليبين عجز البابا عن توفير الأمن والنظام . فإذا كان البابا لا يستطيع الاحتفاظ بسجين واحد فكيف يمكن الوثوق به ليحتفظ بآلاف السجناء . وتأكد للبابا أن افتقاره للقوة المادية الضاربة سيقف عائقاً أمامه فى صراعه مع الملك . وبالفعل اغتنم الملك فيليب الرابع هذه الفرصة السانحة للانتقاص من مكانة البابا وانتزع زمام المبادرة منه فأعاد فتح ملفات فرسان هيكل سليمان . والتجأ الملك فى تلطيخ سمعة البابا إلى نشر وترويج كتابات مجهولة المؤلف ضده . فضلا عن أنه طرح مجموعة من الأسئلة على فقهاء الدين المسيحى فى جامعة باريس من شأن الإجابة عنها الانتقاص من قدر البابا أمام الشعب

الفرنسى . وقد خلف تاريخ هذا الصراع نبذتين تهاجمان البابا لصالح ملك فرنسا يحتمل أن تكونا من تأليف محام من نورماندى اسمه بيير ديبوا . والنبذة الأولى تلصق بالبابا تهمة الفساد والمحسوبية كما تتهمه بالتباطؤ المعيب فى اتخاذ الإجراءات ضد الفرسان رغم أن اعترافاتهم بالذنب صريحة ولا يرقى إليها شك . أما النبذة الثانية وهى مكتوبة باللاتينية فتتناول الأسلوب الذى ينبغى على المجتمع اتباعه فى التصدى للهرطقة بوجه عام وهرطقة الفرسان بوجه خاص . وتذهب هذه النبذة الثانية إلى أنه ليس من اختصاص المحاكم الكنسية النظر فى قضية الفرسان بل إنه من حق الملك أن يتخذ ما يراه من إجراءات لردع الكهنة ورجال الدين الذين يضلون الطريق أو يحيدون عن جادة السبيل . ويعتقد المؤرخون أن الملك لم يكن يشعر بأنه يقف على أرض قانونية صلبة بدليل أنه أظهر كل هذا التردد فى ممارسة الضغط على البابا لدرجة أنه اضطر فى ربيع عام ١٣٠٨ إلى طرح استفسارات قانونية عن سبعة جوانب فى قضية الفرسان طلب من فقهاء الدين المسيحى فى جامعة باريس أن يردوا عليها .

وهذه بعض التساؤلات الفقهية التى طرحها الملك على فقهاء الدين : إذا رأى ولى الأمر أو أمير البلاد منكراً فهل يتدخل لعقابه والقضاء عليه حتى إذا لم تخوله السلطات الكنسية هذا ؟ أم أنه لا يحق له التدخل إلا إذا طلبت منه الكنيسة ذلك ؟ وهل يجدر بالحاكم أن يعتبر فرسان هيكل سليمان فرسانا وليس رجال دين ؟ وهل تذهب ممتلكات الفرسان المصادرة إلى الحاكم أم إلى الكنيسة ؟ إلخ . . واجتمع فقهاء الدين للإجابة عن أسئلة الملك واستغرقت مشاوراتهم وقتاً طويلاً للغاية بسبب حرج موقفهم وحرصهم على عدم إغضاب الملك . وأخيراً أفتى هولاء الفقهاء بأنه ليس من اختصاص الملك أن يقوم بحبس الهراطقة أو التحقيق معهم إلا إذا طلبت منه الكنيسة ذلك . أما إذا رأى ولى الأمر أن خطر الهرطقة داهم ومن شأنه تعكير صفو الرأى العام فيمكنه أن يتدخل فى الحالات التى يكون فيها على يقين من موافقة الكنيسة على ذلك . وأيضاً أفتى الفقهاء باعتبار فرسان هيكل سليمان رجال دين فى المقام الأول وليسوا فرسانا يخضعون للسلطة الزمنية . ورأى الفقهاء أن اعترافات هذا الحشد الكبير من الفرسان الذى يزيد على الخمسين وفى أماكن متفرقة من المملكة يبرر إدانة التنظيم الذي ينتمون إليه . ورغم أن هذه الفتوى فى مجموعها لا تخول للملك أن يتدخل منفرداً فى قضية الفرسان فإنها أعطته المبرر لتشديد النكير عليهم والتنديد بتباطؤ البابا فى استئصالهم وقطع دابرهم .

وفى الفترة بين ٢٤ و ٢٩ مارس ١٣٠٨ أرسل الملك فيليب الرابع إلى البلاد ورجال الدين وكل من له مكانة أو حيثية فى فرنسا خطابات تدعوهم إلى الاجتماع به بهدف اتخاذ الإجراءات الكفيلة بردع فرسان هيكل سليمان الهراطقة . واقترح الملك عقد اجتماع مع البابا للتشاور من أجل وضع خطة لاستئصال شأفتهم . واستطاع الملك أن يجمع عدداً كبيراً من أنصاره الذين حضروا الاجتماع بغية ممارسة الضغط على البابا . ورغم أن أصوات هؤلاء الأنصار تعالت بضرورة إعدام الفرسان

بسبب ما اقترفوه من جرائم فقد تزلف الملك للبابا وتظاهر بالانصياع التام له . وفى بادىء الأمر لم يحدد الملك مكان الاجتماع بطريقة واضحة . غير أن اختياره وقع على مدينة تورز كمكان مناسب . وفى تورز قرر أنصار الملك أن الفرسان يستحقون الموت . ثم سعى الملك يرافقه رهط كبير من النبلاء لمقابلة البابا فى بواتييه . وتظاهر الملك بالإبتسام فى وجه البابا فى حين تعمد مرافقوه الشجار وإثارة المشاكل مع الكرادلة المرافقين لقداسته . وجثا الملك زلفى أمام أقدام البابا الذى استقبله بالرضا والترحاب معبراً عن سعادته برؤية شخص جلالته قبل أن يشد رحاله إلى روما ، فضلا عن أن الملك سعى إلى مقابلته لمناقشة موضوع هام وعزيز عليه هو مستقبل أورشليم والأراضى المقدسة . وتحلل البابا من جميع مهامه والتزاماته الروتينية والإدارية حتى يتهيأ لاستقبال ملك فرنسا . وفى يوم ٢٩ مايو ١٣٠٨ عقد البابا اجتماعاً عاماً فى القصر الملكى فى بواتييه حضره عدد كبير من الكرادلة ومستشارى الملك كما حضره حشد من العلمانيين ورجال الدين العاديين . واعتلى المنصة ممثل الملك الوزير جيوم دى بليزيان ليلقى خطاباً عنيفاً باللغة الفرنسية وليس باللاتينية حتى يفهمه جميع الحاضرين شن فيه هجوماً ضارياً على الفرسان شارحاً أسباب مناهضة الملك لهم . واستبشع المتحدث تصرفات الفرسان المنافية للدين والأخلاق وذكر كيف أنهم فيما مضى كانوا ينعمون برضا الملك عليهم ورعايته لهم ، وكيف أن وشائج الحب والولاء كانت تربط بينهم وبين جلالته . وذكر بليزيان أنه بعد القاء القبض على فرسان هيكل سليمان أصاب القنوط من رحمة المسيح البعض منهم فوضعوا حداً لحياتهم بأيديهم وأن رئيسهم اعترف بذنبه أمام فقهاء الدين المسيحى في جامعة باريس ، كما أن بليزيان اتهمهم بالتخلى عن قضيتهم الأساسية وهى حماية الأراضى المقدسة الأمر الذى تسبب فى ضياعها من أيدى المسيحيين وعودتها إلى أعدائهم المسلمين . وأضاف بليزيان أنه ليس أدل على ذنب الفرسان من أن بعضهم هربوا من السجون ليتحولوا إلى لصوص يختبئون فى الغابات وقطاع طرق ينهبون ويسلبون . والأدهى من كل هذا أن بعض فرسان أسبانيا تركوها وعبروا البحر كى ينضموا إلى جانب أعدائهم المسلمين . وأراد بليزيان إبراز بشاعة الفرسان فقال إن بعضهم اعترف أمام أسقف ماكون بالتبول على الصليب .

ثم تحدث مؤيد آخر للملك اسمه جين بورجونى ليقول إنه لم يبق أمام اعترافات الفرسان الصريحة بالذنب سوى إدانتهم وإن الملك والشعب يستحثونه على الإسراع فى ذلك وعدم التباطؤ أو التأخير فيه وإلا تحرك الملك بنفسه لينتقم مما لحق بالمسيح على أيديهم من أذى .

ورغم تضييق الخناق على البابا فإنه ظل صامداً كالطود عنيداً كالصخر لا تلين له قناة ولا تهتز له شعرة رأس . وعندما جاء دوره تحدث قائلا إن واجبه يحتم عليه حب الخير وكراهية الشر ولكن فى إطار العدل والشرعية . ثم استطرد قائلا إنه قبل انتخابه لشغل الكرسى البابوى لم يعرف عن تنظيم الفرسان سوى النذر اليسير نظراً لأن عدداً محدوداً من أهل بلدته كانوا أعضاء فيه . ولكنه عرف الكثيرين منهم بعد انتخابه فى كرسى البابوية فقد احتك بهم وشاهد صلاحهم . أما إذا كانت التهم

المنسوبة إليهم صحيحة فسوف يكون أول الكارهين لهم ويحكم بإدانتهم ولكن دون تسرع وعلى نحو أمين وشريف يليق بكنيسة الله . ورفض البابا أن يصدق التهم التى وجهها الملك وأعوانه إلى فرسان مدينة ليون . وأردف البابا أنه لا يذكر ما قاله فى بواتييه بصدد هؤلاء الفرسان غير أنه أكد أنه لم يرسل قط أية خطابات تخول للملك حق القبض على الفرسان . ولكن البابا أبرأ ذمة ملك فرنسا من تهمة الجشع والسعى إلى الاستحواذ على ممتلكات الفرسان مثلما أشاع عنه البعض . بل إنه قيل إن الملك لا يزمع وضع هذه الممتلكات تحت حراسته بل تحت إدارة السلطة الكنسية كى تنفق العائد منها على الأراضى المقدسة كما كان الهدف الأصلى منها . وحين أدرك الملك أن البابا لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه التجأ إلى تهديده . يقول يليزيان ممثل الملك فى هذا الشأن إن الحماس الدينى الجارف دفع مولاه إلى السعى لاستئصال شرور الفرسان بنفسه وإلى مطالبة البابا أن يحرص على التنبيه على رجال الدين العاديين فى سائر الممالك المسيحية لاتخاذ التدابير اللازمة ضد الفرسان وأن يقوم البابا بإلغاء الأمر الذى سبق أن أصدره بوقف التحقيقات معهم وبإستبعاد أعضاء التنظيم من الانتماء إلى الكنيسة . واقتنع الكثيرون وخاصة أنصار الملك أن ما يريده البابا حقاً هو توفير الحماية للفرسان . ولهذا وجه الملك فيليب الرابع تهديداً إلى البابا مفاده أنه إذا تقاعست الكنيسة الكاثوليكية عن أداء واجبها فسوف تتحرك السلطة الزمنية المتمثلة فى الحكام والأمراء نيابة عنها فى حماية المقدسات الدينية ووقاية المجتمع من شرور الفرسان . وهذا تهديد سافر وصريح من شأن وضعه موضع التنفيذ الانتقاص من مكانة البابا وعزله عن الاكليروس الفرنسى بحيث يفقد سيطرته عليهم تماماً . وهكذا قلب الملك للبابا ظهر المجن ولم يعد يهتم بالتظاهر بأن القبض على فرسان هيكل سليمان ثمرة التعاون بينه وبين البابا ، بل واجب ينبغى على السلطة الزمنية أن تؤديه إذا رأت أن السلطة الدينية تتقاعس عن أدائه . ولم يكترث البابا بهذا التهديد السافر وأصر أنه لا ولاية للسلطة الزمنية أو العلمانية على رجال الاكليروس كما نصح بعدم إصدار أية أحكام تدين الفرسان إلا بعد التمحيص والتفكير الناضج المسئول . ورد نصير الملك بليزيان بقوله إن الفرسان أسوأ من اليهود والمسلمين ويجدر بالمسيحيين أن يقتلوهم أينما وجدوا . ولكن البابا اعترض على ذلك بقوله إنه يسمح للمسيحيين أن يحملوا للفرسان المقت والكراهية ولكنه يرفض رفضاً باتاً ازهاق أرواحهم إلا إذا كان هناك أمر صريح من الكنيسة بذلك وفقط عندما يكونون فى حالة حرب صريحة مع المسيحيين . وأردف البابا أنه بفرض أن الفرسان الذين يعيشون فى ربوع فرنسا هراطقة فليس معنى هذا أن الفرسان فى كل مكان كذلك . ومن ثم لا يصح إدانة تنظيم الفرسان ككل . وهكذا عاد البابا إلى سابق تصلبه فأكد للملك أنه ليس بإمكانه اتخاذ أى قرار بشأن الفرسان إلا بعد تسليمهم وتسليم جميع ممتلكاتهم إلى الكنيسة . وأضاف أنه سوف يطلق سراحهم إذا وجدهم أبرياء . وفي هذا الصراع المحتدم لم يجد الملك فيليب مناصاً من القول إنه لن يستطيع قبول هذا إلا بعد التشاور مع

مستشاريه .

البابا كليمنت الخامس يتولى التحقيق مع الفرسان

قلنا إن الملك فيليب الرابع حاول إرهاب البابا كليمنت الخامس كى يخضع لمشيئته . ولكنه أخفق فى تخويفه فقد ظل البابا صامداً كالطود الأشم فأحس الملك بعجزه عن تجاهل الكرسى البابوى الأمر الذى يدل على أن سلطة البابا كانت آنذاك فى تزايد رغم تجرؤ بعض أعوان الملك أمثال جيوم عليه . ولم ير الملك مناصاً من مهادنة البابا علناً فأمر بإحضار اثنين وسبعين من أعضاء تنظيم الفرسان إلى مدينة بواتييه للإدلاء بشهادتهم أمام البابا الذى اعتذر له الملك بأنه لم يكن فى مقدوره تسليم الفرسان إليه بسبب تفرقهم فى أنحاء متفرقة من البلاد . ويبلغ عدد الفرسان الذين تم اقتيادهم إلى حضرة البابا فى بواتييه نحو أربعة وخمسين فارساً من الثابت أن أربعين منهم اعترفوا بكل أو بعض الاتهامات الموجهة ضدهم . ولكن كاهناً واحداً منهم فقط واسمه جين دى فال جيلوسا أكد أنه لم يعترف باقتراف أى ذنب رغم أنه سبق له المثول فى حضرة البابا . وكان القسيس أو الفارس جين دى فولياكو أول الذين أدلوا باعترافاتهم أمام البابا . يقول دى فولياكو فى شهادته أن الأخ جيوم مسئول التنظيم فى باريس الذى استقبله عند انضمامه إليه قال له : « لقد أصبحت الآن ملك أيدينا . ومن الضرورى أن تردد بعدى هذه العبارة : (إننى أنكرك يا من يدعونك الله) .» ورفض دى فولياكو أن يتفوه بهذا التجديف فأمسكه مسئول التنظيم من ثيابه المحيطة برقبته مهدداً إياه بقوله « لقد أصبحت ملك أيدينا تماماً وأقسمت بعدم ترك التنظيم لأى سبب من الأسباب . وإذا لم تردد ورائى ما أقول لك فسوف أضعك فى سجن لن تخرج منه أبداً .» فخاف فولياكو وصرخ بصوت عال : «إننى أنكرك» متحايلاً على الموقف بعدم ذكر كلمة الله .

وهناك شاهد آخر فى بواتييه اسمه أتيين دى ترويز اعترف أمام الملك والقادة الدينيين وعلية القوم بأخطاء التنظيم حتى قبل القبض عليه وعلى زملائه . وعندما مثل دى ترويز أمام البابا استفاض فى الكشف عن أخطاء تنظيم الفرسان . وروى هذا الرجل أنه اضطر عقب انضمامه إلى التنظيم أن ينكر المسيح وجميع الرسل والقديسين لأنه لما تردد فى إنكارهم استل أحد الفرسان الحاضرين سيفه وهدد بغمده فى جسده إذا رفض إطاعة أوامر التنظيم وتعليماته فقبل صاغراً أن تجرى عليه مراسم الإنضمام المعتادة وهى البصق ثلاث مرات على الصليب (بصق الرجل على الأرض متظاهراً بالبصق على الصليب) ثم أمره الفارس الذى كان فى استقباله بخلع ملابسه وطبع قبلة على جسده أعلى الردفين وقبلة على سرته ثم ثلاث قبلات على فمه . وبعد ذلك أعطاه مسئول التنظيم قميصاً جديداً ووضع شريطاً صغيراً حول خصره لف فيه رأساً (مقدساً) أوصاه بلبسه أعلى قميصه على الدوام . وبعد إتمام مراسم الانضمام إلى التنظيم أراد أخ فيه يدعى بول دى فاليسلى أن يمارس الشذوذ الجنسى معه . ولكنه أبى فضربه دى فاليسلى قائلا : « أنت لا تعرف تعليمات التنظيم فإحدى تعليماته تنص على ألا يرفض أخ أن يأتيه من الخلف أخ آخر . وشكا أتيين دى ترويز لرئيسه هوج دى بيرود

فامتدح دى بيرود الأخ على مسكله ولام دى ترويز لامتناعه عن الاستجابة إليه . وقد اعترف دى ترويز أنه لم يتحمل شرور التنظيم فآثر أن يتركه .

وانضم إلى فضح التنظيم أخ آخر يدعى جين دى شالون الذى اعترف بإنكاره المسيح تحت التهديد والوعيد فقد هدده رئيسه فى التنظيم بالزج به فى غضون أيام قليلة فى سجن ميرلان وهو سجن لا يخرج منه حياً من يشاء حظه العاثر أن يدخله . ويصف الشهود فى اعترافاتهم أعضاء التنظيم بخراب الذمة فقد فر جيرارد دى فيلبيه آخذاً معه خمسين حصاناً تابعاً للتنظيم عندما استشعر أن السلطات الفرنسية على وشك القبض على الفرسان . كما أن هوج دى شالون فر هارباً وهو يحمل معه كل ثروة دى بيرود وكنوزه . ورغم أن هذا الأمر كان معروفاً لأعضاء التنظيم فقد أخرس لسانهم خوفهم على حياتهم . وهم يذهبون إلى أنه لولا أن البابا والملك فتحا الطريق لما تجرأ أحد أن يكشف النقاب عن هذا الموضوع . ويعتقد الدارسون أن الملك فيليب الرابع وأعوانه قاموا باختيار الفرسان الذين مثلوا أمام البابا بحيث تتفق شهادتهم مع آرائهم المناهضة للتنظيم . أى أن الملك وأعوانه أعدوا بعناية مسرحية اعترافات الفرسان فى حضرة البابا فالوثائق تدل على أن شهادة أعضاء التنظيم أمام الملك وأعوانه عام ١٣٠٧ تتفق مع شهادتهم أمام البابا عام ١٣١٠ . ورغم أن شبهة التعذيب أو التهديد به تبقى قائمة فقد كان هناك ما يشبه الإجماع بين الفرسان أن شهادتهم صحيحة وخالصة لوجه الله تعالى . ولم يخرج عن هذا الإجماع سوى ثلاثة قالوا إنهم تعرضوا للتعذيب وأنهم ألصقوا الاتهامات الباطلة بالتنظيم فى حضرة البابا . ومن ثم تخلوا عن سابق هجومهم على التنظيم وبرؤوه من كل الاتهامات التى ألصقها غالبية الفرسان به .

لم يعترض البابا على قيام الملك بانتقاء الفرسان الذين مثلوا فى حضرته فى السر ثم فى العلن . وبدت اعترافات هؤلاء الفرسان العلنية أمامه وأمام الكرادلة تلقائية وطبيعية . والتمس الفرسان الرحمة من البابا الذى استجاب لتوبتهم فغفر لهم خطاياهم . وارتاح البابا فقد بدا تسليم الملك الفرسان له خضوعاً لسلطته البابوية ، الأمر الذى حفظ له ماء وجهه . ومما زاد من ارتياح البابا أن الملك قبل أن يعيد جميع ممتلكات الفرسان المصادرة ليصرف عائدها على الأراضى المقدسة وفقاً لرغبة الواهبين الأصلية . وسلم الملك بحق الكنيسة فى الإشراف على هذه الممتلكات . ولكن نظراً لأن الكنيسة لا تملك القوة اللازمة لحراسة الفرسان المساجين وحماية ممتلكاتهم المصادرة فقد تعهد الملك بتوفير الحراسة والحماية المطلوبتين بحيث تخضعان لإشراف السلطة الدينية وتقديم كشف الحساب لها . وقبل البابا أن يتولى الملك الاحتفاظ بالفرسان فى سجونه بناء على طلب بذلك من الكنيسة . غير أنه أصر على أن يكون له حق التحقيق مع زعماء التنظيم فى حين يتولى الكرادلة والأساقفة التحقيق مع أعضاء التنظيم العاديين . واسندت إلى البابا سلطة تعيين حارس فى كل أسقفية للإشراف على ممتلكات التنظيم بالإضافة إلى حارس آخر يعينه الأسقف المحلى الذى تقع هذه الممتلكات فى أسقفيته . وقام الملك بتسليم ممتلكات الفرسان إلى إدارة السلطة الدينية . والمهم أن

البابا فى مقابل ذلك وافق عن كره أن يعيد إلى المحققين فى فرنسا سلطة التحقيق التى سبق أن أصدر أمراً بتعليقها أو إيقافها بشرط أن يباشروا تحقيقاتهم بالتعاون مع الأساقفة . وقبل رحيل الملك عن بواتييه وصل البابا إلى اتفاق بشأن مصير تنظيم الفرسان وأصدر عام ١٣٠٨ سلسلة من المراسيم تحددت فيه معالم المصير الذى يواجهه الفرسان خلال فترة المحاكمات التى استغرقت أربعة أعوام . والجدير بالذكر أن جيوم دي باري ممثل الكرسى البابوى فى فرنسا أخفى عن البابا خطة ملك فرنسا للقبض على الفرسان . ناهيك بالسرعة غير العادية التى تمت بها إجراءات القبض عليهم ، الأمر الذى أثار شكوك البابا وريبته . وعلى أية حال قبل البابا المبررات التى تذرع بها الملك بأن خطر الفرسان الداهم هو الذى دفعه إلى التصرف السريع معهم . والواقع أن البابا كان فى بادى الأمر يشك فى نوايا الملك ويميل إلى الاعتقاد ببراءة الفرسان . غير أن اعترافاتهم بذنبهم فى حضرته غيرت موقفه وأقنعته بخطرهم على الدين . ولهذا السبب سمح البابا للملك وأعوانه بالمضى قدما فى محاكمتهم . وأيضاً كظم البابا غيظه من مندوبه فى فرنسا جيوم دى بارى وأعاد إليه سلطة ممارسة التحقيق التى جرده منها . وأصدر البابا أمراً بضرورة أن يتم التحقيق مع الفرسان بمعرفة هيئة كنسية معينة من قبله تتكون من أسقف واثنين من قساوسة الكاتدرائية وأثنين من الرهبان الدومنيكان وأثنين من الرهبان الفرنسيسكان . واحتفاظاً بالشكل قام الملك بتسليم الفرسان إلى مندوب البابا الكاردينال دى لا شابل . ولكن الملك فى حقيقة الأمر احتفظ بهم كسجناء تحت سيطرته لحين أن تستدعيهم الجهات الكنسية للمثول أمامها .

طالب البابا بمثول قادة تنظيم الفرسان أمامه فى بواتييه ولكن مرضه حال دون استجوابه لهم . ولهذا أرسل ثلاثة من كرادلته لاستجوابهم فى مدينة تشينون . هؤلاء الكرادلة هم بيرنجار فريدول واتيين دى سويسى (وهما من المقربين لدى الملك) إلى جانب الكاردينال الإيطالى لاندولفو برانكاسى . وقام هؤلاء الثلاثة بالتحقيق مع زعماء التنظيم وهم رامبودى كارون مسئول التنظيم فى قبرص وجيوفروا دى شارنى مسئول التنظيم فى نورماندى وجيوفروا دى جونفيل مسئول التنظيم فى بواتو وأكويتين وهوج دى بيرود الذى يشغل وظيفة زائر بالتنظيمم . وفى اليوم الأخير ظهر جاك دى مولاى الرئيس الأعلى للتنظيم أمام المحققين الثلاثة . وقد حضر هذه الاستجوابات بوجاريه وبليزيان والسجان جان دى جامفيل وهم جميعاً من أعوان الملك الذين لعبوا دوراً بارزاً فى التحقيقات التى أجرتها اللجنة البابوية مع الفرسان فى الفترة من ١٣٠٠ حتى ١٣١١ . وقد كان وجودهم بمثابة قوة ضاغطة على البابا لصالح الملك الذى سره أن يعترف قادة الفرسان فى التحقيقات بذنبهم . ومما زاد من أهمية اعترافاتهم كونهم من المخضرمين فى التنظيم فالبعض استمرت عضويتهم فى التنظيم نحو ثلاثين أو أربعين عاماً . والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من قادة التنظيم أعلن توبته وعودته إلى حظيرة الكنيسة . والجدير بالذكر أيضاً أن البابا احتفظ لنفسه بحق استجواب قادة التنظيم . وبالرغم من أنه منح رجال الأكليروس المحليين حق استجواب أعضاء التنظيم كأفراد فإنه أنشأ هيئة أعلى منهم تتمتع بسلطات أوسع ولها حق النظر فى أمر التنظيم ككل

وليس مجرد أفراده كما هو الحال فى حالة السلطات الدينية المحلية . وتتكون هذه الهيئة الأعلى من ثمانية مندوبين عن البابا .

ورغم ما توصل إليه الملك والبابا من اتفاق فإن الصراع بينهما ظل محتدماً . صحيح أن البابا أظهر استعداداً لمهادنة الملك وأن الملك احتفظ بالفرسان فى سجونه ووضع ممتلكاتهم تحت حراسته . وصحيح أيضاً أن البابا تخلى عن الكثير من سابق تشبثه وعناده . ولكن استسلامه للملك لم يكن بأى حال من الأحوال استسلاماً كاملاً . فقد قرر البابا الدعوة إلى عقد مجلس دينى برئاسته بعد مرور عامين ليحدد فيه بشكل حاسم ونهائى أمر الفرسان . فضلا عن أنه لم يستبعد فكرة إعادة الممتلكات إليهم فى حالة ثبوت براءتهم . وأثار هذا حفيظة الملك فقد كان يأمل ألا تستغرق إجراءات المحاكمة أكثر من بضعة أسابيع أو شهور على أكثر تقدير وأن تنتهى هذه المحاكمات بإدانة الفرسان عام ١٣٠٨ . فالبابا أرجأ البت النهائى فى مصيرهم إلا بعد مرور عامين كما أنه ظل يصر على اعتبار فرسان هيكل سليمان تنظيماً دينياً وليس مدنياً مثلما كان الملك يعتبره . ووجد الملك نفسه فى ورطة بسبب التجاء البابا إلى أسلوب المماطلة والتسويف فى محاكمة الفرسان . ورغم ضعف البابا (بالمقارنة بالقوة المادية للملك) فإنه نجح فى مضايقة الملك . ومما زاد من ضيق الملك أن التأجيل والتأخير فى إصدار حكم نهائى على الفرسان أعطى كثيراً من هؤلاء الفرسان فرصة للتوبة وإبداء الندم . إلى جانب ذلك أخذ الشعب الفرنسى يتهم كلا من البابا والملك بالرغبة فى الإستيلاء على ممتلكات الفرسان وليس القضاء على هرطقتهم واستئصال شأفة فسادهم ، الأمر الذى اضطر البابا إلى الدفاع عن نفسه بقوله إن ما أخذه من هذه الممتلكات أقل من أن يكفى للوفاء بنفقات الكرادلة الذين يباشرون التحقيق مع الفرسان . ومما زاد الأمور تعقيداً أن المراسيم التى أصدرها البابا لمعالجة قضية الفرسان اتسمت فى كثير من المواضع بالغموض لدرجة أربكت أتباعه من رجال الدين وجعلت الملك نفسه يطلب منه الإيضاحات . ومن بين هذه الاستفسارات : هل يريد البابا إعادة التحقيق مع الفرسان الذين سبق لأنصار الملك أن حققوا معهم ؟ وما موقف الكنيسة من الفرسان الذين سبق أن اعترفوا بذنبهم ثم مالبثوا أن أنكروا هذا الإعتراف ؟ وما موقف الكنيسة ممن يتشبثون بضلالهم ؟ إلخ إلخ . . . وهكذا استطاع البابا بعدم حسمه المتعمد وتركه كثيراً من الأمور معلقة وغائمة أن ينهك قوى الملك ويستنفد صبره . وللمرء أن يتصور طول الوقت الذى أضاعه الملك فى الحصول عل ردود البابا على استفساراته .

وفى مناوراته لإنهاك الملك أصدر البابا تعليمات مفصلة ينبغى اتباعها فى استجواب الفرسان . وهى تعليمات يؤدى تنفيذها إلى ضياع المزيد من الوقت . ففى حالة رجوع الفارس عن اعترافه بالذنب ينبغى على المحققين معه أن يأمروه بأن يعيش على الخبز والماء فقط . فإذا أصر على الإنكار يتم اطلاعه على اعترافات رئيس التنظيم وغيره من القادة والزعماء وأيضاً إخباره بالاعترافات التى أدلى بها زملاؤه دون ضغط أو إكراه . وأيضاً ينبغى على رجال الدين مقابلة الفرسان والتحدث إليهم لمحاولة التأثير عليهم وإعادتهم إلى حظيرة الدين . فإذا ظلوا سادرين بعد كل هذا فى غيهم فلا بد من

التلويح لهم بالتعذيب وإظهار أدوات التعذيب لهم ثم تعذيبهم تعذيباً خفيفاً فى بادىء الأمر . ثم يشتد تعذيبهم فيما بعد بشرط أن يتم التعذيب فى وجود قسيس ودون المبالغة فيه . وفى حالة إصرار الفارس على غيه تمتنع الكنيسة عن مغفرة خطاياه وعن إقامة الشعائر الدينية على روحه فى حالة وفاته .

وبالمقارنة كانت معاملة الذين يعترفون بذنبهم اعترافاً لا رجعة فيه معاملة طيبة للغاية فى فترة إقامتهم فى السجن فقد قبلت الكنيسة مغفرة خطاياهم وأعطتهم التناول ولم تحرمهم من الطعام الطيب . ومن حيث حسن المعاملة يأتى فى المرتبة التالية أولئك الذين أنكروا ذنبهم ثم عادوا ليعترفوا به فقد غفرت أيضاً لهم الكنيسة خطاياهم ولم يكن طعامهم بنفس سوء الطعام المقدم للذين لا يرجعون عن غيهم . ومن الواضح أن الهدف من وراء التمييز فى المعاملة بين الفرسان التائبين والفرسان السادرين فى غيهم هو تشجيع الفرسان على الاستمرار فى اعترافهم بذنبهم . أما المجموعة الأخيرة فهى مجموعة الفرسان الذين اعترفوا بذنبهم فى بادىء الأمر ثم تراجعوا عن اعترافهم فيما بعد . فقد عاملتهم الكنيسة بنفس الخشونة التى عاملت بها الذين أنكروا أنهم مذنبون من البداية حتى النهاية . وعلى كل حال فإن الشواهد تدل على أن الإجراءات لم تتخذ سوى ضد عدد محدود من الفرسان رغم أن أسقف كليرمونت وحده باشر التحقيق مع ثمانية وستين فارساً فى الفترة بين ٤ و ١٠ يونية ١٣٠٩ اعترف تسعة وثلاثون منهم بذنبهم فى حين أصر الباقون وعددهم تسعة وعشرون فارساً على براءتهم .

ولم تلجأ سلطات التحقيق الكنسية إلى تعذيب المتهمين بصورة ثابتة أو منتظمة . ولكن هناك شواهد كثيرة على تكرار حالات التعذيب فقد تعرض جين دى فيرنس فى أسقفية باريزيان للتعذيب لمدة ثلاثة شهور قبل السماح له بالمثول أمام الأسقف للتحقيق معه لدرجة أن مسا من الجنون أصابه لمدة عام كامل من جراء التعذيب . وقال هذا الرجل لممثلى البابا فى نوفمبر ١٣٠٩ إنه اعترف بممارسة الشذوذ الجنسى تحت وطأة التعذيب . وعندما مثل أتيين دى دومونت من باريس أمام اللجنة البابوية فى فبراير عام ١٣١١ بدا عليه الإضطراب الشديد بسبب تعرضه فيما مضى للتعذيب لمدة سنتين أو أكثر . وكذلك أخبر روبرت فيجييه – وهو فارس من كليرمونت – اللجنة البابوية فى فبراير ١٣١٠ أنه سبق له أن اعترف بذنبه أمام أسقف نيفير فى باريس بسبب شدة التعذيب الذى تعرض له ولأنه سمع أن ثلاثة من زملائه الفرسان ماتوا نتيجة التعذيب . ولم يتورع أعوان الملك عن استخدام أسوأ أنواع التعذيب الوحشى ضد الفرسان . فسجان سجن بواتييه المدعو جين دى جامفيل أمر بتعذيب فارس اسمه همبرت دى بى ثلاث مرات حتى يعترف بذنبه واقتادوه إلى برج نيور حيث قيدوه بالأغلال وجعلوه يعيش على الماء والخبز لمدة ستة وثلاثين أسبوعاً . فانهار الرجل واعترف بذنبه . وأيضاً انهار فارس اسمه كونو سولين دى سانت جوريو عندما ساموه العذاب وجعلوه يعيش على الخبز والماء لمدة ستة أشهر متصلة . وهناك حالات أخرى تدل على تعرض الفرسان للتعذيب

مثل حالات جيوم ديريه وتوماس دى باميلونا توبير نتوبالد . وقد خلف لنا التاريخ وثيقة فى شكل خطاب أرسله كاهن اسمه جين شابين وأظهره جين كوشى لللجنة البابوية فى فبراير ١٣١٠ . وقد سلم شابين هذا الخطاب للفرسان المحبوسين فى سنس فى الوقت نفسه الذى جاء فيه أسقف أورليانز للتحقيق معهم . وورد فى هذا الخطاب أنه مرسل من طرف السجان فيليب دى فوويه وجان جامفيل . ويدعو هذا الخطاب الفرسان المحبوسين فى سنس إلى التوبة والرجوع إلى حظيرة الكنيسة ويطلب منهم الاستجابة إلى فوويه أسقف أورليانز الذى أرسله الملك خصيصاً لهدايتهم ، مهدداً إياهم بأن البابا أمر بحرق الفرسان فى النار إذا استمروا فى غيهم . وعندما استدعت اللجنة البابوية أحد هذين السجانين وهو فيليب دى فوويه أنكر إرساله لمثل هذا الخطاب .

وخلاصة القول إن الملك فيليب الرابع استطاع أن يضع تنظيم الفرسان تحت سيطرته الكاملة فى عام ١٣٠٧ وعام ١٣٠٩ لدرجة أن اللجنة البابوية التى شكلهاالبابا كانت تضم عدداً كبيراً من رجال الدين الموالين للملك مثل رئيس أساقفة سنس وأسقف بايو وأساقفة أوكسير وأورليانز وكامبراى وكاهور . ورغم هذا فقد تعمد الملك أن يضع العراقيل أمام أعوانه داخل هذه اللجنة الدينية المشكلة من ثمانية أعضاء . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يكن مطمئناً تماماً إلى النتائج المترتبة على التحقيقات التى تقوم بها هذه اللجنة . فقد تتمخض عن شيء لايمكن التنبؤ به أو السيطرة عليه . وهكذا أثبتت الأيام أن الصراع بين الملك والبابا انتهى إلى صالح الملك رغم بعض انتصارات البابا الظاهرية . فقد عجز البابا عن الاحتفاظ بالفرسان السجناء تحت حراسة السلطات الدينية المحلية ، كما عجز عن انتزاع ممتلكات الفرسان من براثن الملك . كل ما نجح فيه هو إرغام الملك على الامتثال الصورى وليس الفعلى لمشيئته .

ففى يناير ١٣٠٩ أرسل الملك رسالة إلى أعوانه من الحكام والنبلاء زعم فيها أنه لم يصادر ممتلكات الفرسان إلا ليقى العالم المسيحى من شرورهم وآثامهم وأنه لا ينوى مطلقاً الاستحواذ على هذه الممتلكات لنفسه بل يعتزم إدارتها نيابة عن التنظيم من أجل الذود عن الأراضى المقدسة وتقديم المساعدات إليها . ثم قال الملك إنه تم الاتفاق بينه وبين البابا على نقل إدارة هذه الممتلكات إلى السلطة الدينية المنوط بها القيام بهذا العمل . بل إنه طلب من رعاياه أن يحذوا حذوه ويسلموا أية ممتلكات خاصة بتنظيم الفرسان قد يكونون وضعوا أيديهم عليها .

ولكن هذا لم يعد أن يكون مجرد كلام معسول يتناقض مع الحقيقة والواقع . فالواقع يقول إن الملك أجر بعض هذه الممتلكات لقاء مبالغ مالية . ثم إن الملك ضم العائد من بعض الممتلكات الأخرى مثل الغابات والبحيرات إلى خزينة القصر الملكى . فضلاً عن أنه أظهر ميلاً إلى بيع منقولات الفرسان التى استولى عليها . كل هذا تم أمام سمع ونظر البابا وهو عاجز عن أن يمنعه . وبهذا أحكم الملك الرقابة لا على أشخاص الفرسان وممتلكاتهم ولا على السلطة الدينية المحلية التى تباشر التحقيق معهم فحسب بل على اللجنة البابوية العليا التى أنشأها البابا بهدف التحقيق فى قضية التنظيم

ككل . فهذه اللجنة كانت تحت سيطرة الملك تماماً كما سبق أن ذكرنا . فرئيسها هو جين أبسلين رئيس أساقفة ناربون الذى كان من خلصاء الملك . وأيضاً كان من خلصائه فى هذه اللجنة جيوم ديرانت أسقف مند وجيوم بونيه أسقف بايوه . وكما ذكرنا فبالرغم من أن اللجنة البابوية العليا كانت مشكلة على هوى الملك فقد تعمد جلالته وضع العراقيل أمامها . وعندما بدأت هذه اللجنة مؤخراً فى مباشرة أعمالها فى ٨ أغسطس ١٣٠٩ تغيب عن حضور جلسات الافتتاح عدد كبير من أعضائها الأمر الذى اضطر اللجنة إلى تأجيل اجتماعها . وقيض أن تجتمع أخيراً بعدد محدود من الأعضاء الذين لم يفعلوا شيئاً لمعالجة القضية التى هم بصددها . أى أنها كانت لجنة تفتقر إلى العزم والحزم والقدرة على الحسم منذ البداية وهذا ما أراده الملك لها . وعبثاً ناشدت اللجنة الفرسان للتقدم بشكواهم من أى تعذيب قد يكون لحق بهم . فلا غرو لأن الفرسان كانوا أسرى فى يدى الملك . وعبر رئيس التنظيم مولاى وعدد من زملائه عن رغبتهم فى المثول أمام هذه اللجنة . ولم تجد اللجنة سبيلاً إلى سماع شكواهم إلا أن تأمر السجان باحضارهم من سجنهم إلى قاعة الاجتماع .

وليس أدل من هذا على عجز البابا . فقد كانت مدينة سنس التى اجتمعت فيها اللجنة البابوية العليا تغص بعدة مئات الفرسان . ومع ذلك فإن استدعاء اللجنة للشاكين استغرق أكثر من عشرة أيام . فالملك وليس البابا كان المسيطر الحقيقى على الفرسان . والملك كما أسلفنا لم يكن يرتاح لمثول هؤلاء الفرسان أمام اللجنة خوفاً من أن يرجع الفرسان عن اعترافاتهم . أى أن الملك خشى تكرار ما حدث فى المحاكمات المحلية المنعقدة فى ديسمبر ١٣٠٧ عندما غير بعض الفرسان أقوالهم وتراجعوا عن اعترافاتهم رغم أن المحققين معهم كانوا من رجال الدين الأوفياء لملك فرنسا وحكومته .

الدفاع عن تنظيم الفرسان :

كانت حسابات ملك فرنسا فيليب الرابع خاطئة عندما ظن أن الفرسان سوف يدافعون عن التنظيم حين يمثلون أمام اللجنة البابوية العليا . وقد بدأ عمل هذه اللجنة عندما تقدم إليها من تلقاء نفسه شخص اسمه جين دى ميلوت فى ملابس عادية غير كهنوتية لإدلاء بشهادته عما يعرفه عن تنظيم الفرسان . قال الرجل إنه التحق بعضوية هذا التنظيم لمدة عشرة أعوام ثم ترك التنظيم بعدها . وأقسم الرجل بروحه وإيمانه أنه لم يسمع أى سوء أو شر عن هذا التنظيم على الإطلاق . واتضح من استجوابه أنه لم يحضر بهدف الدفاع عن التنظيم بل جاء من أجل طلب الإحسان من اللجنة نظراً لعوزه وفاقته . ثم أحضر السجانان فوويه وجامفيل ستة من الفرسان ليمثلوا أمام اللجنة البابوية العليا . فلم يكن لديهم ما يقولونه فى الدفاع عن التنظيم . واعتذر هؤلاء الفرسان الست للجنة بأنهم أناس بسطاء لا حول لهم ولا قوة .

وبعدئذ حضر أمام اللجنة رئيس التنظيم جاك دى مولاى وأحد أعضائه هوج دى بيرود اللذين كان يفترض فيهما التصدى بقوة للدفاع عن التنظيم . ولكن الواقع كان بخلاف ذلك تماماً فمن

ناحية لم يبذل هوج دى بيرود أى جهد للدفاع عن التنظيم . ولم يكن رئيس التنظيم أحسن حالاً فقد بدا عليه الاضطراب والسقم كما بدا منظره مثيراً للضحك . وبالنظر إلى أن البابا احتفظ لنفسه بحق التحقيق مع قادة التنظيم فقد علق الاثنان كل آمالهما على كسب عطف البابا على قضيتهم . ويتضح لنا هذا من شهادة بيرود الذى أصر على أن يتولى البابا - وليس اللجنة البابوية العليا - التحقيق معه وخاصة لأنه سبق أن قابل البابا وثلاثة من كرادلته وتناقش معهم فى أمور التنظيم . ولم تنته اللجنة العليا من عملها فى غضون الفترة المتوقعة فقد وصلت إليها معلومات سرية مفادها أن السلطات قبضت على بعض الرجال الذين حضروا إلى باريس بهدف الدفاع عن التنظيم . وأكد جين دى بلو بلافيه حارس قلعة باريس أنه تم القبض على سبعة رجال فى ثياب عادية بناء على أوامر من المجلس الملكى . وقيل له تفسيراً لهذا إنهم سبعة فرسان هاربين جاءوا إلى باريس ومعهم نقود للبحث عن محامين للدفاع عن تنظيم الفرسان . واعترف حارس القلعة المشار إليه بتعذيب اثنين منهم فلم يجد منهما سوى إصرار على براءتهما . وأمرت اللجنة البابوية العليا بإحضار السجناء السبعة للمثول أمامها . وكان أول من جاء للإدلاء بشهادته رجل يدعى بيير دى سورناى من أسقفية أميين الذى اعترف بالتحاقه بالتنظيم لمدة ثلاثة شهور وأنه فر هارباً حتى يتفادى القبض عليه . وأكد الرجل أنه لم يسمع بأى سوء مطلقاً عن التنظيم . غير أنه أردف أنه لم يحضر إلى باريس للدفاع عنه بل ليبحث لنفسه عن عمل . وذهب الستة الآخرون إلى الشيء نفسه فقالوا إنهم لم يحضروا للدفاع عن التنظيم ولا يرغبون فى ذلك . وأمرت اللجنة باستمرار القبض على بيير دى سورناى باعتباره الوحيد بينهم الذى ينتمى إلى تنظيم الفرسان وإطلاق سراح الستة الآخرين .

ثم جاء دور رئيس التنظيم جاك دى مولاى للإدلاء بشهادته . وبطبيعة الحال كان لشهادته وقع ملموس . وعندما سألته اللجنة إذا كان يود أن يدافع عن التنظيم أجاب بأن الكرسى البابوى والكنيسة الكاثوليكية سبق لهما أن أكدا شرعية وجوده . وقال دى مولاى إنه على استعداد للدفاع عن التنظيم ولكن ليس واثقاً من قدرته على ذلك وخاصة لأنه بمفرده ويحتاج إلى العون والمشورة . واستطرد قائلاً إنه سوف يكون خسيساً وسافلاً لو جحد نعماء التنظيم عليه أو تقاعس فى الدفاع عنه . ثم قال إن من العسير عليه الدفاع عن التنظيم وهو سجين فى قبضة كل من البابا والملك وليس لديه المال اللازم لتوكيل المحامين للدفاع عنه رغم أنه يرغب فى تعريف العالم بحقيقته . وأجابت اللجنة بأنه سوف تعطيه الوقت الكافى للاستعداد للدفاع عنه وأن الكنيسة لا تحبذ إلتجاء السجناء المتهمين فى حالات الهرطقة إلى عجيج المحامين وضجيجهم .

وعند مثوله أمام اللجنة العليا طاش صواب رئيس التنظيم حين تلت عليه هذه اللجنة اعترافه الذى سبق أن أدلى به أمام الكرادلة الثلاثة فى مدينة شينيون فى أغسطس عام ١٣٠٨ . عندئذ أصاب دى مولاى الهياج ورسم إشارة الصليب مرتين قبل أن تعلو وجهه علامات الذهول . وأضاف مولاى إن أقواله كانت ستختلف لو أن الحاضرين كانوا أشخاصاً آخرين . فاستشاط أعضاء اللجنة غضباً منه

وبدا من الواضح أنه خسر عطفهم المحتمل عليه . وفى اضطرابه لم يجد الرجل شخصاً يلوذ به غير عدوه ونصير الملك جيوم دى بليزيان . والجدير بالذكر أن دى بليزيان دخل القاعة دون إذن أو دستور . واتضح للجميع أنه يستطيع حضور جلسات التحقيق ويشترك فى مجراه دون حاجة إلى استئذان أعضاء اللجنة ، الأمر الذى يدل على شدة نفوذه . وهى ميزة تمتع بها نصير آخر من أنصار الملك هو نوجاريه . وبات من الواضح أيضاً أن مولاى منهوك القوى مرهق الأعصاب بسبب إلقائه فى السجن لمدة سنتين . وبلغ ارتباك رئيس التنظيم مبلغاً جعله لا يعرف متى أدلى باعترافه بالذنب وفحوى هذه الاعترافات وما أنكره منها .

وبعد مولاى مثل أمام اللجنة البابوية العليا اثنا عشر فارساً تضاربت اتجاهاتهم وتباينت أقوالهم فمنهم من قال إنه رجل غلبان لم يخطر على باله قط المجيء للدفاع عن التنظيم ومنهم من أظهر استعداداً للدفاع عن التنظيم مثل جاك فيرجى الذى قال إنه لو كان يعرف كيف يدافع عن الفرسان لما تردد فى أن يفعل ذلك . كما أن إيمون دى باربون اشتكى من التعذيب ومن أن سجانيه جعلوه يعيش على الماء والخبز لمدة سبعة أسابيع . وأضاف أنه ليس فى مقدوره الدفاع عن التنظيم بسبب سجنه وأردف أنه عمل حارساً لغرفة مولاى فى أوترمير لمدة ثلاثة أعوام دون أن يلاحظ عليه أى سوء أو فساد . وأيضاً اعترف جيوم بوشيلى أنه لو كان حراً وخارج أسوار السجن لقال الحقيقة أمام كل العالم فى حين أن جين دى فيرنس ذكر أنه اعترف بعمل أشياء غير حقيقية بسبب ما تعرض له من تعذيب .

ولعل بونسارد دى جريزى مسئول التنظيم فى باين كان أشد المدافعين عن التنظيم تحمساً . فعند سؤاله إذا كان يرغب فى الدفاع عنه انبرى للقول بأن كل التهم المنسوبة إلى التنظيم زائفة . وذهب إلى أن كل اعترافاته واعترافات زملائه فى حضرة أسقف باريس وغيره ليس لها أى أساس من الصحة وأن السبب فى هذه الاعترافات الزائفة يرجع إلى رغبتهم فى التخلص من تعذيب الراهبين فلوريان دى بريزييه وجيوم روبرت لهم . وأضاف بونسارد دى جيزى أن مالا يقل عن ستة وثلاثين عضواً من أعضاء التنظيم ماتوا فى باريس بسبب التعذيب الواقع عليهم وأبدى بونسارد دى جريزى استعداده للدفاع عن التنظيم بشرط تخصيص جانب من أموال التنظيم لذلك الغرض وأيضاً بشرط أن يستعين بخبرة اثنين من زملائه المسجونين هما رينود دى بروفنس وبيير دى بولونيا ثم قدم للجنة العليا بعد ذلك قائمة بأسماء أعضاء التنظيم كما نص بذلك قانون محاكم التفتيش . وقد اضطلع الرجلان بدور بارز فى الدفاع عن التنظيم مستغلين معرفتهما بالقانون ومهارتهما القانونية النادرة .

وسألت اللجنة بونسارد إذا كان شخصياً قد تعرض للتعذيب فأجاب بأنه خلال الشهور الثلاثة التى سبقت اعترافه أمام أسقف باريس ألقى به فى حفرة ويداه موثقتان خلف ظهره على نحو أسال الدماء من أظافره . وذكر بونسارد أنه لو تعرض مرة أخرى للتعذيب لما تردد فى إنكار الأقوال التى أدلى بها أمام اللجنة واستبدلها بأية أقوال أخرى يريد أى إنسان انتزاعها منه . وأضاف أن الموت

السريع بقطع الرقبة والحرق وإلقائه فى الماء المغلى أهون ولا يستغرق وقتاً مثل الوقت الذى تستغرقه صنوف التعذيب الأخرى التى تعرض لها فى فترة سجنه التى دامت أكثر من سنتين .

ولكن دفاع بونسارد عن تنظيم الفرسان لم يمر بهذه البساطة فقد انبرى ضده فيليب دى فوويه أحد سجانى الفرسان وسعى إلى دحض دفاعه بأن أخرج من جعبته خطاباً كتبه بونسارد وكان يزمع إرساله إلى البابا ومعاونيه . ويتضمن هذا الخطاب على نحو مفصل عيوب التنظيم . ومن ناحيته حاول بونسارد الاعتراض بقوله إن لهذا الخطاب ظروفه الخاصة فقد كتبه بسبب غضبه من الإهانات التى وجهها إليه رئيس خزانة التنظيم . ومع ذلك فقد نجح إظهار هذا الخطاب فى تبديد كثير من مصداقية دفاع بونسارد عن التنظيم . ومن العيوب التى أخذها بونسارد على التنظيم أنه حظر على أعضائه الاشتراك فى صلاة التقدمة فى القداس والإمساك بالأطفال عند تعميدهم بغمسهم فى الماء والعيش تحت سقف واحد مع النساء . وليت الأمر اقتصر على ذلك فرؤساء التنظيم الذين يقبلون الأعضاء فيه كانوا يطلبون من النساء أن يقسمن على الطاعة والطهارة والفقر . فإذا ما تمت إجراءات انضمامهن إلى التنظيم قمن بفض بكارتهن وكن ينجبن لهن أولاد زنا فيضمونهم إلى التنظيم رغم أن قوانين التنظيم تحظر ادخال أولاد الزنا فيه . حتى اللصوص والقتلة كان يسمح لهم بالانضمام إلى التنظيم إذا كانوا يملكون المال . والأدهى من ذلك أن هؤلاء الرؤساء كانوا يجعلون الأعضاء الجدد يقسمون بالقديسين أنهم لم يدخلوا التنظيم لقاء أية مبالغ مالية . ولو أن واحداً من هؤلاء الأعضاء الجدد تجرأ على الذى أدخله فيه وضايقه فإنه يعاقب بالنفى فى بلاد نائية وغريبة حيث يموت فقيراً وكسير القلب . وانتهاك تعليمات التنظيم أمر يعاقب بالسجن . كذلك يعاقب بالسجن كل من تسول له نفسه الفرار من التنظيم .

وبإماطة اللثام عن الخطاب الذى سطره بونسارد ضد التنظيم ظهر الفزع والاضطراب الشديد عليه ولم يستمر فى الدفاع عن الفرسان وخشى أن يلحق به مزيد من التعذيب فتوسل إلى اللجنة أن تمنع وقوع أى تعذيب عليه . واستجابت له اللجنة فأصدرت أوامرها إلى راهب بواتييه والسجان جين دى جاميل ألا يتعرضا له بالأذى . وهكذا ضاع الأمل فى دفاع الفرسان عن تنظيمهم . ومما زاد الطينة بلة أن أداء زعيم التنظيم جاك دى مولاى كان شديد السوء . فعندما أعادت اللجنة استجوابه بعد المهلة التى أعطتها له لإعداد دفاعه جاءها ليقول إنه مجرد فارس فقير جاهل وإنه لا يرغب فى الدفاع عن التنظيم . والتمس من اللجنة أن تسمح له بالمثول أمام البابا ليتعهد أمامه بفعل كل ما يشرف الكنيسة والمسيح . ولكنه أضاف أنه يريد تبرئة ذمته قائلا إنه لا يعرف بوجود أى تنظيم آخر يفوق تنظيم الفرسان فى ممارسة الخير والإحسان إذ أن هذا التنظيم هو الوحيد الذى يأمر فروعه بالتصدق على الفقراء والمحتاجين ثلاث مرات فى الاسبوع كما أنه أعظم تنظيم فى تضحيته وفدائه للدفاع عن العقيدة ومحاربة أعدائها ، ولكن هذا لم يترك أقل أثر فى نفوس أعضاء اللجنة التى قالت إن كل هذه الأعمال الخيرة لا قيمة لها طالما أن الإنسان ينكر أسس العقيدة الكاثوليكية الحقة . وأراد

مولاى أن يطمئن اللجنة إلى صلاح دينه فأجاب بأنه يؤمن بإله واحد وبالثالوث ومعتقدات الكنيسة الكاثوليكية الأخرى كافة .

لم يكن نصير الملك بليزيان وحده السبب فيما أصاب رئيس التنظيم مولاى من حيرة وارتباك فقد أسهم فى ارتباكه جيوم دى نوجاريه الذى كشف عن وجود وثائق محفوظة فى دير سانت دينيس تفيد بأن رئيس التنظيم فى زمن صلاح الدين توجه ومعه عدد من أبرز زعمائه لتقديم فروض الطاعة والولاء للقائد العربى صلاح الدين الأيوبى الذى انتصر عليهم ورد الحملات الصليبية على أعقابها . تقول الوثائق المشار إليها إن صلاح الدين قرعهم علنا وبينَ لهم أن هزيمتهم على يد جيش المسلمين ترجع إلى إصابتهم بداء اللواط وإلى أنهم انتهكوا عقيدتهم وقانونهم فبدا الإندهاش على وجه رئيس التنظيم الذى احتج بأنه لم يسمع من قبل هذه القصة قط . وأضاف أنه كان وبقية الفرسان الشبان يشتعلون حماساً لإلحاق الهزيمة بالمسلمين . وأضاف مولاى أنهم جأروا بالشكوى من أن جيوم دى بيجو رئيس التنظيم آنذاك وأقرانه تزلفوا إلى السلطان لكسب وده ونيل رضاه . غير أنهم أدركوا فيما بعد أن رئيسهم معذور لأنه لم يكن هناك بديل أمامه ، فالسلطان يتحكم فى ممتلكات التنظيم داخل الأراضى الخاضعة له ويمكنه إذا شاء الاستيلاء عليها . وفى نهاية الاستجواب طلب مولاى من اللجنة السماح له بحضور القداس وممارسة الطقوس الدينية والاحتفاظ بكنيسته الصغيرة فأجابه أعضاء اللجنة إلى طلبه بسبب ما رأوه فيه من اخلاص وتفان فى الدين .

وبعد ذلك مثل أمام اللجنة فارس آخر اسمه بيير دى صافيد الذى ذهب إلى أنه لا يريد الدفاع عن التنظيم لأن البابا والملك خير من يدافعان عنه . وهكذا بات واضحاً أن تخوف الملك والحكومة الفرنسية من أن يستميت الفرسان فى الدفاع عن التنظيم تخوف لا مبرر له . ومن ثم فلا معنى لأن يضَعا العراقيل أمام مثول الفرسان قدام اللجنة البابوية العليا للإدلاء بشهادتهم . وأصدرت الحكومة الفرنسية بناء على تعليمات من الملك أوامر تقضى بالسماح لأى فارس بالتقدم بشهادته حسبما يحلو له . ولكنها منعت اتصال هؤلاء الفرسان ببعضهم البعض حتى لا يكون هناك مجال لتآمرهم عليها أو التواطؤ فيما بينهم .

ثم انهت اللجنة البابوية العليا دورتها لفترة من الزمن . ورغم أن الفرسان فى بادىء الأمر امتنعوا عن الظهور أمامها للإدلاء بشهادتهم فقد حدث تطور درامى مفاجىء عندما عادت اللجنة إلى الاجتماع يوم ٣ فبراير ١٣١٠ فقد سرت بين الفرسان روح جديدة وثابة ومفعمة بالأمل فى جدوى الدفاع عن تنظيمهم أمام اللجنة . وفى ٥ فبراير ١٣١٠ أمرت اللجنة السجان فوويه والسجان جامفيل بإحضار ستة عشر فارساً من أسقفية ماسون لأنه ترامى إلى أسماعها أنهم يرغبون فى الدفاع عن التنظيم . وباستثناء فارس واحد رأى أن تنظيم الفرسان سيىء ومعيب انبرى الخمسة عشر فارساً الباقون للدفاع عن التنظيم وإظهار مزاياه ، الأمر الذى شجع أقرانهم ومن بينهم بوتسارد دى جيزى على الدفاع عنه .

ويمكن اعتبار شهر فبراير ١٣١٠ من أسعد الفترات فى تاريخ تنظيم الفرسان ففيه تقدم للدفاع عنه ٥٣٢ فارساً جاءوا من شتى أنحاء فرنسا ليعبروا عن رغبتهم فى الدفاع عنه . قال أحدهم وهو لامبرت دى كورمى إنه لا يعرف كيف يدافع عن التنظيم لأنه ليس محامياً ولكنه لن يتردد فى الدفاع عنه إذا حاول إنسان أن ينسب إليه المباذل والشرور . وذهب الفارس جين دى شام أنه مستعد أن يذود عنه حتى الموت . وأكد برتراند دى سانت أنه لم ولن يعترف بأن التنظيم يعانى من المثالب والأخطاء . وتحدث نفر من الفرسان عن موت بعضهم تحت وطأة التعذيب . ولم يحجم عن الدفاع عن التنظيم غير عدد محدود من الفرسان لا يتجاوز بضعة عشرات . وفى اليوم نفسه انضم إلى المدافعين عن التنظيم أربعة عشرة فارساً ليصل عددهم الإجمالى إلى ٥٦١ مدافعاً . ثم انضم إليهم فيما بعد فرسان آخرون من المترددين الذين شجعهم ما رأوه من حماس لمساندة التنظيم ليرتفع عدد المدافعين إلى ٥٩٧ مدافعاً وهو عدد هائل إذا قورن بالتخاذل الذى أظهره الفرسان فى أول الأمر . ولم تتسع قاعات الاجتماعات المحلية للحاضرين البالغ عددهم ٥٦٤ شخصاً فاجتمعت اللجنة العليا بهم فى حديقة خلف بيت الأسقف حيث تلت عليهم باللغة اللاتينية قائمة الاتهامات الموجهة ضد الفرسان . ولكن الحاضرين طلبوا تلاوتها بالعامية أى باللغة الفرنسية . وما كاد المجتمعون أن يسمعوا هذه الاتهامات حتى هاجوا وماجوا قائلين إنهم على غير استعداد لأن يسمعوا هذه الشرور والمباذل عن رفاقهم . وطلبت اللجنة إليهم أن يختاروا ستة أو ثمانية أو عشرة ممثلين عنهم لعرض وجهة نظرهم . وبعد إجراء المناقشات تم اختيار قسيسين كممثلين عن الجماعة هما رينو دى بروفنس مسئول أورليانز وبيير دى بولونيا مسئول التنظيم لدى البلاط الرومانى . وتقدم هذان الشخصان بمجموعة من النقاط التى تدافع عن نفسيهما وعن بقية أعضاء التنظيم . وشكا هذان المندوبان من تعرض الفرسان للحرمان من ممارسة الشعائر الدينية ونزع ملابسهم الكهنوتية وممتلكاتهم وتكبيلهم بالأغلال والزج بهم فى السجون وسوء المأكل والمشرب ، كما اشتكيا من أن أخوتهم الذين ماتوا فى السجون باستثناء سجن باريس حرموا من الدفن وفقاً لشعائر الدين . أما بخصوص اختيار مندوبين يتحدثون باسم الجماعة ويدافعون عنها فقالا إن هذا لا يمكن أن يتم بصورة صحيحة إلا إذا اجتمع جميع الحاضرين برئيس التنظيم ومسئوليه فى الأقاليم للتشاور فى الأمر إذ لا معنى لأية قرارات تتخذ دون الرجوع إليهم وأخذ رأيهم فيها .

واعترضت اللجنة العليا على ذلك بقولها إن رئيس التنظيم وقادته الآخرين رفضوا أن يدافعوا عن تنظيمهم . ورأت اللجنة ضرورة وصول المجتمعين إلى قرار سريع قبل عقد مجلس عام لمناقشة هذا الموضوع . وذكرت اللجنة أنها سوف تعود إلى الاجتماع بعد أيام يمكن للفرسان التشاور حتى يحين موعده . ويمكن أيضاً لقلم التسجيل التابع للجنة تدوين قراراتهم . وبعد إعادة الفرسان إلى سجونهم أمرت اللجنة يوم ٣١ مارس ١٣١٠ قلم التسجيل التابع لها بزيارة الفرسان فى سجونهم وسؤالهم عمن يريدون أن يمثلهم لديها . وفى الوقت نفسه طلبت اللجنة من السجان فوويه

والسجان جامفيل إحضار القسيسين رينوددى بروفنس وبيير دى بولونا المشار إليهما آنفاً وأيضاً استدعاء الفارسين هوم دى شامبونيه وبرتراند دى ساتريج اللذين سبق مثولهما أمام اللجنة . كما طلبت من السجانين إحضار مالا يزيد على اثنى عشر فارساً من السجن ممن يتسمون بالرشاد ورجاحة العقل .

لقد أدى استجواب الفرسان فى باريس إلى ازدحام هذه المدينة بهم فغصت بهم الفنادق والمساكن . وتعرض هؤلاء الفرسان إلى استغلال أصحاب هذه الفنادق والمساكن الذين تقاضوا منهم مبالغ مالية فاحشة لقاء تقديم الخدمات اللازمة لإقامتهم فى باريس . ورغم استياء الفرسان من هذا الاستغلال البشع فإنهم ازدادوا إصراراً على الدفاع عن تنظيمهم . والشىء الجديد الذى طرأ على دفاعهم عنه فى هذه المرحلة هو إصرارهم جميعاً على أنهم ليسوا الممثلين القانونيين للتنظيم . وتقدم أحدهم وهو إلياس إيميرسى نيابة عن زملائه الفرسان بمذكرة إلى كتبة اللجنة العليا ومسجليها يشتكون من ظلم ملك فرنسا لهم بالقاء القبض عليهم دون أى مبرر . وأكد راؤول دى نوفيناى أنه حضر كثيراً من حفلات استقبال الفرسان الجدد فلم يلاحظ فى إجراءاتها وترتيباتها ما يعيب أو يشين . بل إنه شهد على إجراء هذه الاحتفالات على نحو تقليدى للغاية وبدئها باسم الثالوث المقدس : الأب والابن والروح القدس ، وأيضاً باسم مريم العذراء وكل القديسين . ورغم أن الاتجاه العام الذى ساد الفرسان فى تلك المرحلة هو الدفاع عن التنظيم فلم يخل الحال من وجود قلة من المنتقصين من قدره . ولعل الدفاع الذى قام به الفارس بيير دى بولونا هو أهم وأطول دفاع قيض للفرسان أن يضطلعوا به . وجاء فى هذا الدفاع أن الاتهامات التى يتضمنها المرسوم البابوى شريرة وكريهة وغير مقبولة عقلا . فضلا عن أنها باطلة ومن نسج الخيال . ويرى الدفاع أن المرسوم يحمل البغضاء والموجدة لأعضاء التنظيم الذين طالب بيير دى بولونا بضرورة إطلاق سراحهم . وكما ذكرنا لعل الدفاع الذى أدلى به القسيس بيير دى بولونا هو أهم وأطول دفاع تقدم به أعضاء التنظيم للدفاع عن أنفسهم .

وعلى أية حال تبنى المدافعون عن تنظيم الفرسان موقفاً جديداً يختلف فى جوهره عما سبق للمدافعين القدامى أن اتبعوه ، فقد رفضوا طلب المحكمة أن يعينوا وكيلا رسمياً ينوب عن التنظيم ويتحدث باسمه . ودعا بيير دى بولونا إلى ضرورة إطلاق سراح أعضاء التنظيم من السجن حتى يتمكنوا من التعبير عن رأيهم الحر ويدافعوا عن أنفسهم دون خوف . وذهب إلى أن اعترافات بعض أعضاء التنظيم بالذنب لا تعنى شيئاً لأنها نتيجة التعذيب أو الخوف من التعذيب . ومن ثم فهى اعترافات تمت عن طريق القسر والإذعان ولا يعتد بها .

وفى اليوم التالى لشهادة دى بولونا قامت اللجنة باستدعاء نفر من زملائه هم القس دينودى بروفانس والفارس جيوم دى شامبونيه وبرتراند دى سارتنج . وقد اقتصر دفاع رينود دى بروفانس عن التنظيم على الناحية القانونية البحتة فجاء دفاعه أقوى من دفاع زميله دى بولونا وغيره من

المدافعين عن الفرسان . وأهم نقطة ارتكز عليها دفاع رينود دى بروفانس تقوم على أن اللجنة البابوية العليا تنتهك القانون حين تستجوب الفرسان لأن قانون الجماعة ينص على أن يتولى رئيس التنظيم الإضطلاع بهذه المهمة . وتوخى رينود دى بروفانس الحذر الشديد فى دفاعه عن التنظيم . ثم بين بطلان إجراءات التحقيق لأنه ليس من حق أحد أن يتحدث نيابة عن التنظيم طالما أن رئيسه لم يفوضه فى ذلك . ثم كيف يمكن لفارس مسجون أن يدافع عن نفسه فى جو السجن وفى ظل الخوف من التعذيب ، ولهذا طالب اللجنة البابوية العليا بالإفراج عنه ثم تحويله إلى السلطات الدينية كى تتولى أمره . وإلى جانب ذلك تقدم دى بروفانس بعدة مطالب طالباً إلى اللجنة البابوية أن تستجيب إليها حتى تتوفر أمام الفرسان فرصة المحاكمة العادلة . ومن هذه المطالب توفير المال الكافى لتحمل نفقات الدفاع وتوفير الأمان لأعضاء التنظيم وتحويل الفرسان المشتبه فيهم إلى الكنيسة كى تتولى أمرهم . وأثار بروفانس نقطة قانونية بالغة الأهمية مفادها أنه لا يحق للجنة البابوية العليا استجواب الفرسان أو التحقيق معهم إلا إذا كان هناك من يوجه الاتهام رسمياً إليهم أو إذا كان هناك بين الجمهور من يعلن قانوناً استنكاره لأفعالهم أو إذا قام القاضى نفسه برفع الدعوى . فالقانون فى الحالة الأولى ينص على وجوب ظهور من يقوم بتوجيه الدعوى فى قاعة المحكمة ودفع رسوم القضية والتعهد بدفع أتعاب المحاماة إذا لم يكسبها وتبين أنه يقاضى خصمه زوراً وبهتاناً . أما فى الحالة الثانية فإنه يتعين عند إجراء الاستنكار عدم السماح للمستنكر تقديم شكواه من المستنكر ضده إلا بعد التأكد من أنه قام بتحذيره من مغبة أفعاله وإعطائه فرصة للندم عليها . وهو مالم يحدث مع الفرسان لأنهم أخذوا على حين غرة وألقى القبض عليهم دون سابق إنذار . أما بالنسبة للنقطة الثالثة فإن الفرسان لا يقفون أمام محكمة فيها قضاة بالمعنى القانونى لهذه الكلمة . فهم يقفون أمام نفر من الأساقفة والكرادلة وليس أمام قضاء رسمى . وبهذا الأسلوب الماكر والماهر معاً استطاع دى بروفانس الطعن فى إجراءات تحقيق اللجنة البابوية مع الفرسان والتشكيك فى سلامتها من الناحية القانونية . وكان لهذا الدفاع أثره المهم فى قضية الفرسان فقد استطاعوا للمرة الأولى أن يلعبوا دوراً إيجابياً فى سيرها بعد أن كانوا مجرد أدوات يستغلها ملك فرنسا والبابا فى صراعهما من أجل السلطة . وأرسل الفرسان الذين يقطنون منزل راهب تيرون عريضة يؤكدون فيها اتسام تنظيمهم بالصلاح والشرعية والتمسوا أن يسمح لهم كتبة اللجنة البابوية بالتشاور مع دى بروفانس ودى بولونا فلم يمانع أسقف بايو فى ذلك على أمل أن ينجح فى إقناع الفرسان أن يتحدث نيابة عنهم ثلاثة من زملائهم هم دى بروفانس ودى بولونا وسارتيجيس ولكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً اعتبارهم وكلاء عن التنظيم ومتحدثين رسميين بلسانه .

وفى ٧ إبريل ١٣١٠ ظهر أمام اللجنة البابوية العليا تسعة من أبرز الفرسان وتقدم الفارس دى بولونا بدفاع هام ومطول عن التنظيم . وقد أكد هؤلاء الفرسان التسعة أن هدفهم من الظهور أمام اللجنة العليا هو مجرد التأثير فيها وليس التحدث باسم التنظيم لأنهم لا يملكون أن يفعلوا هذا إلا فى

حضرة رئيس التنظيم وبتفويض منه . وطالب هؤلاء الفرسان بضرورة استدعائهم لحضور أية مجامع قد تعقد مستقبلا للنظر فى أمرهم وتقرير مصيرهم . كما أكدوا أن أية اعترافات قد يكون بعض الفرسان قد أدلوا بها لا قيمة لها ولا يمكن الإعتداد بها لأنها تنهض على القسر والإرغام والحبس ، كما أشاروا بصراحة إلى عدم شرعية حضور اثنين من أنصار ملك فرنسا هما نوجاريه وبليزيان الجلسات التى تعقدها اللجنة البابوية العليا لأنهما رجلان علمانيان ولا شأن لهما بالكنيسة مطلقاً . واستمر دى بولونا فى مرافعته قائلا إن فرنسا هى البلد الوحيد الذى نجد فيها المرتشين والمغرضين وفاسدى الذمم الذين يشهدون شهادة زور ضد الفرسان متناسين الدور البطولى العظيم الذى لعبه التنظيم فى محاربة الكفار والوثنيين والمسلمين . ولم يكتف دى بولونا بدفاعه عن أعضاء التنظيم بل هاجم أعداءه ومنتقديه لأنهم ليسوا مسيحيين بل جماعة من المهرطقين والمنشقين عن الدين . واختتم دى بولونا كلمته بتأكيد عدم شرعية التحقيق مع الفرسان على هذا النحو للأسباب التى سبق لنا الإشارة إليها .

وتلا دى بولونا فى الدفاع عن تنظيم الفرسان عضو آخر من أعضائه هو جين دى مونتريال الذى ذهب إلى أن التنظيم بحكم تكوينه لا يخضع للقضاء المدنى أو القضاء الدينى بل إنه مسئول مسئولية مباشرة أمام البابا . واستشهد على ذلك بالفارس الذى طرده التنظيم بسبب سوء مسلكه . ولكن البابا أمر بإرجاعه إلى حظيرة التنظيم بعد أن أنزل العقاب به . وذكرهم بما حدث فى قلعة صافيد التى استولى عليها المسلمون الذين طلبوا من فرسانها البالغ عددهم ثمانين فارساً أن ينكروا المسيح فرفضوا فأمر السلطان المسلم بقطع رؤوسهم .

وأجاب أعضاء اللجنة البابوية العليا أنهم لا يملكون سلطة إطلاق سراح الفرسان أو إعادة ممتلكاتهم إليهم . ودحض أعضاء اللجنة زعم الفرسان أن أحداً لم يسبق له توجيه الاتهامات ضدهم بقولهم إن المراسيم التى أصدرها البابا تفعل هذا صراحة ودون مواربة . وأضافت اللجنة البابوية أن القول بعدم شرعية استجوابهم من قبل أية سلطة مدنية أو دينية مردود عليه بأنه يحق للبابا فى حالة شبهة الهرطقة أن يكلف هاتين السلطتين باتخاذ الإجراءات القضائية المناسبة . وأيضاً ذهب أعضاء اللجنة إلى أنهم ألحوا فى استدعاء رئيس التنظيم ولكنه امتنع عن المثول أمامهم بحجة أن البابا وحده هو الذى له حق استجوابه ومساءلته . وعلى أية حال قررت اللجنة فى هذه المرحلة من الاستجوابات أن تعامل الفرسان الأربعة الآتية أسماؤهم : بيير دى بولونا - رينود دى بروفانس - جيوم دى شامبونيه - برتراند دى سارتيجيس وكلاء رسميين عن التنظيم سواء شاءوا ذلك أم لم يشاءوا . وهكذا شاءت الظروف أن يلعب هؤلاء الفرسان الأربعة دوراً بارزاً فى الدفاع عن التنظيم . والجدير بالذكر أن اللجنة أصرت على اختيار القسيس دى بواونا ممثلا للتنظيم بسبب دراسته للقانون . وأنه سبق لهذا القسيس أن اعترف فى باريس فى شهر نوفمبر ١٣٠٧ بأنه أنكر المسيح وبصق على الصليب وبأن الذى استقبله كعضو مستجد فى التنظيم أفهمه أن باستطاعته ممارسة

اللواط مع أى من أخوته الفرسان ولكنه استطرد قائلاً إنه شخصياً لم يخض هذه التجربة . وأيضاً سبق لبولونا أن اعترف أن مستقبله قبله على الفم والسرة وأعلى الردفين . أما القسيس الآخر رينود دى بروفانس فقد تحاشى الاعتراف المباشر بأى ذنب . غير أنه ترك الانطباع العام بأن التنظيم يقيم على وجه العموم شعائر غير قانونية . أما الفارسان جيوم دى شامبونيه وبرتراند دى سارتيجيس فلم يعترفا باقتراف أى ذنب عندما تولى أسقف كلير مونت استجوابهما فى يونية ١٣٠٩ .

وفى يوم ١١ إبريل تقدم للشهادة أمام اللجنة البابوية العليا عشرون فارساً كان خمسة عشر منهم من بين الإثنين وسبعين فارساً الذين وقع عليهم الاختيار للمثول أمام بابا روما فى بواتييه فى يونيه ١٣٠٨ . وشاء الفرسان الخمسة الباقون أن يدلوا بشهادات تدين التنظيم أهمها إنكار أعضائه للمسيح ودوسهم بالأقدام على الصليب وعبادة الأوثان والإتيان بالقبلات الحرام . وقد قامت اللجنة البابوية باستجواب خمسة رجال علمانيين لا يخفون مقتهم للتنظيم . وأدلى أحد هؤلاء الخمسة وهو راؤول دى بريسليس أمام أعضاء اللجنة العليا بشهادة جاء فيها أنه كان على علاقة حميمة للغاية بجيرفيس دى بوفيه أحد مسئولى التنظيم المحليين وأن هذا الرجل كثيراً ما كرر أمامه أكثر من مائة مرة أن التنظيم يحتفظ لنفسه بسر رهيب وأنه يؤثر الموت على البوح به . وأضاف جيرفيس أن التنظيم يحتفظ كذلك بكتاب صغير يضم لوائح التنظيم وقوانينه وأنه على استعداد لأن يطلع صديقه راؤول دى برسليس عليه غير أنه اعترف له بوجود كتاب سرى آخر ليس فى حل أن يظهره أمام أى إنسان . واستطرد راؤول قائلا إن صديقه كثيراً ما روى له عن فظاعة وبشاعة سجون التنظيم وأن بئس المصير ينتظر كل من تسول له نفسه من أعضاء التنظيم عصيان أوامر رؤسائه . غير أن راؤول اعترف بأن شهادته تنهض على الإشاعات والأقاويل . وتقدم شخص آخر اسمه جيشارد دى مارسيلاك بشهادة تماثل شهادة راؤول دى برسليس فى اعتمادها على الشائعات والأقاويل . يقول جيشارد إنه نمي إلى مسامعه للمرة الخمسمائة فى عدة أماكن متفرقة مثل تولوز وليون وباريس منذ ما يقرب من أربعين عاماً أن المادة رقم ٣٠ من قانون تنظيم الفرسان ينص على تقبيل كل فارس مستجد فى فتحة الشرج . ثم يروى لنا قصة قريب له يدعى هوج كان سعيداً ويفيض بالبهجة والبشر قبل دخوله التنظيم . وفى يوم دخوله اقتادوه إلى حجرة مظلمة حيث بقى فيها لفترة طويلة ما كاد يخرج بعدها حتى بدا ذاهلاً زائغ البصر مشتت الفكر . وعبثاً حاول قريبه أن يعرف منه ما حدث له داخل هذه الغرفة المظلمة ولكن هوج امتنع عن الكلام ولم يقل غير أنه لن يعرف طعم البهجة والسعادة بعد الآن . وأيضاً دعى للشهادة فارس آخر اسمه تايلاند دى جين من أسقفية لانجر . وروى هذا الشاهد القصة نفسها التى سبق أن رواها المعارضون للتنظيم والتى تتضمن ممارسة التقبيل الحرام فى مواضع بذيئة من الجسد . ورغم أن شهادته اتسمت بالعداء للتنظيم فقد ذكر أن فعل الخير وتوزيع الصدقات على الفقراء أهم ما تميز به التنظيم . وعلى أية حال طرأ تحسن على معنويات أعضاء التنظيم . فقد وجدوا أن خروجهم من الحبس للإدلاء بالشهادة واتصال بعضهم ببعض قد نفث فيهم روحاً جديدة

وشجعهم على الدفاع عن أنفسهم أكثر من الوقت الذى كانوا فيه فى قبضة ملك فرنسا وتحت رحمة أعوانه تماماً .

ومرة أخرى تحدث بيير دى بولونا مدافعا عن التنظيم بأسلوب مؤثر وبليغ وبلغة قانونية فى الوقت نفسه مفادها أن كل التحقيقات التى تمت مع جماعة الفرسان ليس لها أدنى سند من ناحية الشرع والقانون فحبس الفرسان وحرمانهم من حرية إرادتهم وحريتهم فى التعبير هو أوضح مظاهر العنت والقسر ومن ثم فكل نتائج التحقيقات باطلة . وأضاف أن تحريض الفرسان السجناء على الإعتراف عن طريق الوعود بإغداق الأموال عليهم وتعيينهم فى أرقى المناصب هو دعوة إلى الرشوة والفساد مما يثير الشك فى سلامة اعترافاتهم . ولم يعد الفرسان مجرد أناس يدافعون عن أنفسهم ويحاولون إثبات براءتهم بل تحولوا إلى أناس يطالبون بحقوقهم القانونية مثل حقهم فى الحصول على نسخة من المستندات التى تعتمد عليها اللجنة البابوية العليا فى التحقيق معهم ونسخة من عريضة الاتهام كما طالبوا بموافاتهم بأسماء كل الشهود الذين استحلفتهم اللجنة اليمين قبل الإدلاء بشهاداتهم . وأيضاً طالبوا اللجنة بالاحتفاظ بجميع شهادات الشهود سراً لحين عرضها على البابا . وذكر الفرسان فى بيانهم المدافع عن التنظيم أنه ليس من المعقول أن يكون هذا التنظيم فاسداً بدليل أن كثيراً من النبلاء من ذوى المحتد العريق عاشوا طيلة حياتهم أعضاء فى التنظيم دون أن يفكروا فى تركه . وساق الفرسان للتدليل على طهارة التنظيم قصة فارس اسمه آدم دى والينكورت انشق على التنظيم ثم تاب عن انشقاقه وألحف فى الرجاء والإلتماس حتى قبل المسئولون عن التنظيم توبته فقبلوا إعادته إلى التنظيم مرة أخرى . والمهم أن نغمة جديدة بدأت تسرى فى دفاع الفرسان عن تنظيمهم مفادها إتهام الملك فيليب الرابع ملك فرنسا وأعوانه بالفساد فى حين كانت النغمة السابقة تقل حدة فى هجومها على الملك حيث ذهبت إلى أن القبض على الفرسان كان نتيجة المعلومات المضللة التى استقاها الملك من أعوانه .

وزاد ذلك غيظ الملك فيليب الرابع من أعضاء التنظيم وإصراره على تحطيمهم وتصفية تنظيمهم . فعندما ألم المرض بإيتين بيكاريه رئيس أساقفة منطقة سنس (الذى وافته المنية فى ٢٩ مارس ١٣٠٩) طلب ملك فرنسا من البابا أن يسمح له باختيار خلف له . ووقع اختيار الملك على أحد محاسيبه وهو أسقف كامبراى أخى وزير الخزانة الفرنسية . وبينما أجرت اللجنة البابوية العليا فى باريس تحقيقاتها مع تنظيم الفرسان استمرت الأسقفيات المحلية بايعاز من الملك فى سماع أقوال أفراد التنظيم المحليين . ولاحظ بابا روما كليمنت أن التحقيقات أخذت وقتاً أطول من المتوقع فاضطره هذا إلى إرجاء الوصول إلى قرار بشأنهم لحين انعقاد مجمع فيينا فى أكتوبر ١٣١١ . غير أن الملك فيليب عيل صبره ولم يستطع الإنتظار حتى ذلك التاريخ فطلب من ربيبه ومرشحه أسقف كامبراى أن يتولى إجراء التحقيقات المحلية مع أعضاء الجماعة بوصفهم أفراداً تاركاً مهمة التحقيق معهم كجماعة إلى اللجنة البابوية العليا . وهكذا نشأت بجانب اللجنة البابوية العليا هيئة قانونية أخرى تتولى التحقيق

مع أعضاء التنظيم كأفراد من منطقة سنس . واستشعر أعضاء التنظيم فى سنس بالخطر بسبب إدراكهم أن الملك يريد بهم شراً . فالتمسوا من البابا أن يتدخل لتوفير الحماية لهم . ومما ضايق الملك فيليب الرابع أن اللجنة البابوية العليا أعطت أعضاء التنظيم فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم . الأمر الذى زاده إصراراً على التخلص من أعضاء التنظيم وإزاحتهم من طريقه . ولكن هذه اللجنة البابوية العليا رغم ما أظهرته من عطف على التماس الفرسان اعتذرت عن عدم قدرتها على الاستجابة لهم لأنها لا تملك الحق فى التدخل فى سير أعمال لجنة التحقيق المحلى التى أمر الملك بتشكيلها . وقد أصدرت مجالس التحقيق المحلية قراراً بإحراق أربعة وخمسين عضواً من أعضاء التنظيم الذين تصدوا للدفاع عنه ورفضوا الاعتراف بذنبهم . وقد سيق جميعهم إلى حتفهم وهم يؤكدون براءتهم من التهم المنسوبة إليهم . غير أن إحراق أعضاء التنظيم من منطقة سنس أدى إلى بث الرعب والفزع فى نفوس زملائهم فشردت ألبابهم وزاغت أبصارهم وأبدوا استعدادهم للاعتراف بأى شىء تحت الضغط والتخويف .

محاكمة تنظيم الفرسان في البلاد الأخري

كان أدوارد الثانى فى بداية حكمه لإنجلترا عندما ألقى ملك فرنسا فيليب الرابع القبض على تنظيم الفرسان فى ١٣ أكتوبر ١٣٠٧ . ورغم أن ممتلكات فرسان هيكل سليمان بإنجلترا كانت أقل بكثير من مثيلاتها فى فرنسا فإن حجم هذه الممتلكات فى إنجلترا لم تكن بالشىء المستهان به . غير أن عضوية التنظيم الإنجليزى كانت محدودة للغاية . ورفض إدوارد الثانى الانسياق وراء الحملة الضارية التى شنها فيليب الرابع على أعضاء التنظيم اقتناعا منه ببراءته من التهم الملصوقة به . ولهذا كتب إدوارد الثانى إلى ملك البرتغال وملوك كاستيل وأراجون ونابولى خطابات يدافع فيها عن براءة أعضاء التنظيم . وذهب إدوارد الثانى إلى أن الحسد والرغبة فى الاستيلاء عنوة واقتداراً على ممتلكات الغير هما السبب الحقيقى فى إلصاق التهم بهم زوراً وبهتاناً . ولهذا طلب من البابا أن يمتنع عن اتخاذ أى إجراء ضدهم إلا بعد تأكده قانوناً من صحة الاتهامات الموجهة ضدهم .

لم يستجب الملك الإنجليزى إدوارد الثانى إلى طلب ملك فرنسا فيليب الرابع . ولكن هذا لم يمنع من حدوث تغير مفاجىء فى موقف الملك الإنجليزى من تنظيم الفرسان . فبعد اعتراضه على القبض عليهم لم يجد غضاضة فى التخلى عن موقفه وفى تنفيذ مرسوم البابا القاضى بالقبض عليهم بأسرع ما يمكن . وبدأت حملات اعتقالهم فى إنجلترا عام ١٣٠٨ . ولكن بالمقارنة بفرنسا كانت هذه الاعتقالات أقل فى ضراوتها من الاعتقالات الفرنسية . فعندما ألقت السلطات الإنجليزية القبض على زعيم التنظيم وليم دى لامور فى لندن زجت به فى سجن كانتربرى غير أنها سمحت له باصطحاب زميلين له ، ووفرت له الظروف المعيشية المريحة ومنحته قدراً من المال ينفقه على حاجاته الشخصية . ثم تم الإفراج عنه ولكن أعيد القبض عليه فى وقت لاحق يوم ٢٨ نوفمبر ١٣٠٨ .

وفى ١٣ سبتمبر ١٣٠٩ وصل إلى الأراضى الإنجليزية مندوبان عن محاكم التفتيش أحدهما من باريس والآخر من ناربون . وأصدر الملك إدوارد الثانى أوامره إلى موظفيه وأتباعه بتذليل أية صعوبات تقف فى سبيل المندوبين كما أمرهم بتوفير الحماية لهما من أى اعتداء أو تحرش . وأيضاً أمر الملك إدوارد الثانى بإرسال كل الفرسان المقبوض عليهم إلى لندن ويورك ولينكولن توطئة للتحقيق معهم من قبل ممثلى محاكم التفتيش يعاونهم القساوسة الإنجليز وبينهم رئيس أساقفة يورك وأساقفة لندن ولنكولن . وكذلك أرسل إدوارد الثانى إلى رئيس قضاة إيرلندا جون ووجان يبلغه فيه ضرورة القبض على الفرسان الموجودين هناك على جناح السرعة . وأيضاً أرسل الملك إدوارد الثانى أوامر مماثلة إلى حاكم اسكتلندا .

وفى الفترة بين ٢٠ أكتوبر ١٣٠٩ و١٨ نوفمبر من العام نفسه قام المحققان الموفدان من قبل محاكم التفتيش بالتعاون مع أسقف لندن بالتحقيق مع ثلاثة وأربعين فارساً فى كنيسة الثالوث المقدس بلندن . ولكنهم جميعاً رفضوا الاعتراف بأى من الاتهامات الموجهة ضدهم . وشرح الفارس وليم رافين الطريقة التى استقبله بها رئيس التنظيم الإنجليزى وليم دى لامور وكيف أنه أقسم أمامه القسم المعتاد باتباع حياة الفقر والطهارة والطاعة وعدم استخدام العنف إلا فى حالة الدفاع عن النفس ومحاربة المسلمين . وأكد بعض الفرسان الآخرون سلامة إجراءات احتفالات الاستقبال وأنه ليس فيها مايشين . وعندما ووجه أحد المخضرمين من أعضاء التنظيم وهو إمبرت بلانك باعترافات زعماء التنظيم فى فرنسا بارتكاب بعض الأفعال المشينة نفى الرجل هذه التهمة متهماً هؤلاء الزعماء بالافتراء والبعد عن الصدق . ويلقى هذا الضوء على نقطة بالغة الأهمية . وهى أن هناك فرقاً بين نظام القضاء فى كل فى فرنسا وانجلترا . ففى فرنسا رأى النظام الملكى أن بإمكانه تسخير محاكم التفتيش لصالحه فى حين أن انجلترا طورت لنفسها نظاماً قضائياً يستبعد محاكم التفتيش ويتشكك فيها باعتبارها وافداً أجنبياً وغريباً عن البلاد يعمل أساساً لمصلحة الكرسى البابوى ويتعارض مع الاستقلال القومى للبلاد . وفى حين كانت محاكم التفتيش فى فرنسا تستخدم أسلوب التعذيب كإجراء روتينى عادى نرى إدوارد الثانى يتحفظ رافضاً السماح به صراحة .

لم تكن الأدلة المتوفرة لدى مندوبى محاكم التفتيش كافية لاقناعهما بأن الفرسان مذنبون . وهذا ما يتضح لنا من ثنايا الخطاب الذى أرسلاه إلى رئيس أساقفة كانتربرى بتاريخ ١٦ يونية ١٣١٠ والذى اشتكيا فيه بأنهما لا يجدان فى إنجلترا من يقوم بتعذيب الفرسان بطريقة فعالة تجعلهم يعترفون بذنبهم على عكس فرنسا التى شاهدت استخدام أساليب التعذيب معهم . وطالب أعداء تنظيم الفرسان فى إنجلترا بإرسالهم إلى منطقة يونثيو التى تقع عبر المانش التى لا تخضع للقانون الإنجليزى وتسمح بتعذيبهم على نحو ما يحدث فى فرنسا وفقاً للقانون الكنسى . وعلى أية حال غض الملك إدوارد الثانى الطرف عن تعذيب فرسان إنجلترا بطريقة غير منظمة .

ولم تفض التحقيقات إلى أية اعترافات ذات شأن . ولكن ضباط ملك انجلترا ألقوا فى أوائل يونية ١٣١١ القبض على فارسين هاربين أحدهما يدعى ستيفن ستابلبراج والآخر توماس دى ثارولدبى اللذين كانت اعترافاتهما فى مثل بشاعة اعترافات فرسان فرنسا . فقد اعترف الفارس الأول بأن رئيس التنظيم فى إنجلترا طلب منه أن ينكر أن يسوع المسيح هو الله وينكر أمه العذراء مريم وأن يبصق على الصليب . وصرح هذا الفارس بأن التنظيم يبيح ممارسة الشذوذ الجنسى . أما توماس دى ثارولدبى فقد أنكر بادىء الأمر أنه أقدم على فعل مايشين غير أنه اعترف – فيما يبدو تحت وطأة التعذيب – بممارسات التنظيم المشينة . وفى ٢٧ يونية ١٣٠٩ مثل ستيفن دى ستابلبرج وتوماس دى ثورولدبى أمام المجلس الإقليمى فى كانتربرى وأبديا الندم على أخطائهما . وفى الفترة بين ٩ و١٣ يولية قام ٥٧ فارساً إنجليزياً بالتعبير عن ندمهم لهرطقتهم . وتم إرسال هؤلاء الفرسان إلى الأديرة كى يستغفروا الله بشأن ما اقترفوه من آثام . غير أن اثنين من الفرسان هما رئيس التنظيم الإنجليزى وليم دى لامور وإمبرت بلانك مسئول التنظيم فى أوفرين رفضا الاعتراف بأنهما مذنبان فتم حبس الأول فى سجن برج لندن فى انتظار حكم البابا عليه حيث توفى فى فبراير ١٣١٣ . أما الثانى فقد أعيد إلى أحد أسوأ السجون حيث بقى مغللاً باصفاد حديدية مضاعفة . وليس أدل على عدم انتشار تنظيم الفرسان فى كل من اسكتلندا وإيرلندا من أن فارسين فقط هما اللذان استدعيا إلى التحقيق فى اسكتلندا كما أن عدد الفرسان الذين قدموا إلى المحاكمة فى إيرلندا لم يزيدوا على أربعة عشر فارساً . وكما أسلفنا اختلفت انجلترا بشكل واضح عن فرنسا فى أن التعذيب فى إنجلترا كان بالمقارنة محدود الجدوى والأثر فضلاً عن أنه جاء فى وقت متأخر هو صيف ١٣١١ أى بعد انقضاء نحو عامين من بدء التحقيقات . ورغم التعذيب الذى تعرض له رئيس التنظيم الإنجليزى وليم دى لامور وكذلك إمبرت بلانك فقد أصرا على إنكار التهم الموجهة ضدهما . والجدير بالذكر أن الاتهامات فى إنجلترا تركزت فى أن رؤساء التنظيم يستبيحون لأنفسهم الحق فى مغفرة خطايا وذنوب أتباعهم من أعضاء التنظيم .

وفى أواخر أكتوبر عام ١٣٠٧ سافر ثلاثة فرسان من مملكة أراجون إلى حدود منطقة تيوديلا فى نافار الخاضعة لحكم لويس الابن الأكبر للملك فيليب ملك فرنسا الذى كان فى ٢٣ أكتوبر من عام ١٣٠٧ قد ألقى القبض على الفرسان الذين يعيشون فى منطقة باميلونا . وعنَّ للفرسان الثلاثة القادمين من أراجون أن يتوسطوا لدى الملك لويس للإفراج عن زملائهم الفرسان الذين حبسهم الملك فيليب فما كان منه إلا أن ألقى القبض عليهم أيضاً . فاحتج جيمس الثانى ملك أراجون على ذلك . وطلب من الملك لويس سرعة الإفراج عن رعاياه الثلاثة كما طالب بالإفراج عن كل الفرسان المقبوض عليهم ممن ينحدرون من مملكة أراجون . ورغم أن الملك لويس استجاب لطلب الملك جيمس ملك أراجون بخصوص الإفراج عن فرسان أراجون الثلاثة فإن السلطات الفرنسية فى نافار عبرت عن عظيم دهشتها من عدم تنفيذ ملك أراجون للمرسوم البابوى القاضى بإلقاء القبض على

فرسان هيكل سليمان أينما وجدوا . ولكن جيمس ملك أراجون شأنه فى ذلك شأن إدوارد ملك انجلترا لم يظهر أى تحمس لقمع الفرسان والتنكيل بهم . بل إنه عبر عن بالغ دهشته من اتهام الفرسان بتقويض مبادىء الدين المسيحى مؤكداً أن أعضاء هذا التنظيم كانوا على الدوام شديدى الوفاء والدفاع عن هذا الدين . فضلاً عن أنه أكد أنه لن يتخذ أى إجراء ضد الفرسان إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى اتخاذه وإلا إذا تلقى أوامر صريحة من البابا والكنيسة بذلك . وفى ١٩ نومبر ١٣٠٧ أرسل الملك جيمس رسالة إلى البابا كليمنت يقول فيها إنه سوف يمتنع عن اتخاذ أى إجراء ضد الفرسان لحين أن يتلقى شخصياً أوامر من البابا بذلك . وهذا بعينه مضمون الرسالة التى بعث بها إلى كل من ملك كاستيل وملك البرتغال اللذين سعى إلى اجتذابهما واستقطابهما لتبنى سياسته نفسها .

والغريب فى الأمر أن ملك أراجون غير رأيه فجأة وبدون مقدمات وقلب للفرسان فى بلاده ظهر المجن . فلم يأت ديسمبر عام ١٣٠٧ حتى كان قد أصدر أوامره لممثله فى فالنسيا بالقبض عليهم ومصادرة ممتلكاتهم . وفى أوائل هذا الشهر طلب مندوب محاكم التفتيش البابوية باستدعاء فرسان أراجون للمثول أمام المحكمة فى غضون عشرة أيام فقط . وفى الوقت نفسه هاجمت قوات ملك أراجون قلعة بنسيكولا واستولت عليها دون أية مقاومة تذكر . ورغم نجاح بعض الفرسان فى الهرب فقد تمكنت قوات الملك فى هجومها الخاطف من القبض على عدد كبير منهم وعلى رأسهم أكزامن دى لندا مسئول التنظيم فى أراجون . ولعل التغير المفاجىء الذى طرأ على موقف الملك جيمس من الفرسان يرجع إلى أسباب تكتيكية وخاصة بعد أن كتب مسئول التنظيم أكزامن دى لندا إلى أتباعه يبلغهم أنه قابل الملك جيمس وطلب منه الحماية والمشورة فى وجه العداء المتصاعد ضد تنظيم الفرسان فى كل من نافار وفرنسا وأن الملك طمأنه بأن قال له إنه لا يصدق التهم الموجهة إلى أعضائه . ولكن الملك طلب من أكزامن دى لندا أن يمهله بعض الوقت حتى يتمكن من تحرى الأمر وخاصة لأن ملك فرنسا قد تكون لديه معلومات عن التنظيم لا يعلمها هو . وسأل الملك جيمس مسئول التنظيم عن السبب الذى حدا الفرسان إلى وضع حصونهم على أهبة الاستعداد . فأجاب بأن تنظيم الفرسان فى أراجون تلقى تحذيرات من احتمال تعرضهم لهجوم مباغت . وبناء على هذه التحذيرات خشى رئيس التنظيم فى أراجون على ممتلكاته من الضياع فقام ببيعها واستبدالها بسبائك من الذهب يستطيع الاحتفاظ بها لدى بعض المتعاطفين على التنظيم . والجدير بالذكر أن مملكة أراجون احتوت على عدد كبير من الفرسان المقاتلين الأشداء مما جعل الملك جيمس يخشى على نفسه من تأخره فى ردعهم وكبح جماحهم لأن تأخره يعنى عجزه عن دحر قوتهم العسكرية . والأهم من هذا كله أن الملك جيمس أخذ يطمع فى الإستيلاء على ممتلكات الفرسان وثرواتهم ، فقد كتب إلى البابا فى ٢٩ ديسمبر ١٣٠٧ يساومه على اقتسام ممتلكات الفرسان بينهما . وبعد مضى بضعة أيام عرض الملك على البابا مساومة غير شريفة مفادها أن يسمح له البابا بالإستيلاء على ممتلكات الفرسان الثابتة مقابل أن يترك هو للبابا الاستئثار بالمنقولات كافة واعدا البابا أن يمنح الثروة

لبعض أقاربه . ويتضح مما تقدم أن إحجام الملك جيمس فى بادى الأمر عن حبس الفرسان وانزعاجه بسبب إلقاء ملك فرنسا القبض على أعضاء التنظيم الموجودين فى بلاده سرعان ما تلاشى ليحل محله الطمع والرغبة فى الإستحواذ على ثرواتهم . لقد كان تنظيم الفرسان لقمة سائغة فى فم فيليب الرابع ملك فرنسا فى حين أنه كان شوكة فى جنب جيمس ملك أراجون الذى عجز فى أول الأمر عن الاستيلاء على قلاعهم الحصينة فى ميرافيت ومونزيون وأسكو وكانتا فييجا وفيليل وكاستلوتى وكالاميرا التى قاومت الملك ببسالة منقطعة النظير . وذكر رامون ساجارديا وهو واحد من زعماء فرسان أراجون ملك البلاد بالتضحيات الهائلة التى بذلها أعضاء التنظيم للدفاع عن العائلة المالكة فى أراجون كما ذكره بالدور المشرف الذى اضطلعوا به فى الذود عن الدين المسيحى وتقديم الإحسان لآلاف المعوزين والمحتاجين ، فعندما اجتاحت المجاعة إقليم جاردنى قام فرسان هيكل سليمان فى أراجون بإطعام عشرين ألف نسمة منها . فضلا عن أنهم أطعموا ستة الاف نسمة من المعوزين . فولاؤهم وإخلاصهم للعرش والدين المسيحى مسألة لا يرقى إليها الشك . وقال رامون ساجارديا إنه يرثى لحال ملكى فرنسا وأراجون وجميع الكاثوليك الذين تورطوا فى شن هذا الهجوم الظالم على تنظيم الفرسان وهم يتوهمون أنهم بذلك يخدمون الله فى حين أنهم فى الواقع يخدمون الشيطان . وأضاف رامون ساجارديا أنه من غير المعقول أن ينضم إلى التنظيم منذ انشائه على مدى أكثر من ستين عاماً كل هذا العدد من النبلاء من ذوى المحتد العريق لو كان فى ممارسات التنظيم ما يشين . غير أن هذا الدفاع لم يقنع الملك جيمس الذى قرر مداهمة قلاع الفرسان التى لم يهاجمها بكل ما أوتى من قوة مما أعطى رئيس تنظيم الفرسان الأمل فى الوصول إلى حل وسط عن طريق المفاوضات . قال رئيس الفرسان إنه على أتم الاستعداد للاستسلام لقوات الملك بشرط توفير الحماية والأمان للفرسان وبشرط أن يتوسط الملك لدى بابا روما الذى كان خاضعاً لفيليب الرابع ملك فرنسا حتى يترفق بهم . وعندما رفض الملك جيمس أن يستجيب إلى هذه المطالب اتخذ رئيس الفرسان موقفاً من الملك أكثر حدة وعدوانية وهدد بأنهم سوف يذودون عن قلاعهم حتى آخر رمق فى حياتهم . مؤكداً أنهم سوف يكبدون الملك أفدح الخسائر . وذهب ممثلو الفرسان إلى أنهم لا يقبلون بحال من الأحوال وصف البابا لهم بأنهم جماعة من المهرطقين . فهم يؤثرون الشهادة والموت على هذا الوصف . وطلب الفرسان عقد هدنة مع الملك جيمس يسمح لهم الملك بمقتضاها البقاء فى قلعة ميرافيه وتزويدهم بالمؤن والمواد التموينية . وهو ما رفضه الملك جيمس رفضاً باتاً . ودافع الملك عن موقف البابا من الفرسان قائلا إن البابا ظل الله على الأرض وهو عليم ببواطن الأمور . ومن ثم لا يليق محاولة تقييده بأية شروط ، أو تكبيله بأية التزامات . وقام أحد أقرباء رامون ساجارديا مسئول التنظيم بزيارة الفرسان فى قلعة ميرافيه وأبلغ الملك أنه يتمتعون بروح معنوية وقتالية عالية وأنهم أشد ما يكونون إيماناً بالله وولاء للملك جيمس رغم الصراع المحتدم بينه وبينهم . ولكن الفرسان طلبوا من الملك أن يمنح رئيسهم رامون ساجارديا فرصة للخروج بأمان من ميرافيه حتى يتمكن من الاتصال بالملك وإجراء المفاوضات معه . وبعد انقضاء ما يقرب من تسعة أشهر

على حصار قوات الملك جيمس للفرسان الموجودين فى نيفاريه أصابهم الأعياء وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الإستسلام . وسعى رامون ساجارديا مرة أخرى إلى استرضاء البابا فوسط أحد ممثلى الكرسى البابوى للتدخل لديه حتى يتولى البابا إقناع الملك جيمس برفع الحصار الذى ضربه على نيفاريه . ورغم مكابرته وتظاهره بالبطولة فقد بات من الواضح أن قوات الملك أنزلت به هزيمة ماحقة . فقد سقطت فى يدها أخيراً قلعة ميرافيه فى نهاية نوفمبر ١٣٠٨ . وسقط الفرسان الباقون على قيد الحياة والساكنون فى هذه القلعة فى الأسر . وتوالت الهزائم على الفرسان الموجودين فى أماكن أخرى فتهاوت قلاع كانتا فييما وفيليل وكاستلوت . أما قرية مونزون الحصينة فاستمرت تقاوم حتى سقطت فى يد قوات الملك جيمس فى مايو ١٣٠٩ . وبسقوط قلعة كالاميرا قرب نهاية ١٣٠٩ اندحر الفرسان اندحاراً تاماً . وبعد هذه الهزائم الماحقة أرسل البابا مبعوثاً للتدخل لدى القوات المتحاربة وذلك بعد أن استجار الفرسان بالبابا وأعلنوا إذعانهم الكامل لمشيئة . واتخذت الإجراءات للتعامل مع تنظيم الفرسان طبقاً للمراسيم التى سبق للكرسى البابوى أن أصدرها فى أغسطس ١٣٠٨ . وبناء عليه تم ترشيح رئيس أساقفة تاراجونا وأسقف فالنسيا كأوصياء على أراضى الفرسان وممتلكاتهم فى أراجون . ثم بدأ التحقيق مع أعضاء تنظيم الفرسان الذين أبوا الاعتراف بأنهم مذنبون . غير أن الشهود الذين استعانت بهم هيئة التحقيقات كانوا منقسمين على أنفسهم فتضاربت أقوالهم فمنهم من شهد بأنهم كانوا يعبدون رؤوساً مصنوعة من الفضة ومنهم من شهد بصحيح دينهم .

وقد عبر الكرسى البابوى فى روما عن أسفه لما واجهته إجراءات التحقيق من تعطيل بسبب القوانين التى تحكم مملكة أراجون والتى تحرم تعذيب الفرسان كما هو الحال فى إنجلترا . ورغم أن الفرسان فى أراجون اشتكوا من حبسهم وحرمانهم لمدة ثلاثة أعوام فإن معاملتهم فى أراجون كانت بكل تأكيد أفضل بكثير من المعاملة التى عوملوا بها فى فرنسا . فقد سمح لهم بأكل اللحوم والسمك والبيض ثلاث مرات فى الأسبوع . ويبدو أن امتناع السلطات فى أراجون عن تعذيب الفرسان أثار ضيق البابا الذى أصدر عام ١٤١١ أمراً إلى رئيس أساقفة تاراجونا وأسقف فالنسيا بتعذيب الفرسان لاستخلاص الحقيقة كاملة من أفواههم . ويبدو أن ثمانية فرسان فى برشلونة تعرضوا للتعذيب فى أغسطس ١٣١١ دون أن ينجح هذا التعذيب فى حملهم على الإعتراف بذنبهم . وفى نهاية الأمر انشئت مجالس محلية فى أراجون لسماع دفاع الفرسان الأفراد عن أنفسهم مثل المجلس المحلى الذى انعقد فى تاراجونا وأعلن فى ٤ نوفمبر ١٣١٢ براءة الفرسان من التهم الموجهة ضدهم ومن الأعمال المشينة المنسوبة إليهم .

وكانت هناك آنذاك مملكة صغيرة الحجم ولكنها وثيقة الصلة بمملكة أراجون هى مملكة ماجوركا الخاضعة لحكم فرع من عائلة أراجون المالكة . وألقت السلطات هناك القبض على نحو خمسة وعشرين فارساً غير أن اللجنة التى تولت التحقيق معهم لم تبدأ فى الاستماع إلى أقوالهم سوى عام

١٣١٠ . وأجمع كل الفرسان المقبوض عليهم على براءتهم وأكدوا إيمانهم بالعقيدة المسيحية وأنكروا تهمة الشذوذ الجنسى المنسوبة إليهم . كما أنكروا عبادتهم للأوثان . وأضافوا أنهم علي يقين من كذب وافتراء كل من اعترف باقتراف أعضاء التنظيم للجرائم والموبقات . وقد نفى فرسان ماجوركا نفيا قاطعاً ممارسة أعضاء التنظيم للشذوذ الجنسى : بل ذهبوا إلى أنهم عاقبوا ممارسيه بنزع ملابس الكهنوت عنهم والزج بهم فى السجن وتكبيل الأيدى والأرجل والرقاب بالأغلال الثقيلة . وهكذا أكد فرسان ماجوركا بلهجة قاطعة براءتهم من التهم المنسوبة إليهم مثلما فعل فرسان أراجون من قبل .

وبالإضافة إلى ذلك تم إلقاء القبض فى أسبانيا على الفرسان فى مملكتين قريبتين هما مملكة كاستيل ليون ومملكة البرتغال . وقد انشئت لجنتان للتحقيق مع هؤلاء الفرسان فى عام ١٣٠٨ وتولى رئيس أساقفة كومبو ستيلا التحقيق مع ثلاثين فارساً فى كاستيل ليون . وفى مملكة البرتغال رأس أسقف لشبونة لجنة التحقيق التى تولت سؤال ثمانية وعشرين فارساً وستة شهود . غير أن هذه التحقيقات فشلت فشلاً ذريعاً فى أن تجد أى دليل على إدانتهم .

ننتقل الآن إلى التحقيقات فى إيطاليا وألمانيا حيث كان عدد الفرسان ضئيلا للغاية بالمقارنة بفرنسا وأسبانيا . ورغم ضآلة عدد الفرسان فى إيطاليا فقد أنشأ الكرسى البابوى هناك سبعة لجان تحقيق ؛ الأمر الذى يدل على مقدار التفتت والتفكك السياسى الذى كانت تعانى منه الممالك الإيطالية آنذاك لأن عدد الفرسان فيها كان ضئيلا ولا يستوجب إنشاء هذا العدد الكبير من لجان التحقيق . غير أن مملكة نابولى كانت استثناء من هذه الفوضى فقد تميزت بشدة التماسك . ولأن ملك نابولى تشارلس الثانى كان عم ملك فرنسا فيليب الرابع فقد كان من المتوقع أن تنتهج مملكته النهج نفسه الذى انتهجته فرنسا التى لم تتورع عن تعذيب فرسانها . وعلى أية حال فنحن نجد أن ستة فرسان ظهروا فى لوستريا فى إبريل ١٣١٠ ليعترفوا بتهمة إنكار المسيح . وكان اسم جاليسراند دى تيوس فى مقدمة هؤلاء الفرسان الستة .

وألقى هذا الفارس الضوء على مغفرة رئيس الفرسان لخطايا أتباعه فقال إن عملية المغفرة كانت تتم على النحو التالى . يقول مسئول الفرسان لمن يريد أن يغفر له خطاياه : «إنى ابتهل إلى الله أن يغفر لكم خطاياكم كما غفرها للقديسة مريم المجدلية واللص الذى وضع على الصليب . وطبقاً لقوانين الفرسان فإن كلمة اللص إنما تشير إلى ذلك اليسوع أو المسيح الذى قام اليهود بصلبه والذى قال عن نفسه إنه الله وملك اليهود محتقراً بذلك الإله الحقيقى الموجود فى السموات . وعند دنو المسيح من الموت قذفه لونجينوس برمح فى جنبه فندم على ادعائه أنه ملك اليهود طالبا العفو والمغفرة من الله الحقيقى الذى يعفو عنه . وأيضاً ذكر هذا الشاهد أنه سمع عن عبادة الفرسان لقطة فى كنيستهم فى عهد رئيسهم فيليب دى نابلوس (١١٦٩ - ١١٧١) . وتقدم للشهادة فارس آخر اسمه جين دى ناردو فاعترف بإنكاره الصليب قائلاً إن الحشد المجتمع داس هذا الصليب بالأقدام . وذكر

ناردو أنه انضم إلى الجمع وداس هو أيضاً عليه بالأقدام . ولكنه أضاف أنه لم يشاركهم التبول عليه بسبب عجزه عن التبول إذ كان قد تبول منذ فترة وجيزة . واعترف الرجل أنه فعل هذا بسبب تهديد الفرسان له بأن يلقوا به فى دورة مياه إذا رفض إجابتهم إلى طلبهم . وكذلك اعترف بتقبيل رئيس التنظيم على بطنه العارية من الملابس إلى جانب عبادة قطة . واعترف الرجل بتقصيره لأنه لم يبلغ المسئولين فى المملكة عن ذلك . ولكنه اعتذر ببساطته وسذاجته . وكذلك اعترف فارس آخر هو هيجو دى سامابا بأنه اضطر إلى إنكار المسيح أثناء عضويته فى التنظيم فى جزيرة قبرص . وفى الدويلات الخاضعة مباشرة للكرسى البابوى زار المحققون عدة بلدان مثل روما وفتربو وسبوليتو واكويلا وبن وشتي وألبانو وتسحن وكاستيل فاجولى وتيفولى وبالومبارا وذلك فى الفترة بين أكتوبر ١٣٠٩ ويولية ١٣١٠ . ولكن معظم الفرسان فى هذه البلدان امتنعوا عن الدفاع عن تنظيمهم وإن كان البعض منهم اعترف بذنبه تحت ضغط التعذيب .

وفى لومباردى الإيطالية أظهر كثير من القساوسة تعاطفاً مع الفرسان الأمر الذى شجعهم على الدفاع عن أنفسهم وإعلان براءتهم . ففى عام ١٣٠٩ استمع أسقف فانو إلى أقوال أحد الفرسان وتسعة عشرة شاهداً وجاءت جميع أقوالهم خالية تماماً مما يشين . وأيضاً تولى رئيس أساقفة دافينا وأسقف ريمينى التحقيق مع فارسين من كيسنيا فأكد أنهما بريئان وصرح أحدهما وهو أندرو أنه نمى إلى علمه أن بعض الفرسان اعترفوا بذنبهم تحت وطأة التعذيب وأنه على يقين من براءة التنظيم من أية اتهامات . واجتمع فى دافينا يوم ١٨ يونية ١٣١١ مجلس برئاسة رئيس الأساقفة الذى استدعى سبعة فرسان للتحقيق معهم . غير أنهم أنكروا جميعاً الاتهامات ضدهم فاقترح البعض استخدام أساليب التعذيب معهم . ولكن هذا الاقتراح لم يجد صدى فى نفوس المجتمعين . وانتهى المجلس إلى قرار يقضى بالحفاظ على التنظيم ككل إذا ثبتت براءة معظم أعضائه .

أما التحقيقات الخاصة بمنطقة توسكانى بإيطاليا فقد جرت فى سبتمبر ١٣١١ فى فلورنسا على يدى كل من رئيس أساقفة بيزا وأسقف فلورانس . وفى أوائل عام ١٣١١ كان البابا قد أصدر أمراً باستخدام أساليب التعذيب مع الفرسان فى كل من لومباردى وتوسكانى . وفى ظل هذه الظروف نرى أن ستة فرسان من مجموع الفرسان البالغ عددهم ثلاثة عشر الماثلين أمام المحققين قد اعترفوا بذنبهمم فى حين أصر الباقون على براءتهم .

وأيضاً ساد الاضطراب والفوضى التحقيقات التى أجريت فى ألمانيا مع فرسان تنظيم هيكل سليمان إذ كانت هذه التحقيقات رهناً بنزعات الحكام المحليين واتجاهاتهم السياسية . ففى عام ١٣٠٨ عنَّ لبرخارت أسقف ماجدبرج أن يتخذ إجراءات عنيفة ضد الفرسان وأن يزج فى السجن بعدد منهم من بينهم فردريك فنزلين مسئول التنظيم فى ألمانيا . ولكن تصرفه هذا أثار عليه سخط رجل كهنوت آخر اسمه هالبرستادت الذى اعتبر هذا الاجراء انتهاكاً للحقوق وعدواناً عليها . فآل على نفسه القصاص من فردريك بإصدار حرمان كنسى ضده . وأمام هذا الصراع المحتدم بين رجلى الدين

وجد البابا كليمنت الخامس نفسه مضطرا إلى التدخل لإلغاء قرار الحرمان الكنسى الذى سبق أن أصدره .

وفى الفترة من ١٣١٠ و ١٣١١ تم عقد عدد كبير من المجالس المحلية فى ألمانيا برئاسة الأكليروس . فعلى سبيل المثال استمع رئيس أساقفة مدينة تاير إلى شهادة الشهود وانتهى إلى الحكم ببراءة التنظيم . وفى مدينة مينز وقعت بعض الأحداث الدرامية لرئيس أساقفة مينز واسمه بيتر أسبلت . فبينما هو يرأس الاجتماع الذى دعا إليه يوم ١٤ مايو ١٣١٠ إذ بهيو سالم مسئول التنظيم فى جرمباخ ومعه عشرون فارساً مدججين بالسلاح يقتحمون المجلس . وبث هذا الاقتحام الفزع فى قلب رئيس الأساقفة الذى سعى ما وسعه السعى إلى استرضاء هيو سالم وتهدئته . فطلب إليه الجلوس والتعبير عن رأيه . فاشتكى هيو سالم وهو مستشيط غضباً أنه على علم بوجود مخطط يهدف إلى الإطاحة بالتنظيم وتدميره والصاق التهم الباطلة به دون إعطائه أدنى فرصة للدفاع عن نفسه . ولهذا قرر اقتحام مجلس الآباء حتى تصل شكايته إليهم وإلى البابا . وأيضاً احتج هيو سالم بأن أعداء التنظيم بدأوا ينكلون بأعضائه الذين رفضوا الاعتراف بصحة الاتهامات الملفقة ضدهم . واستطرد هيو سالم قائلاً إن الله شاء أن يرد كيدهم إلى نحورهم فصنع معجزة يثبت بها براءة هؤلاء الفرسان . فعندما ألقى بالفرسان الأبرياء فى أتون من النار لم يلمسهم أذى وظهر وشاحهم ناصع البياض وكذلك لم تؤثر ألسنة اللهب فى الصليب الأحمر الذى يلبسونه . وخشى رئيس الأساقفة من هياج الشعب عليه فاعترف بصحة ما ورد على لسان هيو سالم وقال إنه سوف يرفع الأمر إلى البابا . وأدى هذا بطبيعة الحال إلى تعطيل أعمال المجلس لفترة طويلة من الزمن . وكان لهيو سالم أخ اسمه فردريك كان يشغل وظيفة مسئول التنظيم فى إقليم الراين . وإيماناً من فردريك ببراءة التنظيم اقترح على المجلس أن يخضعه شخصياً لاختبار الكى بالحديد المحمى . وأكد فردريك أنه كان يعرف جاك دى مولاى الرئيس العام للتنظيم معرفة شخصية وثيقة وأنه لا يشك مطلقاً فى صدق إيمانه بالمسيحية . وأدلى سبعة وثلاثون فارساً بشهادتهم مؤكدين براءتهم من التهم المنسوبة إليهم . كما شهد اثنا عشر شاهدا من بينهم ثلاثة أرستقراط برتبة كونت بحسن سيرهم وسلوكهم . وكان من بين الشهود قسيس شهد بالدور الإنسانى العظيم الذى لعبه أعضاء التنظيم فى مد يد الإحسان إلى المحتاجين فقد رأى بعينى رأسه فى زمن المجاعة التى اجتاحت ماستير الفرسان وهم يطعمون ألف فقير كل يوم . وأمام هذه الشهادات المدافعة عن التنظيم والمتحمسة له اضطر رئيس الأساقفة إلى إصدار حكم لصالح الفرسان الأمر الذى أثار ضيق البابا كليمنت وجعله يلغى قرار رئيس الأساقفة القاضى ببراءتهم معتبراً أن من حقه وحده إصدار مثل هذا القرار .

ورغم أن معظم بلاد اليونان كانت خالية من فرسان هيكل سليمان فإن جزيرة قبرص أصبحت المقر الرئيسى لهم بعد أن اضطرهم المسلمون فى فلسطين إلى الجلاء عن أورشليم . ومما زاد أمر وجودهم فى قبرص تعقيداً أن رئيسهم جاك دى مولاى لم يكن فى أى وقت من الأوقات على علاقة

ودية بهنرى الثانى ملك هذه الجزيرة فقد اعتبره مولاى عقبة كأداء تقف في سبيل شن حرب صليبية جديدة وإقامة قاعدة للمسيحيين فى فلسطين . ولم يكن مولاى وحده يناصب ملك قبرص العداء فقد شاركه فى ذلك أمودى دى لوسيجنان شقيق الملك . وتحالف جاك دى مولاى مع شقيق الملك واستطاع الاثنان بمعرفة بعض النبلاء الأقوياء اشعال فتيل الثورة ضد الملك الذى اعتلى أخوه العرش من بعده . ولهذا كان من الطبيعى ألا يتحمس الملك الجديد أمورى لتنفيذ قرار البابا الصادر فى ٦ مايو ١٣٠٨ بالقبض على أعضاء تنظيم الفرسان . وفى ١٢ مايو من هذا العام وصل باليان ديبلين الذى بعثه حاكم قبرص الجديد إلى ليماسول وطلب من الفرسان المتمركزين فيها الامتثال لأمر البابا بوضعهم وممتلكاتهم تحت الحراسة فضلاً عن تخليهم عن أسلحتهم وقبول اعتقالهم فى قصر رئيس أساقفة نيقوسيا . غير أن زعيم الفرسان القبارصة رفض الاستسلام وضرب بطلبات الحاكم الجديد عرض الحائط . كما أنه طالب بالتفاوض مبدياً استعداده للتخلى عن مسئوليته المباشرة فى إدارة ضياع الفرسان ورافضاً فى الوقت ذاته التخلى عن أسلحة التنظيم أو خزانتهم مصراً على أن يصطحب الفرسان خزانتهم أينما ذهبوا . واقترح أيم دى أو سلييه أن ينسحب الفرسان إلى إحدى ضياعهم بحيث تتولى حراستهم قوة من الفرسان الذين ليست لهم أية صفة دينية أو انتماءات كهنوتية لحين صدور حكم البابا عليهم . وأسقط فى يد مبعوث الحاكم الجديد باليان ديلبلين فعاد بخفى حنين إلى سيده أمورى دى لوسيجنان . ويبدو أن هذا التشدد من جانب زعيم الفرسان أثار عليه غضب أمورى الحاكم الجديد فأمر بإلغاء التعاملات المالية كافة مع الفرسان . وبعد أيام أرسل الحاكم فى ١٩ مايو مبعوثاً جديدا اسمه بولدوين الذى شغل وظيفة كاهن بكاتدرائية نيقوسيا الذى أبلغ الفرسان بتهديد الحاكم لهم بالقضاء المبرم عليهم إذا أبوا الانصياع لأوامره . فاقترح الفرسان تأجيل اتخاذ أى إجراء بشأنهم حتى شهر سبتمبر من هذا العام (١٣٠٨) يحدوهم الأمل فى أن يصل البابا إلى قرار بشأنهم خلال تلك الفترة . غير أن الحاكم رفض هذا الاقتراح أيضاً وأرسل إليهم مبعوثاً ثالثاً اسمه أندريا بارتارول قسيس فاماجستا . ونجح هذا المبعوث الأخير فى الوصول إلى اتفاق مع تنظيم الفرسان فى ٢٤ مايو بمقتضاه قبل الفرسان وزعيمهم أيم دى أو سلييه المثول فى حضرة الحاكم أمورى فى مدينة نيقوسيا . وبعد ذلك تلا الفرسان بياناً عاماً أمام جمع من الشعب ورجال الدين . وأعلن القسيس بولدوين أنه تأكد له أن الفرسان مسيحيون لا غبار عليهم وأنهم أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن المسيحية فى قلعة صافيد وفى عدة أماكن أخرى . والجدير بالذكر أن عدد فرسان قبرص بلغ ثلاثة وثمانين فارساً بالإضافة إلى خمسة وثلاثين جندياً عاملاً .

وفى الوقت نفسه أرسل حاكم جزيرة قبرص فى السر قوة من فرسانه وجنوده المشاة إلى ليماسول . وتمكنت هذه القوة من مداهمة تنظيم الفرسان المدجج بالسلاح ودحره . وهكذا انتهى الصراع باستيلاء حاكم الجزيرة على ممتلكات الفرسان وأموالهم . غير أنهم استطاعوا إخفاء الجانب الأعظم من ثروتهم فى مخابىء سرية . ولم يبدأ الاستماع إلى أقوال الشهود فى قضية فرسان قبرص

إلا فى شهر مايو ١٣١٠ حين عقد المحققون جلسة استغرقت خمسة أيام استمعوا فيها إلى ٢١ شاهداً لم يكن بينهم فارس واحد من فرسان تنظيم هيكل سليمان بل كان بينهم فرسان عاديون ورجال دين . ورغم أن بعض الشهود عابوا على فرسان التنظيم بعض تصرفاتهم فإنهم جميعاً شهدوا بحسن سيرهم وسلوكهم وتفانيهم فى خدمة الدين المسيحى ، فقد ذكر جاك دى بيانى أنه حضر سقوط عكا عام ١٢٩١ فى يد المسلمين ورأى بعينى رأسه تضحيات أعضاء التنظيم بأرواحهم لانقاذ المدينة من براثن أعدائهم .

وبعد استسلام تنظيم الفرسان عهد حاكم الجزيرة إلى اثنين من فرسانه هما بييرايسان وراموند دى بنيتو بحراسة أعضائه . يقول بيير ايسان أنه رأى بنفسه مدى استمساك أعضاء التنظيم بالمسيح وبالصليب الأمر الذى يدل على أن اتهامهم بإنكار المسيح والصليب باطل من أساسه . وكذلك شهد الآخر رايموند دى بنيتو ببسالة أعضاء التنظيم المنقطعة النظير كما يدل على ذلك بلاؤهم الحسن فى وجه المسلمين . فضلاً عن أن دى بنيتو شهد بعظيم احترامهم للصليب فى سوريا وقبرص . والأهم من هذا كله أنه يعترف لنا أنه كان يتفادى الاختلاط بأعضاء التنظيم لأنه كان يعتقد أنهم ناقصو دين . فلما عرفهم على حقيقتهم واستمع إلى القداديس التى يقيمونها فى صلواتهم تأكد من صحة دينهم . ومنذ ذلك الحين وهو يشاركهم طعامهم ويستمع إلى قداديسهم . وبعد ذلك مثل أعضاء التنظيم أمام المحققين فى الفترة من ٥ إلى ٢١ مايو ١٣١٠ . وعند التحقيق مع الدفعة الأولى من تنظيم الفرسان أنكروا جميعاً التهم الموجهة ضدهم وأكدوا براءتهم . ثم تكرر تأكيدهم لبراءتهم عندما مثل فيما بعد أمام المحققين بقية زملائهم . وفجأة وقعت بعض الأحداث السياسية الدرامية فى الجزيرة فقد عثروا فى ٥ يونية ١٩١٠ على جثة حاكم قبرص الجديد أمورى دى لوسجينان أسفل سلالم قصره فى نيقوسيا الأمر الذى أدى إلى عودة الملك هنرى الثانى المخلوع إلى الحكم فى شهر أغسطس ١٩١٠ . ولأن هذا الملك أصلاً ناصب تنظيم الفرسان العداء فقد كان من الطبيعى أن يلقى هذا التنظيم على يديه المعاملة غير الكريمة . فضلاً عن أن البابا كليمنت كان قد أصدر أوامر بعقد محاكمة جديدة لهم وبممارسة التعذيب معهم . ولكن من المؤكد أن عدداً كبيراً منهم ماتوا فى غياهب السجون مع زعيمهم أيم دى أو سلييه بحلول عام ١٣١٦ .

وفى الختام يجدر بنا أن نذكر أن فرنسا هى البلد الوحيد الذى اتبع سياسة ثابتة فى التنكيل بتنظيم الفرسان ولكنها عجزت عن تحريض البلاد الأخرى فى الحذو حذوها والاقتداء بها . والذى ساعد على هذا زيادة رقعة التفكك السياسى الذى أصاب كيان الأمة المسيحية بعد أن كانت شديدة التماسك فى أوروبا فى العصر الوسيط . وقد سعت الكيانات المختلفة فى هذه الأمة إلى الاستقلال القومى عن كنيسة روما .

وليس من شك أن عدم وجود أدلة دامغة تدين تنظيم الفرسان وتعرض أعضائه إلى التعذيب كانا فى صالح التنظيم وليس ضده فهو يشككنا فى صحة الاتهامات الموجهة إليه .

ويجدر بالذكر أيضاً أن بابا روما دعا أعضاء التنظيم إلى المثول أمام مجمع عقده فى فيينا يوم ١٦ أكتوبر ١٣١١ لإعطائهم فرصة للدفاع عن أنفسهم . غير أن البابا الذى عيل صبره قرر فجأة القضاء عليهم دون إعطائهم فرصة للدفاع عن أنفسهم . وبالفعل نجح البابا كليمنت فى إبادتهم دون أن ينجح فى إثبات صحة التهم الموجهة ضدهم . والذى لاشك فيه أن الجشع والرغبة فى الاستيلاء على ثروات التنظيم كانا واحداً من أهم الأسباب التى دعت البابا وملوك أوروبا إلى التخلص منه .

مقدمات عصر الإصلاح الديني في أوروبا

١) المهرطق ويكلف Wyclif (١٣٣٠ تقريباً - ١٣٨٤)

يعتبر المهرطق الإنجليزى جون ويكلف الذى يعتقد أنه من مواليد ريتشموند فى يوركشير بانجلترا نموذجاً فريداً للانشقاق على الكنيسة الكاثوليكية وعلى الكرسى البابوى فى روما . ولم تكن بلاده الوحيدة التى اقتدت به فقد سارت على دربه معظم البلاد الأوروبية . ولم يكن لدى ويكليف ما يخفيه مما جعله يبشر بهرطقته فى العلن وعلى أوسع نطاق ممكن . كان يبشر ويدرس اللاهوت فى جامعة أكسفورد . ورغم انشقاقه على الكنيسة الكاثوليكية فقد عاش ومات مسيحياً لاشك فى إيمانه . ويكفى أن نعلم أنه لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء استماعه إلى القداس . انخرط ويكليف فى معترك السياسة فوجد نفسه دون أن يقصد فى خضمها . والجدير بالذكر أن آراء ويكليف المهرطقة أدت بشكل أو آخر إلى ظهور حركتين مهرطقتين كبيرتين هما حركتا جماعة اللولارديين وجماعة اتباع هوس . ورغم أنه لم يرض عن الوسائل التى اتبعها اللولارديون فإنه اتفق معهم فى الأهداف والغايات .

تعلم ويكليف فى أكسفورد حيث عاش ردحاً كبيراً من الزمن . وفى عام ١٣٥٦ أصبح زميلاً بكلية ميرتون حيث منحته كلية باليول درجة الماجستير فى الأدب عام ١٣٦٠ ثم درجة الدكتوراه فى اللاهوت عام ١٣٧٢ . وفى عام ١٣٨١ أى قبل وفاته بثلاثة أعوام غادر ويكليف أكسفورد بصفة نهائية . وفى عام ١٣٧٤ أرسل فى مهمة دبلوماسية للتفاوض مع البابا حول بعض الشئون والتدبيرات المالية ، وفى عام ١٣٧٦ لعب دوراً بارزاً فى مؤازرة جون اف جونت وسانده فى اضطهاد وليم ويكهام ، الأمر الذى أثار غضب الكنيسة الكاثوليكية منه ومن تصرفاته المماثلة فاستدعاه وليم كورتناى أسقف لندن آنذاك للحضور إلى كاتدرائية القديس بولس فى شهر فبراير ١٣٧٧ كى يمثل فى حضرة مجمع من رجال الاكليروس . ولكن جون اف جونت خف لحمايته منهم .

كان ويكليف فى ذلك الوقت قد انتهى من استكمال وتطوير آرائه المعترضة على تمتع الكنيسة الكاثوليكية بالثراء العريض . وضمن هذه الآراء فى مبحثه «حول الحكم المدنى» المنشور بين عامى ١٣٧٦ و١٣٧٨ . ويفسر لنا هذا ضراوة العداء الذى يحمله رجال الكنيسة له . وبلغت العداوة

ذروتها عندما أرسل رجال الكنيسة إلى البابا جريجورى الحادى عشر فقرات من هذا المبحث فغضب البابا منه وأصدرت الكنيسة إدانة رسمية له فى عام ١٣٧٧ بعد أن انتقد البابا ثمان عشرة فقرة وردت فى مبحثه المشار إليه . ولكن هذه الإدانة الرسمية من جانب الكنيسة له لم تجر عليه أية عواقب وخيمة بسبب صلاته الوثيقة بأصحاب النفوذ والسلطان . ومما ساعد أيضاً على عدم تعرض الكنيسة الكاثوليكية له بالأذى أن هذه الكنيسة فى تلك المرحلة الحرجة (١٣٧٨ - ١٤١٧) كانت تمر بأزمة طاحنة تعرف فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية بفترة الإنشقاق العظيم ضد النظام البابوى . وحتى عندما أقدم البابا على نشر المرسوم الخاص بإدانة ويكليف قرب نهاية عام ١٣٧٧ لم يكترث أحد فى إنجلترا بتنفيذ الأمر البابوى بالقبض عليه . وليس أدل على أن السلطات الإنجليزية تعمدت أن تغمض عينيها من أنه استطاع أن يصل إلى اتفاق مع المسئولين فى جامعة اكسفورد بتجديد إقامته طواعية فيها . غير أن الجامعة قررت فحص المحاضرات والمواعظ التى يلقيها على طلابه ومريديه . وجاء الفحص فى صالحه فقد انتهت لجنة الفحص إلى القول بأن أفكاره لا غبار عليها وتتسم بالصدق وإن بدت سيئة فى أذن المستمع إليها . واستناداً إلى تبرئة جامعة اكسفورد له رفض ويكليف تنفيذ الأمر الذى أصدره رئيس أساقفة كانتربرى بالحضور إلى كاتدرائية القديس بولس فى لندن . ولكنه عاد وقدم شيئاً من التنازلات عندما قرر فى مارس ١٣٧٨ الحضور إلى مقر رئاسة أساقفة كانتربرى . ورغم توجيه الاتهام الرسمى إليه هناك ، فيجدر بالذكر أن عام ١٣٧٨ يعتبر مفترق طرق فى حياته . فقد شاهد هذا العام استكماله لكتابه الهام « حول الحكيم المدنى . » وهو كتاب يقطر بالعداء السافر والعنيف ضد طقوس الكنيسة الكاثوليكية . وفى نوفمبر ١٣٧٨ أعلن ويكليف فى بحثه « حول وظيفة الملك » تأكيده لسيادة الملك على الكنيسة والاكليروس مستنداً إلى أن الملك عليه مسئولية النهوض بالكنيسة وإجراء الإصلاحات فيها . وفي مبحثه عن النظام البابوى عام ١٣٧٩ أنكر التدرج الكنسيى الهرمى الذى تعتبره الكنيسة الكاثوليكية ركيزتها . فضلا عن أنه سبق له أن أظهر زراية بالبابا جريجورى الحادى عشر وأنكر عليه حقه فى استدعائه إلى روما . والجدير بالذكر أن كل الكتابات التى سطرها ويكليف بعد عام ١٣٧٩ مثل كتاب « المواعظ » و « حول التجديف » و«الكتاب الإنجيلى» لا تضيف شيئاً جديداً إلى ما سبق أن توصل إليه من أفكار . ولكن الجديد في هذه الكتب والمباحث تلك الحدة وذلك العنف الذى عبر بهما مؤخراً عن آرائه المهرطقة . ويكمن الفرق بينه وبين غيره من المنشقين فى أن معظم هؤلاء المنشقين هاجموا ممارسات الكنيسة السيئة دون أن يرفضوا سلطتها . أما هو فقد هاجم سلطة الكنيسة بالحدة نفسها التى هاجم بها مفاسدها . غير أن هجومه على السلطة الكنسية انبعث من إيمانه الخالص والأكيد بالكتاب المقدس وفهمه لدوره الحقيقى فى الحياة . ولهذا يمكن اعتباره أحد دعاة الإصلاح الكنسى إذ نادى باعطاء الملك وليس البابا حق السيادة على الكنيسة . ويدل رأيه فى الآيوخارست (أى تحول الخبز إلى جسد المسيح) على مدى جنوحه إلى الهرطقة . فقد كان رأيه فى الأيوخارست السبب المباشر فى غضب الكثيرين من الرهبان منه بعد أن كانوا يساندونه فى دعوته إلى الإصلاح الكنسى . بل إن هؤلاء الرهبان أصبحوا

أشد أعدائه رغم أنه سعى ما وسعه السعى إلى استمالتهم إلى جانبه . وبسبب هرطقته الخاصة بالإيوخارست فقد مكانته فى جامعة أكسفورد . ففى عام ١٣٨١ أمر رئيس هذه الجامعة واسمه وليم بارتون بتكليف لجنة مكونة من اثنى عشر عضواً بالتوفر على دراسة مؤلفاته وفحص انتاجه الأكاديمى . وانتهت هذه اللجنة إلى إدانة هذه المؤلفات وهددت بالطرد من الكنيسة كل من يقوم بتدريسها أو الترويج لها . ولم يتوقع ويكليف هذه المعاملة الخشنة من جانب الجامعة وناشد الملك أن يحميه ويقف بجانبه . غير أن الملك رفض الاستجابة له . وبعد ذلك نشر ويكليف اعترافاته التى دافع فيها عن آرائه . وفى صيف عام ١٣٨١ تخلى ويكليف عن وظيفته بجامعة أكسفورد التى غادرها دون رجعة ليعيش فى أبرشية لاترورت . غير أن وليم كورتناى الذى كان رئيس أساقفة كانتربرى آنذاك طلب من طائفة الرهبان المعروفين باسم البلاك فرايرز عقد مجمع أو سنودس يعرف بمجمع الزلزال حيث قرر المجتمعون إدانة أربعة وعشرين فقرة من كتابات ويكليف الأمر الذى أدى إلى منعه من الوعظ والتبشير فى جامعة أكسفورد ، رغم أن رئيس أساقفة كانتربرى فى محاولة من جانبه لعدم استفزازه امتنع عن الإشارة إلى اسمه كمؤلف لهذه الفقرات المغضوب عليها . ولم يجد ويكليف متنفساً له من هذا الحظر والإبعاد عن منبر الوعظ غير القلم يلوذ به . غير أن الشلل الذى أصابه أعجزه عن الكتابة فاضطر إلى إملاء كتاباته فغزر إنتاجه خلال الأعوام الثلاثة التى قضاها فى لاترورت . ومما زاد من سوء أحواله أن أرندل رئيس أساقفة كانتربرى التالى كون عام ١٤٠٧ لجنة لفحص جميع مؤلفاته . وقررت اللجنة اعتبار ٢٦٧ فقرة من كتاباته مهرطقة وخارجة على صحيح الدين المسيحى . وقد أرسلت هذه الفقرات التى تعترض عليها الكنيسة إلى بابا روما وتم إحراق بعضها عام ١٤١٣ فى مجمع لاتيران . وأيضاً تم حظر ٤٥ فقرة أخرى من كتاباته فى مجمع كونستانس عام ١٤١٥ وهى فقرات سبق إدانتها فى براغ عام ١٤٠٥ . وبعد مضى نحو خمسة وعشرين عاماً على وفاة ويكليف أعلنت الكنيسة بشكل رسمى أنها تعتبره مهرطقاً . وفى عام ١٤٢٨ تم وضع قرار آخر اتخذه مجمع كونستانس موضع التنفيذ . ويقضى هذا القرار بإخراج جثته من القبر وإلقاء رفاته فى ترعة فى لاترورث . غير أن هذا التمثيل بجثته عجز تماماً عن منع انتشار أفكاره .

يميل بعض الدارسين إلى رد هرطقة ويكليف إلى طبيعته المتطرفة أكثر من أى شيء آخر وإلى مغالاته فى التعبير عن طائفة من الأفكار التى سبقه إلى الإقتناع بها كثير من أسلافه ، وليس إلى اعتناقه أية أفكارمختلفة عن أفكارهم . والرأى عندهم أن تطرفه ليس الأصل فى هرطقته فحسب بل أيضاً السبب فيما يشوب فلسفته من عيوب ومثالب . ويتضح لنا هذا بجلاء من طريقة فهمه لفلسفة القديس أوغسطين ، فقد أخذ عن هذا الفيلسوف الدينى المعروف تقسيمه بين مملكة السماء ومملكة الأرض . ولكنه اشتط فى تفسير هذا التقسيم على نحو لم يخطر على بال القديس أوغسطين نفسه فقد دعاه شططه وعناده إلى تسخير أفكار القديس أوغسطين فى الهجوم على النظام الكنسى وما

يشتمل عليه من رتب كهنونية هرمية الشكل . ومن دلائل شططه أيضاً أنه فسَر الكتاب المقدس بطريقة تساعده على الهجوم على الكنيسة والنيل منها . والرأى عند رجال الدين المخالفين له فى الفكر أنه لا يشفع له فى ذلك أنه يؤمن بالحقيقة الحرفية لكل ما جاء فى الكتاب المقدس .

ويعتبر مذهب ويكليف الميتافيزيقى ركناً أساسياً فى هرطقته الدينية ، فقد آمن بشىء شبيه بالأفلاطونية ومزجه بالدعوة إلى البانثية أى وحدانية الوجود وهو مذهب يرى فى الخالق والخليقة شيئاً واحداً : آمن ويكليف بقدسية النماذج الأولى للخليقة التى رأى أنها تكمن إلى الأبد في الذات الإلهية . كما أنه استقى من مؤلفات القديس أوغسطين إيمانه بالكينونة التى تندرج إلى ثلاثة تقسيمات ، فهناك أعلى درجات الكينونة المتمثلة فى الله ثم الكينونة الممكنة التى توجد بالقوة وليس بالفعل وأخيراً وثالثاً هناك الكينونة الموجودة بالفعل فى الأفراد وهى كينونة تكمن إلى الأبد فى الذات الآلهية . ومن ثم فإنها تستمد خلودها من خلود الله . وليس هناك أى جديد فى هذه التقسيمات الثلاثة فقد سبقها إليه القديس أوغسطين . ولكن الجديد الذى أضافه هو اعتقاده أن النماذج الأولى (أو عالم المثل بلغة أفلاطون) لا يمكن فصلها عن الله وأن جوهرها جزء من جوهره وهى فكرة لم يفتأ ويكليف يكررها دون ملال أو كلل وانتهت به إلى الإيمان بوجود سلسلة من الكينونات المترابطة التى تشمل الله فى رحابها . وحفره هذا إلى الاعتقاد بأن وجود الفرد شىء عارض ناجم عن وجوده الكامن إلى الأبد فى الله . وأدت به هذه النظرة إلى القول إن الأشياء تشارك الله فى كينونته وهو مذهب لا يفصل - كما أسلفنا - بين الخالق وخليقته ويعتبرهما شيئاً واحداً . وهكذا مهد ويكليف الطريق منذ وقت باكر للغاية فى القرن الرابع عشر إلى ظهور المذهب الفلسفى المعروف بوحدانية الوجود (الذى يعتبر الخالق والخليقة كلا واحداً لا ينفصل أو يتجزأ) . وهو مذهب انتشر وترعرع على أيدي الأدباء الرومانسيين فى مطلع القرن التاسع عشر .

أكد ويكليف أن البابوات ليسوا سوى بشر خطائين ومن ثم فإنه من الهرطقة أن يتولى البابوات هذا المنصب الدينى . ومن ثم أيضاً يحق للرعية تنحيتهم عند الضرورة . حتى الكنيسة نفسها ليس من حقها أن تمارس أى سلطان على الناس . آمن ويكليف أن الكنيسة لا تلعب دوراً فى خلاص أرواح الأفراد ، فكنيسة الله الحقة ليست الكنيسة التى يرأسها البابا ولكن الكنيسة التى تتكون فقط ممن يقع اختيار الله عليهم . وحيث أننا نجهل مشيئة الله ومن اصطفاهم العلى القدير فإنه يستحيل علينا أن نعرف ما هى كنيسته على الأرض . وبالنظر إلى أن اختيار الله قد يقع على أناس عاديين من الشعب فإنه يصبح من حق بعض الأفراد من غير سلك الكهنوت أن يقوموا بأداء طقس التناول . وذهب ويكليف إلى أن الكتاب المقدس فقط هو قانون الكنيسة الأوحد . وأضاف أن أهمية التناول وفاعليته تعتمدان على صلاح القائم به . وإذا كان ويكليف هاجم القسس والأساقفة بشدة فإن هجومه على النساك والرهبان كان أشد وأعنف . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد أنكر فيما بعد عام ١٣٨٠ تحويل الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه وهو ما يعرف فى اللاهوت المسيحى

بالإيوخارست . وقد أسس رفضه اللاحق للايوخارست على أسس فلسفية .صحيح أنه اعترف بوجود المطهر ولكنه أنكر صكوك الغفران والقداديس المقامة على أرواح الموتى وعبادة القديسين والحج إلى بيت المقدس وتقديس آثار أولياء الله الصالحين ومخلفاتهم . دعا ويكليف إلى الإيمان القائم على الإخلاص الذكى وانتقد ممارسة الطقوس الشكلية التى رأى فيها تهديداً مباشراً لكنيسة الله . وبطبيعة الحال انعكست معتقداته على عظاته فجاءت خالية من الخرافات والمعجزات والإشارة إلى حياة القديسين . واعتمدت وعظاته اعتماداً كاملاً على الكتاب المقدس . والجدير بالذكر أن شانئيه من رجال الدين مثل أسقف لندن ورئيس أساقفة كانتربرى لم يستطيعوا أن ينالوا منه مأرباً فى حياته . وكان ذلك من حسن حظه فقد مكنه ذلك من أن يموت فى بيته فى هدوء وسكينة .

يرجع الفضل إلى ويكليف إلى ترجمة الكتاب المقدس من اللاتينية وهى لغة الكنيسة الكاثوليكية الرسمية إلى اللغة الشائعة بين عامة الإنجليز . وله عذره فقد كان حريصاً على أن يفهم تعاليم الإنجيل أكبرَ عدد من الناس . واستفاد من ترجمته بعض القساوسة ممن يجهلون اللغة اللاتينية . ناهيك بكثير من أفراد الشعب . واستطاع ويكليف أن يجتذب إليه عدداً غفيراً من الأتباع والمريدين ممن طافوا فى أرجاء البلاد يبشرون بكلمة الله باللغة التى يفهمها الناس . ولم يترك أتباعه مكاناً خالياً إلا بشروا فيه فألقوا مواعظهم داخل الكنائس وخارجها كالأسواق والأرض الفضاء . وكان أتباعه يلبسون زيا خاصاً يميزهم عن سائر الناس الأمر الذى سهل على الناس معرفتهم والإلتفاف حولهم ليستمعوا إلى هجومهم على مباذل الكنيسة ومفاسدها وإلى دروسهم بالعامية الإنجليزية وإلى الصلوات والوصايا العشر والخطايا السبع المميتة ومقتطفات من الكتاب المقدس وخاصة الأناجيل والرسائل . وفى مبدأ الأمر اجتذب ويكليف إليه نفراً من علية القوم ولكن تعاليمه سرعان ما انتشرت بين أفراد الشعب انتشار النار فى الهشيم فآمن بها كثير من الفقراء .والأخطر من كل هذا أن تعاليم ويكليف كانت السبب فى ظهور حركة لها شعبية كاسحة تعرف بحركة اللولارديين . واللولاردية التى سوف نعرض لها بشىء من التفصيل كلمة فى اللغة الإنجليزية القديمة المعروفة بالإنجليزية الوسطى قد تعنى « عدداً من الصلوات .» ورغم أن ويكليف لم يكن بحال من الأحوال ليرضى عن ثورية حركة اللولارديين لو امتد به الأجل ، فإنه بكل تأكيد مسئول بتعاليمه المتمردة على الكنيسة عن ظهور هذه الحركة المتطرفة . ومما بث الرعب فى قلب السلطات الإنجليزية المدنية والكنسية على حد سواء إندلاع ثورة تعرف بثورة الفلاحين عام ١٣٨١ وهى ثورة قامت لأسباب اقتصادية واجتماعية بحتة وهددت بالإطاحة بالنظام الحاكم . ورغم أن ويكليف حرص على انتقاد ثورة الفلاحين فقد تشككت السلطات فى أن تكون تعاليمه سبباً من أسباب اندلاعها . وزاد من حفيظة عدد كبير من الناس ضده انشقاقه الواضح وخروجه على كثير من المعتقدات الدينية الراسخة . حتى أولو الأمر الذين قاموا بحمايته من بطش أعدائه به آثروا أن يتخلوا عنه أمام غضب الجماهير منه . وفى عام ١٣٨١ انعقد مجمع فى اكسفورد لإدانة الكثير من تعاليمه . وفى العام التالى (١٣٨٢) اجتمع مجلس يعرف مجلس الزلزال فى بلاك فرايرز ليؤكد هذه الإدانة . وفى عام ١٣٨٣ رفع رئيس أساقفة كانتربرى

قضية ، ضد هذه التعاليم فى أكسفورد . وقبل أن نختتم الحديث عن ويكليف لا مناص لنا من أن نذكر (أولا) ما تعرضت له جثته من تمثيل وعظامه من حرق وإلقاء رمادها فى إحدى الترع (ثانيا) أن الرجل لعب دوراً بارزاً – شأن هوس – فى التمهيد لظهور حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا .

٢) اللولارديون The Lollards

قلنا إن اللولاردية قد تعنى عدداً من الصلوات فى إنجليزية القرون الوسطى ، غير أن بعض الباحثين يرى أنها مصطلح يعنى أصلاً « التمتمة » . وهو مصطلح استخدم بقصد الإهانة والتحقير . وكان هنرى كرامب أول من استخدم هذا المصطلح عام ١٣٨٢ فى الهجوم على أتباع ويكليف . والحقيقة أن ويكلف لم يؤسس الحركه اللولاردية ولكن الحقيقة أيضاً أنها ظهرت كما أسلفنا كنتيجة مباشرة لتعاليمه . وهى نموذج للأفكار الدينية غير التقليدية التى يستحدثها الفقهاء والعلماء عندما تنتقل إلى الرعاع وعامة الناس . ولما كانت فكرة ويكليف عن الإيوخارست معلماً مهما فى آرائه فإنه من الطبيعى أن يصبح حجر الزاوية فى معتقدات جماعة اللولارديين . غير أن الحركة اللولاردية تميزت بأنها حركة أخلاقية وعملية فى الجوهر والأساس تدعو إلى الحياة الفاضلة وممارسة الإحسان والتطوع بإعطاء العشور . ولا شك أن ترجمة ويكليف للكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية الدارجة أغرت كثيرين من العوام بالإنضواء تحت لواء الحركة اللولاردية والانضمام لكوادرها .

كانت الكنيسة على حق في خوفها من انتشار تعاليم ويكليف وأتباعه من اللولارديين . والجدير بالذكر أن هذه التعاليم ركزت على مباذل النظام الكنسى فى مبدأ الأمر دون أن تتعرض لمباذل طبقة النبلاء والملوك وأصحاب الثروات . غير أن الأمر سرعان ما تغير ، فقد تحول هجوم ويكليف واللولارديين العنيف على الكنيسه إلى نوع من الثورة المتأججة التى تهدد بالإطاحة بالنظام الاجتماعى القائم كله . أى أن طبقة النبلاء وأصحاب الثروات أصبحت فى نهاية المطاف هدفاً لهجوم اللولارديين عليها . وبعد أن كان ويكليف وأتباعه يقتصرون فى دعوتهم إلى المناداة بضرورة إحكام قبضة الدولة على الكنيسة أصبحوا أيضاً فيما بعد يضمرون للدولة عداء يماثل عداءهم للكنيسة .

وقد قام البابا جريجورى الحادى عشر بتحذير الملوك والأمراء من مغبة تعاليم ويكليف الذى دعا السلطة المدنية إلى إخضاع السلطة الكنسية لمشيئتها كما دعا إلى ضرورة تجريد البابا من حق طرد المسيحيين من الكنيسة لأن مثل هذا الحق ملك الله وحده . فالله وحده هو الذى يأمر بالطرد من الكنيسة كل من تسول له نفسه أن يضرب عرض الحائط بقوانيها ، وهذا الطرد الإلهى يحدث فى السماء عندما تذهب روح الإنسان إلى باريها . والجدير بالذكر أن ويكليف أرسل رسالة إلى البرلمان الإنجليزى فى ٧ مايو ١٩٨٢ يناشده فيها مقاومة البابا وتجريد البابا والكنيسة من ثرواتهما ومنع تعيين رجال الأكليروس فى الوظائف الحكومية . وفى اكسفورد طالب أعداء ويكليف فى فبراير عام

١٣٨٢ باتخاذ الإجراءات المناسبة لردع نيقولا هيرفورد أحد أبرز أتباع ويكليف . ويذكر فى هذا الشأن أن هيرفورد دعا فيما دعا إلى حرمان رجال الدين من الحصول على درجات علمية من الجامعة . وهى دعوة وجدت استحساناً لدى اللولارديين من أتباع ويكليف ومريديه . ومما شد من أزر اللولارديين فى اكسفورد أن رئيس الجامعة فيها ريتشارد ريج وهو رجل علمانى أظهر عطفاً على هذه الفكرة . ومما أثار حفيظة الكثيرين على هيرفورد أنه لم يهاجم الرهبان فحسب بل إنه أيد قتل الفلاحين المشتركين فى ثورة الفلاحين لسودبرى رئيس أساقفة كانتربرى آنذاك بحجة أنه كان يسعى إلى إنزال العقاب بويكليف .

وفى اكسفورد كان لويكليف مريد اسمه فيليب ربتون الذى آمن بكل ما دعا إليه أستاذه بشأن الايوخارست . وكان هناك أيضاً تلميذ آخر نابه الذكر اسمه جون أستون . ومما يذكر أن ويكليف واصل نشاطه التبشيرى حتى بعد تقاعده فى لاترورت ، الأمر الذى حفز نفراً من معارضيه للتصدى له ومقارعته الحجة بالحجة . ولكن هذا لم يؤثر فى أتباع ويكليف من اللولارديين أو يكسر شوكتهم التى قويت رغم المعارضة التى واجهتهم . ولهذا عقد رئيس أساقفة كانتربرى كورتناى ومساعده ستوكس العزم على سحقهم واستئصال شأفتهم . فجمعا سنودساً لهذا الغرض أدينت فيه أربعٌ وعشرون فقرة من تعاليم ويكليف المهرطقة أحياناً والمخطئة أحياناً أخرى . وبطبيعة الحال أخذ السنودس على ويكليف قوله إن الأيوخارست لا يحول الخبز إلى جسد المسيح وإنه أمر ينبغى فهمه على نحو رمزى . وبعد أن أفلح رئيس الأساقفة كورتناى فى إصدار إدانة شاملة لتعاليم ويكليف طلب من الملك قمع حركة اللولارديين المهرطقة . ولم يمر عام حتى خَوَل الملك رجال الأكليروس سلطة القبض على أتباع اللولاردية ووضعهم إما فى سجون الكنيسة أو سجون الملك حتى يرتدعوا ويرتدوا عن غيهم وضلالهم . وبعدئذ ركز كورتناى جل اهتمامه على اكسفورد حيث انتشرت أفكار ويكليف وأشياعه من اللولارديين ، وتأزمت الأمور فى جامعة أكسفورد عندما وقع اختيار رئيسها ريج على كل من هيرفورد وريبتون لإلقاء موعظة الجامعة . فقد انتهز كلاهما هذه الفرصة السانحة للدفاع عن تعاليم ويكليف . وأكد ريبتون فى الموعظة التى ألقاها أمام العمداء ورئيس الجامعة صحة الآراء التى ينادى بها ويكليف وخاصة تلك التى تتصل بالأيوخارست وضرورة خضوع السلطة الكنسية للسلطة الزمنية . وذكر أيضاً أن اللولارديين يتمتعون بتأييد الدوق جون أوجونت وحمايته وهو الأمر الذى لم تتأكد صحته . ويبدو أن رئيس الجامعة كان يبتسم ابتسامة الرضا وهو يستمع إلى وعظة ريبتون بتحمس ظاهر واهتمام واضح الأمر الذى استقبله اللولارديون بالغبطة والسرور . ونما هذا إلى علم رئاسة الأساقفة التى يبدو أنها استدعت ريج رئيس الجامعة فى مقرها فى كانتربرى . وبالفعل ذهب ريج لمقابلة المسئولين فى رئاسة الأساقفة . واجتمع سنودس آخر ليوجه إلى ريج سبعة اتهامات منها أنه كان يسعى إلى إدخال الراحة والطمأنينة فى نفوس اللولارديين . وحاول ريج المقاومة ولكنه ما لبث أن انهار وجثا على ركبتيه طالباً العفو والسماح من

رئيس الأساقفة الذى وافق بعد تدخل بعض الوسطاء على ذلك . غير أنه أصدر إلى رئيس الجامعة أمراً بمنع ويكليف وهيرفورد وريبتون وأستون وبيدمان من التبشير حتى ينبذوا هرطقاتهم . واضطر رئيس الجامعة إلى الإمتثال لرغبة رئيس الأساقفة ، والأمر الذى أحدث المزيد من الإنشقاق فى صفوف الجامعة احتدام النزاع بين العلمانيين والعناصر الكنسية . ومن ناحيتهما رفض هيرفورد وريبتون قرار رئيس الجامعة بخطر نشاطهم التبشيرى فالتجأوا إلى الدوق جونت أملا فى أن يساندهم ضد رجال الدين فى أكسفورد . وكون رجال الدين جبهة قوية وذهبوا لإقناع الدوق بوجهة نظرهم فأيدهم فيما يذهبون إليه وأعلن أن آراء اللولارديين كريهة ومقيتة .

كان هذا نقطة تحول فى حياتهم إذ صاروا بلا حماية بعد أن تخلى الدوق جونت عنهم فاضطروا صاغرين للمثول أمام رئيس أساقفة كانتربرى الذى لفت انتباههم إلى الأربع وعشرين نقطة فى تعاليمهم التى دمغت بالإدانة . وطلب كل من هيرفورد وريبتون من رئيس الأساقفة أن يمهلهما لمدة يوم واحد حتى يتدبرا الأمر . وعندما ووجه استون بهذه النقاط الخارجة عن صحيح الدين التزم الحياد الذى لا يلزمه بالتخلى زملاؤه . فأمره رئيس الأساقفة بالإمتناع عن الوعظ والتبشير فى أرجاء منطقة كانتربرى . وحين مثل كل من هيرفورد وريبتون أمام رئيس الأساقفة وجد كورتناى رغم اعترافهما بما تنطوى عليه الأربع وعشرون فقرة فى كتابات ويكليف من هرطقة أن إجابتهما معقدة وتحتاج إلى إجراء مزيد من التحقيقات بشأنها . وأدى المزيد من التحقيقات إلى اعترافهما بهرطقة النقاط الخاصة بالتناول ورفضهما للحرمان الكنسى وسلوك الزاهدين والنساك المسيحيين مسلك الشحاذين . ولما جاء دور التحقيق مع آستون واجهه رئيس الأساقفة بتهمة إضافية مفادها أنه اشترك مع هيرفورد فى توزيع نسخ من كتاب يحتوى على آرائهما المهرطقة بشأن الأيوخارست بين سكان لندن . واتسمت ردود آستون بالقحة والمراوغة فأمر رئيس الأساقفة بحبسه على الفور . وتصدى القساوسة لتنفيذ آرائه حول التناول .

وأراد رئيس الأساقفة أن يتفادى الشغب الذى يندلع وينتشر فأمر بنقل التحقيق إلى أكسفورد أولاً ثم كانتربرى بعد ذلك . وفى اكسفورد انضم إلى المهرطقين هيرفورد وريبتون مهرطق ثالث يدعى توماس هيلمان من كلية ميرتون . غير أن هيلمان الذى مثل أمام رئيس أساقفة كانتربرى تراجع عن سابق أقواله ومعتقداته فعفا عنه رئيس الأساقفة وبرأه ، من الاتهامات الموجهة ضده . وأصدر رئيس الأساقفة أمراً بحرمان كل من هيرفورد وريبتون من الكنيسة بتهمة شق عصا الطاعة عليها . وناشد المتهمان البابا التدخل فأكد رئيس الأساقفة توقيع العقوبة عليهما وأرسل مندوبيه إلى أكسفورد وكل مكان للقبض عليهما . أضف إلى ذلك أن ملك إنجلترا أصدر أوامره إلى جامعة أكسفورد بالتحقيق فى هرطقات وأخطاء ويكليف وهيرفورد وريبتون وآستون فى غضون أسبوع واحد بحيث يتم طرد أعوانهم ومصادرة كتابات كل من ويكليف وهيرفورد وعرض الأمر على رئيس الأساقفة . ولم تمر بضعة شهور حتى كان ريبتون وأستون ومدسان (واسمه الحقيقى لورانس ستيفن) قد بادروا بالإمتثال

لمشيئة رئيس أساقفة كانتربرى . وكان بدمان أول من بادر بالخضوع والإمتثال فنال بذلك عفو رئيس الأساقفة عنه . أما ريبتون فقد تراجع أمام رئيس الأساقفة ومجمعه المنعقد فى بلاك فرايرز فتم إرجاعه إلى عمله فى أكسفورد . وحذا أستون حذو زملائه فأعلن عن تراجعه عن آرائه . . بهذا أحرز كورتناى رئيس الأساقفة نصراً كاسحاً على أنصار ويكليف من اللولارديين . ولم تكتف السلطة الكنسية بهذا الانتصار الساحق فأمرت بتشكيل لجنة تهدف إلى إجراء تحقيق شامل مع جميع العاملين بجامعة أكسفورد للتأكد من ابتعادهم عن الفكر اللولاردى المهرطق . وانتهت هذه الحملة بتطهير أكسفورد من كل آثار الهرطقة اللولاردية . وساعد على ذلك انخراط بعض أعلام هذه الهرطقة فى سلك الكهنوت وأعتلاؤهم أعلى المناصب فيه مثل المهرطق السابق ريبتون . ولكن أستون مالبث أن عاد إلى سابق هرطقته بسبب طبيعته القلقة . ومما يدل على عنف الهجوم على الهراطقة كما حدث لهنرى كرمب الذى اتهمته إيرلندا بالهرطقة بسبب انتقاده للرهبان الإيرلنديين . وانتهى الأمر بأن غادر هنرى كرمب إيرلندا وتوجه إلى أكسفورد بحثاً عن الأمان . ولكن رئيس أساقفة كانتربرى ما برح يلاحقه واستدعاه للمثول أمامه وأمام مجمع ستانفورد الذى طلب إليه التراجع عن هرطقته . والغريب أن كرمب لم يكن فى يوم من الأيام ينتمى إلى طائفة المهرطقين اللولارديين .

ورغم اندحار الهرطقة اللولاردية فى جامعة أكسفورد اندحاراً كاملاً فقد تعرضت هذه الجامعة عام ١٤١١ لأزمة عاصفة بسبب لا علاقة له بالهرطقة بل بامتيازات أعضاء هيئة التدريس . وترجع هذه الأزمة إلى عام ١٣٩٥ عندما استجاب البابا بونيفاس التاسع إلى طلب أعضاء هيئة تدريس جامعة أكسفورد فوافق على استثنائهم من الخضوع لسلطة رئيس أساقفة كانتربرى . وكان ذلك فى عهد رئيس الأساقفة الجديد أروندل الذى خلف كورتناى . واستاء أروندل لهذا الاستثناء استياء شديداً فعقد مجمعاً دعا إليه بعض المندوبين عن الجامعة . واستنكر هذا المجمع استثناء بونيفاس التاسع أعضاء هيئة التدريس بجامعة اكسفورد من الخضوع للسلطة الكنسية . ولكن الأساتذة كانوا حريصين على الاستمساك بانجازهم الجديد فرفضوا قرارات المجمع الذى عقده أروندل . فشكا أروندل للملك الذى أيده فى شكواه وأصدر مرسوماً ملكياً بأن يتخلى أعضاء هيئة التدريس عن هذا الامتياز الجديد وهددهم بتجريدهم من جميع امتيازاتهم الأخرى إذا لم يمتثلوا إلى ذلك .

ولكن اللولاردية عادت لتطل برأسها من جديد وانتشرت بين الناس ظاهرة ممارسة الوعظ والتبشير دون استئذان السلطة الكنسية . وأراد أرو ندل عام ١٤٠٧ أن يتصدى لهذه الظاهرة فعقد مجمعاً محلياً فى اكسفورد فى نوفمبر ١٤٠٧ بهدف وضع حد لهذه الظاهرة المتفشية ثم مجمعاً آخر فى كنيسة القديس بولس عام ١٤٠٨ .

وفى المجمع الأول استصدر أروندل مجموعة من القوانين الكنسية التى تحظر الوعظ دون إذن كما تحظر قراءة وتدريس مؤلفات ويكليف كافة حتى يقوم بفحصها وإقرارها مالا يقل عن اثنى عشر

أستاذاً فى جامعتى أكسفورد وكامبرديدج توطئة لموافقة رئيس الأساقفة عليها . وأيضاً حظر المجمع المشار إليه ترجمة الإنجيل إلى اللغة الإنجليزية دون الحصول على إذن من الجهات الدينية المختصة . والأدهى من هذا كله أن أحد القوانين الدينية التى استنها أروندل تنص على ضرورة إجراء فحص شهرى لاختبار جميع عمداء الكليات وبيوت الطلبة وقاعات الوعظ والدرس بهدف اكتشاف مظاهر الهرطقة واتخاذ الإجراءات الكفيلة بردعها . ولاشك أن هذه الرقابة المشددة تركت أثرها السلبى فى حرية الرأى بجامعة أكسفورد . هذه الرقابة على هذه الجامعة ليست جديدة على أية حال ، فهى ترجع فى الواقع إلى عام ١٢٧٧ . وانتهت هذه الرقابة التى فرضها أروندل إلى حظر مؤلفات ويكليف وهيرفورد فى كل الأحيان ومؤلفات بيرفى وأستون فى بعض الأحيان . وأدى فحص مؤلفات ويكليف إلى إدانة عدد أكبر من آرائه كما سبق فقد ارتفع عدد الفقرات التى أدينت إلى ٢٦٧ فقرة ناهيك بما تركته هذه الفحوص والتحقيقات من تكبيل لحرية الرأى فى جامعة أكسفورد .

ورغم تشديد النكير فى جامعة أكسفورد على كل فكر دينى مشتبه فى هرطقته فإن الهرطقة لم تمت أو تندثر كما يبدو فى ظاهر الأمر . ففى عام ١٣٩٥ أصدر الملك مرسوماً ملكياً بطرد اللولارديين بزعامة ليتشلاد . غير أن هذا المرسوم الملكى لم يحل دون أن يلقى وليم تيلور عميد أحدى كليات جامعة أكسفورد عام ١٤٠٦ موعظة فى كنيسة صليب القديس بولس يهاجم فيها احتفاظ رجال الاكليروس بأية ممتلكات دنيوية ودافع عن حق الحكام المدنيين فى تجريدهم من ممتلكاتهم إذا اقتضت الضرورة .

وفى العام نفسه ثارت فضيحة فحواها أن رجلاً يدعى بيتر بين كتب تقريظا لويكليف ونسبه إلى الجامعة وختمه بخاتمها ثم أرسله إلى براغ . والجدير بالذكر أنه رغم إيمان هذا الرجل باللولاردية فقد استطاع أن يرقى إلى أعلى المناصب الجامعية قبل أن يفر هارباً عام ١٤١٣ من انجلترا . وبطبيعة الحال أثارت هذه الأحداث حفيظة رئيس الأساقفة أروندل كما زادت من شكوكه وشبهاته فى أعضاء هيئة التدريس بجامعة أكسفورد . ولهذا سعى ما وسعه السعى إلى اخضاعهم خضوعاً كاملاً لسلطة الكنيسة مثلما فعل سلفه كورتناى من قبل . ولكن الجامعة أظهرت مقاومة عنيفة منذ البداية ، الأمر الذى أدى إلى تأخر تعيين لجنة فحص مؤلفات ويكليف المكونة من اثنى عشر أستاذاً حتى عام ١٤٠٩ . ولم تجد هذه اللجنة تعاوناً من الكليات وأعضاء هيئة التدريس لدرجة أن أحد العمداء واسمه جون بيرتش حاول ايقافها عن العمل . ومما زاد الطينة بلة أن تهمة الهرطقة وجهت إلى أحد أعضاء اللجنة الاثنى عشر واسمه ريتشارد فلمنج الذى تظلم للملك من عسف أروندل معه . وأمر الملك بتشكيل لجنة مصغرة مكونة من ثمانية أعضاء للتحقيق فى الأمر . وانتهت هذه اللجنة المصغرة إلى براءة فليمنج من التهم الموجهة إليه .

وفى عام ١٤١١ قامت اللجنة المكونة من اثنى عشر عضواً بفحص مؤلفات ويكليف وإعداد قائمة بأخطائه الدينية بلغ عددها ٢٦٧ خطأ وأرسلت هذه القائمة إلى أروندل رئيس أساقفة كانتربرى

وإلى مجمع كانتربرى ، ثم دفعت هذه القائمة إلى البابا الذى استصدرقرارا بحظر كتابات ويكليف فى مجلس لاتيران المنعقد فى فبراير عام ١٤١٣ . ومن المعتقد أن مولفات ويكليف تعرضت للحرق فى أكسفورد قبل ذلك عام ١٤١٠ .

وحتى يتمكن أروندل من وضع قرار الحظر موضع التنفيذ قام بتكليف خمسة أعضاء من الجامعة ممن أقسموا قسم الولاء له كى يتولوا تنفيذ ما جاء بقرار الحظر . فاعترضت الجامعة على هذا التدخل السافر فى شئونها واحتجت لدى الملك وهددت من جانبها بطرد رئيس أساقفة كانتربرى لأنه حنث بقسمه الولاء للجامعة التى هو عضو فيها . ولكن هذا التهديد لم يثن رئيس أساقفة كانتربرى عن عزمه على اقتحام كنيسة سانت مارى بالجامعة وكسر بابها لأن الأساتذة أوصدوه كى يمنعوه من الدخول . عندئذ تدخل الملك لفض هذا النزاع فأمر جميع الأطراف المتنازعة للمثول فى حضرته وكتب الملك إلى البابا يوحنا الثالث العشر يطلب منه إلغاء المرسوم الذى سبق أن أصدره بونيفاس التاسع والقاضى باستثناء أساتذة جامعة أكسفورد من الخضوع لسلطان رئيس أساقفة كانتربرى . وبالفعل استجاب البابا له فاضطر الأساتذة المتمردون إلى الاذعان والانصياع لرئيس أساقفة كانتربرى باعتباره ممثلاً للسلطة الدينية . وهكذا انهارت مقاومة الجامعة ضد السيطرة الكنسية . وبذلك يكون أروندل قد حذا حذو سلفه كورتناى فى سحق معارضة جامعة أكسفورد له مع فرق جوهرى واحد هو أن أروندل توهم وجود مهرطقين فى صحن الجامعة ، فى حين أن سلفه كان يقاوم بالفعل مهرطقين حقيقيين من اللولارديين من أشياع ويكليف . وقد كان لسياسة أروندل القمعية أوخم النتائج فى خنق نمو الأفكار الفلسفية فى جامعة أكسفورد فى القرن الخامس عشر . والجدير بالذكر أن أسلوب أروندل القمعى نجح فى الظاهر فقط فى القضاء على مولفات ويكليف إذ ظلت هذه المؤلفات تقرأ فى الخفاء وتدرس فى السر .

***

عرضنا فيما سبق لنشأة وترعرع الويكليفية واللولاردية فى جامعة أكسفورد ولإزدهارها فى طبقة بلغت من التعليم شأوا عظيماً . والجدير بالذكر أن خطرهما اقتصر على مجال الفكر . ولهذا تصدى للهجوم عليهما لاهوتيون كبار أمثال وودفورد ونيتر . ولكن أروندل استطاع القضاء عليهما عام ١٣٨٢ بين المثقفين والمتعلمين . غير أن ذلك لم يفلح قط فى استئصالهما بين عامة الناس ، فقد انتشرت فى القرن الخامس عشر حركة لولاردية شعبية سرية لا يستطيع الدارسون تقدير حجمها على النحو الصحيح ، فمنهم من قدر أعضاءها بعشرات الآلاف من التابعين . ومنهم من يرى أن حجمها لم يزد على مائتين أو ثلثمائة شخص . وعلى أية حال فإنها شبيهة بهرطقة الروح الحرة فى افتقارها إلى أى تنظيم محكم . وقد تركز انتشار الحركة اللولاردية فى إنجلترا فى منطقة الميدلاندز وأسقفيتى ورستر وهيرفورد . واللافت للنظر فى المنتمين إلى هذه الحركة أن أعضاءها كانوا من الأميين أو أشباههم مثل وليم سويندر بى .

وسعت الحركة اللولاردية الشعبية السرية إلى الإطاحة بالنظام الهرمى الذى انبنت عليه الكنيسة الكاثوليكية وإلى استخدام العنف للإطاحة به وإحلاله بنظام روحى نقى وطاهر يشبه حياة المسيح على الأرض . وهناك وشائج قربى كثيرة تربط بين المبادىء التى أرسى ويكليف قواعدها والأفكار التى سيطرت على عقول اللولارديين مثل اعتبار البابا العدو الأكبر للمسح وأنه ليس من حقه إصدار صكوك غفران أو قرارات طرد من الكنيسة ، كما أن نظام اعتراف الخاطىء للقسيس نظام باطل إذ يكفى ندمه على ما اقترفه من ذنب . وكذلك أخذت اللولاردية الشعبية عن ويكليف رفضه أداء رجال الدين لوظائفهم من أجل المال وشغلهم للوظائف المدنية . وطالبت اللولاردية بأن يعيش رجال الكنيسة على المشاع وأن يتخلوا عن ممتلكاتهم والإمتناع عن دفع العشور للقساوسة السيئين وأيضاً الإمتناع عن إقامة الشعائر الدينية المعقدة واستخدام الموسيقى الكنسية والمغالاة فى عبادة القديسين وتقديس الصور والتماثيل . ونادت اللولاردية الشعبية بعدم صلاحية القساوسة السيئين فى ممارسة التناول . والأهم من هذا كله أن اللولارديين قالوا إن خبز التناول لايتحول إلى جسد المسيح . ولكن هذا لا يعنى أن تعاليم اللولاردية كانت تطابق تعاليم ويكليف مطابقة كاملة . فقد كان اللولارديون أعنف وأشد من ويكليف فى هجومهم على الاحتفال بأعياد القديسين واستنكار عبادة الصور والتماثيل . والأهم من هذا وذاك أن اللولارديين لم يهتموا فى قليل أو كثير بالجانب النظرى واللاهوتى فى تفكير ويكليف ، فقد كانت اهتماماتهم فوق كل شىء وقبل كل شىء اهتمامات أخلاقية وليست لاهوتية . وباستثناء فكرتهم عن الإيوخارست فإن اللولارديين ينأون بأنفسهم عن الخوض فى الأمور اللاهوتية . وهم يجمعون بين الروح القتالية وتأكيد الروحانية فى الأفراد بطريقة تذكرنا بجماعة مهرطقة أخرى تعرف بجماعة الوالديسيين . وهم يذهبون إلى أن المكان لا يقلل أو يزيد من قيمة الصلاة فالإنسان بطهارته ونقاوته يقدس المكان ولكن المكان الدنس يعجز عن تقديس الإنسان . وينطوى هذا الرأى على هجوم على الكنائس وإقامة الصلاة فيها . فالكنائس فى نظرهم أصبحت أوكاراً للصوص . واللولاردية لا تتسم بالسعى إلى شفافية المتصوفين ، بل إلى تعميق إحساس الفرد الأخلاقى بمسئوليته تجاه الله بعيداً عن الاستغراق فى حياة الفكر والتأمل .

ليس من سبيل إلى انكار الدور الذى لعبه بيرفى فى نشر الفكر اللولاردى . فبالرغم من تأثره الواضح بمعلمه ويكليف فإنه تجاوز أفكار أستاذه بأن حولها إلى حركة احتجاج : فضلا عن نشره أفكار ويكليف باللغة الإنجليزية على أوسع نطاق . استقر بيرفى فى مدينة بريستول حيث أصبح واعظاً لولارديا يشار له بالبنان ، وأخذ يجوب اسقفيات هيرفورد وورستر كى يبشر لابسا رداء الناس العاديين . غير أن أسقف ورستر أمر بحظر وعظاته فى أغسطس عام ١٣٨٧ وهو العام نفسه الذي تم فيه إدانة لولارديين آخرين أمثال أستون وهيرفورد وجون باركر وسويندبرى . وبعد ذلك قام الملك بتشكيل لجنتين فى عامى ١٣٨٨ و١٣٩٨ بغرض مصادرة كتاباتهم وكتابات ويكليف . غير أن بيرفى ظل طليقاً لفترة اثنى عشر عاماً . وعند القبض عليه كان قانون معاقبة المهرطقين قد ظهر لتوه .

وهو القانون الذى أحرق بمقتضاه وليم سوبرى من لين فى نور فولك . ويعاقب هذا القانون من سبق اتهامه بالهرطقة ثم عاد إليها . وهذا القانون لم يطبق عليه لأنه لم يسبق القبض عليه بتهمة الهرطقة . ومن الواضح أن بيرفى خشى على نفسه من أن توقع عليه عقوبة الحرق فى المستقبل فآثر أن يرعوى وينبذ طريق الهرطقة وأن يقضى بقية حياته فى كنف الكنيسة فى مقاطعة كنت .

وفى فترة انشقاقه وهرطقته تأثر بيرفى بالغ التأثر بمعتقدات ويكليف فضلا عن أنه تجاوز هذه المعتقدات مظهراً شططا يفوق ما أظهره ويكليف من شطط . وهو لم يعتبر خبز التناول مجرد خبز فحسب بل أنه دان قرار مجتمع لاتيران الرابع القاضى بتوبة الخطاة عن طريق ما يعرف فى الكنيسة الكاثوليكية باسم الإعتراف المسموع وهو اعتراف يدلى به المعترف من وراء ساتر . واعتبر بيرفى مثل هذا الإعتراف ضرباً من الهرطقة . ولعل أخطر مظاهر إنشقاقه هو تأكيده لما سبق أن ذهب إليه ويكليف من أن الوظائف الكنسية ليس لها صفة القداسة ابتداء من البابا حتى أصغر قسيس : فالعبرة فى هذه الوظائف هو أن تتوفر فى من يشغلها طهارة الذيل . ولهذا فإن العلمانى الطاهر الذيل يحق له أن يمارس أعمال القساوسة مثل التعميد والتبشير وعقد الزواج . وإذا كان ويكليف قد أظهر شيئاً من الإعتدال فى التعبير عن آرائه فإن بيرفى أخذ هذه الآراء ثم اشتط فى تقنينها وتأكيدها فضلا عن أنه فاق ويكليف فى حدة عدائه للبابا ؛ فقد حث بيرفى المسيحيين على التمرد السافر فى وجه البابا وعصيانه إذا وجدوا أنه ينحرف عن الإنجيل وعن جادة الطريق . وأضاف بيرفى أنه يمكن الاستغناء عن الأيوخارست والتناول الأخير . وفى عدائه لطائفة الأكليروس ذهب بيرفى إلى أن للملك وليس الكنيسة مطلق السيادة على الأكليروس . بل ذهب إلى أنه من حقه أن يلغى قوانين الكنيسة إذا رأى أنها لا تطيع المسيح وأن يعين القساوسة ويعزلهم ويحاكمهم . وقال بيرفى إن الأساقفة الذين يزعمون أنه لهم حق الولاية على الشعب إنما يخونون الملك والكتاب المقدس معاً . ولهذا السبب اعتبر بيرفى بونيفاس الثامن خائناً . ونادى بيرفى كذلك بحق الحكام المدنيين فى القبض على الكرادلة والزج بهم فى السجن إذا أتوا بأفعال كالزنا وشراء الوظائف الكهنوتية وبيعها أو التجديف على الكتاب .

قام بيرفى بوضع خطة مبدئية لتجريد رجال الأكليروس من ممتلكاتهم . وأصبحت هذه الخطة الأساس الذى بنى عليه التماس عن هذا الموضوع نفسه قدم إلى البرلمان الإنجليزى عام ١٤١٠ . ويذكر بيرفى فى هذا الشأن أن مصادرة كل الممتلكات الكنسية سوف تؤدى إلى خلق ١٥ مقاطعة جديدة يحكمها ١٥ إيرل وإيجاد ١٥ ألف فارس وتوفير عشرين ألف جنيه فى خزانة الملك . فضلا عن إنشاء خمسة عشرة جامعة جديدة وتعيين ١٥ ألف قسيس جديد بدلا من القساوسة الذين صودرت أموالهم وكذلك إقامة مائة بيت للإحسان . وما من شك أن ذلك كان بمثابة طعم قدمه بيرفى لطبقة النبلاء حتى تستمسك بحقها فى فرض سيطرتها على الكنيسة وممتلكاتها . وأضاف بيرفى أن رجال الكنيسة ينبغى أن يقتدوا بحياة المسيح القائمة على العوز والفقر .

إن آراء بيرفى التى تحرص على الإحتجاج الأخلاقى والسلوك الحميد تعكس تعاليم ويكليف . فالقدوة والتقوى والصلاح - وليس التنظير اللاهوتى - هو أهم ما تميز به إنشقاق بيرفى . ثم إنه طور رأى ويكليف فى الإختيار الإلهى لأنقياء القلب كى يتولوا شئون كنيسته إلى نظرية كاملة بضرورة خضوع الكنيسة للسلطة المدنية . ويمثل بيرفى أحسن نموذج على تطور مذهب ويكليف إلى المذهب اللولاردى . ولكن لا مناص من الإعتراف بأن لولاردية بيرفى لم تكن كاملة ، فعلى سبيل المثال لم يكن بيرفى يشارك اللولارديين معارضتهم لمبدأ عبادة الصور والتماثيل .

ويعتبر وليم سويندر بى أعظم وأنشط مبشر باللولاردية . وفى عام ١٣٨٢ اعترف سويندربى أمام باكنجهام أسقف لينكولن بارتكاب أحد عشر خطأ . ولكن سويندربى سرعان ما عاد إلى سابق انشقاقه فقد قبض عليه مرة أخرى بعد مرور تسعة أعوام ليعاد اتهامة بالهرطقة . فقد ذهب إلى أن تعميد الأطفال يصبح لاغياً إذا كان ذووهم أو القسيس الذى عمدهم ارتكب خطيئة مميتة : والرأى عنده أن ارتكاب القسيس للشر يجعله غير مؤهل لشغل هذه الوظيفة المقدسة وأن الندم الذى يبديه الخاطىء أهم من مغفرة القسيس لخطيئة . وكذلك هاجم سويندربى رجال الدين لتقاضيهم الرواتب نظير خدماتهم الكهنوتية فهم أجدر بالطرد من الكنيسة من أى شخص آخر . ويضيف سويندربى أنه لا يصح أن يمارس طقس التناول أى قسيس ارتكب وزرا مميتا ، ويتهم كل القساوسة بدخول البيوت بقصد غواية نسائها . وقد هاجم بعض اللولارديين الآخرين أمثال ريتشارد ويتشن الرهبان لممارستهم حياة العوز والشحاذة وذهب إلى أن التناول يمكن أن يتم على يد طفل أو على يد أى كاهن مهما انخفضت رتبته الكهنوتية .

ويعتبر وليم سوترى أول اللولارديين الذى لقى حتفه حرقاً عام ١٤٠١ فى أعقاب استنان قانون جديد للهرطقة . عارض سوترى عبادة الصليب وآثار الأولياء وقال إن الوعظ والتبشير أهم واجبات رجال الدين وهاجم الحج إلى بيت المقدس فى أورشليم . وأيضاً ذهب سوترى إلى أن التناول لا يحيل الخبز إلى جسد المسيح الأمر الذى جعل أروندل رئيس أساقفة كانتربرى يجرى تحقيقاً معه دون أدنى طائل . وفى عام ١٣٩٥ تبلور الجانب السياسى من اللولاردية فى هيئة ورقة تتضمن اثنتي عشرة نقطة . وكان من المعتقد فى الماضى أن اللولارديين قدموا هذه الورقة كالتماس إلى البرلمان . ولكن اتضح بعد الدراسة والاستقصاء أن هذه النقاط لم تقدم إلى البرلمان ولكنها علقت على أبواب وستمنقر أبى وكنيسة القديس بولس فى الوقت نفسه الذى كان فيه البرلمان مجتمعاً . وكما هو متوقع تضمنت الورقة المشار إليها هجوماً على امتلاك الكنيسة للأموال والثروات وعلى مذهب الأيوخارست والحج إلى بيت المقدس وعبادة الصور والتماثيل وعلى الإعتراف الشفوى ، كما تضمنت مناشدة للملك كى يصلح من شأن الكنيسة . فضلا عن أن الورقة تضمنت نقاطاً أخرى غير مألوفة مثل رفض البسملة على الماء والخبز وإدانة الحرب وعقوبة الإعدام لأسباب دنيوية كما عارضت الورقة قسم النساء بأن يتبتلن ويعشن حياة الطهر والعفاف . وكذلك هاجمت الورقة صنع

المشغولات الذهبية والأسلحة باعتبار أنه يشجع على ارتكاب المعاصى . وجميع هذه النقاط الآنفة الذكر ليست سوى تلخيص للمذهب اللولاردى .

وهناك ضحية أخرى بين أتباع اللولاردية هى الأستاذ الأكاديمى وليم تيلور الذى أعدم حرقاً عام ١٤٢٣ بتهمة اللولاردية . ومن الواضح أن اللولاردية كانت فى جوهرها حركة تدعو إلى النقاء الروحى وإصلاح ما فسد فى الكنيسة . وتطلعت الحركة اللولاردية إلى مناصرة الحكام والسلطة المدنية لها . ولكن الحركة سرعان ما فقدت ثقتها فى كل من الكنيسة والسلطة المدنية وبذلك تحولت إلى معول لهدم الكنيسة والدولة معاً . فأصبح من الضرورى اضطهادها والتصدى لها .

والحقيقة أن اضطهاد أتباع المذهب اللولاردى بدأ حتى قبل أن يقوم كورتناى رئيس أساقفة كانتربري بإدانة هذا المذهب فى مجمع البلاك فرايرز المنعقد عام ١٣٨٢ . ففى مارس من هذا العام نفسه قام جون باكنجهام أسقف لينكولن باتخاذ الإجراءات ضد اللولاردى سويندر بى الذى نجح فى تكوين حركة لولاردية قوية فى مدينة ليستر . وخشى باكنجهام من مغبة هذه الحركة فأصدر فى ٥ مارس ١٣٨٢ أمرا بمنع سويندربى من الوعظ والتبشير . غير أن سويندربى لم يبال بقرار الحظر . فبالرغم من إغلاق أبواب الكنائس فى وجهه استمر سويندبرى فى وعظه فى العراء والأسواق واجتذب إليه عدداً غفيراً من المريدين والأنصار فى مناطق فى الميدلاندز غير ليستر . ولم تحاول السلطات المدنية فى الميدلاندز منعه ومنع رفاقه اللولارديين من التبشير . وفى يونيه ١٣٨٢ مثل أمام المحققين معه بشأن انتهاكاته الدينية . وأرغم على التراجع ونبذ هرطقته . غير أن الرجل ما لبث أن عاد إلى سابق هرطقته وانتقل إلى كوفنترى حيث ظل يبشر باللولاردية فاضطرته السلطات الكنسية إلى مغادرة المنطقة إلى سيفرن فى الغرب حيث تبعه آستون وعدد من اللولارديين ليجدوا فى أسقفيات ورستر وهيرفورد وجنوب ويلز مرتعا خصباً لنشر هرطقاتهم . وفى عام ١٣٨٥ تمكن هيرفورد من الهرب من سجنه فى روما حيث فر من إنجلترا أملاً فى أن يحميه البابا من الاضطهاد . ولكن أمله خاب عندما أمر البابا بالزج به فى السجن . وبعد نجاحه فى الهرب تمكن هيرفورد من اللحاق بركب سويندربى وأقرانه من اللولارديين .

أما بيرفى فقد توجه إلى مدينة بريستول حيث جعل منها مركز إشعاع ونشاط للحركة اللولاردية . وفى عام ١٣٨٧ تنبه هنرى واكفلد أسقف ورستر إلى دعوته لنشر أفكار ويكليف الهرطوقية فبادر في العاشر من أغسطس من هذا العام إلى منع سويندربى وأستون وهيرفى وبيرفى وجون باركر من ممارسة التبشير . وفى الفترة بين عامى ١٣٨٨ و ١٣٨٩ أنشأ الملك لجاناً ملكية للقضاء على مؤلفات ويكليف وهيرفورد وأستون وميرفى فى كل من يورك ونونتجهام وورستر ولستر وسالزبرى ولنكولن . وفى عام ١٣٨٧ ألقى القبض على هيرفورد فى نونتجهام وتم تسليمه إلى كورتناى رئيس أساقفة كانتربرى . وفى ظل حماية الملك له تراجع هيرفورد نحو ديسمبر ١٣٩١ عن انشقاقه وأصبح واحدا من أبرز أعوان رئيس الأساقفة . وفى عام ١٣٩٤ تم تعيينه رئيساً

لكاتدرائية هيرفورد واستمر يحظى برضاء الملكين ريتشارد الثانى وهنرى الرابع عليه حتى وفاته عام ١٤١٧ . أما سويندربى فقد ظل مطلق السراح حتى عام ١٣٩٤ رغم اتيانه بأفعال استفزازية وتحرشية . وفى يونيه من هذا العام استدعاه الأسقف للمثول أمامه فى كنيسة بود نهام ليرد على الاتهامات الموجهة ضده . وأعطاه الأسقف الأمان حتى يضمن حضوره . ويتلخص جانب من الاتهامات الموجهة ضده فى عودته إلى سابق هرطقته رغم نبذه لها فى لنكولن عام ١٣٨٢ . واضطلع سويندربى بتبرير موقفه وشرح وجهة نظره . ثم ترك رداً مكتوباً وغادر المكان دون أن يتعرض له أحد وقال فيما قال إنه اعترف بخطئه أمام الرهبان خوفاً من أن يقوموا بحرقه . وأضاف إلى هرطقاته السابقة مجموعة أخرى من الهرطقات الجديدة . ووجهت السلطة الكنسية للمرة الثانية تهمة الهرطقة ضد سويندربى الذى ظهر ليكتب خطاباً يعتذر فيه عن انشقاقه ليعود إلى الإختفاء . وأصدرت السلطة الدينية أمراً بطرده من الكنيسة . ومن ناحيته سعى سويندربى إلى استعداء النبلاء والبرلمان ضد الكنيسة دون جدوى . وقد ظل سويندربى طليقاً حتى أيامه الأخيرة يكرس وقته لدعوة الناس إلى اعتناق اللولاردية فى كل مكان يحل فيه . ومن المحتمل أن يكون اللولاردى جون أولد كاستل أحد الذين تأثروا به ووقعوا تحت نفوذه . والجدير بالذكر أن سويندربى حول اللولاردية إلى حركة شعبية بعد أن كانت على يد ويكليف ومريديه من أساتذة جامعة أكسفورد مجرد مذهب لاهوتى وأكاديمى . ويعتبر والتر بروت من أبرز اللولارديين الذين ظهروا فى منطقة هيرفورد . ولكنه تراجع عن آرائه ونبذها بعد أن وجهت إليه السلطة الكنسية تهمة الهرطقة . والمناداة بصلاحية المرأة لأداء طقس الأيوخارست وأن القربان لا يحمل جسد المسيح وأن أداء العشور مسألة تطوعية وأن البابا عدو الله . وتصدى بروت للدفاع عن هرطقات سويندربى كافة واستفاض فى شرحها فتورط فى المزيد من الهرطقات . ويعرض هرطقات بروت على عدد من أساتذة اللاهوت بجامعة كامبردج تبين لهؤلاء الأساتذة فى ٣ أكتوبر ١٣٩٣ أن سبعة وثلاثين رأياً من آرائه تستوجب الإدانة . غير أن بروت مالبث أن أنكرها وتراجع عنها . وقد انتهت حياته أثناء بعض أحداث التمرد والشغب .

وظلت الحركة اللولاردية متمركزة فى منطقة الميدلاندز بانجلترا وخاصة فى مدينتى ليستر ونورثامبتون . وفى عام ١٣٨٩ أكمل كورتناى رئيس أساقفة كانتربرى ما كان أسقف باكنجهام قد بدأه من تشديد النكير على بعض أتباع سويندربى من المدنيين والعلمانيين أمثال وليم سميث ووليم وايتستاز اللذين استدعاهما كورتناى ومعهما بعض اللولارديين للمثول أمامه . وكان هؤلاء المطلوبون للتحقيق فى مجملهم حرفيين فمنهم الترزى وصانع المشغولات الذهبية . وقد وجهت إليهم جميعاً تهمة عدم الإيمان بالأيوخارست وبالعشور وبالصور والتماثيل وصكوك الغفران . وتخلف اللولارديون المطلوبون (وعددهم ثمانية) عن الحضور فأصدر رئيس الأساقفة قراراً بإدانتهم بالهرطقة . ولم تمض بضعة أيام حتى كان سميث واثنان من اللولارديين قد قبض عليهم فتراجعوا عن هرطقتهم .

وبحلول عام ١٣٩٢ أصبحت نورثامبتون مركزاً للنشاط اللولاردى . ومن المعتقد أن جون فوكس وراء الثورة التى اندلعت فى صفوف اللولارديين . وقد اندلعت أعمال العنف والشغب اللولاردى فى نهاية عام ١٣٩٢ وبداية عام ١٣٩٣ . وتدل شواهد الأمور أن اللولاردية أصبحت بحلول الثمانينات من القرن الرابع عشر مذهباً خطراً وهداماً الأمر الذى حفز السلطتين الدينية والمدنية لمقاومته . ذلك لأن اللولاردية تحولت إلى حركة سرية تناهض الدولة والكنيسة على حد سواء بعد أن كانت الكنيسة وحدها هدفاً لهجومها . وبعد أن كان اضطهاد اللولارديين يتم على أيدى أفراد مثل باكنجهام وكورتناى أصبح يتم على أيدى قطاعات عريضة من الشعب أظهرت استياءها البالغ من الهرطقة اللولاردية .

ورغم شيوع الرأى القائل بأن ويكليف هو الذى قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية فليس هناك دليل على صحة هذه المقولة . وهناك ترجمتان للكتاب المقدس احداهما حرفية وقد ظهرت فى حياة ويكليف ، ويعتقد أن الحرفية المفرطة التى اتسمت بها هذه الترجمة حالت دون نجاحها وانتشارها . ومن ثم كانت الحاجة إلى ظهور الترجمة الأخرى التى يحتمل أنها استكملت عام ١٣٩٦ . ورغم أن هذه الترجمة الثانية تنسب فى العادة إلى بيرفى فقد أسهم فيها كثير من الأقلام . وقد كتب لهذه الترجمة الثانية الذيوع والانتشار فى عهد تشوسر ولانجلاند . وساعد على نجاح هذه الترجمة أن الدوائر الرسمية فى إنجلترا كانت فى سبيلها إلى التخلى عن استخدام اللغتين اللاتينية والفرنسية واستبدالهما باللغة الإنجليزية . وهو الاتجاه نفسه السائد بين علية القوم والأوساط الرسمية . والذى لاشك فيه أن قيام اللولارديين بإصدار ترجمة ثانية للكتاب المقدس إلى جانب تبشيرهم ووعظهم قد ساعد على انتشار الهرطقة اللولاردية .

ويدل تاريخ الحركة اللولاردية على تضافر السلطتين الدينية والمدنية فى قمعها . صحيح أن بعض النبلاء أمثال جون مونتاجيو وايرل سالزبرى وسيرلويس كليفورد ساندوا هذه الحركة بدرجات متفاوتة . ولكن عندما تأزمت الأمور واحتدم الصراع بين الكنيسة واللولارديين تطلع اللولارديون إلى طبقة النبلاء يلتمسون لديها العون والسند ولكن هذه الطبقة تخلت عنهم فى محنتهم . ففى مايو ١٣٨٢ أصدر البرلمان الإنجليزى قراراً يخول للكنيسة سلطة قمع أى مهرطق تدينه محكمة كنسية . وزاد هذا القرار وأمثاله من إحكام الكنيسة قبضتها على أتباع الحركة اللولاردية . واستمر العمل بهذه القوانين والإجراءات القمعية لعدة سنوات . والمعروف أن اندلاع ثورة الفلاحين عام ١٣٨١ كان سبباً فى تشديد النكير على الحركة اللولاردية . وفى الفترة بين عامى ١٣٨٨ و ١٣٨٩ تكونت لجان بهدف مطاردة اللولارديين واستئصال شأفتهم . ومنحت هذه اللجان الحق فى مصادرة أى نسخ من مؤلفات ويكليف وأستون وبيرفى وهيرفورد وفى حظر تداولها ومعاقبة القائمين بنشرها . فضلا عن حبس الأشخاص الذين يرددون أيا من الهرطقات اللولاردية حتى ينبذوا ضلالاتهم ويرجعوا إلى صوابهم . ولكن بالمقارنة نجد أن اضطهاد السلطة الدينية للمهرطقين اللولارديين يفوق بكثير اضطهاد السلطة الزمنية لهم . ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر أن أسقف

لنكولين أصدر عام ١٣٩٤ أمره ضد ستة من المهرطقين اللولارديين لامتناعهم عن المثول أمامه عندما قام باستدعائهم . والجدير بالذكر أن السلطة الزمنية كانت مجرد سلطة ثانوية تساعد السلطة الدينية . ومعنى هذا أن اليد الطولى كانت للسلطة الدينية وأن السلطة المدنية فى قمعها للولارديين جاءت فى المرتبة الثانية .

ورغم كل التدابير العنيفة التى اتخذتها الكنيسة ضد اللولارديين فلا مناص من الاعتراف بفشلها فى بادىء الأمر فى اخماد حركتهم . ولعلنا نذكر كيف تحدى اللولارديون الكنيسة تحدياً سافراً عندما تظلموا للبرلمان الإنجليزى عام ١٣٩٥ ضد الأحكام التى أصدرتها الكنيسة عليهم . وليس أدل على تحديهم للكنيسة من أنهم علقوا ملخصاً لهرطقاتهم على أبواب وستمنستر أبى وكنيسة القديس بولس . وقد حرضت هذه الملصقات اللولاردية صراحة الملوك والنبلاء كى يسلبوا أموال الكنيسة وممتلكاتها الأمر الذى خلع قلوب رجال الدين وهز فرائصهم فعقدوا اجتماعاً فى فبراير ١٣٩٥ فى كانتربرى يطلبون من حاميهم ومليكهم الأمر بتوقيع عقوبة الإعدام على الهرطقة اللولاردية . وعندما أرسلت السلطات الكنسية المحلية إلى البابا بونيفاس التاسع فحوى هذه الهرطقة بعث هذا البابا فى ١٧ سبتمبر ١٣٩٥ خطابات إلى الملك والأساقفة ورئيس أساقفة كل من كانتربرى ويورك ومأمورى لندن تحثهم على ضرورة قمع هذه الحركة الخبثية التى تتشح بمسوح المسيحية الزائفة . غير أن السلطة المدنية ممثلة فى الحكومة الإنجليزية والجهات العلمانية استقبلت طلب البابا بشىء من الفتور . ولم تفعل أكثر من قيامها بطرد جميع اللولارديين من اكسفورد وفحص تعاليمهم الواردة فى كتابهم المعروف باسم التريالوجوس . وأحست السلطة الدينية باستجابة السلطة المدنية الفاترة فقامت بعد انقضاء عامين بمناشدة الملك لتطبيق عقوبة الإعدام عليهم . ولكن الظروف لم تكن مواتية لذلك بسبب نفى أرونديل رئيس أساقفة كانتربرى آنذاك نفياً موقتاً من البلاد وتخلى الملك ريتشارد الثانى عن الحكم . ولكن الأمور مالبثت أن تحسنت لصالح الكنيسة عندما اعتلى الملك هنرى الرابع العرش وعاد أروندل من منفاه نحو عام ١٤٠١ . وأصدر الملك الجديد هنرى الرابع قانوناً جديداً للهرطقة ينص على معاقبة كل من تسول له نفسه بالهرطقة أو الاحتفاظ بكتابات مهرطقة أو رفض نبذ الهرطقة والتراجع عنها . فإذا عاد مهرطق إلى سابق هرطقته فإن السلطة الدينية تسلمه إلى السلطة المدنية لحرقه . والجدير بالذكر أن هنرى الرابع اتخذ فى مايو ١٤٠٠ إجراءات أشد ما تكون عنفاً ضد اللولارديين ثم تلاها بإصدار قانون يخول للأساقفة حق القبض على المشتبه فى هرطقتهم والزج بهم فى السجن .

ويعتبر استنان قانون الهرطقة الجديد فى إنجلترا نقطة تحول فى الموقف الرسمى الذى اتخذته السلطة الزمنية إزاء الهرطقة اللولاردية . فبعد أن كان اضطهادها يتم على يد الكنيسة أصبح اضطهادها منذ استنان هذا القانون يتم عن طريق الدولة والملك وأعوانه . ويقضى القانون الجديد بإحراق المهرطقين . وبذلك بدأت إنجلترا تسير على درب الاضطهاد نفسه الذى سارت عليه أوروبا

المسيحية من قبل ، بل إنها تجاوزت أوربا المسيحية عندما اعتبرت اللولارديين مجرمين يسعون إلى تقويض الدولة وليسوا مجرد مهرطقين . وكما أسلفنا كان المهرطق اللولاردى سوترى أول من طبق عليه القانون الجديد فأحرق بسبب هرطقته .

ثم تلاه المهرطق اللولاردى ثورب الذى تمكن من الهرب بجلده فلم يلق مصير سوترى . وباستنان القانون الجديد تحولت الدولة الإنجليزية من مجرد رجل بوليس يعمل فى خدمة الكنيسة إلى جلاد ويقوم بتنفيذ أحكام الإعدام فى أعدائها . أضف إلى ذلك أن القوانين الجديدة الصادرة نحو عام ١٤١٤ حملت موظفى الملك والدولة المسئولية المباشرة فى التصدى للهرطقة والقضاء عليها إلى جانب الإشراف الدقيق على الموعظات والاجتماعات الدينية والمدارس لتطهيرها من كل أثر للهرطقة وتقديم المشتبه فيهم للمحاكمة أمام محكمة الملك . وبحلول عام ١٤١٦ تضافرت جهود الكنيسة مع جهود الدولة لتشديد النكير على المهرطقين اللولارديين فأصدر هنرى شيشيل رئيس أساقفة كانتربرى الجديد تعليماته لرجال الكنيسة بالقيام بزيارات منتظمة إلى المحليات الدينية بهدف القضاء على أية هرطقة فيها . وبذلك نرى أنه بعد انقضاء ثلاثين عاماً من وفاة ويكليف أصبحت الحركة اللولاردية موضع تنكيل من جانب رجال الدين والدولة معاً . كما تحولت هذه الحركة التى بدأت كنوع من الإنشقاق الدينى على المستوى الفكرى واللاهوتى إلى حركة ثائرة تسعى إلى تقويض الدولة والكنيسة أيضاً وخاصة بعد أن استطاع رجال الكنيسة إقناع السلطة الزمنية بخطر الهرطقة اللولاردية عليها . ورغم صحة المقولة التى تذهب إلى أن إنجلترا لم تعرف فى تاريخها محاكم التفتيش فإن اضطهاد الدولة المنظم للهرطقة اللولاردية يذكرنا بالممارسات القمعية لمحاكم التفتيش مع فارق واحد هو أن من يصدرون أحكام الإدانة ليسوا البابوات والكرادلة والأساقفة كما هو الحال مع محاكم التفتيش ولكن أعوان الملك ورجال الدولة والمحاكم الملكية . ورغم أن السلطة المدنية فى إنجلترا هى التى كانت تتعقب المهرطقين فإنها استخدمت وسائل القسر نفسها التي استخدمتها محاكم التفتيش مثل إعطاء المتهم فرصة التوبة قبل حرقه بعد أن تفشل معه محاولات الاستتابة ، إلى جانب الزج بالمشتبه فيهم فى السجون ومصادرة ممتلكاتهم . وبعد أن اختار اللولارديون طريق التمرد ضد النظام الحاكم أصبح للولاردية وجهان وجه دينى إصلاحى وهو وجهها الأصلى ووجه سياسى يتمثل فى الرغبة فى الإطاحة بالنظام الحاكم . والجدير بالذكر أن الحركة اللولاردية لم تنس قط وجهها الدينى حتى فى أشد مراحلها ثورة وتمرداً . وبحلول عام ١٤٣١ اتضح أن الحركة اللولاردية منيت بالفشل الذريع فى نهاية الأمر .

قلنا إن سوترى هو الضحية الأولى التى أحرقت بتهمة اللولاردية الأمر الذى جعل فرائص بعض اللولارديين ترتعد مثل بيرفى الذى تراجع عن هرطقته وانضوى تحت لواء الكنيسة . والذى يدل على أن سياسة الاضطهاد دفعت بالكثير من اللولارديين إلى التزام الحذر أن ترزياً اسمه جون بادبى هو ثانى شخص فقط يعدم بتهمة اللولاردية طوال عهد الملك هنرى الرابع . ويقال إن هذا الرجل لم

يلق به فى النار إلا بعد أن رفض الاستتابة والرجوع عن غيه وضلاله . وعلى أية حال يذهب بعض ثقات الباحثين إلى أن السلطة الدينية فى إنجلترا لم تكن شديدة القسوة فى معاملتها للولارديين وأنها حرصت على إعطاء المتهمين فرصة التوبة وأن قسوتها الحقيقية لم تظهر إلا بعد أن تجاوزت الهرطقة اللولاردية حدود الخلافات والمجادلات اللاهوتية وتحولت إلى حركة سياسية هدامة . وقد بدأت هذه الحركة تتسم بالعنف السياسى بزعامة اللولاردى أولد كاستل عام ١٤١٤ . وهو من مواليد ١٣٧٨ فى هيرفورد شير . كان أولد كاستل من المقربين لهنرى الخامس وأصبح لورد كوبهام عام ١٤٠٨ . ويبدو أنه تأثر فى صباه بتعاليم اللولارديين وأن هرطقته اتضحت للعيان عام ١٤١٣ عندما اعتلى هنرى الخامس أريكة العرش . وفى عام ١٤١٠ كتب أولد كاستل معبراً عن تأييده لجماعة الهوسيين أو أتباع هوس التى سوف نعرض لها فيما بعد . واكتشف أعداؤه أنه يحتفظ بحوزته ببعض الكتب اللولاردية المهرطقة فيما يتعلق بالأيوخارست وعبادة الصور والتماثيل وغفران البابوات ورجال الدين للخطايا . وقد ناشد رجال الكنيسة الملك لمقاضاته واتخاذ الإجراءات الكفيلة بردعه . ومن ناحيته حاول الملك أن يجعله يتخلى عن هرطقته ولكنه أبى . وعندئذ سمح الملك لأروندل رئيس الأساقفة أن يتخذ ضده الإجراءات المناسبة فاستدعاه أروندل للمثول أمامه ، غير أن أولد كاستل رفض ذلك ، الأمر الذى انتهى بالقبض عليه والزج به فى سجن برج لندن . وقدم أولد كاستل إلى المحاكمة حيث عرض عليه أروندل أن يغفر له خطاياه ، ولكنه رفض . ثم قام بتلاوة بيان مكتوب يتضمن آراءه المهرطقة حول الأيوخارست وغيره من المسائل الدينية . قال أولد كاستل إن الأيوخارست لا يجب أن يقتصر على البابا ورجال الدين بل يحق للعلمانيين ممارسته . وعند استئناف محاكمته رفض أولد كاستل للمرة الثانية أن يقبل مغفرة خطاياه من البابا مؤكداً أن الله وحده هو الذى يغفر الخطايا . وأضاف أن الأيوخارست لا يغير من طبيعة الخبز الذى يبقى خبزاً كما أن اعتراف المرء بذنوبه ليس ضرورياً لخلاصه فالمهم هو ندمه عنها . وعن الصليب ذكر أولد كاستل أن لاشىء يستوجب التقديس والعبادة غير جسد المسيح ، ووصف البابا وقساوسته بأنهم ألد أعداء الله . ويجدر بالذكر أن جون كلايدون أحد أتباع أولد كاستل ذهب إلى هذا المذهب فعوقب على ذلك بالحرق . وأمام إصرار أولد كاستل على هرطقته قامت الكنيسة بطرده منها وطلبت من السلطة الزمنية معاقبته وتم إحراق جون كلايدون فى سبتمبر ١٤١٥ بتهمة الاشتراك معه فى اضرام نار الثورة على النظام الحاكم . أما أولد كاستل نفسه الذى قاد الثورة فقد أحرق عام ١٤١٧ . غير أن الحركة الثورية التى تزعمها لم تمت بموته . ورغم أن جون برست قسيس تشسترتون وفر لأولد كاستل ملاذاً آمنا لمدة عامين فقد اضطر مع زميل آخر هوجون رينولد الترزى تحت وطأة الضغط إلى نبذ أفكار زعيمهما . وهناك أيضاً عدد آخر من القساوسة أمثال روبرت هوك وتوماس درايتون ممن تعرضوا عام ١٤٢٥ للمحاكمة فى أحد المجامع الكنسية بسبب اعتناقهم لأفكار أولد كاستل الثورية .

ويمكن القول إن مقاطعة كنت فى العشرينات من القرن الخامس عشر كانت مركزاً من مراكز النشاط اللولاردى الذى مارسه نفر من القساوسة مثل ريتشارد ويتش الذى تم إحراقه عام ١٤٤٠

ووليم هوايت الذى اضطره رئيس أساقفة كانتربرى إلى الهجرة إلى نور ويتش ومعه سبعة عشر رفيقا لولارديا . وتشير السجلات إلى نجاح رئيس أساقفة كانتربرى فى القبض على ثلاثين لولاردياً والزج بهم فى السجون . ورالف مونجين واحد من الذين قدموا إلى المحاكمة بتهمة اللولاردية عام ١٤٢٨ وصدر ضده حكم بالسجن المؤبد بسبب رفضه التراجع عن آرائه اللولاردية .

ويرجع الفضل إلى رالف مونجين فى نشر ترجمات ويكليف للكتاب المقدس إلى الإنجليزية وأيضاً فى نشر كتابات الثائر توماس بين . وفى الوقت نفسه تمت إدانة نفر من اللولارديين من رجال الكهنوت أمثال روبرت قسيس هويجرلر والكاهن توماس جارنتر والقس ريتشارد مونك قس تشثام السابق . علماً بأن الكاهنين الآخيرين نبذا فيما بعد آراءهما اللولاردية .

ورغم ما تعرضت له الآراء اللولاردية من قمع فإن أنصارها حاولوا للمرة الثانية اشعال نار الثورة ضد النظام القائم فى ربيع عام ١٤٣١ . والواقع أن التمرد اللولاردى الثانى تأثر بأفكار بيرفى الذى سبق أن دعا إليها عام ١٤١٠ . وقد بلغ التطرف الثورى لهذه المؤامرة الثانية مبلغاً جعل أصحابها يحلمون بالإطاحة بالملك نفسه وطبقة النبلاء . وحتى تتوفر لهم أسباب النجاح فى مؤامرتهم الثانية فكروا فى الإطاحة بولى العهد هنرى السادس وأقربائه الذين سوف يؤول إليهم العرش من بعده . وحاول المتمردون هذه المرة الاستفادة من تجربتهم الثورية الفاشلة عام ١٤١٤ فاتفقوا على أن تكون إحدى القرى البعيدة وليس لندن مكاناً لتجمعهم . ولكن المحاولة الثانية باءت بالفشل شأن المحاولة الأولى .وبطبيعة الحال كان رد فعل الحكومة الإنجليزية ضد هذه الثورة الثانية عنيفاً . فقد قضت على زعيمها بيركيز ونفذت فيه حكم الإعدام . ويتلخص الفرق بين ثورتى ١٤١٤ و١٤٣١ فى أن الثورة الأولى تمتعت بمساندة بعض النبلاء فى حين كان قوام الثورة اللولاردية الثانية من الحرفيين كالنساجين والنجارين وصانعى الأحذية يساندهم أولئك القساوسة المعوزون الذين جارت عليهم الكنيسة .

وعلى وجه العموم يعتبر عام ١٤٣١ عام اندثار اللولاردية كقوة سياسية .غير أن الأفكار اللولاردية استمرت بعد ذلك . علماً بأن نفراً محدوداً من اللولارديين اشتركوا فرادى فى تمرد ثالث عام ١٤٥٠ يعرف بتمرد جاك كاد . وقد حدثت هذه هوجة لولاردية فى وقت لاحق عام ١٤٥٧ . ورغم اندثار اللولاردية كحركة سياسية فلا مناص من القول إن معتقداتها تسللت إلى حركة الإصلاح الدينى . فقد أخذت هذه الحركة عن اللولاردية الحرص على بساطة العبادة والحياة البسيطة والحميدة . وخلاصة القول إن مبادىء ويكليف التى كانت الأساس فى نشأة اللولاردية بدأت كحركة لإصلاح الكنيسة ثم تحولت إلى حركة ثورية تبغى الإطاحة بكل من الكنيسة والدولة على حد سواء .

٣) جون هوس وحركته الإصلاحية Hus

ينحدر المصلح الدينى جون هوس (١٣٧٢ تقريباً - ١٤١٥) من عائلة من الفلاحين من أهالى منطقة بوهيميا التشيكية فى أوروبا الشرقية . التحق هوس بجامعة براغ نحو عام ١٣٩٠ وحصل منها على شهادة الماجستير فى عام ١٣٩٦ . ووقع عليه الاختيار عام ١٤٠١ كعميد للكلية الفلسفية . وفى عام ١٤٠٠ انخرط فى سلك الكهنوت حيث أصبح واعظاً معروفاً فى كنيسة بيت لحم فى براغ فى وقت ذاعت فيه كتابات ويكليف وتعاليمه التى تأثر بها . فقد عبر هوس عن تعاطفه الملحوظ مع رفض ويكليف للملكية وخاصة ملكية الكنيسة للثروة والأرض . وكذلك تعاطف مع رفضه لنظام الكنيسة الهرمى الذى تسوده الفوارق . وهى أفكار سبق الجيرومى أن دعا إليها فى مدينة براغ فى استقلال كامل عن ويكليف . وأيضاً أظهر هوس تعاطفه مع فكرة ويكليف الخاصة باختيار الله لعباده المقربين منه الذى يرى أن لهم الحق فى إدارة شئون كنيسته . ولكن وعظاته التى شنت حملات شعواء على سوء أخلاق رجال الدين المسيحى ما لبثت أن أثارت حفيظة أعدائه وشانئيه وقامت كنيسة روما عام ١٤٠٧ بإدانة وعظاته وأصدرت أمراً بمنعه من الاستمرار فى الوعظ . ورغم أن جامعة براغ أصدرت قراراً بإدانة خمس وأربعين فقرة من تعاليم ويكليف فقد أقدم هوس على ترجمة بعض أعماله إلى اللغة التشيكية . وفى ١٨ يناير ١٤٠٩ عينه الملك رئيساً لجامعة براغ التشيكية التى كانت مركزاً لانتشار أفكار ويكليف . واستطاع رئيس الأساقفة سبينكو أن يوغر صدر البابا الكسندر الخامس ضده فقام فى ٩ مارس ١٤١٠ بإصدار مرسوم يقضى بتدمير كتابات ويكليف ومنع هوس من الوعظ فى كنيسة بيت لحم ومنعه أيضاً من الوعظ فى أية كنائس أخرى . وفى فبراير عام ١٤١١ قام البابا الجديد جون الثالث عشر بطرده من الكنيسة واستبعاد أتباعه منها . غير أن بعض الناس تدخل فأبعدوا هوس عن براغ حتى لا يلحق به الأذى . وحظي بحماية بعض النبلاء التشيك له . وقد نذر هوس بقية حياته للكتابة اللاهوتية فكتب أهم أعماله عن الكنيسة عام ١٤١٣ . والجدير بالذكر أن هوس اقتبس الفصول العشرة الأولى من كتابه من كتابات ويكليف .

وفى عام ١٤١٤ أمر الإمبراطور سيجسيموند هوس ليسافر إلى الكنيسة للتحقيق معه . فاستشعر الخطر وأدرك أن حياته مهددة . وعندما بدأت محاكمته وضع فى بادىء الأمر فى سجن تابع للرهبان الدومنيكان ثم فى قلعة الأسقف كونستانس . ولم يفلح الإمبراطور فى إطلاق سراحه . وفى يوم ٦ يولية ١٤١٥ أمرت السلطة الكنسية بإحراقه فاستقبل الموت بثبات جأش . وبعد موته أصبح بطلاً قومياً وأعلنت جامعة براغ أنه شهيد وجعلت يوم وفاته عيداً تحتفل به .

وبالرغم من أن حركة هوس الداعية للإصلاح الدينى كانت مستقلة عن حركة ويكليف للإصلاح الدينى فإن كثيراً من أوجه الشبه ووشائج القربى تجمع بين الحركة التشيكية والحركة الإنجليزية ، الأمر الذى حدا الكثيرين إلى اعتبار حركة هوس امتداداً لحركة اللولارديين المنبثقة من أفكار ويكليف . ولا غرو فقد كانت كلتا الحركتين تعترضان على مباذل الكنيسة وتعبران عن

زرايتهما بعرض الدنيا والثروة والجاه والرغبة فى العودة إلى بساطة حياة الرسل . وكلتا الحركتين استمسكتا بالكتاب المقدس وليس بالكنيسة كمرجع مانع وآمنا بأن المقربين إلى الله وليس رجال الاكليروس هم وحدهم الذين يحق لهم تسيير شئون الكنيسة . ولعلنا نذكر أن ويكليف كان أستاذاً بجامعة أكسفورد يؤثر العزلة . ولاشك أن الإساءة البالغة لحقت به نتيجة تبنى اللولارديين لكثير من أفكاره فقد اتسم هؤلاء اللولارديون بالغلواء والتطرف المنفرين . ولعلنا نذكر أيضاً أن الفتنة التى أثاروها فى عامى ١٤١٤ و١٤٣١ أخفقت فى تحقيق أغراضها . وهنا تكمن نقطة الخلاف الجوهرية بين الحركة اللولاردية الإنجليزية وحركة هوس التشيكية . ففى حين باءت الحركة اللولاردية بالفشل بسبب تشرزمها وتحولها إلى فلول مندحرة من المتمردين تميزت الحركة الهوسية بأنها تتويج لجهود الأجيال التشيكية السابقة الساعية إلى إصلاح الكنيسة . وحتى ندرك أن هوس لم يأت من فراغ نذكر أن ملك بوهيميا الإمبراطور تشارلس الرابع (١٣٤٧ - ١٣٧٨) استدعى واعظاً اسمه كونراد والدهاوسن عام ١٣٦٠ وأصدر إليه تعليماته بانتقاد مباذل الكنيسة . ثم نقطة خلاف أخرى بين هوس وويكليف رائد الحركة اللولاردية مفادها أن هوس وأنصاره التشيكيين لم يولوا الفكر اللاهوتى والميتافيزيقى أدنى اهتمام فى حين توفر ويكليف على البحث الدينى والاستقصاء اللاهوتى . فدعوة هوس كانت دعوة أخلاقية تعنى بإصلاح ما أعوج من حال الكنيسة الأمر الذى جعل منه مصلحاً دينياً ، كما أن استشهاده وموته حرقاً جعلا منه قائداً وزعيماً ومؤسساً لثورة دينية اكتسحت البلاد الأوروبية ومهدت الطريق إلى اعتناق كثير من هذه البلاد الملة البروتستانتية على يد المصلح الدينى الألمانى المعروف مارتن لوثر . وبسبب اعراضه عن التنظير وجنوحه إلى اتخاذ مواقف عملية شن هوس هجوماً ضارياً على ممارسة الكنيسة لبيع الوظائف الكهنوتية واغتصابها الحق فى طرد من تشاء من الكنيسة وفى غفران الخطايا واقامة الطقوس المقدسة .

وثمة فارق آخر بين كنيسة انجلترا والكنيسة التشيكية فى تلك الفترة إذ كانت انجلترا بحكم عزلتها ووضعها الجغرافى أقل البلاد الأوروبية خضوعاً لنفوذ الكنيسة كما أن ملكها تمتع بقدر من الاستقلال عن النظام الكنسى أكثر من الملك التشيكى . ومن ثم لم يكن هناك جديد فى دعوة ويكليف الإنجليزى إلى ضرورة إخضاع الكنيسة إلى سلطة الملك وبدت هذه الدعوة وكأنها أمر واقع وتحصيل حاصل . أما الوضع عند التشيكيين وخاصة بوهيميا فقد كان مختلفاً إذ كانت الكنيسة التشيكية تملك ثروة عريضة مقدارها نصف أراضى بوهيميا فى الوقت الذى كان ملكها لا يملك أكثر من سدسها .وبطبيعة الحال شجع الثراء الفاحش رجال الكنيسة فى بوهيميا على ممارسة الفسق والمجون ومضاجعة المحظيات والمومسات وصنع الخمور المعتقة الأمر الذى أثار حنق هوس عليهم . وساعد على انتشار هذه المباذل الكنسية أن بابا روما احتكر نحو عام ١٣٤٧ حق تعيين رجال الكهنوت وترقيتهم إلى وظائف أعلى مقابل تنازلهم عن راتب سنة مما اعتبره هوس قمة الفساد . والجدير بالذكر أن براغ والأراضى التشيكية كانت آنذاك مستعمرة ألمانية الأمر الذى ألهب شعور التشيكيين القومى ضد الألمان . ولهذا امتزجت دعوة هوس إلى الإصلاح الدينى بدعوة التشيكيين القوميين إلى

التحرر والاستقلال عن الألمان . ويمثل هذا نقطة خلاف بارزة بين الحركة اللولاردية التى نظر إليها كثيرون من الإنجليز على أنها هرطقة وخروج عن صحيح الدين ، فى حين اعتبر التشيكيون حركة هوس الداعية للإصلاح الدينى حركة قومية تستحق المساندة . ورغم أن هوس لم ينج في توجيه تهمة الهرطقة إليه أحياناً فإنه تمتع إلى آخر أيامه بمناصرة جامعة براغ له ومساندة ملك بوهيميا وملكتها . فضلاً عن تأييد السواد الأعظم من الشعب التشيكى له . ولو أن هوس لم يغادر بوهيميا لما أصابه مكروه ولأصبح مثل أعوانه الذين نجوا من شرور أعدائهم بسبب البقاء فى بوهيميا . وفى حين كانت الحركة اللولاردية تمثل فلولا منعزلة ومتفرقة ومن ثم فشلها كانت الحركة الهوسية الناجحة والكاسحة تمثل أغلبية الناس .

بدايات الحركة الهوسية :

لم تأت الحركة الهوسية كما أوضحنا من فراغ بل جاءت نتيجة ظهور سلسلة متصلة من المصلحين المتشككين وعلى رأسهم الواعظ والمبشر كونراد والدهاوسن الذى قدم إلى براغ عام ١٣٦٠ . ولم يكن هذا الرجل مفكراً أو منظراً دينياً بالمعنى الصحيح . بل كان رجلاً عملياً مثل هوس نذر حياته للهجوم على ممارسات الكنيسة التشيكية الخاطئة وخاصة بيع المناصب الكهنوتية وخداع البسطاء من المؤمنين بالدين عن طريق الإدعاء بأن وجدوا بعض مخلفات القديسة بربارة فى براغ وهو أمر يستحيل تصديقه بسبب وجود هذه المخلفات فى بروسيا . وقد ترك والدهاوسن أثراً عميقاً فى رجل يدعى مبليك كروريز يشغل وظيفة سكرتير بلاط تشارلس الرابع . ويعتبر الدارسون مبليك أبا لكل المصلحين الدينيين التشيكيين . أخذ مبليك عن والدهاوسن مقته الشديد لفسق الاكليروس ورغبته العارمة فى العودة إلى نقاوة الكنيسة الأولى أو نقاوة الرسل الأوائل على وجه التحديد . ولم تكن وعظات والدهاوسن وحدها التى أثرت فى مبليك فقد تأثر أيضاً بقراءاته المتمعنة للكتاب المقدس الأمر الذى غير مجرى حياته فاستقال من وظيفته ليحيا حياة النساك والزاهدين . وفى بادىء الأمر تركز اهتمام مبليك بالحديث عن مجىء عدو المسيح إلى الأرض واشتهر بين الناس بقدرته الفائقة على الوعظ باللغات اللاتينية والألمانية والتشيكية . وفى وعظاته وصف سيده السابق الإمبراطور تشارلس الرابع بأنه عدو الله رقم ١ . فقبضت عليه السلطات ولكن سرعان ما أفرجت عنه . وفى عام ١٣٦٧ رحل إلى روما ليخبر البابا برؤيته للأشياء .

وهناك أعيد القبض عليه ثم أفرج عنه فى العام التالى ١٣٦٨ . وبعد ذلك تغير اهتمامه فأصبح يركز على الكنيسة وليس على الإمبراطورواعتبرها عدو الله الأول . وفى أخريات حياته أسس فى براغ منزلاً لاستتابة العاهرات وإعادتهن إلى الطريق القويم الأمر الذى جعل معارضيه يستهزئون به ويسخرون منه . وقد وافته المنية عام ١٣٧٤ وهو فى طريقه إلى البلاط البابوى فى أفينيون بفرنسا . والجدير بالذكر أن دعوة مبليك الدينية تشبه دعوة مثله الأعلى والدهاوسن فى اتسامها بالنزعة

الأخلاقية العملية والبعد عن الفلسفة والتنظير . وقد وجه إليه رجال الأكليروس فى براغ اثنتي عشرة تهمة بالخروج عن صحيح الدين . غير أنه أنكرها جميعاً . ولا غرابة أن تغضب الكنيسة عليه فقد فضح مساوئها وهاجم جشعها وثراءها الفاحش وادعاءها الحق فى الطرد من الكنيسة . فضلاً عن أنه أراد التخلص من الفكر الكنسى السكولاستى الذى يحرم الدراسات المتحررة ودعا إلى تكرار التناول بقدر الإمكان لدرجة أنه لم يجد غضاضة فى التناول كل يوم .

وفى حين يمثل مبليك الجانب العملى من حركة الإصلاح الدينى نجد أن تلميذه ماثيو جانوف يمثل جانبها النظرى والفكرى . وعلى نقيض أستاذه كان جانوف عزوفاً عن التبشير والخوض فى معترك الحياة اليومية . استمع جانوف إلى وعظات مبليك فراقت له . وفى عام ١٣٧٩ ذهب إلى باريس حيث أمضى عامين فى الدراسة . وعند عودته إلى براغ عين كاهناً لكاتدرئيتها .

وفى عام ١٣٨٨ اجتمع سنودس مدينة براغ ليصدر قراراً يحظر على العلمانيين التناول أكثر من مرة واحدة فى الشهر . وفى عام ١٣٨٩ أصدر هذا السنودس قراراً آخر بمنع التطاول على الصور والتماثيل الدينية . وبدا أن كلا القرارين كانا موجهين إلى جانوف فقد كان يدعو إلى كثرة التناول والزراية بالصور والتماثيل . ولم يقو جانوف على الوقوف فى وجه السنودس فاستسلم لقراراته . بل إنه أظهر فى عام ١٣٩٢ خضوعاً أكبر لرئيس الأساقفة . وفى عام ١٣٩٤ رحل جانوف عن الدنيا . واعتمدت نظرة جانوف الدينية على الكتاب المقدس والايوخارست فقط . ويرجع إيمانه بالسماح للعلمانيين بكثرة التناول إلى رغبته فى تمكين الناس من العيش فى المسيح لأكبر فترة ممكنة بعيدا عن التمسح فى الصور والتماثيل الزائفة . وذهب جانوف إلى أن عدو المسيح هو الذى يسيطر على العالم وأنه لا سبيل إلى دحره إلا بالاعتماد على آيات الكتاب المقدس . كما أنه ذهب إلى أن العالم نهب مقسم بين روح الحق فى المسيح وروح الشيطان الذى له الغلبة على روح الحق . وتتمثل روح الشيطان فى القساوسة والكهنة ورجال الدين الذين يرفضون إعطاء التناول للناس إلا إذا تقاضوا أجراً على ذلك . واعتبر جانوف جميع النظم الدينية ضرباً من الخزعبلات .

ولعل أهم ما يميز نظرة جانوف الدينية هو اهتمامه البالغ بقيمة الايوخارست الذى غدا فى رأيه حجر الزاوية فى العقيدة المسيحية وهو ما يميز حركة الإصلاح الدينية التشيكية عن حركات الإصلاح الدينى فى البلدان الأخرى . ويختلف الايوخارست عند ويكليف عن الايوخارست عند جانوف . فويكليف يهتم به من الناحية اللاهوتية فى حين أن جانوف يعتبره نعمة الله على الإنسان ووسيلة الإنسان لإقامة علاقة حميمة مع الله . والرأى عند جانوف أنه إذا كان جسد الإنسان لا يستغنى عن الطعام فإن روحه لا تستغنى عن الايوخارست . ومن ثم دعوته إلى التناول يومياً إذا أمكن ذلك لا فرق فى ذلك بين العلمانيين ورجال الكنيسة . وذهب إلى أنه من الخطأ قصر تكرار الايوخارست على القساوسة دون العلمانيين . ولم يكن جانوف وحده هو الذى مهد لظهور هوس فقد سبقه عدد

من المصلحين الدينيين على رأسهم أستاذه ستيفن كولين فضلاً عن توماس ستيتنى وماثيو كراكو وجون جنستين وأدالبرت راكونيس الذين تأثر بهم هوس أكثر من تأثره بويكليف .

قلنا إن هوس أصبح كاهناً وواعظاً فى كنيسة بيت لحم . والجدير بالذكر أن واحدا من التجار الأثرياء أنشأ هذه الكنيسة عام ١٣٩١ بهدف تشجيع الوعظ باللغة التشيكية . وكانت الوعظات تلقى بهذه اللغة مرتين كل يوم . وقد أصبحت كنيسة بيت لحم على يدى هوس مركزاً بارزاً للدعوة إلى الإصلاح الدينى . واستطاع هوس بحماسه الإصلاحى المتقد أن يجذب إليه الملكة التشيكية صوفيا التى اختارته كى يصبح قسيس اعترافها فضلاً عن أنه استمال إلى صفه عددا من السيدات الأرستقراطيات . ولم تمض سنوات معدودات حتى غدا هوس وخاصة بعد استشهاده بطلاً قومياً فى نظر عدد هائل من التشيكيين . والجدير بالذكر أن هوس تمتع بمكانة ثابتة مرموقة فى بوهيميا تعززها حفاوة الملكة صوفيا ونفر من علية القوم به . وظلت مكانته مستقرة حتى نفيه من بوهيميا عام ١٤١٢ وهو العام الذى عبر فيه عن آرائه بشىء من التطرف فى كتابيه « حول الحياة الكنسية» وبيع وشراء المناصب الكنسية . وتعبر آراء هوس الإصلاحية أفضل تعبير عن الاتجاهات المتأصلة فى الشعب التشيكى فى لغة وعبارات استقاها فى كثير من الأحيان من كتابات ويكليف . وفى الفترة بين ١٤٠٧ و١٤٠٩ وضع كتاباً يتضمن تعليقاته بشأن بعض القضايا الدينية . والجدير بالذكر أن هوس بوجه عام نأى بنفسه عن الشطط . ولهذا جاءت أفكاره عن الايوخارست خالية من الغلواء . غير أن حماسه المتقد تجلى فى هجومه على ممارسات البابا للحرمان الكنسى وعلى ممارسات القساوسة السيئة . ورغم اعتداله فى التعبير عن كثير من آرائه فإنه لقى بئس المصير بسبب تحمسه لأفكار ويكليف والعمل على نشرها . وفى أواخر القرن الرابع عشر توفر هوس على نسخ ثلاثة من أعمال ويكليف الفلسفية . ثم جاء جيرومى التشيكى - وهو تلميذ هوس وأحد المعجبين به - الذى ضحى بحياته دفاعاً عن أفكار أستاذه . سار جيرومى على نفس درب هوس أستاذه وأكمل المسيرة بترجمة ثلاثة أعمال أخرى لويكليف إلى اللغة التشيكية . وعلى أية حال يرجع الفضل أساساً فى ذيوع أفكار ويكليف الإنجليزى فى الأراضى التشيكية إلى جهود اثنين من التشيكيين المعجبين به واللذين قاما بزيارة انجلترا فى عامى ١٤٠٦ و١٤٠٧ هما فولفيس وكنيهنيك . والجدير بالذكر أن أول اعتراض فى الأراضى التشيكية على نشر آراء ويكليف جاء من كلية اللاهوت بجامعة براغ . وقد أثار هذا الاعتراض الأساتذة الألمان العاملون فى هذه الجامعة . أما أعضاء هيئة التدريس من التشيكيين فقد رحبوا بأفكار ويكليف الواقعية . وكان ستانسلوس زونجمو أستاذ هوس وممتحنه من أشد الناس تحمساً لأفكار ويكليف . ويعتبر زو نجمو مسئولاً عن احتدام الخلافات حول آراء ويكليف وذلك نحو عام ١٤٠٣ عندما تقدم أستاذ ألمانى بجامعة براغ اسمه جون هوبنر بشكوى تدين خمسة وأربعين بنداً من أفكار ويكليف . وقد سبق لهوبنر فى العام السابق أن رفع شكواه إلى بابا روما فاجتمع مجمع رهبان البلاك فرايز عام ١٣٨١ وأدان أربعة وعشرين بندا من آراء ويكليف . واستطاع أعضاء هيئة التدريس من الألمان فى جامعة براغ بسبب أغلبيتهم أن يهزموا أعضاء هيئة التدريس التشيكيين الذين

يمثلون الأقلية ؛ ورغم انهزامهم فقد تصدى اثنان من الأساتذة التشيك هما زونجمو الذى أشرنا إليه وستيفن باليه اللذان برءا ويكليف من تهمة الهرطقة . ومن ناحيته أبدى باليه استعداداً للدفاع عن كل كلمة سطرها ويكليف . ولاشك أنه من سخرية الأقدار أن يصبح هذا الرجل فيما بعد من ألد أعداء هوس بل لعله المسئول الأول عن إعدامه .

ولم تفلح إدانة ويكليف عام ١٤٠٣ فى استئصال أفكاره . بالعكس ساعدت على ذيوعها وانتشارها . ومما يذكر أن هذه الإدانة لم تصل فى بادىء الأمر إلى حد اتهامه بالهرطقة . وبطبيعة الحال شجع عدم اتهام ويكليف بالهرطقة هوس وغيره على التوفر على دراسة أعماله . وفى عام ١٤٠٣ قام هوس بالتعبير عن تأييده لمعتقدات ويكليف والدفاع عنها فى وجه هوبنر الذى رماها بالكفر ودمغها بالهرطقة . ويرجع السبب فى هذا إلى استقلال هوس فى تفكيره عن ويكليف . فقد كان إعجابه بويكليف قاصراً على هجوم ويكليف على الفساد الكنسى وليس من باب الإقتناع بالمذهب الويكليفى . ولا غرو فقد كانت أفكار هوس بوجه عام تجنح إلى عدم الخروج عن مألوف الدين .

اتخذ هوس موقفاً ثابتاً من ويكليف يتلخص فى تبرئته من تهمة الهرطقة دون أدنى إيمان بمعتقداته . وتعرض زونجمو شريك هوس فى حركة الإصلاح الدينى نحو عام ١٤٠٤ لهجوم راهب اشتكاه إلى زبينيك رئيس أساقفة براغ آنذاك الذى أظهر تعاطفاً شديداً مع حركة الإصلاح الدينى التشيكية الأمر الذى دفعه عام ١٤٠٥ إلى تعيين كل من هوس وزونجو واغطين فى السنودس السنوى . ولكن زبينيك ما لبث أن تلقى أوامر من البابا للتحقيق فى آراء زونجمو فخشي زنوجمو على نفسه فتراجع عن أفكاره اللاهوتية . وشيئا فشيئا أصبح زنوجمو من أشد الناس معارضة لحركة الإصلاح الدينى التى حمل لواءها كل من هوس وجاكو بليوس اللذين نذر نفسيهما للدفاع عن ويكليف حتى النهاية . وهكذا آلت زعامة حركة الإصلاح الدينى التشيكى إلى هوس ثم إلى جاكو بليوس من بعده . ورغم اتفاقهما فى الرأى فقد كان جاكوبليوس أشد تطرفاً من هوس . دعا جاكو بيليوس بنبرة حادة وعالية إلى ضرورة تدخل الملك فى شئون الكنيسة حتى يطهرها من أوشاب الاكليروس وعربدتهم الجنسية وشرههم فى اكتناز المال . وفعل هوس الشىء نفسه فى وعظاته التى ألقاها فى الفترة بين عامى ١٤٠٥ و ١٤٠٧ ونادى بأن مجرد تقاضى رجل الدين أجراً عن أدائه لواجباته الكنسية وممارسة طقوس الدين هو فى واقع الأمر انتهاك لروح المسيحية التى تتمثل فى حياة الزهد كما عاشها الرسل . وقد ثارت ثائرة رجال الاكليروس عليه فتقدموا بشكواهم ضده وضد أتباعه فى أغسطس عام ١٤٠٨ . أما زنوجمو وباليه فقد قدمت ضدهما شكوى إلى بابا روما رأساً . وتم القبض عليهما قبل أن يصلا إليها ولم يفرج عنهما إلا بعد أن أعلنا نبذهما لأفكار ويكليف . . وبالفعل قام الإثنان بنبذ هذه الأفكار وتنكرا لها . أكثر من هذا أنهما بدءا يعارضان هوس وصحبه معارضة أشد ما تكون عنفا وضراوة .

وفى براغ جاءت إشارة البدء فى الهجوم على ويكليف نتيجة القبض على عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة اسمه ماثيوكنين الذى تلقى العلم على يدى كل من زنوجمو وهوس . وأقنعت هذه الحادثة رئيس الأساقفة زيبنيك الذى تعرض لضغط من البابا بأن مذهب ويكليف بات يمثل خطراً على جامعة براغ . ولهذا استدعى زيبنيك الأساتذة التشيكيين وطلب منهم فرض الحظر على الخمسة والأربعين بندا فى مذهب ويكليف التى سبق إدانتها . غير أن الأساتذة التشيك لم يستجيبوا إلى طلبه على النحو الذى يريد فقد تقدموا بعدة تحفظات تدل على ترددهم فى شجب أفكار ويكليف . وبدلا من قيامهم بقمع مؤلفاته سمحوا للأساتذة وحدهم بالإطلاع عليها . وبعد أن كان زيبنيك فاتراً فى هجومه على هوس تخلى عن فتوره بعض الشىء عندما بدأ رجال الدين يتكاتفون ضده . وشرع زيبنيك فى توجيه الإتهامات ضد هوس . ولكن هذه الاتهامات فى حقيقة الأمر لم تكن ذات بال . وتتلخص هذه الاتهامات فى قوله بهرطقة القسيس الذى يبيع خدماته الكنسية للناس وقوله إنه يريد لروحه أن تستقر حيث تستقر روح ويكليف ،وأنه يدأب على التشهير برجال الأكليروس . وكان من السهل على هوس أن يدحض هذه الاتهامات . وعندما أدرك رجال الأكليروس عجزهم عن إدانة هوس والنيل منه بدأوا فى استخدام تكتيك مغاير يتلخص فى إرسال الجواسيس لحضور وعظاته . وادعى هؤلاء الجواسيس أنه لم يكف عن التعبير عن آرائه المهرطقة منذ عام ١٣٩٩ . وهكذا اشتدت المجابهة بين الكنيسة وهوس واتخذت وجها قميئاً . غير أن هذا التكتيك الجديد لم يفلح فى القضاء على هوس بل ساعد على تعزيز مكانته . فقد أظهرهم تجسسهم على هوس على حقيقتهم . وأنهم لا يعدون أن يكونوا جماعة من الأرازل والأفاقين .

ولكن هذا لم يفت فى عضد الأكليروس الذين شنوا هجوماً آخر على هوس عام ١٤٠٩ متضمناً الاتهامات نفسها الأجل خطراً التى وجهت إليه فيما بعد عند تقديمه للمحاكمة فى كونستانس . وأنكر هوس هذه الاتهامات الباطلة مستفيداً من أن كتاباته خلو منها . ويتلخص الاتهام الأول فى أن هوس يدافع عن آراء أقرب ما تكون إلى الهرطقة الوالدسية التى تؤمن ببطلان القداديس التي يقوم بها الخطاة من القساوسة الذين لا يحل لهم إعطاء التناول للمسيحيين . فضلا عن اتهامه بإنكار حق الكنيسة فى حرمان الخارجين عليها من الانتماء إليها وقوله إن الألمان أعداء لها . حيال هذه الاتهامات لم يفعل زيبنيك شيئا سوى أنه أحالها لأحد المفتشين للنظر فيها .

والجدير بالذكر أن صراع هوس ضد مناوئيه ارتبط بصراع كنسى أكبر وأعظم يعرف بالإنشقاق العظيم الذى استغرق أكثر من ثلاثين عاماً من ١٣٧٨ حتى ١٤١٧ . ففى عهد جريجورى الثانى عشر بابا روما انشق عنه عدد من الكرادلة الذين طالبوا بعقد مجمع دينى فى بيزا وتعيين بابا جديد منها . وانعكس هذا الصراع على موقف رئيس الأساقفة زيبنيك . فقد كان هذا الرجل فى صف البابا جريجورى الثانى عشر المطلوب خلعه ومتفقاً فى الرأى مع الأساتذة الألمان فى جامعة براغ ضد ملك بوهيميا والأساتذة التشيك الذين يتمتعون بأغلبية الأصوات ويحبذون عقد مجمع دينى جديد

أملا فى إصلاح ما فسد من حال الكنيسة . وبحكم أغلبيتهم استطاع أساتذة جامعة براغ التشيكيون أن يتخلصوا من زملائهم الألمان الذين هاجروا إلى ليبزج وأنشأوا جامعة أخرى فيها . وسعى هؤلاء الأساتذة الألمان المهاجرون إلى تشويه سمعة هوس ورفاقهم فرموهم بالكفر والهرطقة . وقد ساعد هذا الاتهام الباطل على تسميم الجو السائد فى كونستانس حيث قدم هوس للمحاكمة . وفى ظل هذه الظروف تحولت جامعة براغ إلى قلعة أو مؤسسة قومية تتزعم حركة الإصلاح الدينى فى الأراضى التشيكية . وبدا من الواضح أن رئيس الأساقفة زيبنيك يقف فى وجه تيار أقوى منه . وساعد على اهتزاز مكانته أنه كان يعتمد فى سلطانه على مساندة البابا جريجورى الثانى عشر . فقد قرر مجمع بيزا اختيار الكسندر الخامس لكرسى البابوية . ولكن زيبنيك مالبث أن استعاد مكانته وقوته بعد أن تخلى عن تأييد البابا القديم لمساندة البابا الجديد . وأخذ زيبنيك يؤلب البابا الجديد الكسندر الخامس ضد المصلحين الدينيين من أتباع ويكليف . فقد أرسل إليه ممثلين عنه ليشكوا إليه انتشار الهرطقة الويكليفية فى براغ منوها بخروج أتباع ويكليف عن صحيح الدين فيما يتعلق بالتناول وتجريد الاكليروس من ممتلكاتهم . وعندما اطمأن البابا الجديد إلى أن زيبنيك أصبح يسانده لم ير مانعاً من الاستجابة إليه فقد أصدر مرسوماً بابوياً فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٠ يحرم حيازة مؤلفات ويكليف . أضف إلى ذلك أنه حرم الوعظ خارج الكنائس والأديرة والكاتدرائيات ليمنع هوس وأتباعه من ممارسة الوعظ والدعوة إلى الإصلاح . وفى نهاية المطاف كلف البابا رئيس الأساقفة زيبنيك بتكوين لجنة من ستة أعضاء لتقصى انتشار الهرطقة فى بوهيميا واتخاذ ما يرونه مناسباً للتصدى لها .

وكان الخلاف فى بادىء الأمر قاصراً على قاعات المحاضرات بجامعة براغ ولكن الصراع ما لبث أن انتقل إلى الشارع التشيكى . وتعالت صيحات الاحتجاج الشعبى ضد الكنيسة التى تبيع صكوك الغفران . ومن بين مظاهر هذا الاحتجاج أن مدينة براغ شهدت تنظيم موكب يصور عاهرة على ظهر عربة كارو تحمل مرسوماً مقلدا للمرسوم البابوى أضرم المتظاهرون فيه النار . واضطر الملك إلى التدخل لوضع حد لهذا الشغب وفرض عقوبة على كل من تسول له نفسه رفض المرسوم البابوى أو الزراية به . ودعا الملك هوس للاجتماع بثمانية من أبرز أعضاء هيئة التدريس بالكلية اللاهوتية فى زبراك حتى يحلوا خلافاتهم العقائدية واللاهوتية المحتدمة . ورفض هوس الاقتناع بوجهة نظر المعارضين له . فدعاهم الملك للاجتماع به فرادى فى زبراك . وعقب هذا الاجتماع وافق الملك على تجديد إدانة الخمسة والأربعين بنداً التى سبق لويكليف أن نادى بها . بالإضافة إلى إدانة ستة بنود جديدة تتصل برفض هوس ورفاقه لصكوك الغفران . ومن الواضح أن الخلاف الحقيقى بين هوس ومعارضيه تركز فى المقام الأول حول مدى ما ينبغى أن يتمتع به البابا من سلطان . فقد امتنع هوس - شأنه فى ذلك شأن ويكليف - عن تأييد أى مرسوم بابوى لا يتفق مع نصوص الكتاب المقدس ومع تعاليم الرسل . وأدى به هذا فى النهاية إلى إنكار حق بابا روما فى زعامة الكنيسة الغربية ، الأمر

الذى انتهى فيما بعد إلى إصدار قرار بإدانة هوس فى كونستانس . وتم طرح المرسوم القاضى بإدانة البنود الويكليفية فى اجتماع عام حضره كل العاملين بالجامعة . ولا مناص فى هذا الصدد من أن نذكر أن ثلاثة من الشبان المتحمسين لهوس سبق القبض عليهم وتنفيذ حكم الإعدام فيهم . وحاول هوس من جانبه أن يشفع لهم ويتدخل لإنقاذهم قائلا إنه وحده يتحمل المسئولية كاملة فهو الذى أوحى إليهم بإدانة صكوك الغفران . وقد نقل أتباع هوس جثث هؤلاء الشهداء الثلاثة وقاموا بدفنهم فى كنيسة بيت لحم ، غير أن هوس أنكر أن له أية صلة بالدفن .

وفى صحن جامعة براغ اجتمع لفيف من الأساتذة برئاسة رئيس الجامعة مارك هيراردك وأصدروا قراراً بأنه يمكن تفسير مذهب ويكليف على نحو أبعد ما يكون عن الهرطقة . وأراد هوس أن يجرب بنفسه مدى جدية هذا القرار وأخذته الشهامة والرغبة فى الذود عن ويكليف فاعترف بإيمانه بستة من مبادئه ومنها حق أى شماس أو قسيس أن يبشر بكلمة الله دون الحصول على إذن من البابا أو الأسقف وأنه من حق الحاكم العلمانى أن يجرد رجل الدين الشاذ أو المنحرف من ممتلكاته وثروته ثم أنه لا يحق لرجل الدين الخاطىء أن تكون له أية سيطرة روحية أو مدنية على العباد . ورغم أن هذه الآراء لا تعبر بالضرورة عن موقف هوس فإنه تعمد أن يتحدى بها رجال الكنيسة . ودعته رغبته فى التحرش بهم إلى تفسير بنود ويكليف المتمردة على المبادىء الأرثوذكسية على نحو يتفق مع هذه المبادى ولا يتعارض معها . فلا غرو إذا رأينا أعداء هوس ينسبون إليه آراء لا يدين بها . ومما زاد من سوء موقف هوس أن نفراً ممن حاولوا الوقوف بجانبه جاهروا بإيمانهم بمبادىء ويكليف مثلما فعل فردريك إينج الذى هاجم فكرة طرد المسيحيين من حظيرة الكنيسة وجاكوبيك الذى هاجم ثراء الأكليروس . ولكن زونجمو وباليه وأتباعهما شنوا هجوماً على هوس . وقد اشتكى على هوس فيشيل دى كوسيس أحد قساوسة براغ . وبدا للمسئولين عن الكنيسة فى روما أن جامعة براغ قد شقت عصا الطاعة عليها فقامت بطرد جميع الأساتذة الكاثوليك منها . وفى يولية عام ١٤١٢ تولى الكاردينال ستيفانسكى النظر فى قضية هوس وأمر بطرده على الفور من الكنيسة لامتناعه عن المثول أمام السلطة البابوية التى أمرت بإبعاده وعزله عن بقية المسيحيين ومنع هؤلاء المسيحيين من تقديم أى عون له فى شكل طعام أو شراب أو حتى مجرد الاتصال به . وقد أعطى هوس مهلة مدتها شهر للإعلان عن توبته . وأحس هوس بأن الكنيسة قد نبذته تماماً وألحقت به ظلماً فادحاً فلم يجد فى محنته غير الله ملاذاً . وبذلك يكون هوس أول متمرد يعتمد على عون الله فى مواجهة الدنيا ومحاكمها الكنسية . وبعد صدور القرار بطرده من الكنيسة أصبح استمراره فى البقاء فى مدينة براغ يحرج صدور أهلها ويعرضهم للمشاكل . فقد كان محظوراً عليهم أن يتعاملوا معه أو يقدموا إليه أية خدمات . وفى ظل هذه الظروف استجاب هوس إلى نصيحة أحد أصدقائه الذى نصحه بالرحيل عن براغ ففعل هذا فى أكتوبر ١٤١٢ تاركاً كنيسته المسماة بيت لحم فى رعاية اثنين من أصدقائه هما ها فليك ونيكولاس ميلشلين . وأمضى هوس السنتين التاليتين فى جنوب بوهيميا بالقرب من تابور

وذلك قبل رحيله إلى مدينة كونستانس فى أكتوبر ١٤١٤ . وفى هاتين السنتين كان محظوراً عليه أن يبشر فى المجامع فانكب على كتابة أهم مؤلفاته الدينية على الإطلاق وهى « عن الكنيسة » وثلاثيته التى تتكون من « عرض للإيمان » و « عرض للوصايا العشر » و « بيع الوظائف الكهنوتية » . والذى لاشك فيه أن اختيار هوس للغه التشيكية الدارجة فى كتابة مولفاته ترك أثراً واضحاً ليس فى انتشار أفكاره بين عامة الناس فحسب بل فى اللغة التشيكية نفسها . ورأى ملك بوهيميا وسلاس أن بلاده أصبحت نهباً مقسماً بين هوس ومعارضيه فآثر التوفيق بين الطرفين المتنازعين . وأزعجه انتشار الهرطقة فى الأراضى التشيكية فدعا فى يناير ١٤١٣ رجال الأكليروس التشيكيين إلى عقد سنودس . ولكن اجتماعات هذا السنودس لم تسفر عن نتيجة . فقد ظل الخلاف بين أتباع هوس والمناوئون له محتدما . فقد نادى المناوءون لهوس بضرورة الانصياع لسلطة البابا جون الثالث عشر كما نادوا بضرورة اعتبار مذهب ويكليف هرطقة وهو ما رفضه هوس وأنصاره . وكان قبول هوس لمثل هذا الرأى معناه اعترافه . . بأنه هو وأتباعه جماعة من الخارجين على صحيح الدين يزدرون مقدسات الكنيسة ويطالبون بالاحتكام إلى الكتاب المقدس والأزورار عن حكمة الآباء . ووجهت الاتهامات إلى هوس فى اجتماع عام فانبرى يتحدى أعداءه أن يثبتوا صحتها أو يثبتوا أنه يهرطق وأن الهرطقة أصبحت آنذاك تسود الأراضى التشيكية . ووقف بجانبه مؤيدان هما جاكوبلوس وجون جسنيس اللذان أبرزا الحاجة إلى إصلاح الكنيسة كى يعم السلام عليها . ومن ناحيته رفض جون جسنيس اتهامه بإنكار المقدسات وعدم مراعاتها كما أنه دحض زعم البابا والكرادلة بأنهم سلالة الرسل الحقيقيين وخلفاؤهم . ورغم اعتراف هوس بأهمية البابا على الأراضى فإنه أكد على أن المسيح هو رأس الكنيسة الأوحد مضيفاً أن كل البابوات ليسوا بالضرورة خداماً للمسيح فبعضهم فى واقع الأمر هراطقة . وذهب إلى أن الكنيسة يمكنها أن تستغنى عن البابا وإلى أن الكتاب المقدس هو القانون الذى يجب على الجميع الخضوع له . غير أن أعداء هوس كانوا فى واد سحيق بعيد تماماً عن الواقع فهم يتعامون عن مباذل رجال الدين وفضائحهم الأمر الذى جعلهم لا يرون القذى الذى فى عيونهم ويصرون على أن هوس مهرطق ينبغى فرض الحظر عليه ومنعه من التبشير وعلى أن مساعدته بأى شكل من الأشكال تنطوى على عصيان واضح للبابا . فضلا عن أنه ينبغى عليه أن يتوجه إلى روما للمثول أمام البابا وتبرئة نفسه من الاتهامات الموجهة ضده . ورد هوس على ذلك بخطاب موجه إلى الرأى العام جاء فيه أن رجال الأكليروس هم المهرطقون الحقيقيون . ثم أصدر بياناً آخر باللغة اللاتينية عدد فيه الحالات التى ينبغى فيها عصيان البابا وقال إنه لا يمكن اعتبار البابا الفاسق خليفة السيد المسيح . وهكذا فشل السنودس المجتمع فى التقريب بين وجهات النظر المتعارضة .

ولم تتوقف محاولات التوفيق بين هوس ومعارضيه عند هذا الحد ، غير أن المحاولات الأخرى المبذولة باءت أيضاً بالفشل . فقد طلب رجال الكنيسة من هوس أن يعتبر الخمس وأربعين فقرة التى

وضعها ويكليف هرطقة كما طلبوا منه الإنصياع للمراسيم التى أصدرها جون الثالث عشر بشأن صكوك الغفران وشن الحملات الصليبية . فضلا عن أنهم طلبوا منه الامتناع عن التبشير والوعظ حتى يغفر له البابا خطاياه . ثم تشكلت لجنة مكونة من خمسة أعضاء من بينهم واحد من أصدقاء هوس . وبذلت هذه اللجنة محاولة أخيرة للتوفيق بين هوس وأتباعه . ولكنها فشلت فى مسعاها بعد أن أمضت يومين فى نقاش محتدم خرج منه هوس وأعوانه ليعبروا عن رفضهم إدانة الخمس والأربعين فقرة التى نادى بها ويكليف . كما أبدوا تحفظاتهم على مبدأ طاعة البابا فى جميع الحالات . وهكذا تحولت بوهيميا إلى حلبة صراع بين هوس ومعارضيه . وعبر ملك بوهيميا عن غضبه من الروح المتشددة التى أظهرها رجال الأكليروس نحو هوس والهوسيين .

وفى فبراير عام ١٤١٣ أدان البابا كتابات ويكليف التى تم إحراقها خارج كنيسة القديس بطرس بروما الأمر الذى زاد من سوء وضع هوس الذى أصبح هدفاً سهلا للهجوم عليه باعتباره مهرطقاً يؤمن بمذهب ويكليف . ولا مناص من التنويه إلى أنَ التهمة الأساسية التى حوكم هوس بمقتضاها فى كونستانس كانت إيمانه بالخمس والأربعين فقرة التى نادى بها ويكليف . والذى لا شك فيه أن قرار الحظر الذى أصدره البابا ضده حال بينه وبين العودة إلى براغ بوجه خاص وإلى موطنه فى بوهيميا بوجه عام . وشعر ملك بوهيميا أن وجوده فى الأراضى التشيكية سوف يثير أحداث شغب وأعمال عنف ويعكر صفو الحفل السنوى الذى تقيمه الكنيسة للإحتفاء بآثار القديسين وأولياء الله الصالحين وهو ما كان هوس وأعوانه يرفضونه . ولهذا رجاه ملك بوهيميا أن يغادر براغ حتى لا تثور قطاعات من الشعب ضده . وقد انقلب على هوس بعض أنصاره القدامى أمثال باليك وزنوجمو فكتبوا يهاجمونه . وانضم إلى المهاجمين عليه كل من أندرو برودا وستيغان دولناى . ويتلخص الخلاف الناشب بين باليك وزونجمو فى جانب وهوس من جانب آخر فى أن هوس رفض الاعتراف بشرعية البابا إذا كان سلوكه معيباً وحياته دنسة ، فى حين رأى باليك وزونجمو قالا إن البابا يفقد شرعيته فى حالة واحدة فقط هى إذا أعتلى كرسى البابوية عن غير طريق الأكليروس إذا لم يقوموا بانتخابه . وهناك وجه خلاف آخر هو أن هوس مثل ويكليف اعتبر الكتاب المقدس المرجع الأول والأخير الذى يحتكم إليه المسيحيون فى كل ما يعرض لهم فى حين دعا كل من باليك وزنوجمو إلى ضرورة طاعة البابا والكنيسة معاً .

وفى الفترة بين عامى ١٤١٣ و ١٤١٤ بدأت أنظار العالم الخارجى تتجه إلى هوس . وشعر أعداء هوس أن خطره يستفحل . فقام جيرسون فى ٢٧ مايو ١٤١٤ بكتابة رسالة إلى أسقف براغ ينبهه إلى انتشار الهرطقة فى بوهيميا . ولم يمض شهر واحد حتى كان جيرسون قد أرسل إليه عشرين فقرة منقولة من كتاب هوس « حول الكنيسة » كدليل دامغ على مدى خطر هوس وهرطقته ووقاحته وتطاوله على الكنيسة على نحو فاضح . ودعا معارض آخر هو ديتريش ينيم فى وثيقة مؤرخة ٦ مارس ١٤١٤ يطالب فيها بالقضاء المبرم على أتباع ويكليف فى بوهيميا مستنكراً بالذات

مذهبه فى الأيوخارست متهماً إياه بالعمل على تطهير الجامعة من معارضيه من الأساتذة والطلبة . ومن ثم رأى ديتريش ينيم ضرورة القبض عليه على جناح السرعة وتسليمه إلى الأجهزة المدنية المنوط بها إنزال العقاب به . وذكر ديتريش أنه ليست هناك أى جدوى من الجدال معه ومناقشته فى آرائه فتكفى شبهة هرطقته لإنزال العقاب به .

الحكم على هوس بالحرق بتهمة الهرطقة

فى ديسمبر عام ١٤١٣ قام البابا جون الثالث عشر بناء على طلب الإمبراطور سيجسيموند بالدعوة إلى عقد مجمع دينى فى كاتدرائية كونستانس فى أول نوفمبر ١٤١٤ ووجهت الدعوة إلى هوس لحضوره فرحب بذلك أيماترحيب فقد اعتبره فرصة سانحة للدفاع عن نفسه وتبرئتها من التهم العالقة بها والطعن فى أمر طرده ظلماً من الكنيسة . وعن قصد أو غير قصد ضلله الإمبراطور سيجسيموند عندما ضمن له الأمان فى العودة من كونستانس التى لم يمض وقت طويل على وصول هوس إليها حتى فاجأه أعداؤه بحبسه وتقديمه إلى المحاكمة . وبدا من الواضح أن محاكمته لن تمر بسلام بسبب ما أثارته هذه المحاكمة من عواطف متأججة ومشاعر عاصفة بين عامة الناس الذين استاءوا من المحاكمة ومن رجال الأكليروس الذين تولوا محاكمته . ولا غرو أن تثور ثائرة الناس على من حاكموه فقد كان هوس لا يمثل نفسه بل يمثل اتجاهاً نحو الإصلاح آمن به الكثيرون من شعب بوهيميا .

استعد هوس للدفاع عن نفسه بطائفة من المواعظ والبيانات التى تسعى إلى تبرئة ساحته وإلى تأكيد سلامة عقيدته . لم يقم هوس برحلته إلى كونستانس فى أكتوبر ١٤١٤ بمفرده بل رافقه ثلاثون رجلا بينهم حارسان عينهما الإمبراطور سيجسيموند لحراسته وثلاثة من صحابه . وسافر هوس فى جو يشيع فيه الإطمئنان ويدعو إلى الثقة . غير أن هذه الطمأنينة كانت كاذبة فقد كانت تخفى وراءها تحفزاً ورغبة فى الإنقضاض عليه والفتك به . أمضى هوس ورفاقه بضعة أسابيع فى أمان زائف يتحركون بكامل حريتهم . وفجأة شن الكاهن ميشيل دى كوسيس حملة مسعورة ضده موجهاً إليه طائفة من الاتهامات التى تشكك فى إيمانه بالأيوخارست . وأيضاً اتهمه دى كوسيس بالمطالبة بتجريد الكنيسة من ممتلكاتها ومنع القساوسة الفاسدين من إعداد التناول وإزالة كافة الفوارق بين رجال الدين بحيث يصبح أقل قسيس شأناً على قدم المساواة مع البابا نفسه . فالعبرة ليست برتبة الكاهن بل بمدى اختيار الله له ورضاه عنه . وهى أفكار تذكرنا بمذهب ويكليف . فضلا عن اتهامه ببذر بذور الشقاق بين الأساتذة التشيكيين والأساتذة الألمان .

تزعم الحركة المنادية بتقديم هوس إلى المحاكمة كاهن يدعى دايلى الذى وصل إلى كونستانس فى ١٧ نوفمبر ١٤١٤ . ولم تمض بضعة أيام على وصوله حتى نجح هذا الرجل فى استصدار قرار بإلقاء القبض على هوس فى ٢٨ نوفمبر ١٤١٤ . واقتيد هوس إلى مكان ما تحت زعم إعطائه فرصة

لمناقشة معتقداته مع البابا والكرادلة . ولم يكن هذا سوى تمويه فقد وجد هوس نفسه حبيسا فى منزل كاهن كونستانس . وبعد ذلك أعيد حبسه فى دير تابع للرهبان الدومنيكان حيث ظل هوس فيه من ٦ ديسمبر ١٤١٤ حتى ٢٤ مارس ١٤١٥ . والجدير بالذكر أن مجمع كونستانس انشغل فى شهر مارس ١٤١٥ عن محاكمة هوس بقضية هروب البابا جون الثالث عشر من كونستانس إلى النمسا . وأعطى هذا الهرب فرصته للسجين كى يستمتع بقدر أكبر من الحرية . ولكنه ظل مكبلا بالسلاسل ومربوطاً إلى الحائط ليلا فى بيت أسقف كونستانس . واستطاع المجمع أن يرغم البابا الهارب جون الثالث عشر إلى العودة إلى كونستانس حيث قام أعضاء المجمع بعزله من وظيفته بعد توجيه اثنتين وسبعين تهمة إليه منها بيع الوظائف الكهنوتية والقتل واللواط والزنا . وفى ٦ إبريل ١٤١٥ تمكن المجمع من بسط سيادته على هذا البابا الفاسد . وتنطوى محاكمة هوس على مفارقة كبرى فقد اتهمه المجمع بشق عصا الطاعة على السلطة الكنسية . وهو نفس ما فعله المجمع عندما أقدم على عزل البابا جون الثالث والعشرين من وظيفته .

على أية حال قام مجمع كونستانس بتعيين لجنة جديدة لمحاكمة هوس مكونة من ثلاثة أعضاء يرأسها دايلى أضيف إليهم أربعة أعضاء . ونظرت اللجنة فى الإثنتين وأربعين فقرة موضع المؤاخذة التى استمدها باليك من كتاب هوس « عن الأكليروس » . هذا بالإضافة إلى اتهامات أخرى وجهها الشهود إليه . واستطاع هوس أن يدحض الإثنتين والأربعين فقرة الأمر الذى جعل اللجنة تصرف النظر عنها . ولكن اللجنة عادت فقدمت قائمة اتهامات جديدة تتكون من ٣٩ فقرة ست وعشرون فقرة منها مستقاة من كتاب هوس عن الأكليروس وثلاث عشرة مستقاة من الكتابات التى سطرها فى منفاه .واستؤنف التحقيق مع هوس على أساس هذه الاتهامات الجديدة . غير أن صيحات الاحتجاج ضد محاكمة هوس أخذت تتصاعد فى بوهيميا فقد استاء شعب بوهيميا من طول فترة بقائه فى السجن . واجتمع بعض النبلاء فى كل من برنو وبراغ لإرسال خطابات احتجاج على استمرار حبس هوس . فضلا عن أن وفداً مختلطا من البولنديين والتشيكيين حضر فى اليوم نفسه للتعبير عن احتجاجهم على حبسه . وطالب الجميع بضرورة الإسراع فى سماع أقوال هوس ومعرفة رده على الاتهامات الموجهة ضده .وقد غدر المجمع بهوس قائلا إن إعطاءه الأمان جاءه متأخراً ومن ثم لا مناص من استمرار حبسه . وزاد هذا من تعالى صيحات الاستنكار ضد المجمع الأمر الذى حمله على التعجيل بمحاكمة هوس . ولهذا تم نقله من سجنه إلى دير الفرانسيسكان فى كونستانس .

بدأت محاكمة هوس فى مطعم هذا الدير . وتمت تلاوة بعض أجزاء من خطاب كان قد سطره كما تمت تلاوة التسع وثلاثين فقرة التى أعدت لإثبات جرمه . وخشى أصدقاء هوس عليه فالتجأوا إلى الإمبراطور سيجسيموند الذى أظهر فى بادىء الأمر شيئاً من التعاطف على المتهم . وطلب الإمبراطور من رجال الاكليروس الاستماع إلى دفاع المتهم عن نفسه . واستدعى هوس للإدلاء

بأقواله وتعذر سماع صوت المتهم وسط العداوة المتصاعدة ضده . وأخيراً تم تأجيل المحاكمة إلى يوم ٧ يونية ١٤١٥ . وجاء الإمبراطور بنفسه لحضور المحاكمة التى بدأت بتلاوة أقوال عدد من الشهود وهى أقوال اتسمت فى مجملها بالتناقض والتضارب . أنكر هوس الاتهامات الموجهة ضده . وحاول دايلى أن يستدرجه إلى إنكار الأيوخارست ولكنه لم يفلح فى هذا . وتقدم ستوكس ليقول له إن رأيه فى الأيوخارست قد تغير عن ذى قبل . ثم اتهم دايلى هوس مباشرة بأنه يبشر بتعاليم ويكليف الخاطئة . فأنكر هذا الإتهام قائلا إن ضميره لا يسمح له بالإيمان بأى منها . وذهب هوس إلى أن العشور لا تعدو أن تكون ضرباً من الإحسان وإنه لا يصح اعطاؤها للقساوسة الفاسدين . وبعد الانتهاء من هذا الشق اللاهوتى من المحاكمة اتهمته المحكمة ببذر بذور الشقاق بين التشيكيين والألمان وازكاء الشغب والاضطرابات . وذكر محاكموه أنه سبق له أن قال إنه يريد أن تكون روحه مع روح ويكليف . وقابل أعضاء المحكمة إجاباته بالسخرية والاستهزاء . ونصحه كل من الإمبراطور سيجسيموند ودايلى أن يطيع المجمع ويذعن لمشيئته .

وفى اليوم التالى الموافق ٨ يونية ١٤١٥ ووجه هوس بالتسع وثلاثين فقرة موضع المؤاخذه المستقاة من كتاباته وجميعها تتناول الكنيسة وسلطة الاكليروس وشرعية رئاسة البابا للكنيسة . والرأى عنده أن هذه الشرعية تستمد وجودها من اتصاف البابا بالفضائل وحميد السجايا . لقد اتهمت المحكمة الدينية هوس بأنه يسعى إلى تقويض سلطة رؤسائه ويضرب بها عرض الحائط ، ونسى المجمع أنه بعزل البابا جون الثالث والعشرين من منصبه يفعل ما يلوم هوس عليه . وهاج الكاردينالات عليه وهم يناقشون قوله إنه لا ينبغى تسليم الهراطقة إلى الجهاز المدنى كى يقتص منهم وينزل بهم العقاب . وأراد المجمع أن يشجعه على تغيير موقفه فوعده بالعفو عنه ومعاملته معاملة كريمة إذا رجع إلى جادة الطريق ونبذ أفكاره الخاطئة . ولكن هوس بعد أن أبدى استعداده للرضوخ طلب من المجمع أن يسمع دفاعه وشرحه لآرائه للمرة الأخيرة . غير أن المحكمة رفضت الاستجابة إلى طلبه . وأصر الكرادلة الغاضبون أن يتراجع هوس عن آرائه ويقوم بنبذها وبالتبشير بعكسها . وهنا أكد هوس براءته من تهمة الهرطقة التى ألصقت به ولا غرو فقد نذر كل حياته لمحاربة الهرطقة . وعندما أيقن هوس أنه هالك لا محالة وأن الكرادلة ينوون الفتك به كتب يقول : « إن الله وحده شاهد على أنى لم أقم بتعليم الأخطاء التى يتهمنى بها شهود الزور . فهدفى الجوهرى الذى حرصت عليه دائماً فى كل عظاتى وكل أفعالى وكتاباتى هو استئصال الخطيئة . » وقد أمضى هوس آخر أسابيع فى عمره فى الفترة بين ٩ يونية ويوم إحراقه فى ٦ يوليه ١٤١٥ فى تفتيش ضميره والاستماع إلى صوته فضلا عن كتابة الرسائل المشحونة بالعاطفة إلى أصدقائه . وكان هذا الفيض الهائل من خطاباته إلى الأصدقاء يدور فيما يدور حول نقطة واحدة وهى أن ولاء الإنسان لضميره يفوق ولاءه لأى شىء آخر حتى ولو كان سلطة الكنيسة ، الأمر الذى مهد فيما بعد إلى ظهور المذهب البروتستانتى على يد مارتن لوثر . وهو لم يعدل عن آرائه لأنه رأى فى ذلك العدول كذباً على الله سبحانه وتعالى . ففى اليوم الذى

مات فيه قال : «إننى لا أجرؤ على الكذب على الله .» والواقع أن هوس كان نهبا مقسماً بين ولائه لضميره وولائه للسلطة الكنسية فآثر الولاء الأول على ولائه الثانى . وصدر قرار المجمع بأن هوس مهرطق يستأهل الحرق . وتخلى عنه الإمبراطور سيجسيموند فوافق على قرار المجمع الذى سلمه يوم ١٨ يونية ١٤١٥ بطريقة رسمية قائمة الاتهامات التى أدين بمقتضاها وتشمل ثلاثين فقرة مأخوذه من كتاباته و ٢٩ فقرة من شهادات الشهود . لقد استطاع هوس أن يثبت كذب وافتراء الشهود عليه ولكنه أبى أن يتراجع عما ورد فى كتاباته . وقبل وفاته بيوم أى بتاريخ ٥ يولية ١٤١٥ بذل المجمع محاولة أخيرة لحمله على العدول عن موقفه ولكن هذا زاده تشبثاً به . وأرسل الإمبراطور سيجسيموند إليه بعضاً من أخلص أصدقائه لحمله على تغيير موقفه . ولكن صديقه الحميم جون تشلام شد من أزره وشجعه على قول كلمة الحق ولو كانت على رقبته . وفى اليوم التالى الموافق ٦ يولية ١٤١٥ اقتيد المتهم إلى كاتدرائية كونستانس حيث تليت الاتهامات الموجهة إليه بشكل علنى ولكنه استمر فى تأكيد براءته . فنهره الكاردينال زادابلا كى يلتزم الصمت . وفى يأسه الرهيب أجهش بالبكاء وأرسلوه فى نعش إلى المحرقة وهو يصلى قانون الإيمان المقدس « بالحقيقة نؤمن بإله واحد . . . » . وبحرقه تحول هوس إلى بطل بوهيميا القومى .

H.B
23/06/2009